

سماء الذاكرة

مَا عَرَفْتُ ومَنْ عَرَفْتُ

عبدالوهاب الطريري أبا الخيل

الطبعة الثانية


سماء الذاكرة
مَا عَرَفتُ ومَنْ عَرَفتُ

الطبعة الثانية

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣ م

رقم الإيداع في مكتبة الكويت الوطنية: 2022-1337

ردمك: 9-81-780-9921-978



الكويت- الجهراء- القيصرية القديمة- كابيتول مول- السرداب محل ٢٤

الموقع الإلكتروني: www .daradahriah .com

البريد الإلكتروني: daradahriah@gmail .com

هاتف: 99627333 +965 - 51155398 +965



عبد الوهاب الطريري أبا الخيل


بسم الله الرحمن الرحيم

شكرٌ وتقديرٌ

أشكر إخوتي الأفاضل:

د. عبد الله بن ناصر البدراني.

د. إبراهيم بن عبد العزيز التميمي.

د. خالد بن فهد القحطاني.

د. عبد الرحمن السعد.

الأستاذ خليل بن صالح.

الشيخ عبد العزيز التميمي.

الشيخ محمد زبير جامي.

والذين تداولوا مسودة هذا الكتاب حين كان نشواً لم يتخلَّق، فأفسحوا له من وقتهم واهتمامهم، وأمدُّوني بالتسديد والتقييم والإفادة، حتى تكامل بناؤه، وعبر من تحت أيديهم خَلقاً آخر، وما كان له أن يستتم ويتم لولا تسديدهم وتحفيزهم، وصدق محبتهم ونصحهم.

وكان رأيهم هو الذي قوّى عزمي وحسم ترددي في توقيت نشره، وكان بالنسبة لي فسحاً للكتاب وجواز عبور.

فلهم من الدعاء أخلصه وأتمه، ومن الشكر أبلغه وأوفاه، والله يتولَّى عني جزاءهم وحُسْن كفائهم.

الإهداء

إلى زوجتي **أم ناصر هيا بنت علي بن فواز آل موسى التميمية**، فهي التي شربت معي صفو الحياة وكدرها، وذاقت معي حلوها ومرها، وحملت عني من أعباء الحياة ما ينوء بالعصبة أولي القوة، وصبرت في مواقف الصبر، وشكرت في مواقف الشكر.

وهي الشريكة في كل إنجاز، وهي المرأة التي كانت معي وليست ورائي.

وهي من نعم الله العظيمة عليَّ.

وقد تولت الرعاية والعناية بأصعب الأمور عليَّ وهي تربية الأبناء، والاهتمام بهم، فكانوا أعظم مشاريع حياتها، وأروع إنجازاتها.

مقدمة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تحية من عند الله مباركة طيبة، وبعد..

١ - فإن الصدق الذي أتحراه في هذه المذكرات ألا أقول إلا حقاً، وألا أدعي كذباً، وليس أن أفشي سراً أو أهتك ستراً.

ولن أسلك لإثبات الصدق أن أعترف بما أعرفه عن نفسي من ذنوب وعيوب، فأكشفُ سترَ الله الجميل، ولن أجمع إلى فعل الخطأ خطيئة التجاهر به، فليس ما أكتبه «اعترافات جان جاك روسو»، ولا «الخبز الحافي»، وليس برهان الصِّدق عندي إبداءَ القبائح وإشهارَ الفضائح.

وذنوبي لن أعترف بها إلا لربي الذي سترها وأسأله أن يغفرها، فالله يعلم أني ما ألممت في حياتي بمعصية إلا ترددت قبل الإلمام بها، ثم ندمت عليها بعد وقوعها[١].

٢- هذه المذكرات بين يديك مزيج من الرواية والسيرة، والخيال والواقع.

بناؤها الحقيقة الصادقة، وتزاويقها من الإنتاج المحلي لضرورة التشويق والتسويق.

---

(١) «أربعون» للمنفلوطي.

٣- مَن تحدثت عنهم لم يكونوا ملائكة يمشون في الأرض مطمئنين، ولكن كانوا بشراً من البشر لهم كمالاتهم وفيهم نقائصهم، ولكني ذكرت خير مَن عرفتهم بخير ما عرفت عنهم.

٤- من المدهش أن في حياة كل منا غنىً بالأحداث التي تستحق أن تروى، والشخصيات الجديرة بأن توصف[١]، ولذا خصصت هذا الجزء لما عرفت من أحوال وما عشته من أحداث، وسيكون الجزء الثاني لمَن عرفت من رجالات العلم والفكر، ومَن لقيت من ذوي المروءة والفضل، ممن كان لهم في حياتي إفادة استفدتها، أو أثر استصحبته، يسر اللهُ إتمامه.

٥- ولأن ثقوب الذاكرة بدأت تتسع فإن احتمال الخطأ في اسمٍ أو تاريخٍ أمرٌ متوقع، ومع ذلك لم أجتهد في التثبت والتحقيق، فهب أني أخطأت في تاريخ حادث فذكرته بعد حدوثه بسنتين وثلاثة أشهر، أو أخطأت في اسم شخص فوضعت بدلا منه اسم أخته لولوة فكان ماذا؟!

فأنا لا أكتب سيرة عمر بن عبد العزيز ولا تاريخ طارق بن زياد، وإنما هي سيرة عابرٍ في طريق الحياة، منغمس في غمار الأحياء، لم أصنع حدثاً، ولم أكتب تاريخاً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عبد الوهاب أبا الخيل

باشاك شهير: ٢٢/ ٠٨/ ٢٠٢١م

Email: altriri@gmail.com

(١) «رحيق العمر» (٩).

الحياة في أعمار الآخرين

كانت قراءة المذكرات والسير من وجبات المعرفة المبكرة، وكان لها لذَّتها وإفادتها.

وكانت أول صلة لي بالمذكرات قراءة ملخص مصور للجزء الأول من «الأيام» لطه حسين وأنا في المرحلة المتوسطة، ثم لفت نظري الكتاب في مكتبة الرياض الحديثة وشدني أن على غلافه: (الطبعة الخمسون).

ثم قرأت «الأيام» بأجزائها، و«حياتي» لأحمد أمين، و«على الجسر» لبنت الشاطئ، و«غربة الراعي» لإحسان عباس، و«مذكرات» د. إبراهيم بيومي مدكور، وغيرها.

ومما تصنعه مذكرات هؤلاء الأعلام إذكاءُ وقدةِ الحماس في النفس، وبيانُ الضريبة التي يدفعها من سلك طريق التميز، ففي حياة من ذكرت صورٌ من الصبر والإصرار لا بد أن تحفز من لديه الاستعداد أن يثب إلى الأمام.

أعجبت كثيراً ببراعة طه حسين في تحويل حياة مطفأة الأنوار إلى قصة رائعة شائقة، تقرأها فلا تجد ذكراً لألوان ولا أحجام ولا وصفاً لمشاهد، ومع ذلك ترى من صور الأحاسيس والمشاعر وحكاية الأحداث ما يشدك ويأخذ بكل لبك.

أعجبت في حياة أحمد أمين وسيرة بنت الشاطئ بذاك الجد والصبر والإصرار.

أخذت بسيرة نجيب الكيلاني «لمحات من حياتي»، وأرى أنها أروع من رائعة، وأنها لم تأخذ مكانها اللائق بها، فمع أني لم أَهْوَ رواياته ولم ألتذ بها، ولم أكمل منها إلا رواية واحدة قصيرة على شيء من التكلف، لكني شُددت إلى سيرة حياته حتى أنهيت أجزاءها الأربعة سريعاً، وأنا أقول ليتها كانت أربعين.

ورأيت فيها ملحظاً جميلاً وهو أنه بدأها وختمها لم يذكر أحداً بسوء، ولم يشمت أو يتشفى بأحد، وأكبرت ثناءه على نجيب محفوظ وهو منافسه الذي تفوق عليه.

في سيرة الشيخ عبد الحليم محمود يشدك هذا التواضع حين يصف نفسه بأنه وسط في كل شيء حتى في ذكائه.

وقرأت شيئاً من «أنا» للعقاد ولم أكملها ولا أحسبني قادراً على ذلك لو أردت.

وفي مذكرات حسن البنا مشهد عاجب حين تحدث عن موضوع الإنشاء الذي كتبه وهو طالب يذكر فيها خطته وأمله لمستقبله، وختمها بهذه العبارة: هذا عهد بيني وبين ربي، أسجله على نفسي، في وحدةٍ لا يُؤثِّر فيها إلا الضمير، وليل لا يطلع عليه إلا اللطيف الخبير، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، ثم تقرأ بقية المذكرات إلى آخر صفحة منها فتجدها تطبيقاً لما خططه، وتحقيقاً لما أمَّله، وكنت أذكرها مثالاً لوضوح الرؤية، وتحديد الهدف وتحقيقه.

وفي سيرة إحسان عباس نلحظ أن كاتبها مع أنه ناقد أدبي وله كتاب في فن السيرة، وأن حياته كانت مميزة في أحداثها، ومثيرة في وقائعها، إلا أن سيرته لم تكن على مستوى مسيرته، وأحسبه كتبها في حال ضجر نفسي، فكان إيقاعها فاتراً، وتدفقها بطيئاً، ولم يكن فيها تلك الرشاقة والجاذبية اللائقة به وبها.

وأما «أصداء السيرة الذاتية» لنجيب محفوظ والذي فُتِنتُ برواياته، فقد قرأتها وصُدِمت بها، وشَعَرت أني أقرأ كلاماً غامِضاً مثل رُقْيةِ العقرب، وزاد في حيرتي

ضجيج الحفاوة الصاخب بها، حتى وجدت وصف الأستاذ وديع فلسطين لها: أنها تهويمات مريض لم يفق بعد من غيبوبته، وكم كان صادقاً في وصفه، شجاعاً في رأيه.

وقرأت سيراً أخرى بقي من بعضها فوائد، ومن بعضها لذاذة ومتعة، ومن بعضها مرارة وغصة.

وكان آخرها سيرة شيخنا أ.د. محمد بن أحمد الصالح: «من المجمعة إلى المجمع»، وهي وثيقة تاريخية لرحلة علمية، لا تكشف سيرة الشيخ ودأبه في مسيرته فقط، ولكن تؤرخ للحال التعليمية لذلك الجيل بأكمله.

أما سير السياسيين والعسكريين فلم تحدثني نفسي مع أنها أمارة بالسوء أن أقرأ شيئاً منها، ولا أحسبني فاعلا.

ومما يشدني في السير الذاتية لأعلام مصر أنهم يتحدثون عن أعلام أعرفهم، وأماكن دخلتها، ودروب سرت فيها.

فأجول معهم حيث جالوا، وألقى من لقوا.

أما السير الذاتية لأعلام العراق والشام فإني أسير معهم ثم أضل الطريق، ويذكرون أشخاصاً أقرأ أسماءهم لأول مرة، فلا أعرف عنهم ما يعرفون، فأتلَفتُ في حيرةٍ كالذي دخل إلى وليمةٍ غير التي دعي إليها.

وعندما أقرأ سيرة كاتب فتستهويني حياته أتفاعل معها حتى كأني عشتها، وأتأثر بانفعالاته كأني أُحسها، فأفرح مع أفراحه، وأحزن مع أحزانه، وأستجمع ضحكاً لطرائفه ونكاته، وقد وجدت هذا المذاق في مثل «حياتي» لأحمد أمين، و«ذكريات» الطنطاوي، و«على الجسر» لبنت الشاطئ، وحياة نجيب الكيلاني.

وكنت أزاوج قراءة المذكرات بلقاء المعمرين، واستنطاق ذكرياتهم، وحكاية تجاربهم.

وكان سؤالي المتكرر لهم قديماً: ما هو الشيء الذي ندمت أنك لم تفعله في شبابك؟

وعلمت أن الحياة ليست بطول آمادها، ولكن بفاعلية الإنسان فيها، وحصيلة إنجازه، وقد زرت معمراً جاوز المئة على عافية ويقظة ذهن ولكني اكتشفت أن حياته سنة واحدة مُكرَّرةً مئة مرة، فقد كانت حياة رتيبة مكرورة في بلدة صغيرة، يمكن كتابة كل ما جرى فيها في صفحة ونصف.

في حين تلقى أناساً ما زالوا في الأشد لم يبلغوا الشيخوخة ولم يدركوا أرذل العمر ولكن حياتهم ثرية بمغامراتها وتجاربها وإخفاقاتها ونجاحاتها وحصيلة إنجازاتها.

قال ابن عطاء الله عن أعمار هؤلاء: «رُبَّ عمر اتسعت آماده وقلَّت أمداده، ورُبَّ عمر قليلةٌ آماده كثيرةٌ أمدادُه، فمن بورك له في عمره أدرك في يسير من الزمن من منن الله ما لا يدخل تحت دوائر العبارة، ولا تلحقه الإشارة»[١].

أما الذي لم يدر بخلدي يوماً فهو أن أكتب سيرة لحياتي فما زال بي أخواي أبو عمار وشاكر باملهس حتى سولا لي ذلك، ودلاني بغرور فطوعت لي نفسي، ولا أدري أصبت أم أخطأت، ولكني أكتبها اليوم لا على أنها حياتي وسيرتي فليس ثَمَّ شيء هناك، ولكني أكتب سيرة أحكي فيها ما رأيت، وأشهد بما شاهدت، وأروي ما لم يُرو عن فضلاء وعظماء عرفتهم، عائذاً بالله من زلل القول، وغلبة الهوى، ونزغات الشيطان.

(١) «الحكم العطائية» (رقم: ٢٥٩).

منعطف التاريخ

عاش جدي النصف الأول من عمره وكذلك الأجيال قبله ذات الحياة التي كان يعيشها امرؤ القيس، وهرم بن سنان، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وغيرهم من العرب في الجاهلية وصدر الإسلام من حيث نمط الحياة ووسائلها، وطريقة السفر، ووسائل التنقل، والسقي والفلاحة، وأنواع الطعام وغير ذلك، لأن وسط الجزيرة مما توقف فيه التاريخ فلم يتطور ولم يتغير، فكانت الحال الحياتية كما كانت، لم تتغير في وسائلها وأدواتها وشظفها ولأوائها، ويصدق عليها وصف شاعرها الأول:

دعانِـــيَ مـــن نجد فإن ســـنينَه لعِبـــنَ بنا شِـــيباً وشـــيبننا مُرْدا

وقد أدركت بقايا ذلك في رمقه الأخير، فرأيت السقي واستخراج الماء من الآبار بالطريقة التاريخية ذاتها، ورأيت الأدوات ذاتها وبأسمائها: الغَربُ والصحفةُ، والقِرْبَة والرَّحَى، والطعام ذاته، الأَقِط والقَدِيد والثريد وهكذا.

وكان كل جيلٍ نسخةً مكررة للجيل الذي قبله في كل وسائل الحياة وطريقة العيش، فلا فرق بين مَن يعيش في القرن العاشر أو الخامس عشر أو الثامن عشر، فأدوات الحياة ونمطها ثابت، يتكرر ولا يتغير[1].

(١) «من البادية إلى عالم النفط» علي النعيمي (ص ١٤).

وهذا الركود التاريخي تميزت به منطقة وسط الجزيرة، نجدٌ وما حولها لعمقها الجغرافي، وبُعدها عن مراكز التطور الحضاري، وصعوبة التواصل مع الحواضر المتطورة.

ثم جاء جيل جدي وأبي وتبعه جيلي ليدرك التحول السريع جدّاً في نمط الحياة ووسائلها، لقد تحرك التاريخ الذي كان هامداً، وتغير الوضع الذي كان راكداً، وصار إيقاع الحياة أكثر تغيُّراً وأشدَّ تسارعا.

وأما الحجاز والأحساء فقد تغيرت أحوالها بعد أقل من مئة سنة من بعثة النبي ﷺ؛ لانفتاحها السريع على بلاد أخرى، وتواصلها مع حضارات متنوعة.

ولذا كان جدي يتحدث عن حياته الأولى وحياة الناس وقتها فلا أجد فيها فرقاً عن نمط الحياة في التاريخ الغابر، وهذا ما ساعدني على تصور حياة العرب في الجاهلية، وعلى تمثل وقائع السيرة النبوية وكأنها رأي عين.

وفي «سوانح الذكريات» للشيخ حمد الجاسر وصف معايشةٍ تفصيلي لهذه الحياة.

أما حياة أبي فلم تدرك النمط البدائي الأول ولكن كانت على تخومه، فأدرك البدايات من هذا التغير والذي كان يتتابع ببطء، فأدرك بداية التنقل بالسيارات واستخدام الكهرباء، والدراسة النظامية.

لقد كان التطور في حياة جدي مفاجئاً وصادماً وسريعاً، وكأنه ستار رفع عن حياة جديدة، وأما في حياة أبي فكان متدرجاً وبطيئاً ووصف هذه المرحلة شيخنا أبو عبد الرحمن بن عقيل في «تباريح التباريح».

أما في جيلنا فكان التطور متتابعاً ومتسارعاً ولكنه قليل المفاجآت، وأضخم حدث فاجأ جيلي هو الصعود إلى سطح القمر، ورؤية رواد الفضاء يمشون عليه، وكانت صحبتي لهذه الأجيال صحبة للتاريخ البعيد بمراحله وأحواله وتحولاته.

أما التغير في حياة الجيل الذي بعدنا فجاء بسرعة الضوء، ولم نعد نستطيع استيعابه ولا اللحاق به، فحصلت الثورة المعلوماتية، وتطورت وسائل المعرفة التقنية، وصارت الأجهزة الإلكترونية هي المعاهد، والجامعات، والمكاتب، والمكتبات، وصارت أجهزة التواصل خارقة للزمان والمكان.

وفي عام (٢٠٠٠م) أعادت مجلة الهلال طباعة العدد الذي أصدرته عام (١٩٥٠م) وطرحت فيه سؤالا على كبار الكتاب عن المتوقع عام (٢٠٠٠م)، وكل الذين كتبوا توقعاتهم ماتوا قبل أن يدركوه، والعجيب أنهم كانوا يتوقعون ثورة في عالم المواصلات بينما الذي حصل هو ثورة في عالم الاتصالات.

والبارع فيها اليوم هم الفتيان والأطفال فهي بحق إمارة الصبيان، أما الأشياخ الذين ما زالوا يحملون مذكراتهم ودفاترهم وأقلامهم فهم بقايا الجيل الورقي، فإذا كان هناك جيل حجري فنحن جيل ورقي، وجاء بعدنا جيل إلكتروني يتحرك العالم بين أصابعه.



استخراج الماء من الآبار بالسانية، وقد أدركته في رمقه الأخير

حكايات جدي

أدركت من عمر جدي نحوا من ثلاثين سنة كانت هي الثلث الأخير من حياته، وأدركته فيها مستتم العافية، موفور النشاط، قائما بشأن نفسه، وكان مديد القامة جسيما لم يحمل عصا ولم يستعمل دواء إلى حين وفاته.

وكان الشيخ بكر أبو زيد يقول لي: أنت بجدك أشبه منك بأبيك.

وكان لي به خصوصية في العلاقة من بين أحفاده، فعرفت من أحواله حال ذلك الجيل وطبيعة تلك الحياة.

وُلِد جدي عبد الله بن أحمد الطريري في الزلفي إلا أن صباه كان في الكويت حيث كان والده يسكن هناك فترة من عمره، وعاد والده وتركه عند عمته التي كانت متزوجة من أسرة الغيث.

وأفادته النشأة في الكويت تعليمياً، فقد درس فيما أحسب في المدرسة المباركية، وكان يحسن القراءة والكتابة والحساب، وهو ما يعادل درجة الدكتوراه في هذا الزمن.

وقد اقتسم هو وشقيقه عمي دخيل الطريري مسؤولية رعاية الأسرة، فكان عمي يقوم على شؤون الأسرة في الزلفي، وجدي يطلب لها الرزق في الآفاق

وهذه عادة أهل الزلفي، فهم أهل أسفار واغتراب، يقول شاعرهم الشعبي:

حنا كمـــا طير يخفِّـــق بجنحان نرجـــي حراوي رزقنـــا كل ديرة

وإذا رزقنـــا الله مـــا حنا بخلان من رزقنـــا ترزق إيديـــن كثيرة

فعمل جدي غواصاً في البحر لاستخراج اللؤلؤ، ومساعد ربان على المراكب البحرية البدائية في ذلك الوقت، وانتقل عن طريق البحر إلى إيران والهند، وسيلان، وسقطرى، والمكلا، وساحل عمان، والعراق، وكان التنقل بين هذه الدول من دون جوازات؛ لأنها كانت كلُّها تحت الانتداب البريطاني، فكأنها دولة واحدة، ورأى سعة نفوذ بريطانيا ولذا كان يسميها إلى أن مات: بريطانيا العظمى.

ومن لطيف ما حدثني عن البحارةِ في الكويت أنهم كانوا يعجبون من سفرهم في البر ويقولون لهم: كيف تعرفون الطرق في الصحراء فتقعون على نقب في الفلاة، -ويعنون الآبار التي هي موارد الماء في الطريق ودروبها- قال: فكنا نعجب من عجبهم ونقول: نحن نسير على أرض فيها معالمها، وجبالها، وآكامها، لكن أنتم كيف تعرفون الطريق في البحر وتحتكم ماء وفوقكم سماء؟ قال: فلما ركبنا البحر تعلمنا السير فيه كما كنا نسير في البر.

وكان يحكي عن عالم أعماق البحار وعجائبه وما خلق الله فيه حديثاً مذهلاً كأنما نزل بنا معه إلى هناك، قبل أن نرى ذلك في الأفلام المصورة.

وسألته عن سمك القرش -ويسمونه: الجرجور- هل يواجهكم؟ فقال: هو في البحر كالذئب في البر، لا نجده في كل مكان ولا في كل وقت.

وكان يحدثني عنه فيقول: فمه في رقبته وليس في رأسه، ولذا لا يهاجم من الأمام ولكن ينظر إلى من يريد مهاجمته حتى يصعد ثم يتبعه فيلتقمه من أسفله.

قلت: فما كنتم تصنعون إذا رأيتموه؟ قال: من رآه فإنه يثير الطين حوله حتى يتكدر الماء ويحجب الرؤية ثم يصعد سريعاً، ثم قد ينجو كلُّه، وقد ينجو بعضُه، والله الحافظ.

وفي إحدى رحلاته البحرية عرض عليه ربان السفينة البريطاني أن يصحبهم إلى لندن للعمل معهم فتردد في ذلك ولم يعزم، وكان ذلك من خيرة الله له ولنا.

وعلق بذهني من أحداث حياته قصصٌ وحكاياتٌ عجيبة، ومن قصصه التي رواها لي، قال: كنا في الهند وكان العربي إذا لقي العربي كأنه قد التقى بأخيه من أمه وأبيه، وبينما نحن نسير في أحد شوارع مومباي مررنا بمقهى فيه أحد الإخوة اليمنيين فلما سمع كلامنا قام إلينا ورحب بنا واستضافنا في المقهى، وتحدثنا جميعاً ثم تفرقنا، فلما كان الغد مررنا من الطريق ذاته، فإذا صاحبنا اليمني في شجار مع صاحب المقهى وصل إلى حد الاشتباك بالأيدي، فلما رأينا صاحبنا قد دخل المعركة دخلنا معه على طريقة بني يعرب:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا

وكان صاحب المطعم هندوسيّاً فانضم معه عمال المطعم والمارة من الهندوس، ودخل معنا الهنود المسلمون وكانت العلاقة متأزمة بين الهندوس والمسلمين قبل انفصال باكستان عن الهند، وتحولت المشاجرة بين فردين إلى معركة بين جيشين، وصارت معركة دينية بعد أن كانت شجاراً مادياً، وما زالت الجموع تكثر حتى أغلق الشارع واستمرت المعركة اليدوية واتسعت، حتى أغلقت الشوارع وحاصرت الشرطة المكان، قال: ثم فوجئنا بالسماء تمطر علينا ماء حاراً أحرقنا، وسلخ جلودنا، فتفرقنا لا يلوي أحد منا على شيء، وسقطت أحذيتنا لشدة تدافعنا.

وإلى أن مات وهو يروي هذه الحكاية ولا يدري ما كان سبب المعركة التي اشتركوا فيها، ولا أين هي أحذيتهم التي فروا عنها.

ومن حكاياته أنه ذهب في رحلة إلى سيلان للغوص هناك، حيث الغوص هناك في موسم الشتاء، وفي الخليج في موسم الصيف، فلما وصلوا إلى سيلان ونزلوا من السفينة واستعدوا لبدء العمل فوجئوا أن الغوص قد مُنع في سريلانكا التي اعتبرت المحار ثروة وطنية، ومنعت الأجانب من استخراجه.

فرجعوا إلى ربان السفينة ليرجع بهم، وخاصموه كيف لم يخبرهم أن هذه الإجراءات قد طبقت، فقال: إنما كان اتفاقنا أن أوصلكم ميناء سيلان وهذا ميناء سيلان أمامكم، ولا علاقة لي بعملكم، قالوا: إذن أعدنا إلى الكويت، فرفض ذلك وتركهم يلقون مصيرهم، وهم عمال لا شيء في أيديهم، وكل ما استطاعوه هو الذهاب إلى الهند لقربها منهم، وهناك مرت بهم مسغبة وجوع وحاجة حتى كانوا يجلسون أمام البنايات الكبيرة ينتظرون ما يُلقى منها لعلهم يجدون فيه بقايا طعام يسد رمقهم، وما زالوا على تلك الحال البائسة حتى تبرع أحد تجار الكويت وهو الشيخ هلال المطيري رحمه الله[١]، فأرسل مركباً تحمل جميع أهل الكويت ونجد المنقطعين في الهند.

فرحم الله هذا المحسن الكريم فلو لم يتخذ هذا الموقف النبيل لربما كنت اليوم أسير في أحد شوارع الهند واسمي: عبد الوهاب غلام أكبر خان.

وكان هذا آخر عهده بالهند والبحر، فقد غمر الأسواق بعدها اللؤلؤ الياباني، وتعطلت مهنة الغوص، وتحسنت الأوضاع في المملكة بعض الشيء فعاد إليها، وعمل في النقل البري على قوافل الإبل وهو ما يسمى بالجِمَالة، وكان يحدثني عن شدائد تلك الحال وما كانوا يلاقونه في أسفارهم من الإرهاق الذي لا يطاق، فلا تسأل عن رحلة ينطلقون فيها عصراً حين تنكسر حدة حرارة الشمس، بعد عناء في جمع إبلهم، ورفع أحمالهم ثم السير على أقدامهم طوال الليل يسوقون إبلهم إلى أن ترتفع

(١) هو السيد الثري السري، والمحسن الكريم، هلال بن فجحان المطيري، وُلد في المهد غرب السعودية وهاجر إلى الكويت، واشتغل بتجارة اللؤلؤ وصار فيها من الوجهاء الأثرياء الكرماء، توفي رحمه الله عام (١٩٣٧م).

الشمس فينزلون وينزلون أحمالهم وينصبون خيمة تظلهم ويطلقون الإبل ترعى مع الراعي، ويناموم نوماً هو خفقان بين النوم واليقظة، ثم يستيقظون فيبدأون في الإعداد للمسير من طبخ الطعام وشد الأحمال، وانتظار عودة الإبل، وأصعب اللحظات عودة الإبل وقد فُقِدَ بعضُها، وتبدأ رحلة البحث عما فُقِد يقوم بها من هي له من الرفقة، ثم يسيرون وقد حملوا قِدر الطعام بين رجلين يمسكان بمقابض القدر ويسيران به، والبقية يتبعونهم ويتناولون منه، ويأكلون وهم يمشون لأن ظرف السفر لا يحتمل تناول الطعام جلوساً.

ثم تبدأ المعاناة الأشد إذا وردوا آبار الطريق وهي موارد المياه التي يرتوون منها، ويزدحم أصحاب القوافل عليها، ويحتاجون إلى من ينزل البئر فيغترف الماء في الدلو الذي يستقون به، وربما بقي هذا المغترف في قاع البئر نهاراً كاملاً حتى يغترف ما يروي إبلهم، وربما انقطعت بعض الإبل في الطريق لمرض أو عجز فتكون المعاناة في تفريق حملها ونحرها وحمل لحمها.

أما الأكل فلا تسأل عن بشاعته ورداءته، حدثني فقال: كنا نأخذ من البلد قبل سفرنا سبع رؤوس تكون إداما لنا في الطريق، فسألته ألا تتعفن وتتغير رائحتها؟ فضحك وقال: لا تتغير كثيراً، وكأنه يقول: وهل نحن في حال نفكر فيها برائحة الطعام، إنما كنا نفكر بالحصول عليه فقط، وكان عمي وهو رفيقه في سفره يقول: إذا تذكرت ما كنا نأكله تعجبت كيف بقينا أحياء إلى الآن.

وقد كانت الحاجة تضطرهم لليقظة، وتعلم ما يحتاجونه، ولذا كان لديهم حذق في معرفة الأماكن، وتحديد الاتجاهات، ومواقع النجوم، وعلامات الطريق حتى كانوا يسيرون في هذه الفلوات وكأنهم يتجولون داخل بيوتهم.

حدثني عن سفره إلى أبها أيام حرب اليمن لنقل المؤونة للجيش هناك، وكانت أول سفرة برية له تجاه الجنوب، فقلت له: كيف عرفتم طريقا لم يسبق أن سلكتموه؟

قال: في ذهابنا كنا نسأل البادية في الطريق، وفي الرجوع رجعنا من حيث أتينا فقد عرفنا الطريق.

فماذا سيقول لي لو علم أني أتردد في طرقات الرياض منذ خمسين سنة، وما زالت تشتبه عليَّ الجهات الأصلية، والطرق الرئيسة، ولولا أني أستنجد بالسيد قوقل ماب، لكان لي في كل طريق قصة ضياع، وفي كل ناحية متاهةٌ لا أدري كيف أخرج منها.

ولقد أثَّرت أسفاره وتقلب أحواله في سعة ثقافته ووعيه، وثراء معارفه، ولا زلت أعجب من بعض ما يحدثني عنه من أحوال الهند ونمط العيش فيها ذلك الوقت، مثل ركوبه القطار ودخوله السينما وأكل أنواع الفواكه التي يجدونها هناك ولا تُعرف في بلادهم بأسمائها فضلاً عن مذاقها كالموز والبرتقال والمنجا، ومقارنة هذه الحال بحال نجد في تلك الفترة وما كانت عليه من بدائية الحياة ومحدوديتها.

وأفدت من رحلة العمر معه معرفة تاريخ لم أشهده، وحياة لم أعرفها، وكان رحمه الله مدونة أخبار وأحوال يرويها بعفوية وعذوبة بلا تزيد ولا ادعاء، وكنت إذا لقيت أقرانه تحدثوا بما يصدق حديثه ويشهد له.

وعرفت من حديثه كيف أن السفر كان قطعة من العذاب.

وله في أسفاره أحوال وقصص يُطوِّل في شرحها وتفصيلها، وأفادني سماعها تصور السفر في أحداث السيرة، فقد كان على الطريقة ذاتها تماماً، وبالأدوات والوسائل ذاتها.

وكان اجتماعياً ودوداً، كنت وإياه وخالي ناصر في مكة وقد خرجنا صباحا إلى مزدلفة وجلسنا تحت أحد الجسور نُعد القهوة الصباحية، وكان في ناحية منا صاحب سيارة جاء يطلب الظل الذي نطلب وقد جلس وحده، فلما رآه أخذ بعض ما عندنا

وذهب إليه وجلس عنده ليؤانسه، وشغلت مع خالي بالحديث ثم التفت إليهما فإذا هما يتحدثان بتفاعل وحميمية وكأنهما صديقان قديمان جاءا جميعاً وسيرجعان جميعاً.

وله ود وتلطف مع الأطفال والصغار، ولا أزال أذكر أنه ذهب معي إلى أسواق العويس في الرياض، فلما صلينا في مسجد السوق اندفع إليه حشد من الشباب يسلمون عليه ويقبلون رأسه ويضحكون معه، ودفعوني عنه وهم ينادونه: أبو علي، أبو علي، وهو يضحك معهم بحبور، وعلمت أن هؤلاء الشباب هم الذين كانوا أطفالاً في حارة غميته حيث كان يسكن هناك، فصحب طفولتهم واستصحب حبهم.

وقد عُمِّر حتى قارب المئة وتوفي رحمه الله عام (١٤١٣هـ).

وكنت أسأله عن أصل أسرتنا وتسميتنا فكان يقول: نحن خِيَلَةٌ، يعني من أسرة أبا الخيل، من المصاليخ من ضنا مسلم من قبيلة عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار[١]، فحاولت منه معرفة التفصيل، ومتى وكيف أتينا من القصيم إلى الزلفي، فلم يُفدني بكثير علم، وكانت هذه التفصيلات غير ذات أهمية عنده، حتى التقيت بالعم علي بن صالح أبا الخيل -وهو من أقارب الأسرة المقيمين في القصيم- فبين لنا نسب الأسرة العمودي، وأن جدنا الأعلى هو ثنيان أبا الخيل الذي باسمه الخَبُّ المعروف بخَبِّ ثُنيان، أحد خبوب بريدة الغربية، ويسمى: «خب عزارين»، وقتل الجد ثنيان عام (١١٩٦هـ) مع ابن عمه منصور في بلدة الخبراء، لما ثار بعض أهل القصيم مع ابن عريعر على الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود.

وأن جدنا الرابع سليمان بن محمد بن جار الله بن ثنيان أبا الخيل هو الذي انتقل من القصيم إلى الزلفي، بعد معركة المليداء عام (١٣٠٨هـ) ونزل عَلَقة وهي قرية شمال الزلفي، واشترى أرضاً زراعية تسمى الظفيرية، وكانت الأسرة تعرف في هذه القرية بلقب أبا الخيل مع لقب الطريري، وكان فيها امرأة عجوز أدركها بعض أعمامي تسمى

(١) «جمهرة الأسر المتحضرة في نجد» لحمد الجاسر (ص: ٨٠٠).

ميثاء كانت تحكي أن أباها كان مملوكاً للجد سليمان، وأنه جاء معه من القصيم وبقي مع الأسرة في الزلفي.

وقد رجع الجد سليمان إلى القصيم بعد معركة روضة مهنا عام (١٣٢٤هـ) ليتفقد أوضاعه هناك ويوثق أملاكه ثم عاد إلى الزلفي وتوفي بها.

وبانتقاله تغير اللقب العائلي إلى الطُّرَيرِي.

ولم أعرف سبب هذه التسمية الطارئة على الأسرة ولا معناها، إلا أن تكون طُرَير تصغير طَرير، وهو الرجل الجميل ذو الهيئة الحسنة، قال العباس بن مرداس:

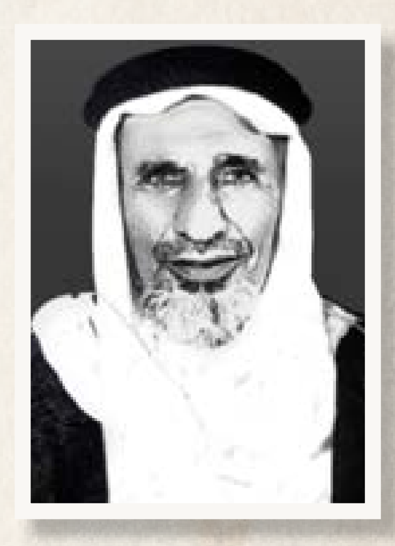
ويعجبــك الطَّرِيــر فترتجيــه فيخلــف ظنك الرجــل الطرير

وقد تجددت علاقتنا بأسرتنا الكبيرة في القصيم، ولقاءاتنا بها في اجتماعاتها ومناسباتها.

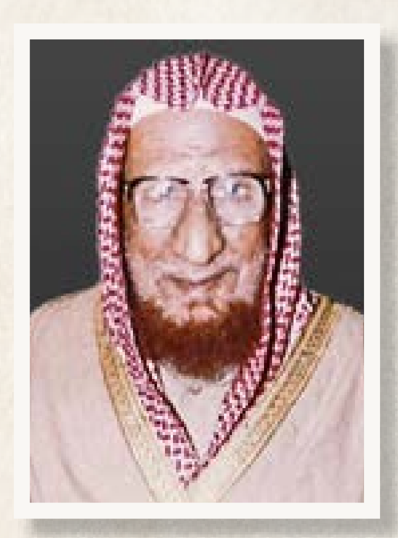
وإنما يُعتنى بالأنساب لمعرفة القرابات، وتحقيق صلة الأرحام، لا للعصبية والتفاخر والتظاهر، ومَنْ فرقتنا عنهم الأنساب فسيجمعنا بهم التراب، ومن جميل كلام شيخنا بكر أبو زيد عن الأنساب: المحافظة مطلوبة، والعصبية مرفوضة، ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

وقد انتشرت الذرية، وصارت الأسرة أُسراً، وتفرقت في البلاد، ففي الزلفي أكثرهم، وفي حايل العم صالح وأبناؤه، وفي الرياض والخُبَر في المنطقة الشرقية جَمْعٌ من الأعمام وأبنائهم، وفي الكويت العم علي وأبناؤه.

ويقال: إن منهم كَهْلاً يعيش في تركيا، والله أعلم بصحة ذلك.



الجد عبد الله بن أحمد الطريري
رحمه الله



الجد في أخريات حياته



العم دخيل بن أحمد الطريري
رحمه الله



تاجر اللؤلؤ الشيخ
هلال بن فجحان المطيري
رحمه الله

الحمد لله وحده

حضر عندي علي العبد الله ابا الخيل وبنه حسنا افلح اهل خب
ثنيان وشهدوا بالله بلفظ الشهادة المعتبرة شرعا بأن
المنخل اليسمى المدا العتيقه مكان الشعيبي المعروف بخب
ثنيان ذكره يغني عن تحديده انه سبيل لهيله لمحمد
الثنيان الجار الله ابا الخيل مسبلته على صحته وشحه
ونشهد بالله ان اقرب ما يكون لهيله اعيال محمد
السليمان الطريري ابا الخيل راعي الزلفي وانا اشهد
يا علي ان الي يملكهن بنات ابن جار الله حايا الطريري
ابا الخيل وانا حسن اشهد بلفظ عمومي ان الي يملك
بنات ابن جار الله سليمان الطريري وانه ولد عمهن اقرب
بنات ابن جار الله ابا الخيل وانا بتيقنته ما فيه
ما يكيف لهن لحوشنا كتب عنها دشهم عن تقي علم
عندنا اشكال حتى لا يخفى وصلى الله على محمد
١٣٢٧
محمد الـ عبد الله حمد ابن محمد

وثيقة من عام (١٣٢٧هـ) وفيها بيان قرابة سليمان الطريري أبا الخيل بمحمد الثنيان الجار الله أبا الخيل وبناته



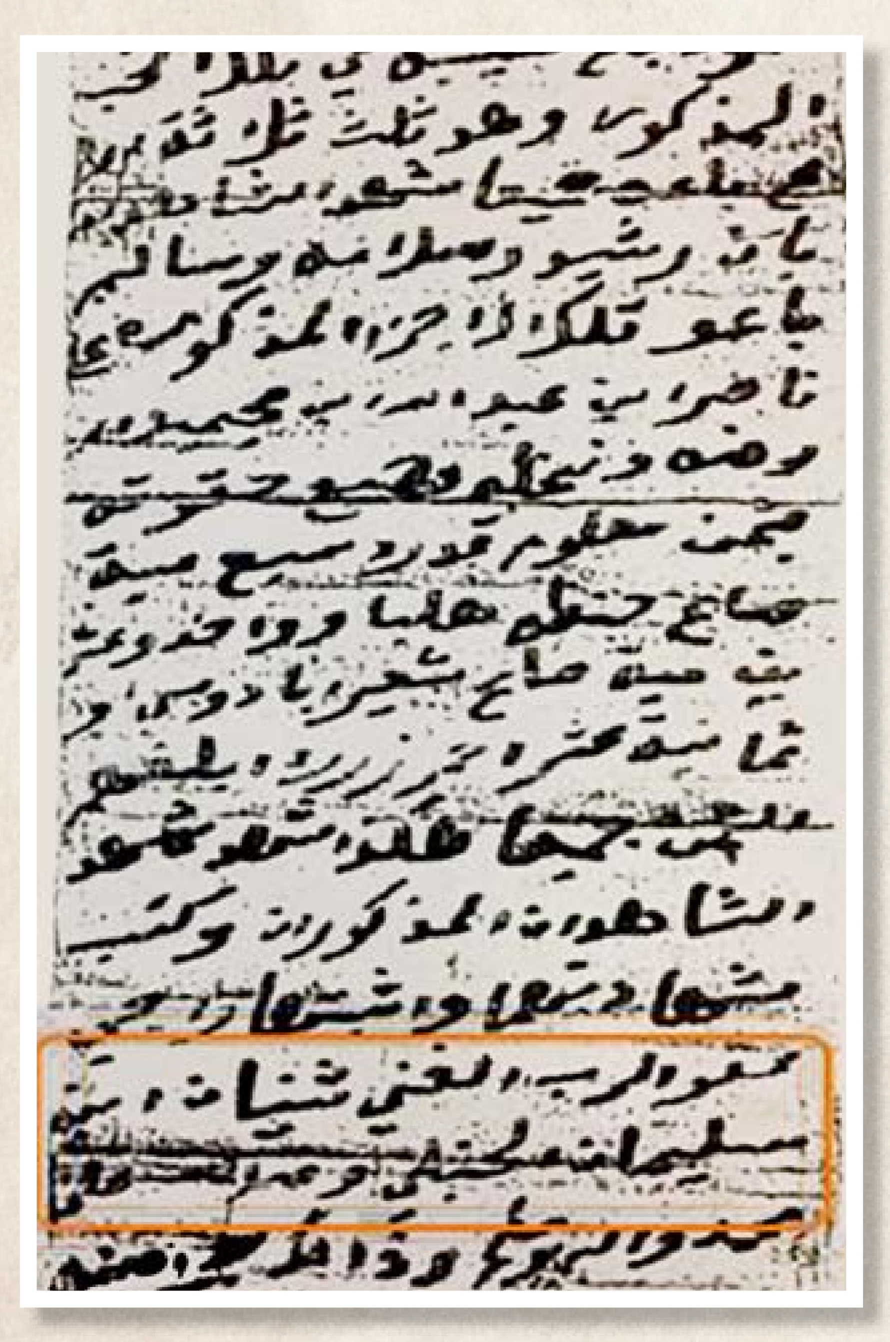
العم علي بن إبراهيم الطريري
من امتداد تفرع الأسرة في الكويت



العم علي بن صالح أبا الخيل
من امتداد أصول الأسرة في القصيم



وثيقة كويتية من عام (١٣٢٠هـ) وفيها ذكر بيت الجد أحمد الطريري في الكويت



وثيقة من عام (١١٨٥هـ) بخط الجد ثنيان بن سليمان أبا الخيل
ويتلقب فيها بالحنبلي

البيت الكبير

هو بيت أخوالي، جدي محمد الناصر الزيد العامر الأسلمي الشمري، وأخوالي عبد الله وإبراهيم.

وهو بيت طيني كبير كان يسكنه جدي ناصر الزيد، الذي لم تدركه أعمارنا ولكنّا أدركنا زوجته جَدَّتنا قُبَيْلة البداح.

كان بيتاً كبيراً بمقاييس مدينة الزلفي، به أحواش رحبة، ومجالس واسعة، وليوان ومرافقه للضيوف.

وكان وجود جدي بوقاره وسمته وكرمه يضفي على هذا البيت جلالاً وبهاء حتى صار مقصداً، بحيث لا أذكر يوماً لم توقد النار في المجلس، ويجتمع القصاد لقهوة الفجر وقهوة وعَشاء بعد المغرب.

ولا أذكر أن جدي تناول طعامه على الغداء أو العشاء داخل البيت وإنما يأكله في المجلس مع مَن حضره مِن الضيوف، وكان أهل الأرياف التي حول الزلفي وتسمى العُقَل إذا دخلوا الزلفي يتواعدون أن يكون لقاؤهم في مجالس كرماء البلد ومنها (قهوة) مجلس محمد الناصر.

وهذا حين كان الكرم والإطعام له وقعه في حياة الناس، فلم يكن ثم فنادق ولا مطاعم إلا بيوت الكرام، ولذا لما استغنى الناس وقل المرتادون على وجبات الطعام صار يرسل أبناء خالي ليدعوا له العمال الغرباء ليشاركوه طعامه، وكأن الطعام لا يكتمل مذاقه إلا بحضور ضيف زائر، أو غريب محتاج ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾.

وفي البيت الكبير تزوجت أمي بأبي، وفي هذا البيت ولدتُ، وكان مزارَنا بعد ذلك إذا ذهبنا إلى الزلفي في الإجازات، والتي بقيت مشاهدها راسخة في الذاكرة كأنما هي بالأمس القريب.

رأيت في هذا البيت حال أعيان العرب وبيوتاتهم المقصودة، والباب المفتوح دائماً، والقادم الذي لا يستأذن في الدخول وإنما يقصد المجلس وهو على يقين أنه لن يجده خالياً.

عَلِمتُ من جدي وتَعلَّمتُ دروسا في صلة الرحم والإحسان إلى ذوي القربى، فكانت أخوات جدي الأرامل يعشن في البيت مع أبنائهن وبناتهن، وكَبِرَ الأبناء والبنات لا يعرف الأبناء فرقاً بينهم وبين خالي، ولا تعرف البنات فرقاً بينهن وبين أمي، ولا يزالون يتحدثون عن جدي على أنه والدهم وليس خالهم.

ورأيت صور حفاوته بأخيه الكبير زيد الناصر إذا جاء من الكويت، فيكون البيت في حالة استنفار استثنائي، ونرى جدي منطلق الأسارير يكاد يطير من الفرح، وكنا نرى في لقائهما أروع ما يكون بين الإخوة من الوداد، وبين الأقارب من الصلة والصفاء.

وجَدِّي هو المقيم من إخوانه في الزلفي، وأما أخواه عبد العزيز وزيد فاستوطنوا الكويت منذ عام (١٣٤٠هـ) وكانوا من رجالات الشيخ أحمد الجابر الصباح أمير

الكويت حينها، ويرجع نسب الأسرة إلى المنيع من الكامل من الأسلم، وكانت في بلدة العُدوة في حايل ثم نزحت إلى وُشَيْقِر والزلفي.

وكان جدي رحمه الله صاحب نسكٍ وعبادة، وقيام ليل وقراءة قرآن، صام رمضان قرابة خمس وخمسين سنة في الحرم المكي، ولا يرجع إلا بعد صيام الست من شوال، وكان قليل الكلام معرضاً عن الغيبة بالكلية أن يقولها أو يستمع إليها، وربما ترك المجلس إذا توجه الحديث في هذا الاتجاه، وما أصعب ذلك في القرى والمجتمعات الصغيرة حيث لا حديث للناس بينهم ولا قضايا عندهم إلا كلام من حضر فيمن غاب.

وفي هذا البيت الكبير كانت صلتي بخالي الأكبر عبد الله وكان في سن والدي، ومما علق في ذهني وأثر في وجداني من حاله صلته بالقرآن، ذهبت معه يوماً إلى صلاة الجمعة وجلست إلى جانبه، فاستفتح سورة الأنعام ثم الأعراف وكان حافظا مُتقِناً، وكانت القراءة يسيرة عليه يجري فيها مثل الريح، فتأثرت بهذا المشهد، وطمحت إلى هذه الحال، وهو ما حاولت الوصول إليه ولم أصل.

تعلمت من حال خالي قوة العزيمة والإصرار، فقد دخل الجامعة على كبر، وكان حينها رب أسرة وأبا لأولاد ومع ذلك ثابر حتى حصل على الشهادة العليا من المعهد العالي للقضاء.

تعلمت من خالي دروساً بليغة في البر بالوالدين فقد توفيت أمه وهو صغير، فأفرغ برَّه بها في أختها خالتنا عائشة السنعوسي، حتى كان في بره بها مثل أبنائها أو أشد، وتذكرت في حاله حديث الرجل الذي سأل النبي ﷺ عن عمل صالح يكفر الله به من خطاياه، قَالَ: «**هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ**»؟ قَالَ: لَا، قَالَ: «**هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ**»؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَبِرَّهَا**».

وكذلك بره بجدي ورعايته له لما كبر حتى كأنما تبادل معه الأدوار فصار الابن أبا والأب ابنا.

وأما خالي إبراهيم فهو قريبٌ منا سناً فكان صديقاً كما كان خالاً، وكان المحتفي بنا والمؤانس لنا، وهو أخو أمي من الأب، وأمه عمتي نورة بنت زيد الرومي، تزوجها جدي بعد وفاة جدتي نورة السنعوسي، فلما دخلت البيت الكبير ملأته نوراً وسروراً، فكانت الزوجة الوفية الحفية لجدي، والبنت البارة لأبيه وأمه، والأم الرؤوم لأولاده خالي وأمي، والأخت الودودة لأخواته، ولا زلت أتذكر طريقتها في التعامل مع جدي بذاك الاحترام البالغ، والحب المُبالِغ، ودعائها له ولوالديه أدبار صلواتها، رحمات الله لها وعليها، فقد كانت عطر ذلك البيت ونوره وسروره .

ومن مشاهد الأفراح في هذا البيت والتي كأنها أعيادٌ زيارة خالي عبد الرحمن الزيد رحمه الله إذا جاء من الكويت فغمر الجميع بكرمه وبره وزياراته، وإذا جاء إلى الرياض قصد الوالدة ليسلم عليها فتقفز عشرات السنين إلى الوراء فرحاً وابتهاجاً، فإذا أردت أن أشاغبها وأعلق على أفراحها، قالت: أنتم ما تعرفون خالك عبد الرحمن؟ هذا أخونا وأبونا، كان وكان، ثم تنسى نفسها وهي تتحدث عنه، وعن زوجته خالتي منيرة البداح أم ناصر رحمها الله، حتى تعيد لنا التاريخ، فنعيش معها الماضي حاضراً كأجمل ما يُرى ويُروى.

وفي البيت الكبير كانت بداية القربى والصداقة بيني وبين خالي ناصر بن عبد الله الحمود العامر، وهو من لِداتي، وأنا أكبر منه عمراً لا قدراً.

تكونت صداقتنا منذ تكون وعينا، وعشنا أقرباء أصدقاء في كل أطوار حياتنا، وكأنما ألحمت صداقتنا بقرابتنا، قيل لأحد العرب: أيهما خير، الأخ أم الصديق؟ فقال: إذا لم يكن الأخ صديقاً فلا خير فيه، وقد كان خالي قريباً صديقاً، وكان حضوره في حياتي

من عظيم نعم الله عليَّ، فكان لي أنساً في الرخاء، ومدداً في الشدة، وفرجاً في الضيق، وما احتجته إلا وجدت ما في جيبه أقرب مما في جيبي.

وقد درست وإياه جميعاً وتاجرنا جميعاً ثم تركت التجارة للعلم، وترك هو العلم للتجارة، وكل ميسر لما خلق له، وقد علم كل أناس مشربهم.

ولإن تفرقنا في العلم وفي التجارة فقد اجتمعنا في القرابة والصداقة.

ويا لوحشة الحياة وبؤسها إذا لم يكن فيها أقرباء كخالي ناصر، ولا أصدقاء كناصر خالي.

وما زال ذاك البيت الكبير شامخاً في ذاكرتنا، مشيداً في مخيلتنا، حاضراً في ذكرياتنا وأحاديثنا.

ورحم الله الذين عمروه وتوارثوه، ثم رحلوا وتركوه، فما أطاق بعدهم بقاءً، فتهاوت جدُرُه، وخرت سُقُفُه، ودرست معالمه، وحال كحال الدنيا بأهلها، وكأنما تهاوى وهو ينادي:

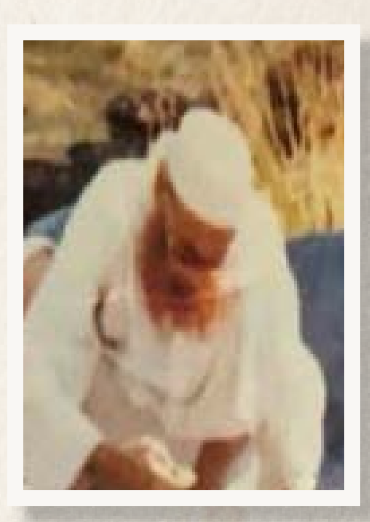
وما كنت أهـــوى الدار إلا بأهلها   على الدار بعد الراحلين ســـلام



إحدى نواحي البيت الكبير في جهته الغربية



أحد الأروقة التي تحيط بالمجلس

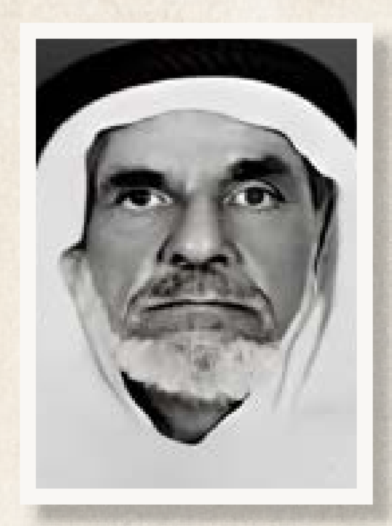




الجد محمد الناصر، وأخوه زيد الناصر الزيد رحمهما الله



ساحة البيت والحجرات تحف جوانبها




الخال عبد العزيز الناصر والخال عبد الرحمن الزيد رحمهما الله



الخال عبد الله والخال ناصر حفظهما الله



ساحة سوق الزلفي (المجلس) وهذه الأبواب الصغيرة هي دكاكينه



من اليمين: مدرسة القرآن في الزلفي، يليها مسجد العليوية، ثم نخيل العليوية
ولكل منها حضوره في ذاكرة الطفولة وذكرياتها

حياتي في حياة أبي

ولد أبي في بلدة الزلفي عام (١٣٥٤هـ)، وهو الأصغر من إخوانه، وأكبر منه أخواه علي ومحمد، وأصغر منه أخته منيرة، وكان الأربعة إخوة غير أشقاء، فالجد رحمه الله لم يتزوج في الزلفي إلا تسع نسوة، أنجب من أربعٍ منهن هؤلاء الأربعة.

والله وحده يعلم إذا كان ثَمَّ غيرهن في البلاد التي اغترب فيها، وكنت أنا وزوجته الأخيرة خالتي زريفة نعابثه عن صبوات شبابه فأسأله: هل لنا أعمام في الهند أو سيلان أو إيران؟ فيضحك بانتشاءٍ ضحكةً غامضة، هي كالإدغام بغُنَّة، ليست إقراراً ولا إنكاراً.

ولأبي أختان من أمه أكبر منه، هما: لولوة ونورة بنات زيد الرومي رحمهم الله جميعاً.

ونشأ أبي طفولته وبدوات فتوته في بلدته، ودرس مثل لداته في كُتَّابها، وكان أول طلبه العلم على يد المشايخ القضاة الذين كانوا يتولون القضاء في البلدة، ومنهم الشيخ عبد الرحمن بن هويمل، والشيخ عبد الله بن عبدان، والشيخ حمود التويجري، ولم تكن المدارس الحكومية قد افتتحت حينها.

ولما افتتحت المدرسة الحكومية درس فيها، حتى بلغ المرحلة الخامسة الابتدائية عام (١٣٧٠هـ)، وممن دَرَّسه فيها الشيخ محمد بن عثمان البشر، والشيخ محمد بن

أحمد الملحم، وكان من زملائه الشيخ عبد المحسن العباد، والشيخ سليمان الفالح، ود. حمود البدر.

وكان أكثر من تأثر بهم في هذه الفترة مدير المدرسة الشيخ محمد الذييب؛ وكان مربياً عالماً فاضلاً حكيماً ذا شخصية مؤثرة، وصفه لي الشيخ سليمان الفالح فقال عنه: إذا رأيته فلا يمكن أن تتمنى أن شيئاً فيه ليس فيه، ولا أن شيئاً ليس فيه يكون فيه، كأنه كان كاملاً في خَلْقه وخُلُقه.

وممن تأثر به وقرأ عليه الشيخ حمود التويجري قاضي الزلفي؛ وكان له رسوخ علمي، وله مع العلم والنسك سمتٌ ومهابة.

ثم انتقل الوالد بعد ذلك إلى بلدة الحريق كاتباً لقاضيها الشيخ عبد الله بن بكر، وبقي هناك نحو سنتين، ولازالت وثائق الشيخ ابن بكر بخطه عند أهالي الحريق.

ثم رجع إلى الرياض بعد افتتاح المعاهد العلمية ليلتحق بها، وكان ممن درسه في المعهد الشيخ صالح بن عبد الرحمن الحصين، والذي جالستُه من بَعدُ واستفدتُ منه، فهو شيخي وشيخ أبي.

وفي هذه المدة صار كاتباً للشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ مدير المعاهد العلمية، وكان الشيخ فَرَضِيا ولُغوياً فاستفاد منه في ممارسة علم الفرائض وقسمة التركات، وكان الشيخ يتولى قسمة التركات، وكتابة الوثائق للناس احتساباً.

ثم درس الوالد في كلية الشريعة وفي المعهد العالي للقضاء، وكان إعجابه وتأثره شديداً بالشيخ عبد الرزاق عفيفي، والشيخ عبد العال عطوة، وكان يقول: كأنما أَلَّف الآمدي كتابه «الإحكام» لهما.

ثم عُين بعد تخرجه مدرساً في معهد إمام الدعوة فترة طويلة ثم نُقل بعدها إلى معهد تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها حتى تقاعده سنة (١٤١٤هـ).

وبعد تقاعده طلب مني الدكتور عبد الله التركي وكان وزيرا للشؤون الإسلامية أن أعرض عليه التعاقد مع الوزارة، فرد عليَّ بكلام معناه: قد أجلنا أموراً كثيرة إلى هذا الوقت، وما عادت تحتمل التأجيل، وكأنه قَصَد التفرغ للعبادة والتعليم الاحتسابي، ولذا فإنه منذ تقاعده جلس لطلبة العلم أدبار الصلوات بصبر ودأب وانتظام.

وإن لم يكن الوالد متوسعاً في العلم ولا في الشرح، فإنه كان يتقن عرض المسائل وتدريس المتون التي يحتاجها الطلبة في طور تكوينهم، فكان كما قال السخاوي عن بعض أهل العلم: «أخذ عنه خلق من المبتدئين وغيرهم لكونه كان حسن التعليم، لا لطول باعه في العلم»[1].

وكان بعض القضاة الذين درسهم الفرائض في المعهد العلمي يسألونني أن أحضر لهم الكراسة التي كانت معه حين كان يدرسهم، ويذكرون من حسنها شيئاً كثيراً، فلما وجدتها في مكتبته لم أجد فيها إلا أسطراً قليلة، وأمثلة ومسائل توضيحية، فعلمت أن السر ليس في الكراسة وإنما في طريقة تدريسها.

ولم أدرس عليه إلا شيئا قليلا في مادة الفرائض عندما كنت في الجامعة، وفي جلسات معدودة ولولاها لما عبرت هذه المادة.

ولكن لطلابه ذكرٌ وذكرياتٌ معه، كتب عنه الدكتور عبد الله بن ناصر الصبيح يحكي فترة تدريسه لهم في المعهد قال: «كان الشيخ حفظه الله بالنسبة لنا مرجعاً لما نواجهه من إشكالات فكرية، وكان أباً رحيماً، ومعلماً موفقاً، ومربياً حسن التربية؛ كان يفسح لنا صدره فنسأله خارج المقرر، ونفضي إليه بما يعتلج في نفوسنا، ويفضي إلينا بعلمه وحكمته.

(١) «الضوء اللامع» (١٠/ ١٣٩).

وكان لا يغضب، فما رأيته خلال ست سنوات انفعل أو غضب من طالب، ولا زلت أذكر ابتسامته التي يواجه بها شغبنا وعبثنا وجدنا، فأحببناه كما يحب التلميذ معلمه الرؤوف به، وكما يحب الابن والده».

وكتب أحد طلابه (راحل) في تويتر: «بعد معايشة عقدين من الزمان، مع الكتاب والقراءة أقولها ناصحاً: مجالسة المشايخ تختصر لك السنين.

ولي تجربة شخصية مع علم الفرائض، فقد قرأته وحدي قرابة سنة، ثم قرأته على الشيخ ناصر الطريري فحصلت في سبعة أيام ضعف ما حصلته في سنة».

وفي معهد تعليم اللغة العربية كان تعليمه للطلاب المغتربين الناطقين بغير العربية تعليم أبوَّة ورحمة وتطامن إلى مداركهم، وعندما لقيت في تركيا المفتين والمشايخ الذين كانوا يوماً طلابه حدَّثوني عنه حديث الابن عن أبيه بعاطفة مشبوبة بالحب والتوقير.

وكان مما حدَّثوني عنه حسن تأتِّيه في تفهيمهم المعاني للكلمات التي لا يدركون معناها، حدَّثني تلميذه الشيخ محمد ثابت نائب مفتي طرابزون أنهم عندما استعسر عليهم فهم كلمة «طين» نزل بهم من الفصل إلى حديقة المعهد ثم سكب الماء على التراب وعجنه بيده حتى صار طيناً وهو يريهم في كل حالة الأسماء التي تصاحب هذا المزيج.

قال: وشرح لهم مرة: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾، قال: فأخرج القلم ووضعه أمامه، ثم رماه قريباً منه، ثم رماه بعنف وقال: لَيُنْبَذَنَّ، قال: ففهمنا المعنى وحفظنا المشهد.

وحدَّثني تلميذه الشيخ آدم في إسطنبول عن تدريسه لهم قال: كان يشرح لنا معنى النملة فاشتبهت علينا أثناء الشرح بكثير من الحشرات، قال: فخرج من الفصل ثم

عاد إلينا بنملة تمشي على ظهر يده، وجعل يرينا إياها، فعلمنا منه المعنى، وتعلمنا رحابة الخُلُق.

وكان يزورهم في سكن الطلبة، ويزورونه في بيتنا في حيِّ الشفاء، ولا أنسى تأثره الشديد عندما توفي أحد طلابه الأمريكان وأظنه ابن وارث الدين محمد، وكان معجباً به، ويوليه عناية، ويعلق عليه آمالاً.

ومن غرائب الاتفاقات أنني عُيِّنت مدةً مدرِّساً في معهد تعليم اللغة أثناء فترة الإعادة في الكلية فصرت زميلاً له، فكنت أحرج إذا دخلت على الطلبة الذين درسهم قبلي فينتظرون مني ما كانوا يتلقونه منه، وأنَّى لي ذلك! فما كنت وإيَّاه إلا مثل بقل في أصول نخل طوال.

وبعد تقاعده تفرغ للتعليم الاحتسابي في المسجد، وكان له حفاوة بالطلاب وإقبال عليهم، وكثيراً ما يجلس لطالب واحد صغير، وإذا كان الطلبة عدداً فكل يقرأ في الكتاب الذي يحتاجه ويختاره.

واستمر على سننه ذلك حتى ضعفت ذاكرته في السنوات الأخيرة، فأصيب بالنسيان، وحاله الآن ومن هم مثله كحال الملائكة تكتب لهم حسنات الأعمال التي كانوا يعملونها في صحتهم، ورفع عنهم التكليف فلا سيئات تكتب عليهم.

ولئن كان لكل أب حق وفضل على ابنه فإن للوالد عليَّ أفضالا لا أحصيها ولا أجزيها، فالله يتولى عني كفاءه وجزاءه، ومن ذلك أن حال الوالد في نشأته على الاستقامة ووعيه العلمي كانت سبباً لي في رُشدِ النشأة وبكور الاستقامة، والسلامة من أسباب الضياع والانحراف والتي كان لها في جيلنا أسباب كثيرة، ومنزلقات خطيرة، فعصمني الله بوجوده في حياتي عن كثير من هذه الانحرافات، ورفع همتي عن كثير من السفاسف، ولا أزال أذكر حين كان يأخذني في ضحى أيام رمضان ليصلي الضحى

ويجلس لقراءة القرآن، وأتذكر أنه ليس في المسجد غيره، وأنا ألهو في المسجد لصغر سني لكن شاشة الذاكرة كانت تسجل الموقف وتخزنه في القرص الصلب ليكون لي من بعدُ موعظة وذكرى.

ولم يكن الوالد يعتمد معنا طريقة النصح المباشر والأمر الصارم، فلا أذكر أنه نصحني نصحاً مباشراً إلا مرة واحدة وأنا في السنة الثانية المتوسطة في الرابعة عشرة من عمري، لاأزال أتذكر وقتها ومكانها وكلماتها، وكان مضمونها: تحميلي المسؤولية عن حياتي وحثي على الجد فيها.

ومن أهم ما علَّمناه القيم ومن أعظمها الصدق، فقد كنا صغارا نجلس في الأمسيات حوله فنسأله عن طفولته ولعبه فذكر من لعبهم السباق مع زملائه، فقالت له أختي وكل فتاة بأبيها معجبة: وكنت تسبقهم جميعاً؟ وتشوفنا أن يقول لنا كنت أسبقهم جميعاً، ولكنه قال ضاحكاً: أسبق بعضهم ويسبقني بعضهم، ومع أن هذه الإجابة لم تكن هي التي كنا نتمنى لكني في ذلك السن المبكر أذكر كيف وقع في نفسي تقدير الصدق ومكانته، وشعرت بالزهو لهذا الخلق العظيم يتوج حديث أبي مع أطفال صغار.

ومما علَّمنا تَحمُّل المسؤولية مُبكِّرا ففي الحادية عشرة من عمري كنت أقوم برعاية البيت كاملاً لأنه سافر مع أمي إلى مصر للعلاج، وجعلني رجل البيت ومعي جدتي وإخوتي الصغار.

أما رؤيته جالسا على مكتبه في مكتبته، ورفوف الكتب حوله فكان منظرا محفزا لي، وكانت تلك المكتبة غذاء فكريا قَصَّر عليَّ طريق الطلب، ودلَّى ثمار الثقافة بين يدي.

ومن جميل ما تعلمته منه الحشمة في الكلام، فلم أسمعه يوماً يتكلم بفحش ولا يستروح لسماع حديث فاحش، وكان تطبيقا عمليا للهدي النبوي: «**لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً**».

ومما تعلمناه منه الورع البالغ في المكسب والمعيشة، والبعد عن المشتبهات فضلا عن المحرمات.

رأينا حرصه على التوقي عن كثير مما يُشتبه به في مواقف مؤثرة، منها:

أنه عندما افتتح صندوق التنمية العقاري قدَّم إليه الناس طلبات الاقتراض، وكان من شروطه أن لا يكون طالب القرض يملك بيتاً، وكان كل من يُقَدِّم طلبه يكتب أنه لا يملك بيتاً، لأنهم يسكنون غالبا بيوتا من الطين ويرون أنها لا تُعدُّ بيوتاً أو هكذا يتأولون، وما كان هذا الشرط مما يتابع إجرائيا أو يُتحقَّقُ منه، فكل من كتب أنه لا يملك بيتاً سارت معاملته، أما هو فعندما قدم الطلب كتب أنه يملك بيتاً، وكانت النتيجة المتوقعة أن يرفض الطلب، وأن يتوقف البناء الذي كان ضرورة لنا لأن بيتنا الطيني قد رحل أكثر جيرانه، وصارت الحارة سكنا للعمال، وأوحشت فما عدنا نعرف فيها من كنا نعرف.

وسخر به من الأقارب من سَخِر، ولامه منهم من لامه، فما أثر هذا ولا ذاك في ثبات موقفه وقناعته بقراره، وعندما قلت له: إن من المشايخ من لا يرى بذلك بأساً، قال: سأحاسب أنا على عملي ولن يحاسب أحد عني، ثم صار يبني مما يوفره من راتبه وما يُفضِلُه من ضرورته، فإذا قَصَّرت به النفقة توقف حتى يتوفر له ما يستأنف به البناء، واضطررت حينها للعمل والتجارة لأحمل بعض العبء عنه، وكانت شدةً ومعاناةً، وكنتُ الأكبر من إخوتي فوعيتها واستوعبت درسها، حتى تيسر الإتمام على أقل المواصفات.

وكان للعم أبو خالد سليمان البراهيم الطريري موقف نبيل، ومروءة لا تنسى، فعندما علم بتباطؤ الوالد في البناء وأنه لم يأخذ قرضاً من صندوق التنمية ابتدأه بقرض سخي، وسدده الوالد على التراخي من غير أن يطلبه منه أو يذكره له، وهذه إحدى مروءات العم أبو خالد، وصنائع المعروف الكثيرة منه على الأقارب والأباعد، أحسن الله إليه وبارك له.

ومرت السنوات وفُرِجَ الضيق، واتسعَ الحال وانتقلنا من البيت البسيط في حي الشفا إلى حي الروابي في بيت مريح لائق باجتماع الأسرة التي كثرت، وتحول البيت إلى بيوت، والأسرة إلى أسر، وكنت أنظر إلى أبي وأتذكر هذا الموقف، وأقرأ في نفسه لذاذة الوفاء للمبدأ، والظفر بعد الصبر، وأشعر أنه لو ضعف لكانت لذعة في ضميره، ومرارة يجدها كلما تذكرها، ولكن الله سلم ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾.

وعاش الوالد هناءة صدقه، أما نحن فتعلمنا جميعاً منه قيمة الصدق، وعظمة الثبات في مواقف امتحان القيم، والتورع عن المشتبهات، «**ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه**».

ومن نعم الله عليه أنه ما دخل فيما أعلم المحكمة شاكياً ولا مَشْكِياً.

ومن ألذ ساعات عمري ساعة أُظهِرُ فيها إكرامه، أو أحقق له فيها شيئا من رغباته، ومن ذلك أنه درس في المعهد العالي للقضاء وأنهى الدراسة وكانت ثلاث سنوات شداد، وبقي عليه إعداد رسالة الماجستير فبدأ العمل بها ثم عرضت له مشاغل وصوارف فانقطع عنها، ثم تركها فلم يكملها فكان من أكثر ما حفزني لإكمال رسالة الماجستير أن أحقق له ما لم يتيسر له تحقيقُه، وحضر مناقشة الرسالة فما تحفزت لشيء كما تحفزت لكلمةٍ بين يدي الرسالة أشكره فيها، وكان مما قلت:

وفي الختام لا بد من شكر مستحق الشكر، فقد قال نبينا ﷺ: «**من لا يشكر القليل لا يشكر الكثير، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله**»، فأشكر من كانت هذه الرسالة ثمرة من ثمار غرسه، إلى من رعى النشأة، وقَوَّم المسيرة، وسدد الوجهة.

إلى أول من فتق لساني بذكر الله عز وجل، وعلمني سنة محمد ﷺ، وقذف في قلبي محبة العلم وأهله، إلى سيدي الوالد الذي رباني صغيرا ورعاني كبيراً، فكان فضل الله عليَّ به عظيما، فقد أرشد وسدد، وعلم وقوم، وهدى الله به للتي هي أقوم. فلقد أفادني في رسالتي هذه، كما أفادني في عمري كله، فإليك يا سيدي هذه الرسالة

قبسة من علمك، وغرفة من بحرك، وقليل من كثيرك، مع الدعاء الخالص أن يجزيك ربي عني خير ما جزى والدا عن ولده، وأن يرفع درجاتك في أعلى عليين، إن ربي لطيف لما يشاء، إنه هو العليم الحكيم.

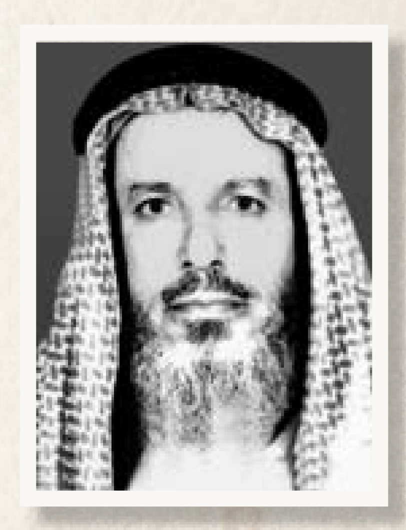
وكنت ألقي هذه الكلمات وأنا في حال تأثر وانفعال، فكان أخي إبراهيم الريس حاضرا فقال لي: كنت تتكلم وأنا أنظر في وجه والدك أقرأ انفعالاته تلك اللحظة.

واليوم أشعر بالفجيعة لغيابه وإن كان بيننا، فالزهايمر أخو الموت، تشعر أنه غائب عنك وهو حاضر أمامك، وكم شعرت باللهف أن أستثير ذكرياته، وأستروي أحاديثه، وأذكِّره ببعض القصص التي رواها، وأستشيره في أمور أعلم رأيه فيها، وأتفنن في بِرِّه والتلطف به، فالبر بالوالدين له فَنُّه بل فنونه.

وقد اتصل بي أحد أصدقائي يوماً يشتكي حِدَّةَ والده وكثرة عتابه له، وغضبه عليه، وكان يُنفِّس عن نفسه ببث شكواه إلي، فلما فرغ قلت له: هل تعلم أن ما تشتكي منه هو ما أتمناه، وسيكون لي لذة الدنيا لو ظفرت به، كم أتمنى اليوم أن يعاتبني والدي أو يغضب عليَّ فأتفنن في استرضائه، وأحتال عليه حتى يتحول غضبه عجباً، وعبوسه ضحكاً، واستأنف معه لذة الحوار والمناورة وحيوية الصحبة.

هل تعلم أن هذا الذي تشكو منه فرصة ينبغي أن تستغلها فتشعره بتفاعلك مع عتابه، وألمك لإعراضه، وترسل رسائل الاهتمام والأهمية له، وتستلذ بذلك وتستشعر به نشوة الظفر.

وقد كنت أقول ذلك وأنا أحكي أمنياتي الحقيقية، فلما سمع ذلك كأنما أفاق من غفوة، وانتبه من غفلة، وهكذا لا نكتشف مساحة الوالدين في حياتنا إلا حين نفقدهما أو نوشك، أمتعنا الله بحياتهم ورزقنا كريم برهم.




الوالد ناصر الطريري في مراحل عمره



الوالد في الدرس المسجدي



من اليمين: الشيخ محمد بن عثمان البشر أستاذ الوالد،
والشيخ عبد المحسن العباد زميل الوالد،
والشيخ محمد بن أحمد الملحم أستاذ الوالد

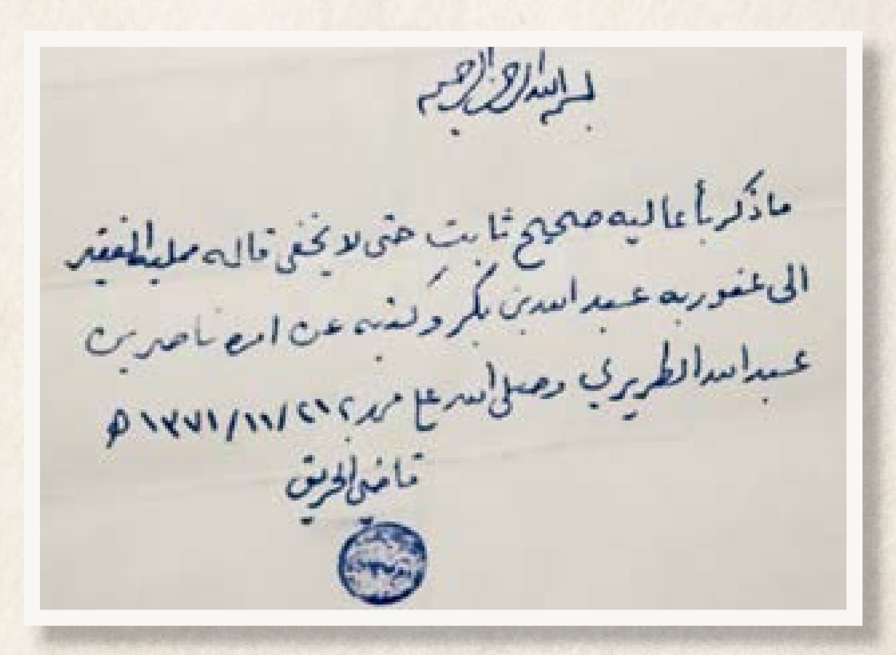


معالي الشيخ سليمان الفالح



د. حمود البدر

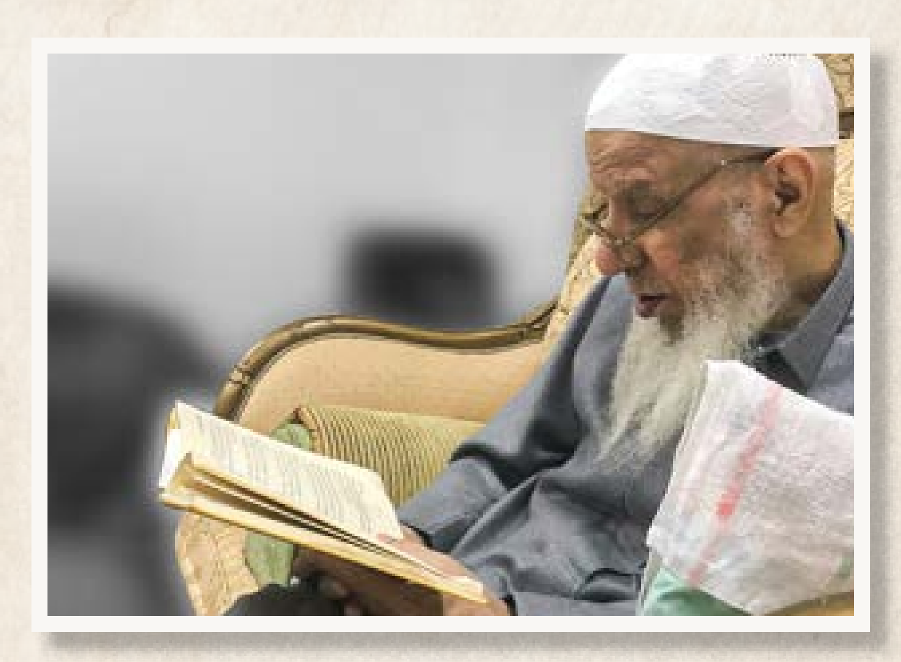
من زملاء الوالد في مدرسة الزلفي



بسم الله الرحمن الرحيم

ما ذكر أعاليه صحيح ثابت حتى لا يخفى قاله وكتبه الفقير
إلى عفو ربه عبدالله بن بكر وكتبه عن أمره ناصر بن
عبدالله الطريري وصلى الله على محمد ٢٢/١١/١٣٧١هـ
قاضي الحريق

خط الوالد حين كان كاتباً عند قاضي الحريق



الوالد والكتاب صحبة عُمْر

نعيم أمي

أحن إلى خبز أمي

وقهوة أمي

وضمة أمي.

وتكبر فيَّ الطفولة

يوماً على صدر أمي.

وأعشق عمري لأني إذا مت

أخجل من دمع أمي.

... ...

هرمت فردي نجوم الطفولة

حتى أشارك.

صغار العصافير

درب الرجوع

لعش انتظارك.

لأني فقدت الوقوف

بدون صلاة نهارك[١].

نعيم أمي هو الحب الذي لا يزال يكبر، والشوق الذي لا ينطفئ ولا يخبو، هو النعيم الذي يجددُ أفراحنا ويضاعفُ سرورنا ويزيدُ أنسنا، لقاءاتها كؤوس من الحب تترعها، ونمارق من النعيم تفْرِشها.

لأمي في حياتنا حكايات حب، وقصص شوق ولهف.

جاءتني تزورني بعد أطول فترة غياب أغيبها عنها، فعاندت آلامها وأعوامها، وسافرت إلي، فلما تلقيتها تشبثت بي تعانقني ورعشة ترف على شفتيها، ولاحظت رعدة وجنتيها، واضطراب يديها، واحتباس كلماتها، وكأنما أفرغت في عناقها ذلك كل التياعها، وشوقها وحبها وتحنانها.

عرفت أمي الدنيا يتيمة الأم، فقد توفيت جدتي نورة السليمان السنعوسي قبل أن تعيها أمي، ولكن كانت أمها الحقيقية خالتها عائشة السليمان السنعوسي، فهي التي عشنا ونحن لا نشعر أن لأُمنا أُمّاً غيرها، وعاشت في حياتنا وهي جدتنا، ولم نعرف فرقاً بيننا وبين أبنائها وبناتها. وكانت من عقائل النساء المدبرات، ولها أثرٌ فيمَن حولها من قراباتها وجيرانها.

كانت حريصة على المعونة بما تستطيع، والعطاء مما تجد، وكان زوجها عبد الله الدخيل الحميدان رحمه الله يجمع إلى طيبة القلب شدة الانفعال أحياناً، وقد اعتادت هذا منه وتقبلته لمعرفتها بحقيقة ما في نفسه الطيبة.

---

(١) اقتباس من الشاعر محمود درويش.

ولما صَخِب عليها يوماً تدخل ابنها معاتباً أباهُ ومنتصراً لأمه، فغضبت خالتي على ولدها وقالت له: أنا وأبوك عارفين بعضنا قَبلَك، وأمورنا صالحة من دونك، فلا تتدخل بيننا.

وكان موقفاً حكيماً رفع قدرها عند زوجها وابنها.

رحم الله خالتي أم دخيل وزوجها أبو دخيل، فقد كانوا أسرتنا وبيتنا، ولا أذكر أن أمي تصدقت بصدقة أو دعت بدعاء إلا وخصت خالتي عائشة في دعائها وصدقتها وتقول: هي أُمي، ما عرفت أُمّاً غيرها. وصدق نبينا ﷺ: «**الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ**»[1].

ومن أخبار أمي أنها لما تزوجت أبي اشترط عليه جدي أن يُبقيها في الزلفي ولا يسافر ولا يسافر بها إلى الرياض، مع أن أبي كان يعمل حينذاك في الرياض، وكان هذا الشرط مألوفا في بلدات نجد حينها لصعوبة التواصل، وخوف الآباء على بناتهم أن تسافر إلى بلد ليس لها فيه أحد، ولا يدرون ما يعرض لها في وحدتها.

وتم الزواج على هذا ورزقت أمي بأول ذريتها، فكنت الأول والأكبر من أولادها، والأكثر حباً أو هكذا أظن.

وكانت إذا وضعتني في مهدي ألقت كل ما على المشاجب من الثياب على الأرض وإن كانت في ناحية الغرفة القصية خشية أن تقع من الوتد فتحلق في سماء الغرفة ثم تختار الزاوية التي أنا فيها فتجثم عليَّ.

وطال على أبي الغياب وقد استوطن الرياض ونقل إليها أمه جدتي فاطمة وخالته وضحى، وكانت الرحلة شاقة، فطلب إلى جدي أن يأذن لها في الانتقال فأدرك جدي حبُّ ابنته وخوفُه عليها فأبى ذلك بشدة، فلما طال عليه الأمد وشق عليه التردد، حيث الرحلة شاقة، والطرق غير معبدة، أرسل إلى أمي رسالة شفوية مع إحدى صديقات جدتي لتقول لأمي: إن ناصر لا يستطيع أن يتردد عليك، فإن كان إذا جاء رجعت معه

(١) «صحيح البخاري» (٢٦٩٩، ٤٢٥١).

إلى الرياض أتى إليك، وإلا فلن يأتي، وحملت المرأة الرسالة فلما وصلت الزلفي أرسلت إلى أمي فبلغتها الرسالة، وطلبت منها الجواب فتلقته جوابا فوريا بسرعة وجُرأة: نعم أذهب معه وأعيش عنده، فما إن جاء الجواب إلى الوالد حتى أتى إلى الزلفي وكأنها الزيارة المعتادة، واتفق مع صاحب سيارة نقل أن يستأجر سيارته كاملة، وفي ليلة غاب قمرها وغارت نجومها سار الموكب الصغير أبي وأمي ورضيعهما، والسيارة وسائقها، ولم يشعر أهلها بسفرها إلا بعد وصولها الرياض، وكعادة القُرى تكون فيها القصة الصغيرة حادثة كبيرة يقضي الناس فراغهم في حكايتها والتعليق عليها، وكأنها أخص خصوصياتهم، ولذا ما أسرع أن فشا الخبر وانتشر، وصار حديث الناس كلهم، وإذا التقيت اليوم أحدا من أتراب والدي كان حديثه إلي عن ليلة الهروب الكبير مما يلاطفني به، ومن أكثرهم ذكرا لذلك الشيخ سليمان الفالح والذي كلما أتيته ذكر القصة بطريقة ورواية أخرى.

أما أمي فقد وصلَت الرياض وكانت قد سبقتها جدتي وخالتي فعاشت في بيت مأنوس لم تجد فيه وحشة الوحدة، ولا شعور الغربة، وقالت: «رب أنزلني منزلا مبارك وأنت خير المنزلين».

وأما أخوالي فعندما علموا باستقرار ابنتهم وحسن حالها، طابوا نفسا بذلك، فما شحوا بها إلا حرصا عليها، فإذا كانت سعيدة فهنيئا لها وإن كانت بعيدة.

وعندما وعيت وعرفت القصة برواية الأبعدين وجدتها فرصة لأشاغبها بذكرها، فتزعم فيما تزعم أنها إنما فعلت ذلك من أجلي وبسببي فقط، فأقول لها: نعم بسببي وبأسباب أخرى، فتغضب وتقول: أي أسباب أخرى؟

فأقول: بعضه من أجلي، وكله من أجل أبي، فتثير شجارا تتصنع فيه الغضب وتداري الضحك، وصدق رسول الله ﷺ: «**إن الرجل من المرأة لبمكان**».

وإذا أردت أن أرضي غرورها قلت: هل مر عليك يوم ندمت فيه على هذا القرار؟ فتقول بزهو: لم أندم يوماً ولا بعض يوم.

أما أبي فقد حفظ لها هذا الموقف الوفائي، فلم يحوجها إلى مراجعة موقفها ذلك، ولما جاوز الأربعين، قلت له ملاطفاً: لو تزوجت يا أبي فلا زلت في عافيتك وقوتك، فرد عليَّ باسما وقد حسم أمره: استشر أمك، فلم أشاورها فأنا أعلم أني لن أحمد عاقبة هذه المشورة، وعلمت أن أبي أغلق باب الزواج وأضاع المفتاح، وفاء لمن وفت له، وحسن عهد معها، وإن حسن العهد من الإيمان.

وأما اليوم فإن أسعد لحظات حياتي عندما أفاجئها بما أكتشف أن لها فيه رغبة، أو ألبي لها طلبا قبل أن تطلبه.

وعندما أخرجت كتاب «القبر المقدس» جعلت إهداءه:

إلى أحب الناس إلي، وأعظمهم حقا عليَّ، وأحقهم بحسن صحابتي..

إلى من لا أدرك لها جزاءً، ولا ألحق لها كفاء، ولا أستطيع أن أؤدي لها حقا..

إلى التي رعتني وربتني، وأحسنت بي وإلي، ولا زلت أتفيأ نعيم الطفولة في ظلها، وأنس الحياة بقربها.. وأستنزل البركات بدعائها..

إلى أمي حصة المحمد الحمود العامر الشمرية.

سائلا الله عز وجل أن يجعل هذا الكتاب من العلم الذي ينتفع به ويتتابع عليها أجره وبره وذخره، وأن يتولى ربي كفاءها وجزاءها بما لا أستطيع كفاءه، فيجزيها عني خير ما جزى أُماً عن ولدها، وأن يبارك في عمرها، وينسأ في أجلها على عافية وحسن عمل.

﴿رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾.

ومما أتفنن به في برها كثرة إشعارها باحتياجي إليها وعدم استغنائي عنها، وبقاء حاجات لي لا تقضى إلا على يديها، وكثرة استشارتها فيما يناسب استشارتها فيه.

وعندما بدأت أخضب لحيتي بالحناء لأن شعرها بدأ يتغير من السواد إلى البياض لأسباب مجهولة، صرت أطلب إليها أن تخضبها لي، وآتي إليها وأتمدد عندها وألوم زوجاتي وبناتي، وهذا الجيل كلَّه الذين لا يحسنون خضاب اللحية بالحناء، فتبدأ معركة الحناء بالتوبيخ لي كلما تحركت، كما كانت تفعل عندما كانت تلبسني جواربي وحذائي عند الذهاب للمدرسة الابتدائية.

فإذا وضعت حرب الحناء أوزارها قامت وبها شيء من زهو الانتصار، وكأنها استعادت أمومتها المبكرة.

أوووه... أخاف أن تقرأ عليها إحدى بناتي هذا الكلام فتكون فضيحتي عندها، خاصة جوهرة فهي التي تحب إثارة الفتن، وتأجيج الثورات، والثورات المضادة داخل بيتنا.

ولا زلت أعيش نعيم الطفولة إلى اليوم بمتابعة أمي واهتمامها وتوبيخها، فلا زلت في عينها ابنها ذاك الصغير لم يكبر بعد، وكم أشعر أني استعدت شبابي وصباي حين توبخني، وتكرر عليَّ: قلت لك حتى تعب لساني، تَقرَّح لساني من كثرة ما أقول لك: أنا كالمؤذن في مسجد ليس فيه جماعة، الذي ليس له في نفسه واعظ لا تنفعه المواعظ، ومثل هذه التعنيفات التي تعنفني بها عندما أفعل ما تعده خطأ، وتتهمني بأني لم أتعلم بعد ولم أفهم بعد، وهي مصيبة في كثير من ذلك، ولكن لهذا التوبيخ لذةً تجعلني أتعمد استثارتها حتى تستمتع بممارسة سيادتها ودورها القيادي.

ومن أكثر ما توبخني عليه ما تراه من فوضوية في بعض شأني، ولذا تكرر عليَّ: أنت فيضوي، فإذا ألقت القبض عليَّ في شيء أضعته شمتت فيَّ وقالت: الحمد لله أن أعضاءك مجتمعة فيك، وإلا كان أشغلتنا ندورها وراك، ونلاقي كل عضو في مكان.

وما زالت تقوم بمسؤولياتها في رعاية البيت، بحزمٍ شديد، فهي التي توزع مفاتيح الأبواب على أبنائي وأبناء إخوتي وأخواتي، والذي تعطِّيه المفتاح فكأنه أخذ الميدالية الذهبية في نهائيات كأس العالم.

ومما تتفقد به البيت إغلاق الأبواب بعد صلاة العشاء، ومع أن للبيت مزاليج حديدية لا تستطيع جنُّ سليمان فتحها فإنها مع ذلك لا تنام حتى تغلق الباب بالمفتاح ثم تضعه في جيبها، أعني المفتاح لا الباب[١].

فسبحان من جعل في وجود الأم هذا النعيم، وفي صحبتها هذا الأنس، وفي دعائها هذه البركة، وفي عتابها وتوبيخها هذه اللذة، اللهم أدم لنا عافيتها وأسعدنا ببرها.



أمي تحف بها رعيتها من الأبناء والأحفاد

(١) من عبارات المازني.

جدتي في ذاكرتي

سألتني أبا رناد أن أكتب لك شيئاً من ذكرياتي مع المرأة، وما كنت أحسب مسألتك ستثير من كوامن الشعور، وخوافي الوجدان ما أثارت.

دعا باســـم ليلى غيرهـــا فكأنما أطار بليلى طائراً كان في صدري

لقد استثرت ذكريات أعادتني إلى صبا الصبا وبدوات الشباب، وبيت من الطين في زقاق مسدود منشعب من سكك (دخنة) ودروبها.

وكانت دويرتنا هذه وإن ضاقت عن كثير من وسائل الترف إلا أن حجرها المتقاربة الجدُرُ كانت مستودعاً لألوان من السعادة والإبهاج، تمتعنا فيها واستمتعنا، ثم فقدناها وما نسيناها. وكنا نعيش في اليوم (٢٤) ساعة بكمالها، لا يقتل من ساعات نهارنا إرهاق العمل وتعقيد الحياة، ولا يسرق من ساعات ليلنا طول السهر، فكان نهارنا معاشا، ونومنا سباتا.

وكانت تلك المرأة تُفتِّق لنا أفواف الإيناس مع ساعات البكور، وتهدهدها لنا عند الإمساء، حتى لو فَقَدتَ الأُنس لوجدته ثاوياً في دارنا لا يبرح، وكانت طفولتنا مشدودة إليها بحب وإعجاب يكبر معنا كلما كبرنا، كانت جدتي التي لم تطفئ السنون

وضاءتها، ولم تَذْبل نُضرة النعيم في محياها تعيشُ وتعيشُ بنا معها جواً عجيباً من السكينة والسكون وطمأنينة النفس.

كان لها في النهار سبح طويل، يتنفس الصبح فتدب في البيت الحياة، فما كنا عرفنا بعدُ إغماءة الصباح وسكرات الضحى، فيبدأ يومنا معها بالتطهر في ساعات الضحى الأولى ثم الصلاة المطمئنة، ثم تفترش في صحن البيت مصلاها وتنشر مصحفها وهو ذات المصحف الذي تعلّمتْ فيه قراءة القرآن أول ما تعلمته، فصحبته أزيد من ستين سنةً حالَّة مرتحلة من أوله إلى آخره، فتنصرم ساعات الضحى ولها دوي بالقرآن، حتى إني لأظن اليوم أنها كانت تختم القرآن كل ثلاث، فكان بيتنا منوّراً بالقرآن، معطَّراً بالذكر كأنما تتنزل السكينة على جنباته، حتى إذا استعر النهار قامت لتصلي صلاة الأوابين وتتهيأ بعدها لصلاة الظهر، وكانت تؤدي الصلاة باحتفاء عجيب، فمصلاها في حجرتها حمى مصان تعتني بتطهيره وتطييبه إلى حد المبالغة، ولها ثوب سابغ للصلاة يتدلى سواكها من جيبه، فإذا وقفت لصلاتها رأينا حالاً من التهيؤ تشعر أنها مقبلة على أمر عظيم، ثم تترسل في أداء الرواتب بطمأنينة وأناة حتى إنا لنخرج للصلاة في المسجد ثم نعود وهي لما تنته من صلاتها بعد.

أما قبل صلاة العصر فإني أخف إليها بنسخة قديمة صفراء من كتاب «رياض الصالحين» أقرأ عليها أبواباً منه لا أدري كيف كانت قراءة الصبي حينها؛ لكني أدري أنها تستمع الحديث وكأنها تعيشه مرأى ومسمعاً، فإذا أُذِّن لصلاة العصر فزعت إلى صلاتها ثم نشرت مصحفها وشرعت في دوي محبب مع آيات القرآن إلى أن تختنق آخر ساعات النهار.

فإذا صلت صلاة المغرب فقلما تخلع ثوب صلاتها ولكن ترفع أكمامه وتستند إلى الجدار وتبدأ قراءة محفوظها من القرآن، وغالباً ما تبدأ بسورة الملك فما بعدها، إلا ليلة الجمعة فتقرأ سورة الكهف، فإذا أذن العشاء فإذا هي على تهيئها قامت فصلت

العشاء ثم أتبعتها قدرا من ناشئة الليل، وما هي إلا سويعة أو بعضها حتى يلف البيت سكون حبيب.

فقد كان ليلنا ليلاً على الحقيقة تحتضننا مضاجعنا في ساعاته الأولى، فإذا كان ثلث الليل الآخر صلصلت ساعة كبيرة تعلن موعد صلاة التهجد لأهل قيام الليل، وكانت هي المعنية من بيننا بذاك الرنين.

فياكم استيقظت في الهزيع الأخير من الليل فأراها واقفة تصلي فأتوثب للقيام ظناً منّي أنها تصلي صلاة الفجر فتشير إليّ أن نم فلم يؤذن الفجر بعد. فأعود إلى نومي وتعود هي إلى صلاتها.

فبقي مشهدها عظة باقية، أتذكرها وأقول: فما أسرع ما قضي العمر، وطوى ذاك النَّصب، وها قد أفضت إلى الرب الذي كانت تعبد، وما عند الله خير وأبقى.

ويا كم رأيت لغوب الصيام على شفتيها وهي تقطع نهاراً حارا بعيد ما بين الطرفين، لم تزرنا فيه وسائل التكييف بعد.

فيا لله من أيام مضت معها كانت مدرسةُ القدوة ماثلةً لنا من حالها، صلاةٌ بجلال، وصيام بمكابدة، وتلاوة بتلذذ، وعبادة بتأله، ولهج بالذكر، وأوقات معمورة بالخير.

وكانت بَرَكةً علينا أهلَ ذاك البيت بدعائها، وصلاتها، وتلاوتها، وذكرها. وكأنما كانت تشع على نفوسنا من سكينة روحها وطمأنينة نفسها دفقا من السعادة والإيناس، وهناء العيش، وطيب الحياة.

وكان لكل منا حضوره في حياتها، ونصيبه من اهتمامها، أما أبي فكان وحيدها الذي ما ذاقت صفو الحياة وسكونها وسكينتها إلا بعد أن شب فآواها ورعاها وذاقت لذة بره وارتوى نعيم برها.

وكانت عليه لِهفة، فإذا تأخر جلست تنتظره عند الباب، فأقول لها وأنا صغير: يا جدة، إذا وصل إلى الباب وصل إلى البيت، فانتظريه في الداخل، فتقول لي: أنت لا تحس بالذي أحس به.

ثم فقدتها وأنا أدلف إلى سنوات المراهقة وشرة الشباب، فلا أنسى تلك الوحشة التي أظلمت لها نفسي يوم خلت منها دارنا فكأنما أخذت معها شعبة من قلوبنا.

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

واليوم وقد تقصفت بعدها الأيام، وتدافعت السنون، وأبعدنا عنها نحو نصف قرن من الزمان، وما زالت لوعة فقدها حية في نفسي، ومشاهدها ماثلة أمامي، وعظة حالها بالغة في قلبي أذكرها اليوم فأذكر امرأة أحسب أن أبا نعيم لو أدركها لجعلها في «حلية الأولياء»، أو ابن الجوزي لأدرجها في «صفوة الصفوة».

أذكرها فأذكر أنها بذاك النسك والتأله، كانت من أهنأ الناس عيشا، وأطيبهم نفساً، وإن كان حظها من رفاهية الحياة جِدُّ قليل.

أذكرها فأذكر تلك الأيام الجميلة في البيوت العتيقة، مع اجتماع الشمل، والتفاف الأهل، وقوة الأواصر، واتساع أوقات الحياة.

فهذه يا أبا رناد بعض ذكرياتي مع المرأة، مع جدتي أم ناصر فاطمة بنت عبد الله الرومي.

رحمها الله وجمعنا بها في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.





مصحف جدتي الذي ارتحل يدها نحواً من ستين سنة

بيتنا

تنقلنا في طفولتي بين عدة بيوت من الطين، وكنا نسمي كل بيت باسم مؤجِّره، فنقول: بيت الوهيبي، وبيت سكيرين، وبيت السكيري، وهكذا، وذلك قبل أن يبني الوالد بيتنا الطيني الذي شهدت بناءه وأنا دون السابعة، ووعيت ذلك وكأني أراه الآن.

كان البيت الأول قريبا من جامع الفريان وحوله نخل يسقى على الدواب على الطريقة ذاته التي كانت في غابر الدهر، وهي الطريقة التي يرد ذكرها في أخبار السيرة، ومن أدواتها الغَرْب والرَّشا والمحالة، وكانت في البيت حنفية ماء واحدة في وسط البيت، ولم يكن ثمة كهرباء، فإذا جاء ضيف إلى الوالد في الليل أضاء له السراج الوحيد، أما العقارب التي تشاركنا السكن فحدث عن كثرتها ولا حرج، ولكن الله حفظنا منها فلا أذكر أن أحدا منا لُدغ منها، وكأن بيننا اتفاقية سلام مشترك، ثم انتقلنا في عدة بيوت بعده لا يطول لبثنا فيها حتى تم بناء بيتنا في حارة دخنة.

كان البيت فوق المتوسط بالنسبة لبيوت الحارة، فليس من كبارها ولا صغارها، ومما يميزه سعة مجلسه وبهوه.

وهذا البيت شهدتُ فيه وأسرتي أول ثلاجة، وودعنا بعدها القِرْبةَ التي كنا نبرد الماء فيها، وأول غسالة وودعت أمي بعدها طست الغسيل، وأول بوتغاز فودعت أمي موقد الكيروسين والذي كان يسمى (الكُولة والدافور).

أما المكيف فلم يزر بيتنا ذاك، وكانت فيه مراوح معلقة في السقف تحرك الهواء الحار فيصير سموماً لافحاً.

أما الذي يميز بيتنا هذا عن بيوت الحي كلِّها فهو وجود غرفة خاصة تسمى المكتبة، تحيط رفوف الكتب بحيطانها الأربع، وكانت الغرفة الوحيدة التي يغلق بابها، وكانت المكتبة قدس الأقداس لا يدخلها إلا أبي، وكنا نستمتع برؤيته وهو جالس فيها على مكتبه الصغير والكتب تحيط به والباب مفتوح أمامه حيث هو متنفس الهواء الوحيد.

وكنت أدخلها أحيانا مع أبي وأذكر مواضع الكتب فيها، فهذه الجهة فيها «فتح الباري»، و«جامع الأصول»، و«صحيح مسلم»، و«ذخائر المواريث»، وغيرها من كتب الحديث.

وهذه جهة فيها «تفسير ابن كثير» و«الإتقان» للسيوطي وغيرها من علوم القرآن، وهذه جهة فيها «الصحاح» للجوهري، و«الكامل» للمبرد، وكتب اللغة والأدب.

وكان الوالد رتب الكتب في رفوفها على الفنون فإذا أخرج كتابا أعاده إلى مكانه.

ولا أذكر أن في بيت من بيوت الحارة مكتبة ولا كتبا غير كتب الطلاب المدرسية.

أما السطوح فهي السكن الليلي في الصيف حيث تُفرش الفُرُش فيها قبل الغروب ثم نأوي إليها بعد صلاة العشاء مباشرة.

وفي الشتاء ننام في حجرات البيت، وفي فصل الربيع والخريف ننام في بهو البيت.

وكانت فرشنا طراحات من قطن نفرشها للنوم ونطويها إذا استيقظنا، ولم أعرف النوم على السرير إلا بعد أن تزوجت، وانتقلنا من البيت الطيني وأنا في العشرين من عمري.

ولم يدخل التلفزيون بيت الوالد إلى يومه هذا، ولذا فلم يقطع جلساتنا ولم يشغلنا عن بعضنا، وهو ما أتاح لنا الجلسات الحميمية مع والدي، وحديثه المأنوس إلينا.

وكان الراديو هو نافذتنا على الدنيا حين نستمع إلى إذاعة «هنا لندن» ببرامجها المميزة ومنها: «ندوة المستمعين»، و«قول على قول» لحسن الكرمي، و«العالم هذا المساء»، وحفظت أسماء مذيعيها: محمد مصطفى رمضان، وهدى الرشيد، ومديحة رشيد المدفعي، وماجد سرحان، ورشاد المحتسب.

ولا أزال أذكر ماجد سرحان يقدم ذات يوم برنامج العالم هذا المساء، فقال: العالم هذا المساء على حَطَّة إيدكم.

وكان في بيتنا جلسات العجائز بعد العصر يجتمعن إلى جدتي، وكانت مقصودة لصلاحها وقراءتها القرآن، فكانت تُقصد للرقية، ومما أذكره سماحتها بالقراءة على كل أحد يطلب منها ذلك، فكانت قوارير ماء الورد تصف بين يديها فتنفث فيها، ومن المشاهد الراسخة في ذهني رفضها بحزم أي مقابل يُعرضُ عليها مقابل الرقية.

وفي هذا البيت توفيت جدتي وأنا في الخامسة عشرة وقد كانت لي صديقة وشيخة، وكان وجودها في البيت ضياء وبركة، وكانت وفاتها أول مواجهة لي مع الموت، وكان مشهد الاحتضار، ولوعة الغياب مشاهد لا تنسى.

واليوم أتذكر هذا البيت الذي شهد الطفولة والفتوة والشباب، وحفرت ذكرياته في قاع الذاكرة، وأتذكر ما انتقلنا إليه بعده من البيوت في حي الشفا وحي العليا ثم في حي الروابي، فأحمد الله وهو للحمد أهل أنه لم ينقلنا من دار إلا إلى دار أوسع منها، ولم يغير علينا إلا بالذي هو خير لنا، فلربنا الحمد والشكر.



باب بيتنا الخارجي



البيت من الداخل، وهذا الدَّرَج كان أول منبر أخطب عليه



قربة الماء والتي صحبتنا في بيتنا الطيني، وكانت ثلاجتنا
قبل أن تطردها ثلاجة وستنكهاوس

حارتنا

حارة دخنة من أحياء الرياض التي ظهرت خارج سور الرياض الذي أدركنا أطلاله، وكانت نخيلا قُطِّعت إلى أراض سكنية، وفي وسط الحارة كانت البئر القديمة التي تسقي ذاك النخيل، وقد أدركناها مهجورة ثم ردمت وجعل فوقها بيت صغير من الطين.

كانت بيوت الحارة الطينية يغلب عليها مظهر الرفاهية، فقد كانت واسعة المساحة، شاهقة الارتفاع، لكل دار منها بهو واسع تحيط به رواقات محمولة على أعمدة حجرية مكسوة بالجص، وفي الدور الأول مجلس واسع قريب من الباب الخارجي، وحجرات تحيط بالبهو، وحوش في آخر البيت له باب إلى الخارج يكون عادة للماشية.

وفي الدور الثاني غرفة واسعة تسمى: الروشن، تكون فوق المجلس وغرفات تحيط بالرواق الثاني، ثم السطوح وهي المتنفس الصيفي للأسر، بها سمرهم ونومهم، أما سككها فمتربة يثور غبارها إذا مرت بها سيارة، أو انتثر فيها الأطفال للعب الكرة.

أما في موسم الأمطار فتتحول السكك إلى دروب موحلة، ويصير طريقها صعيدا زلقا.

وكانت الحارة آهلة بالوجهاء والأغنياء، وقد سكنَّاها وفيها بقية منهم: آل سلمة، والشقري، والعساكر، وآل الرشيد، وآل سالم، وغيرهم.

وفيها بيوت متوسطة أحدها بيتنا، وبيوت قليلة صغيرة للإيجار تسكنها بعض الأسر الفقيرة العابرة.

وكانت أبواب البيوت خشبية من جذوع النخل تفتح صباحاً وتظل مشرعة إلى الليل يغلقها آخر من يدخل بعد صلاة العشاء.

أما الأطفال فيخرجون صباحا وينتشرون في السكك لا يعيدهم إلى البيوت إلا حر الظهيرة، أو ظلام الليل، أو وجبة الغداء والعشاء، فلا يدخلون البيوت إلا لضرورة النوم أو الأكل.

ومن أبهى ما أذكره في تلك الحارة منظر الشيوخ العباد، وبكورهم للصلاة قبل الأذان بوقت طويل، وكثرة التزاور بين النساء بحيث تكون فترة العصر فترة الزيارات النسائية، وكان بيتنا مقصودا لوجود جدتي التي يأتيها عجائز الحي ونساؤه الكبيرات، ومما أتذكره أنهن يجتمعن عندها فإذا أردن الخروج لبسن عباءاتهن وقامت معهن تودعهن إلى الباب فيقفن عند الباب يتحدثن، وربما تعبن من الوقوف فجلسن في الأرض، فيكون الحديث الوداعي عند الباب أطول من حديث الزيارة داخل البيت.

ومن المشاهد الخالدة في ذهني أني رجعت يوماً إلى البيت عائداً من حلقة القرآن في المسجد قبيل المغرب؛ وهي ساعة يتفرق الزوار فيها وتخلو جدتي لوردها المسائي وتتهيأ لصلاة المغرب فلما دخلت البيت وجدت عندها زوجة أحد جيراننا، وكانت فتاة في سنة زواجها الأولى ومعها طفل رضيع وكانت في حال فزع وذعر، وجدتي قد التزمتها وهي تطمئنها وتقول لها: خيرٌ إن شاء الله، واستعيذي بالله من الشيطان، ولن يكون إلا الخير، ولم أفهم ما جرى مع أن المشهد كان مثيراً، ثم علمت من أمي فيما بعد أن جارتنا طرفة كانت تقص على جدتي رؤيا أفزعتها، فقد رأت خالها الذي توفي قريباً وهو يطل عليها من سطح البيت وهي في بهوه ويناديها أن تصعد إليه، وكانت قد فزعت لهذه الرؤيا وجاءت تقصها على جدتي التي حاولت تسكين فزعها، ولكن

سرعان ما فقدناها وسمعنا أنها تشتكي ألماً في رأسها، وما مر إلا قليل حتى توفيت رحمها الله، وكان هذا تأويل رؤياها من قبل.

ومن صور التواصل الاجتماعي في حارتنا أن أهل البيت الذي فيه وليمة يرسلون أطفالهم إلى جيرانهم القريبين برسالة نصها المحفوظ: تقول أمي لا تطبخون اليوم، عندنا عزيمة، بنرسل غداكم.

وبين الجيران القوامة والرعاية، فالكبير أب للجميع، وكأني أنظر إلى أبي وقد خرجت وإياه إلى صلاة الظهر وكنا نصلي في المسجد الشمالي وهو يتأخر في إقامة الصلاة فلقينا جارنا الشيخ عبد العزيز القفاري عائدا من الصلاة؛ لأنه يصلي في المسجد الجنوبي الذي يعجل بإقامة الصلاة، فاستوقف أبي وجعل يوبخه لماذا يتأخر عن الصلاة؟! وأبي يعتذر إليه ويخبره أني شغلته وأنه سيصلي في المسجد الآخر الذي يتأخر، وهكذا كان، فقد ذهبنا وأدركنا الصلاة وبقي في ذهني غضب الشيخ على أبي وتوبيخه له بعفوية وكأنه يكلم أحد أبنائه، وتوقير أبي له وتقديره لكلامه وتوقيره كما يوقر أباه.

أتذكر جارنا ناصر بن عيسى وقد أراد أن يسافر بأهله، فأعطانا مفتاح بيته وأخبرنا أن بعض معارفه سيأتون فأعطوهم المفتاح، وبينما نحن في ضحوة يوم إذ دخلت بيتنا بدوية وهي تنادي: يا أهل البيت، فاستقبلتها جدتي وأدخلتها فأخبرتنا أنها جاءت لبيت جيراننا فلم تجدهم، فأخبرناها أنهم مسافرون، وأعطيناها المفتاح واستبقيناها عندنا هي وابنتها، وذهب أبي في المساء واشترى فرشا وأغطية، وصارت تنام عندنا هي وابنتها، وكانت تتاجر في الأغنام فبقيت عندنا حتى انتهى موسم الأضاحي، واستخدمت بيت جيراننا حظيرة لأغنامها، وكلما عادت من السوق حدثتنا: ماذا باعت؟ وماذا اشترت؟ فإذا تذكرت هذا المشهد تذكرت معه بساطة الحياة حينها، وقوة التكافل أن تعيش امرأة

غريبة مع ابنتها قرابة الشهر في بيت أناس لا تعرفهم إلا أنهم جيران معارفها، وهذا الإلف الذي تكون بيننا وبينها وكأننا نعرفها منذ زمن بعيد.

ولم يكن في حارتنا أول سكنانا لها إلا سيارة واحدة لجارنا صالح بن سعد بن سلمة، وكان مهذبا سمحا، فكان بعض الجيران إذا أراد الذهاب إلى مكان بالسيارة ذهبوا إليه ليوصلهم فكانت سيارته سيارة الحي كله.

وعندما افتتح إرسال التلفزيون لم يكن محل ترحيب من كثيرين، ولم يدخل أكثر البيوت لأسباب مادية أو دينية، وكان في الحارة بيوت معدودة فيها التلفزيون، ومنها بيت العم سالم العيد أبو صالح، واشترى أبناؤه التلفزيون ووضعوه في المجلس وهو بجانب الباب الخارجي، فكان صبية الحارة يتقاطرون بعد المغرب كل ليلة عند التلفزيون، وكانت أم صالح تجلس في ناحية من المجلس تعد لهم الشاي والحليب، وتحول المجلس إلى مقهى مجاني للأطفال، وما شعرنا يوماً أن أعينهم ضاقت بنا، أو أنهم تبرموا منا.

ولم نكن إذا أردنا الدخول نطرق الباب أو ننتظر إذنا، وإنما ننادي ونحن داخلون: مساعد محيسن، بأسماء أبنائهم، ولا ننتهي من نطق الاسم إلا وقد أخذنا مجالسنا.

ومع ما رويته لك من الصُّور الجميلة لحارتنا فلا يذهب ذهنك بعيدا مع تلك الحكايات عن طيب الحياة في الحارات القديمة، وعن الناس الطيبين فيها، والذين يعيشون على الأرض وكأنهم ملائكة هبطت من السماء، لا يحسدون، ولا يبغضون، ولا يتشاجرون.

فما يحكى عن الناس الطيبين قديماً وحديثاً، وعن صفاء قلوبهم هو الماضي الجميل يذكره الناس وقد نسج الخيال له حللاً لها جلال وبهاء، ولكنها خيال يُحكى ولم تكن واقعاً يُعاش.

ومن حكى لك ذلك عنها فهو لم يدركها ولم يعرفها، أو أنه أدركها ولكنه يبكي شبابه الذي عاشه فيها.

وحبـــب أوطان الرجـــال إليهم   مـــآرب قضَّاها الشـــباب هنالكا
إذا ذكـــروا أوطانهـــم ذكرتهم   عهـــود الصبا فيهـــا فحنوا لذلكا

فقد كان في تلك الحارات خير كثير، وكان فيها أيضاً أوبئة نفسية، وخصومات وصخب، وأحوال سيئة تطوى ولا تروى.

ودعني أروي لك من ذلك طرفا حتى تعتدل كفتا الميزان في تصورك.

كانت البيوت متقاربة، والسكك مزدحمة، والأطفال والمراهقون محتشدون فيها، ولذا ما كان يمر يوم إلا وقد حصلت مشاجرة هنا ومضاربة هناك، وقلما تجد فتى إلا وفي رأسه أو وجهه أثر شجة، وكان نصيبي من ذلك أن فتى يكبرني ضربني بقبضته على وجهي فانتثر من أنفي حمولة صهريجين ونصف من الدم، وكسر أنفي وعندما تجاوزت الثلاثين عملت عملية جراحية لترميم ذلك الكسر.

وكان في وسط حارتنا سكة تصلها بالأحياء الجنوبية الدوبية ومعكال، وفي شمالها مخفر للشرطة فكنا كثيراً ما نرى رجلاً يسير ومعه ابنه الجريح بشجة في رأسه أو وجهه ومعه شرطي ذهب معه إلى خصمه والذي هو جاره غالبا، فما إن نراهم حتى نسير معهم وينضم معنا من نلقاهم من صبيان السكك حتى تتحول المسيرة إلى مظاهرة، وكل ذلك حتى نحصل على فُرجتنا حين نرى شجار الآباء بعد شجار الأبناء.

وليس صحيحا ما يحكى لك عن خلوها من الحسد والشحناء والبغضاء، فهذه أمراض الناس النفسية في كل الأزمان، وكم شهدنا ونحن صغار قطيعة بين أشياخ كبار قد شابت لحاهم وطالت صحبتهم في المسجد ثم تهاجروا سنين عددا على لا سبب، ولو قارنتُ ذاك الزمان بهذا الزمان لقلت لك بوثوق زماننا هذا خير مقاما وأحسن نديا،

فلم أر أطفالا في حي الروابي يتشاجرون، ولا جيرانا يتخاصمون، وقَلَّت في مساجدنا خلافات الجماعة وشجارهم مع الإمام أحيانا ومع المؤذن أحيانا وبينهم أحيانا أخرى.

وأُحس أن سعة البيوت قد غيرت النفوس إلى الأحسن، فصارت البيوت مستراحا للأسرة صغارها وكبارها، وقل انتشار الأطفال في الشوارع، وشغل كل بنفسه ومشاغله عن غيره، فإن أبيت إلا أن تعيب هذا الزمان فتذكر.

نعيـــب زماننـــا والعيـــب فينا   ومـــا لزماننـــا عيـــب ســـوانا

وإن كانت حارتنا فيما أحسب الأقل نصيبا من ذلك، ولعل ذلك لرقي أهلها الذين كانوا من عوائل الرياض الكريمة الراقية.

وبقي في ذاكرتي رجالات الحارة الذين كنا ننظر لهم ونحن أطفال بمهابة وإجلال، الشيخ عبد الله القصير، وعلي بن خميس، وطلال الرشيد، وعبد العزيز القفاري، وصالح بن سعد عمران، ومحمد بن نشوان، وسعد بن سلمة وغيرهم رحمهم الله.

وممن بقيت علاقتي بهم متواصلة أبناء العم عبد الله القصير: عبد العزيز، ومحمد، وصالح، وحمد، وهم من لداتي، وعبد الرحمن، وعبد الكريم، وفهد أبناء العم صالح بن عمران، وخالد بن محمد بن عيفان، والدكتور عبد العزيز بن صالح بن سلمة وكان أصغر سنا مني قليلا، وأوسع ثقافةً كثيراً، وكان يسبق عمره بمراحل وعيا واطلاعا، ولا أدري لماذا لا يكون له من الحضور الثقافي ما يليق بحصيلته العلمية والفكرية.

وأَخَوي عبد الله ومحمد أبناء سعيد السيد، والدكتور عبد الله الربيعة وكان أبوه وعمه جيران بيتنا الملاصق، وغيرهم كثير تشعبت بنا وبهم طرق الحياة، وتفرقنا بين نواحيها ومشاغلها، غفر الله للأموات ومتَّع الأحياء متاعا حسنا.

وأكثر سكان الحارة من الأغنياء أو المتوسطين وكنا منهم، أما الفقراء فكانوا قلة يستأجرون ثم يغادرون، ولا أذكر أي فرق في التعامل بين هذه الفئات صغارا أو كبارا.

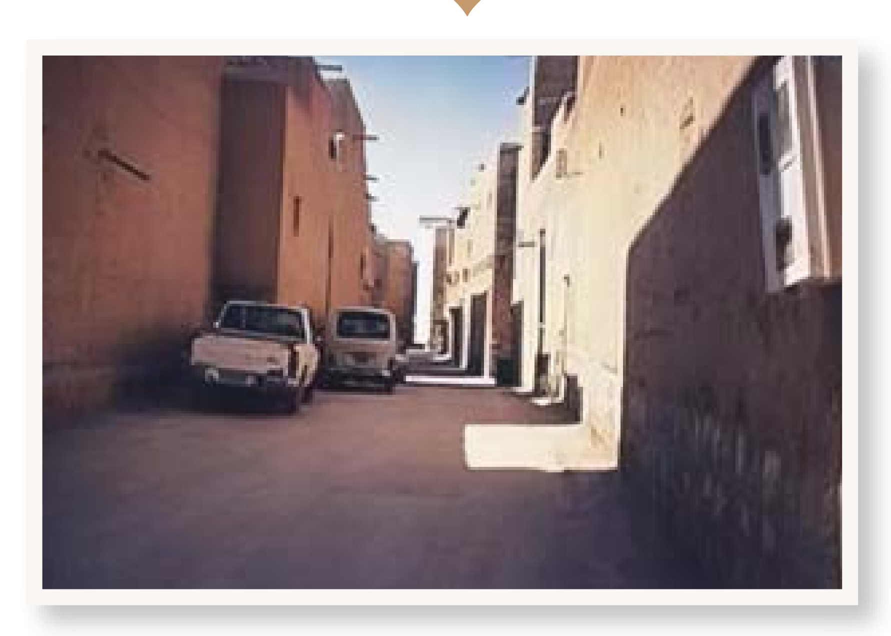
ولقد أرسلتني أمي يوماً ببقايا طعامٍ إلى جيران لنا فقراء أنثره لغنمهم، فناولته بنتاً لهم من صديقاتي وفي عمري، فأخذتْ الإناء مني وجعلنا نتحدث وهي تأكل من الطعام الذي أحضرته للغنم حتى أنهته هنيئا مريئا، ثم ناولتني الإناء فارغا، مودعاً بمثل ما استقبل به من حفاوة وترحيب.

هذه حارة دخنة، حارتي الأولى التي عشت فيها، وهذه بعض حكاياتها.

عشت فيها إلى سن العشرين، ثم عشت في حي الشفاء والعليا إلى سن الأربعين، ثم عشت في حي الروابي إلى السابعة والخمسين، ثم ها أنا اليوم في الحي الذي أعيش فيه الآن، حي باشاك شهير في مدينة إسطنبول، ثم ماذا بعد؟ وإلى أين؟

أنَّى لي بعلم ذلك وأنا لم أتوقع يوماً أني سأكون حيث أنا اليوم، وأنَّى لنا بكشف ستر الغيب المحجوب عنا.

﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾.



طريق حارتنا السالك إلى ميدان دخنة ومنه تتفرع أزقتها



سوق «المُقَيبرة» القريب من حارتنا، والذي كان يقصد من نواحي الرياض فهو سوق كل شيء



عربة (الكارو) وكانت وسيلة النقل بين حاراتنا





هذي الرياض حين تعرفت عليها

جيراننا

كانت حارتنا آهلة برجالات كرام تفرقت بيوتاتهم في أكنافها، كانوا زينة حارتنا بل زينة حياتنا، وكما انتقلوا من حارتنا إلى أحياء أخرى انتقلوا من دنيانا إلى الحياة الأخرى، وبقيت أطيافهم حية تتراءى لنا، نذكرهم بالذكرى الحسنة، والدعاء الصالح، ونتواصل بالود مع أبنائهم وبقية أجيالهم ومنهم:

١ - الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ:

الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ هو أخو المفتي الشيخ محمد بن إبراهيم، وكان المفتي أكبر منه سناً، واشتهر بعلمه بالفرائض، واللغة العربية، وكان يدرسها في حلقة خاصة في مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم في دخنة إلى جوار حلقة أخيه الشيخ محمد والذي كان يقرأ عليه الطلبة المتقدمون في الفقه.

وكان ممن عُرف بالكرم وحسن الخلق، وكان يقال: عبد اللطيف لطيف كاسمه، وبذل نَفسَه للناس فكان يجلس لهم في كتابة الوثائق وقسمة التركات فيما يشبه كتابة العدل الآن، وذلك في بيته احتسابا مع عمله الرسمي مديراً للمعاهد العلمية.

وكان جارنا في حارة دخنة ولكن الصلة به كانت عمل أبي كاتباً عنده، ووظيفة الكاتب هي ما نسميه اليوم السكرتير، ولطول صحبة والدي له فقد كان أكثر من سكرتير،

حيث كان يخالط أهل البيت كأحدهم زوجةَ الشيخ طرفة بنت ناصر آل سرحان، وأبناءه عبد الله ومحمد، وابنته حصة، وأتذكر أن أبي إذا ذهب بي معه كان يدخل إلى مكتبة الشيخ داخل بيته، وأما أنا فكانت تشدني حظيرة الحمام والأرانب فأقضي وقتي أمامها، وأدع أبي في المكتبة، وكان الشيخ إذا خرج للنزهة يأخذنا معه، فأذكر أنَّا ذهبنا وإياه إلى سد وادي نمار، وكان بعيداً عن الرياض ذلك الوقت لنرى امتلاءه بالسيل.

وكان الشيخ يلاطفني على صغر سني فيسألني: ما اسمك؟ فأقول: عبد الوهاب، فيقول: وأنا ما اسمي؟ فأقع في الحرج للإجابة عن هذا السؤال الصعب عليَّ حينها، فيلقنني أبي: قل: الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم.

ولصلة الوالد به لقي عنده أعلام العصر: المشايخ أحمد شاكر، والبشير الإبراهيمي، وعبد الرحمن السعدي، وحامد الفقي، وغيرهم.

وفي مرض وفاته زرته مع أبي في المستشفى فتناول علبة كبيرة وأعطانيها وقال: اجعلها معك، فظننته يريد أن أُمسكها فلما أردنا الخروج أعدتها إليه فضحك وقال: خذها معك، فأخذتها؛ فإذا هي علبة حلوى فاخرة، وكان وقعها عندي كبيراً، فهي أول مرة أرى مثلها بالعين المجردة.

وعندما توفي عام (١٣٨٦هـ) حصل للناس ارتجاج وفجيعة بموته، لما كان يبذل من نفسه للناس، ويقضيه من حوائجهم احتسابا ومروءة وتكرماً -رحمه الله-.

٢- العم محمد بن محمد بن نشوان:

كان بيته في حارتنا وهو البيت الذي تنتهي إليه سكتنا التي هي سكة مسدودة، وطريق غير نافذ.

وعلاقته وثيقة بأبي، وكذا علاقة أسرته، والدته أمي نورة النشوان، وأخته طرفة، وزوجته، الجوهرة الطويل بأمي وجدتي.

وهو من أقرب جيراننا وأكثرهم خلودا في ذاكرتي، وكان له ود وخصوصية بوالدي، وكم أرسلني وقال لي: ناد أبوك، ثم يأتي أبي إليهم وقد فرشوا بساطا خارج البيت وجلس هو ورجال معه ليكتب لهم أبي ويحسب لهم ما يحتاجون كتابته وحسابه.

ومع أنه انتقل عن حينا باكرا إلا أنه بقي وثيق الصلة بنا، وعندما سافر أبي إلى مصر، وأنا في الحادية عشرة من عمري، فكنت أراه وقت الضحى منصباً إلى حارتنا ليس له حاجة إلا بيتنا، فأسلم عليه وأسير معه فينادي جدتي: يا أم ناصر، أم ناصر، فتأتي إليه، ويظل يتحدث إليها ويسألها: ما جاكم خط(١) من ناصر؟ ما جاكم خبر؟ وش لونكم؟ وش تحتاجون؟ تبون شي؟ قاصركم شي؟ ولا يزال يسأل ويعرض بإلحاح ولهف وكأنما هو الأخ لأخيه، وقد كان رحمه الله كذلك.

وكان باراً بوالدته أم محمد، وهو ابنها الوحيد فكان يعاملها كمَلِكة، ويقول لزوجاته وأخواته: كلام أمي لو كان أعوج من ذنب الكلب فهو الصحيح.

ولما سمعت أمي عبر الإذاعة خطبة مؤثرة من خطب الجمعة عن بر الوالدين، وكان يصلها مع الخطبة بكاء بعض الحاضرين، قالت لنا: سمعت بكاء بعض المصلين وأنا متأكدة أن أشدهم بكاء محمد بن نشوان، لا أحدٌ أبرَّ بأمه منه.

ثم يشاء الله أن تفجع هذه الأم بوحيدها الذي توفي بعد مرض عانى منه، ويا لله لثكلها وعظيم فجيعتها، فقد كنت أذهب ووالدي لزيارتها إلى أن توفيت وما أتينا يوماً لزيارتها إلا ويكون حديثها عن محمد وفجيعتها فيه، أتذكر نشيجها حتى كأننا في مجلس العزاء وكأنه توفي البارحة.

وقد خلفه الله في عقبه، ونشأ أبناؤه من بعده على أقوم طريق وأحسن حال، وكانوا جميعاً من المتميزين خُلُقاً، وجِدًّا، ونجاحاً، وسعدت بصداقة لداتي منهم إخوتي

(١) الخط: هي الرسالة البريدية.

عبد العزيز وإبراهيم وفهد، وكان عبد الله أكبر مني، وخالد وعبد الرحمن وسلمان وأحمد أصغر مني، والكل لهم حفاوة وتقدير لوالدي وحسن عهد معه.

رحم الله أبا عبد الله محمد بن نشوان رحمة واسعة.

٣- العم عبد الله بن محمد القُصَيِّر:

كما أن الجبال أوتاد الأرض فقد كان العم عبد الله من أوتاد الحارة وأقطابها، كانت إطلالته من رأس سكة الحارة بمشلحه الأسود وثيابه البيضاء وأناقته الفطرية التي قلما توجد في كبار السن من طبقته إطلالة مميزة، مع مهابة وقوة شخصية ورزانة غير متكلفة، ووسامة في ملامحه تقاوم الزمن، وهو ممن نتعلم منه سمتا ووقارا مع اقتصاد في الكلام شديد.

وتحفظُ الذاكرة منظره وهو ذاهب إلى الصلاة يحمل مصحفاً كبيراً له كساء من قماش نسميه بقشة كمظهر من مظاهر احترام المصحف والمحافظة عليه، ثم يبقى بعد صلاة العصر في المسجد من آخر من يخرج وهو يقرأ في مصحفه هذا.

ومع هذه الرزانة فقد كان يعاملنا ونحن أطفال ويحدثنا كما يحدث الرجال الكبار، ونشعر بالزهو حين يخاطبنا بهذه الطريقة، وهو أول من حدثني بحديث السلام وحفظته عنه، وكلما سمعت الحديث تذكرت يوم حكاه لي بلهجته القصيمية، أن رجلا جاء إلى النبيّ ﷺ فقال: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَرَدَّ عَلَيْهِ ثُمَّ جَلَسَ فَقَالَ: «**عَشْرٌ**». ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله، فَرَدَّ عَلَيْهِ ثُمَّ جَلَسَ فَقَالَ: «**عِشْرُونَ**». ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ فَرَدَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَلَسَ فَقَالَ: «**ثَلَاثُونَ**».

وكان أبناؤه: عبد العزيز، ومحمد، وصالح، وفيصل، وحمد أصدقائي، أما عبد الرحمن فكان أكبر منا وخالد وأحمد أصغر منا.

وكانت زوجته أمي مزنة المحيميد أماً لنا جميعاً، وكانت من أصفياء أمي وبينهما تواؤم وتواد.

أذكر أني قلت لأخي صالح: هل تدري أنني اقترحت على أبي أن يتزوج؟ فنقل الخبر إلى أمي مزنة، فغضبت وقالت: قل لوُهَيِّب[١] ترى أبوك لو يدُور الأرض كلها ما لقي مثل أم عبد الوهاب.

فقمت بدوري بالنميمة، ونقلت إلى أمي كلامها، ومع أن أسهمها عند أمي مرتفعة إلا أن المؤشر كسر الرقم القياسي، وجعلت تفخر بكلامها وتردده على أبي، وكأنه وسام شرف من الدرجة الأولى، وتقول: الله يرفع مقدار أم عبد العزيز.

وكان بيننا من الخلطة ومكاشفة الأحوال حتى كأننا نعيش في بيت واحد، وكان العم عبد الله وأخوه الأكبر أحمد وأخوه الأصغر سليمان شركاء في التجارة، وكانوا يعاملون أخاهم الأكبر كالأب لهم فلم يكن يعاني من العمل ما يعانيه أخواه، فلما توفي صارت الشركة إلى الأخوين عبد الله وسليمان، فلما تقدم بهما العمر فصلا الشراكة بطريقة أخوية فيها سلامة وصفاء.

وبقيت صلتنا مستمرة بأمي مزنة بعد وفاة العم عبد الله، وتفرقت مساكننا وأحياؤنا ولكن بقيت علاقاتها بنا مستمرة، وكنت أزورها بعد أن كبرت فتأتي إلي على كرسيها المتحرك ونتناثر الحديث إلى أن توفيت رحمها الله، وما زالت حية حاضرة في وجدان أمي وذاكرتها ودعائها.

رحمة الله على تلك النفوس الخيرة الطيبة.

٤- العم عبد العزيز بن محمد القفاري:

كان بيته ملاصقاً لبيتنا، وكان شيخاً كبيراً طوالاً يخضب لحيته بالحناء، قد فرغ من العمل وتفرغ للعبادة فهو أول من يذهب إلى المسجد ملتحفاً بشته الأصفر حاملاً مصحفاً كبيراً، ولا أزال أتذكر مروره بنا ذاهباً لصلاة الظهر قبل الأذان بنحو ساعتين،

(١) وُهَيِّب: تصغير: عبد الوهاب، مثل: عُبَيِّد، تصغير: عبد الله، ودُحَيِّم، تصغير: عبد الرحمن.

وكان فيه شدة وحزم، نستيقظ نحن في بيتنا على صوته وهو يوقظ أبناءه آخر الليل لصلاة الفجر، وسريعاً ما يتحول النداء إلى نهر وتوبيخ قاصف.

ولكنه مع الأطفال ودود ولطيف، يحمل في جيبه حلوى ذاك الزمان والتي لا توجد الآن إلا في المتاحف إن وجدت، الملبَّس والبِرْميت، وأشياء لا أعرفها الآن ولا يعرفها أبناء التويكس والجالكسي، وكان يتألفنا بها لأداء الصلاة، فإذا رآني في المسجد قصدني ثم أخرج من جيبه ما يملأ يده وأعطاني إياه، وكان للحلوى عندنا وقعها ومذاقها مهما كان نوعها، فلم تكن تلك الأنواع المستوردة قد اختلطت في أفواهنا حتى نعرف شيئاً من مذاقها.

وإني لأعجب الآن أن يكون في ذلك الوقت وفي ذلك السن من يكون له فطنة لهذه اللفتات التربوية، حتى يستبقي في أعمار الأطفال بقية من عمره، وجميل أثره، وطَيِّبِ ذكراه.

ولكن حضوره في حياتنا لم يكن طويلاً، فقد توفي ونحن أطفال، ولكن بقي حاضراً في أذهاننا، فقد تلقانا في بدايات العمر بهذه الإلطافات الجميلة ثم رحل وأبقى ذكراه حية في نفوسنا -رحمه الله-.

٥- العم سعد بن عبد العزيز بن سلمة:

هل رأيت روحا شفافة كأنها نسمة الهواء، ونفسا صافية كأنها نفحة ملك، كان هذا ما نراه في أبوي سعد كما يسميه أحفاده ونسميه معهم، كان بيته أول بيت في سكتنا، له باب كبير من جذوع النخل وأمامه عتبة مرتفعة قليلا كأنها مصطبة، وكنا نجعلها مجلسنا فنصطف عليها جلوسا، وقلما أتى ليدخل عتبة بابه إلا وجد الباب محجوبا بالفتية الجالسين بحيث لا يتمكن من الدخول حتى يقوم له بعضهم ليفسح له الطريق إلى بيته.

وهي حال تكفي رؤيتها مرة واحدة لاستثارة غضب صاحب البيت ونهره من يجلسون، فكيف بتكررها، وكيف بدوامها؟! ومع ذلك ما كان أبوي سعد يزيد على إلقاء السلام علينا بود، ثم يدخل بيته من غير أن نشعر بغضاضة في نفسه.

ومن السنَّة الشريفة التي كان يحافظ عليها السلام على الصبيان بحفاوة، يُحيي بها السُّنَّة التي رواها أنس رضي الله عنه: «**أَنَّ رَسولَ الله ﷺ مَرَّ علَى غِلْمَانٍ فَسَلَّمَ عليهم**».

ومما أذكره أننا اجتمعنا ونحن أطفال صغار فاختلفنا هل الرسول ﷺ حي أم ميت، واحتدم الخلاف بيننا، وبينما الحوار على أشده جاء أبوي سعد، فقال حفيده صديقنا عبد العزيز بن صالح بن سلمة: أسأل أبوي سعد؟ قلنا: نعم اسأله، فذهب ووقف معه قليلا ثم عاد إلينا بالجواب فقال: يقول أبوي سعد: الرسول ميت ودينه باق إلى يوم القيامة، ولا زلت إلى الآن أعجب من سداد الجواب وحكمته من رجل عامي، وتأثيره علينا، حيث قَدَّم المعلومة في وعاء من تعظيم الرسول ﷺ، وبيان ارتباطنا بدينه الباقي بعده، وكان في الجواب مخرجا جعل الجميع يتفقون عليه.

وكما كان أبوي سعد فيه هذه الرقة ودماثة الخلق فقد وَرِثها منه أبناؤه وأحفاده ابنه الأستاذ صالح بن سعد، وحفيده الدكتور عبد العزيز بن صالح بن سلمة، ففي الجميع هذه الصفة وهي حسن الخلق الفطري والجاذبية النفسية.

ومـــا كان من فضل أتـــوه فإنما ... توارثـــه أبـــاء آبائهـــم قبـــل

٦- العم صالح بن سعد العمران:

لم يكن بيته قريبا من بيتنا فقد كان جنوب الحارة وكان دكانه شمال الحارة فكان يعبر أمامنا ذاهبا وراجعا، وهو ممن بقي مشهده خالدا في ذهني ببشته الغامق الذي لا يسقط عن منكبيه، وتلك السكينة والهدوء والطمأنينة حتى تظن أنه لا يهمه في هذه الدنيا شيء، ولا أستطيع أن أتخيل له منظرا وهو غاضب.

وكان صاحب عبادة ونسك لم يدع العمرة في رمضان والحج على صعوبة المواصلات ومشقة السفر حينها.

ومما كان يتميز به بيته وجود زوجتيه جميعاً في البيت، أمي هيا وأمي حصة أم عبد الرحمن، وكانت العلاقة بينهما أشد من العلاقة بين الأخوات مودة وصفاء، وما كان أبناؤه يسمون زوجة أبيهم إلا أمي هيا.

وكان أبناؤه جميعاً قد ورثوا أخلاقه فلا أذكر في طفولتهم أو مراهقتهم شيئا من شقاوة الأطفال أو رعونة المراهقين، ولو سألت: مَنْ أكثر أطفال الحارة أدبا؟ لقيل لك: أبناء صالح بن عمران، وأنا طبعاً.

ويتميز أبناؤه بهذا الخلق والاستقامة مع أنه لم يكن يضرب ولا يوبخ، ولكنه كان رفيقا، وإن الله **يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف**.

وكان من أصدقائي منهم عبد الكريم، وفهد، وخالد، وناصر، أما عبد الرحمن وعبد العزيز رحمه الله فأكبر منا، وعادل وعمران وسعد وامتثال أصغر منا.

رحم الله عمي صالح بن سعد، وأمي هيا وأمي حصة، وأخي عبد العزيز، وبارك في البقية وبارك لهم.

٧- العم جاسر العبد الكريم الجاسر:

كان من العباد المحسنين الفضلاء، وكان جاري في حي العلياء، وهو أقرب الجيران إلى المسجد فداره وجاه المسجد من الشرق، وهو من عمار المسجد، يصدق عليه الوصف النبوي: «**رجل قلبه معلق بالمساجد**»، فللمسجد مساحة واسعة من وقته صلاةً وذكراً وقراءةَ قرآن.

وكان من أوائل من يأتون إلى المسجد للصلاة وآخر من يخرجون بعد الذكر الطويل.

وبعد صلاة الفجر يبقى في المسجد إلى ما بعد طلوع الشمس يقرأ من حفظه وكان حافظا للقرآن متقنا للحفظ، ويستعين بأحد الطلبة يتدارس معه القرآن، وبعد صلاة

المغرب يبقى في المسجد إلى ما بعد العشاء يقرأ القرآن والطالب يتابع معه، وأحسبه كان يختم القرآن كل ستة أيام.

وكان محباً للخير محسنا، عالَمه القرآن، وحب العلماء ومجالستهم، ومع أنه كان تاجرا له نشاطه التجاري إلا أنك لا تكاد تعلم بذلك إلا إن سألته أو سألت عنه، فأحاديث التجارة وشؤون الدنيا قلما تجري على لسانه، وكان أكثر حديثه عن العلماء الذين أدركهم، أو سمع بهم، وعن قراء القرآن وحفظته، وكان كثيراً ما يتحدث عن قارئ الرياض في وقته والذي لم ندركه نحن وكان يقال له: ابن يحيان، وكان يذكر من حسن قراءته وإتقان حفظه عجبا.

وكان يقول: حفظت منه ثلاث وقوف: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ﴾، ويقف عند «ظلها»، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾، ويقف عند «البغي»، و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ويقف عند «لغد».

وعندما تنظر في المصحف ترى أن هذه الوقوف من الوقف الجائز، فعلمت أن ذاك الشيخ القارئ كان يقرأ قراءة تفسير، كأنما يفسر القرآن وهو يقرؤه.

ومن طرائفه أنه كان يحب الشيخ عبد الرحمن السديس محبة شديدة، ويتأثر بدعائه في قنوت الوتر، وكان يتمنى لقاءه، وحدث أن جاء الشيخ إلى الرياض ودعاه خالي ناصر إلى بيته بعد المغرب ودعاني، فوجدتها فرصة أن أعرض على الشيخ جاسر مرافقتي وأخبرته بدعوة خالي له، وكنت على يقين أنه لن يتردد في الذهاب لما أعلمه من حبه للشيخ السديس ولهفته على لقائه، فلما حدثته، قال: ولكن بعد المغرب وردي من القرآن، فجعلت أراوده وأقنعه فقبل على مضض، فلما صلينا المغرب أتيته وقلت: هيا أبو محمد نذهب الآن، فنظر إليَّ وقد حسم أمره وقال: رَبِّ أمي وصلاتي، لن أدع وردي الليلة، بلغ الشيخ سلامي.

فتأثرت بموقفه ومكانة القرآن من نفسه، ولم أُعد الكلام عليه، وذهبت وأنا أقول: ما أنت فيه خير مما نحن فيه.

وتذكرت ما كان يقوله ابن تيمية عن ورده الصباحي: هذا غدائي إن لم أتغد سقطت قواي.

وكان لا يقطع الحج والعمرة في رمضان والعكوف في الحرم كل سنة.

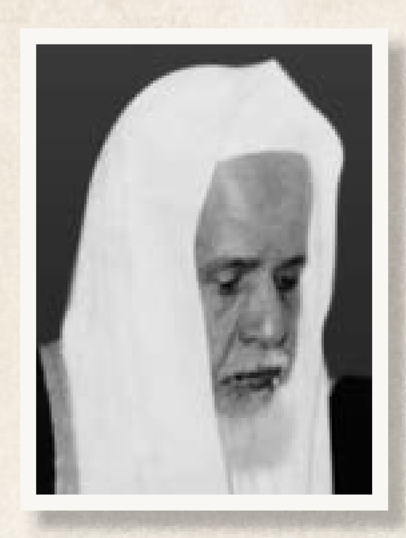
ومن أبنائه الذين هم أصدقائي الأساتذة: محمد، وأحمد، وعبد المحسن، وخالد، والشيخ عبد العزيز، والشيخ سليمان، ود. صالح وفقهم الله.



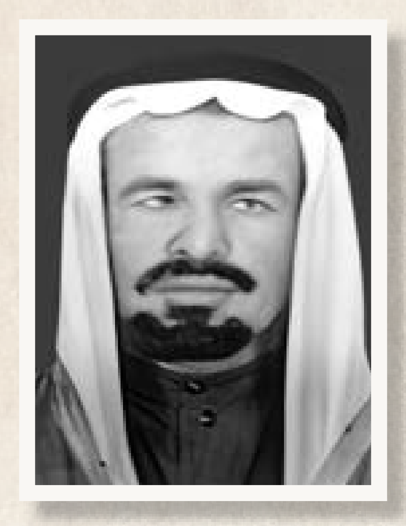
المملكة العربية السعودية

الصكوك الشرعية للمبايعات والوكالات

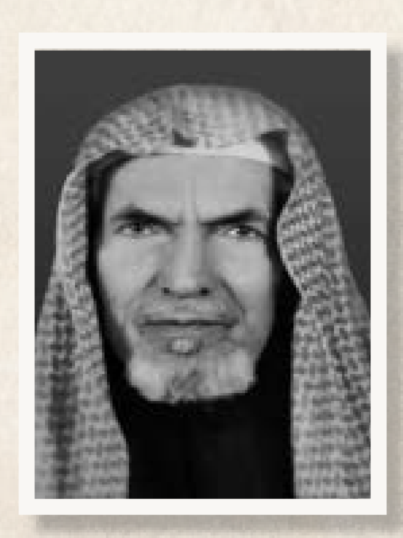
صورة وثيقة بإملاء الشيخ عبد اللطيف وبخط الوالد



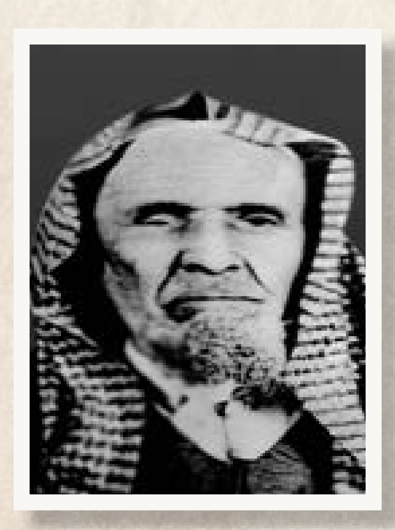
الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم
آل الشيخ (١٣٨٦هـ)



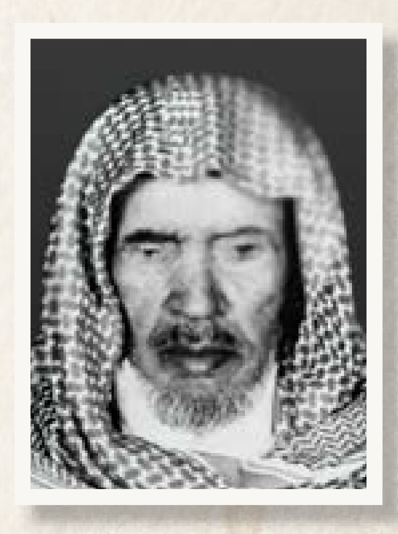
العم محمد بن محمد بن نشوان
(١٣٩٢هـ)



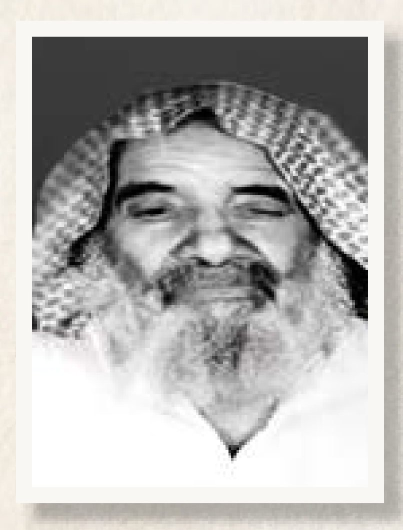
العم عبد الله بن محمد القُصَيِّر
(١٤١٤هـ)



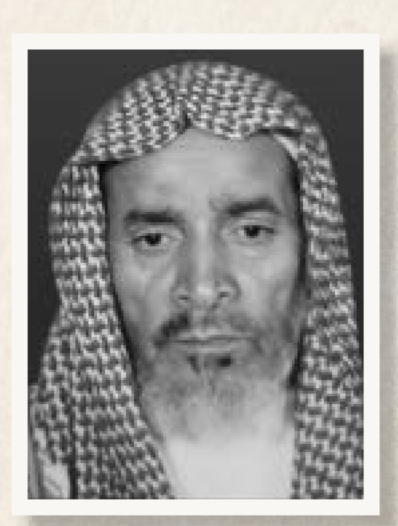
العم عبد العزيز بن محمد القفاري
(١٣٩٣هـ)



العم سعد بن عبد العزيز بن سلمة
(١٤١٤هـ)



العم صالح بن سعد العمران
(١٤٠٦هـ)



العم جاسر العبد الكريم الجاسر
(١٤١٨هـ)

مساجدنا

كانت مساجدنا كبيوتنا بناؤها بالطين وأرضها ترابية نثرت عليها الحصباء، وفرشها الحُصُر، ولم تكن تغلق أبوابها ليلا ولا نهاراً، وكان في بعضها غرف يسكنها الوافدون، وغالبا ما يكونون من طلبة العلم أو معلمي القرآن.

كانت المساجد مرافق للمغتربين والمنقطعين، يأوون إليها وينامون فيها، كما كانت مجالس لكبار السن يتحدثون فيها.

وأدركنا فيها من كان يسميهم الجاحظ: المسجديون.

وكان أئمة المساجد من كبار السن، وقراءتهم للقرآن غير مجودة، أما الشباب في المساجد فقليل ما هم، إلا فتية يحضرون اعتياداً ومراعاة لسطوة آبائهم.

كان الشيوخ يحضرون إلى المساجد باكراً قبل الصلاة بنحو ساعة، وكان الفراغ وقلة الأعمال مما يعين على ذلك، وكان من خواطر الطفولة أني نظرت إلى الصف الأول قبل ساعة من صلاة المغرب وقد أوشك أن يكتمل بأشياخ مخضوبي اللحى بالحناء، قد طرحوا عصيهم أمامهم وجلسوا ينتظرون الأذان، فكنت أقول بتفكير طفولي: من سيصلي في هذا المسجد إذا مات هؤلاء.

وكان يكتنف حارتنا عدة مساجد أقربها إلينا مسجد آل مرشد من الشمال، وهو المسجد الذي ارتبطت به أكثر، ومسجدٌ جنوب الحارة هو مسجد ابن رضيان والذي كان هو إمامه.

أما مسجد آل مرشد فكان بناؤه من الطين وله أربعة أروقة عالية مسقوفة بخشب الأثل وجريد النخل، وله فناء واسع خلفي لصلاة المغرب والعشاء والفجر في فصل الصيف، وقبو يسمى الخلوة للصلاة أيام الشتاء، وفي نواحيه غرف يسكنها طلبة العلم من المغتربين اليمنيين.

وأرضه ترابية مفروشة بالحصباء، ويفرش في صفوف الصلاة حُصُرٌ من أعواد القصب تصنع في الأحساء وتسمى الواحدة مَدَّة.

وكان إمام المسجد الشيخ صالح بن عمر بن مرشد، شيخاً صالحاً كاسمه، ورعاً ناسكاً حافظاً للقرآن بإتقان، وكان والدي يتعجب من إتقانه لحفظه، ففي القليل النادر جداً أن نفتح عليه في قراءته أو يخطئ فيها.

وكان من تلاميذ الشيخ محمد بن إبراهيم ومحبيه، وقد قال لي: بكيت على الشيخ محمد حين توفي أكثر مما بكيت على أبي.

ومن شدة حبه للشيخ محمد كان يقرأ كقراءته، فترتيله للقرآن في الصلاة كترتيل الشيخ، ومشهده رحمه الله إذا وقف في الصلاة وضم يديه إلى صدره موعظة وذكرى، فأتذكر ما يستشعره من عظمة الموقف وهيبته.

وكان موفور الهيبة يمسك بعصا دقيقة في يده يسير بها ولا يعتمد عليها، وأذكر أني إذا رأيته خارجا من المسجد وأشياخ المسجد وعباده يسيرون حوله أقول في خيال الطفل: أهكذا كان الصحابة؟! أهكذا كانت هيئتهم وسمتهم؟!

وكان يقرأ بعد صلاة العصر وقبل صلاة العشاء في كتب وعظية مختارة أو في «مختصر السيرة النبوية»، وهي قراءة ينصت لها جماعة المسجد ويتفاعلون معها ويتأثرون بها.

وكان يبصر بإحدى عينيه فإذا قرأ أدنى الكتاب إلى وجهه في معاناة أثناء القراءة، فأقول عنه: عين بورك في بقية بصرها فحفظ بها القرآن وقرأ العلم، في حين أطلق آخرون حِدَّة عيونهم في اكتساب المآثم وتتبع العورات، والنظر إلى ما أمر الله بغض البصر عنه، والبركة من الله.

ثم انتقل الشيخ بعدُ إلى مكة فخلفه في إمامة المسجد الشيخ عبد الله بن غديان فعمر المسجد بدروس علمية مطولة بعد صلاة العصر وقبل صلاة العشاء.

وفي هذا المسجد كنا نصلي المغرب ثم يأخذني أبي إلى سطح المسجد فنستمع لتلاوة الطلاب المتقدمين على شيخ القراء محمد عبد الماجد ذاكر، وممن كانت تشدني قراءته محمد قاسم الجعفري والذي صار شيخي فيما بعد في حلقة القرآن، أما عندما أذهب في الصباح الباكر لحلقة القرآن فإني أدرك جماعة المسجد وهم متفرقون في فنائه بعد صلاة الفجر يقرأون ويذكرون حتى تطلع الشمس ليصلوا الضحى، ثم ينتشرون في الأرض، وفي جهة المسجد الشرقية حلقة عِلم تعقد بعد الفجر وهي قراءة كتب على الشيخ عبد العزيز بن مرشد، وهو من زملاء الشيخ محمد بن إبراهيم، وكان الذين يقرأون عليه من كبار السن أتذكر منهم: الشيخ محمد آل سيف، والشيخ عبد العزيز بن محمود، وهي في الغالب قراءة إمرار لا قراءة شرح وتفصيل.

وفي أيام الاختبارات المدرسية يتناثر الطلاب في المساجد للمذاكرة قبل الاختبار بشهر فقد كان الاختبار النهائي مرة واحدة في نهاية السنة، فتتحول المساجد إلى ردهات للمذاكرة يتجمع فيها الطلبة هربا من بيوتهم الضيقة والتي ليست مناسبة للمذاكرة، وليزداد حماسهم وينتفعوا برؤية بعضهم بعضا.

ويا لله ما ألذ الأحاديث الجانبية التي نسرقها من أوقات المذاكرة، فإن للأحاديث في ذلك الوقت إرواء ولذة، وكل ممنوع مرغوب.

ومن طرائف أيام المذاكرة المسجدية أن زميلي في المدرسة المحمدية صعد إلينا بعد العشاء في سطح المسجد متأبطا وسادة كبيرة ليستند إليها وهو ممسك الكتاب بيمينه وكأنه قد عزم أن يَقْتل الكتاب قراءة وحفظا، وكان الاختبار غداً صباحا، فقلت له: تأخرت يا عبد العزيز، الاختبار غدا والآن تبدأ؟! فقال بعزم وإصرار: سأسهر الليل وأوريك الشغل في هذا الكتاب، ثم ألقى بالوسادة على الحصير ورمى بالكتاب وتمدد مستمتعا بنسيم رقيق بارد، يمر رخاء على سطح المسجد الواسع، فقلت له: لماذا لا تبدأ المذاكرة؟ فقال لي وهو ينظر بعينين نصف مغمضتين: دعني أتمدد قليلا ثم أبطش بهذا الكتاب.

وتركته متمددا والكتاب أمامه، وأنا مشفق على هذا الكتاب الذي سيبطش به بعد قليل.

وبعد صلاة الفجر رأيت أن أتعاهد صاحبي قبل أن أذهب إلى مدرستي فصعدت إلى السطح فإذا صاحبي ما زال مستغرقا في لذة نومه، وكتابه مضطجع بهدوء إلى جانبه.

فأيقظته فقام فزعا، فقلت مداعبا: هل انتهيت من المذاكرة؟ قال: أصلا ما قمت من بعدك، يا ألله يا ألله لا يفوتنا الاختبار، وقد أدرك الاختبار لكن لا أدري هل نجح فيه أم لا.

ومن اللطائف أيضا أن الطلاب يجتمعون للمذاكرة في المساجد وهم من مدارس ومعاهد وسنوات متنوعة، وكان طلاب المعهد العلمي ينتهون من الاختبارات قبلنا بيوم، فجاءنا زميلنا عبد اللطيف وهو من طلاب المعهد الذين انتهوا من اختباراتهم ونحن في آخر يوم نذاكر فيه وهو أثقل يوم وأكثره إملالا، وبيده كتاب «نوادر جحا الكبرى»، كأني أراه يقلبه بين يديه من غير أن يقرأ فيه، ليستمتع بمكايدتنا والتشفي منا.

وفي هذا المسجد كانت حلقة القرآن التي دخلتها وأنا في السابعة وبقيت فيها إلى الثالثة عشرة.

فإلى حديثها وشيء من أخبارها.



أحد أروقة المسجد القديم وسقفه من خشب الأثل وجريد النخل

حلقة القرآن

في سن الطفولة الباكر وقبل الدخول إلى المدرسة الابتدائية أدخلني أبي إلى حلقة التحفيظ، وكانت حلقة في مسجد آل مرشد، والمدرس في هذه الحلقة هو الشيخ محمد قاسم الجعفري رحمه الله، وكان شابا يتوقد ذكاء ونشاطا، وكان أسمر دقيقا طوالا، قد قرأ القرآن وأتقنه حفظاً وترتيلاً في مدرسة تحفيظ القرآن وعلى الشيخ محمد ذاكر، وكان يدير الحلقة بحزم ويقظة، وفيها عدد كبير من الطلاب من مختلف الأعمار من الطفل الصغير إلى الشيخ الكبير، وفيما بين ذلك كثيرٌ، كما كانوا من بلاد متعددة ففيهم من السعودية واليمن، وفيهم القصيمي والجنوبي، والحاضرة والأعراب، وقد كان هذا الخليط من مختلف الأعمار والأقطار مُهَيئاً لفوضى يصعب السيطرة عليها، ولكن الشيخ بيقظته وصرامته يضبط هذا الجمع في الحلقة، ويجعلهم في حال حماس مع القراءة بحيث يَسمعُ ضجيج قراءتهم من يسير في الطريق قبل أن يصل إلى المسجد.

وكان الشيخ يكرس هيبته بأدوات العقاب، فمعه عصا قصيرة يؤدب بها الطالب الذي بين يديه، وعصا طويلة يتناول بها الطالب البعيد عنه، أما إذا كان الطالب في ناحية أبعد لا تناله العِصيُّ قصيرُها ولا طويلُها، أرسل إليه قذيفة أرض أرض، وهي حجارة من حصباء المسجد يطلقها فلا تخطئ هدفها.

وكانت سياسة الشيخ تسير على المثل العامي: «اكرب وجهك وأرخ يديك»، أي قطب ملامحك من غير أن تضرب بيدك، فكان يديرنا بسلاح الهيبة، ولا أذكر أني رأيته

ضَرَبَ ضَرْبَ إيلام كالذي كنا نعذب به في المدارس، وإنما يضرب ضربة واحدة للتنبيه لا للتعذيب.

ويا لطرب آذاننا إذا تخلف الإمام وتقدم هو بالجماعة إماما ثم جعل يترنم بالقرآن بنغمة حلوة وتلاوة لذيذة، وكانت القراءة خفيفة عليه يقرأ طوال السور وكأنه يقرأ قصار المفصل.

أما الدراسة في الحلقة فكانت مملة جافة، حيث لم تكن وسائل التحفيز والتشجيع والامتاع متاحة حينها، وكان الوقت يمر علينا بطيئا كليل امرئ القيس، خاصة في أيام الصيف الطوال.

ولم تكن الساعات في أيدينا ولكن كنا نرقب ظل الشمس إذا ارتفع على الجدار الشرقي للمسجد فقد قرب غروب الشمس ومعه الفرج والحرية بعد تلك الإقامة الجبرية.

ومع أني بقيت فيها سنين طوالا هي المرحلة الابتدائية بطولها ست سنوات فإني لم أكمل حفظ القرآن ولم أهنأ بطفولتي، ولا أعلم أحدا ممن صحبتهم في الحلقة أكملوا الحفظ وإنما كنا ندور في حلقة مفرغة.

وكان القائمون على الحلقة يعاملوننا كرجال كبار يعرفون مصلحة أنفسهم، ولذا فعليهم أن يتحملوا ويصبروا ولكن لم نكن كذلك ولا شيئا من ذلك، وكما قالت أمنا عائشة: اقدروا قدر الجارية حديثة السن تحب اللهو.

فقد كنا صبية نحب اللهو وكنا نذهب صباحا إلى المدرسة وعصرا إلى الحلقة وننشغل يوم الجمعة بحل الواجبات المدرسية، فوئدت في حياتنا بهجة الطفولة، إلا ما استطعنا سرقته وأفلت من الرقابة، كيوم نتمارض فيه أو عذر نختلقه، فيقبل أحياناً ويرد علينا مع وجبة عقاب أحيانا.

وأتذكر أن صديقنا المشاغب (عزيوه) حين تغيب عن الحلقة يومين شارك فيها أصدقاءه الذين لا يدرسون في الحلقة لعبهم، ثم جاء وهو يفكر في العذر الذي سيتخلص به، فقال له الشيخ محمد قاسم: وين كنت من يومين، فقال: يا شيخ والله توفيت زوجة أبي، وكانت فعلا قد توفيت منذ مدة طويلة فأراد أن يُحدِّث المصيبة القديمة ويعيد استثمارها، فقال له الشيخ: وإذا توفيت زوجة أبيك فما عذرك أنت؟ هل تغسلها؟ أو تُكفنها؟ أو تحملها؟ أو تدفنها؟ ولم يعلم أنه لم يشارك حتى في الصلاة عليها.

ولكن الشيخ اكتفى بالتوبيخ عن العقوبة، وأفلت الشقي من عِصِي الشيخ طويلها وقصيرها.

ومن ذكريات الحلقة وجود الشيخ محمد عبد الماجد ذاكر، وهو الذي إذا أطلقنا كلمة الشيخ مفردة تنصرف إليه، وكان مهيبا ذا سمت ووقار، وأناقة ونظافة، وجمال هيئة، وكان متقنا للأداء والحفظ، وكنا نكرب إذا ذهبنا نقرأ عليه، والقراءة عليه لإتقان الأداء وليست للحفظ، فالحفظ والمراجعة عند الشيخ محمد قاسم.

ولم يكن يحمل عصا ولا يلوح بها، ومجرد وجوده في ناحية المسجد الشمالية يملأ نفوسنا هيبة لتلك الناحية كلها.

وكان الشيخ عبد الرحمن بن فريان رئيس الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن يمر بنا في طريقه ذاهبا أو راجعا من السوق الذي كان يذهب إليه ضحى فيلقي فيه مواعظ بمكبر الصوت ثم يرجع، لا حاجة له في السوق غيرها.

فإذا جاءنا جلس على المتكأ ثم طلب من الأستاذ اثنين أو ثلاثة منا ليقرؤوا عليه.

وكانت هذه منه زيارات تفقدية للحلقات التي بقي إلى آخر عمره يرعاها ويتابعها رحمه الله.

ومن أعظم أحداث الحلقة حفل تحفيظ القرآن السنوي الذي يختبر فيه الطالب ويعطى جائزة نقدية بقدر الأجزاء التي حفظها، ويحضرها الشيخ عبد الرحمن الفريان رئيس الجماعة، وممن كان يحضرها العم سليمان القاسم وهو من التجار الأخيار، وله جهوده مع جماعة تحفيظ القرآن، وهو الذي يُحضِر المكافآت النقدية ويوزعها على الطلاب.

وأذكر الحفل الأول الذي شاركت فيه وكان في مسجد الشيخ ابن فريان بعد العصر، حيث اختبرني وأُعطيت الجائزة على حفظ ثلاثة أجزاء ثلاثين ريالاً، فكانت هذه بالنسبة لي رقما فلكيا لم يدخل جيبي مثله من قبل ولا بعد، إلى أن بلغت سن البلوغ وجرى عليَّ قلم التكليف.

والحق أن هذه الحلقات سرقت منا متعة الطفولة ولم تفدنا حفظا ولا علما.

أما إفادتها لنا فهي إتقان أداء القرآن تلاوة وتجويدا، وقد كان جيلي يقل فيهم إقامة القرآن تلاوة وتجويدا، وكان بعض مدرسينا يخطئون في تلاوة القرآن فضلا عن الطلاب فكانت الحلقة هي التي فتقت أفواهنا بالقرآن، وأقامت ألسنتنا بنطقه وترتيله، ومن فوائدها أنها كانت محضنَ عصمةٍ حفظنا الله بها من الضياع والتسكع بين الحارات، فنتهوك في عادات رديئة، أو نقع فرائس لرفاق السوء، فعبرنا نفق الطفولة في حصن أمين، وحفظنا الله بها والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين.

«وأُذكر برائد هذه المشاريع الخيرية في المملكة العربية السعودية، وهو رجل الأعمال الباكستاني الشيخ محمد سيتي رحمه الله، هذا الرجل الكريم كان له مصنع نسيج وكان في آخر كل سنة ينظر دَخْل المصنع، فيرد جزءا منه إلى المصنع لتشغيله، ويحتفظ بجزء لنفقته وأسرته، والباقي يخصصه لتحفيظ القرآن، فأنشأ مدارس في باكستان، ثم جاء إلى المملكة قبل أربعين سنة، وكان غرضه أن يجتلب بعض مدرسي

القرآن الكريم وحفاظه، فصدم بأن المملكة في ذلك الوقت لا توجد فيها مدارس ولا حلقات لتحفيظ القرآن الكريم، فاهتم بإنشاء الجمعية الأولى لتحفيظ القرآن في مكة المكرمة، ثم في المدينة المنورة، ثم توالت هذه المشاريع المباركة وعمَّت وصار أثرها كما نرى»[١].

ثم تطورت حلقات التحفيظ من بعد ككل شيء يبدأ صغيراً ثم يكبر، وبسيطاً ثم يتطور، إذا احتفت به النوايا الحسنة، فتولاها من بعدُ مربون أفاضل جعلوا منها محاضن تربية وتعليم، وجمعوا فيها بين الإفادة والإمتاع، وصار الطلاب يذهبون إليها برغبة ويرجعون بأنس، ونُثِرَت مُخرَجاتها في محاريب المساجد أئمةً حفظة متقنين حفظاً وأداء، يقرؤون القرآن غضاً كما أنزل.

وبقي لأصحاب المبادرة الأولى سبقهم، وكل خير جاء من بعدهم فهو في ميزان حسناتهم، وثمرة من ثمار تلك البذرة التي غرسوها.

(١) من كلمة مسجلة للشيخ صالح الحصين رحمه الله.



مع شيخي محمد قاسم الجعفري
رحمه الله



مع الشيخ محمد عبد الماجد ذاكر
رحمه الله

الوعي الإيماني

كانت النشأة الأولى راشدة في مسار الأبوين، ثم تحول الإيمان إلى قناعة وجدانية وعقلية.

ولا زلت أتذكر تلك اللحظات التي كنت أعيشها عندما وعيت المصير الأخروي، وكنت لا أزال في سن التمييز ولم أبلغ سن التكليف بعد، كنت في سطح دارنا الطيني أتفكر في المصير الأخروي والثواب والعقاب، وأقول في نفسي: ليتني لم أعرف هذا بعد، وكان من مشاعري الطفولية حينها الإحساس بثقل المسؤولية، وهول المصير.

وهو ما وعيته من بعد في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾.

ولم تمر بي بحمد الله فترة انفصال عن الدين ولا استهانة به، ولكن تمر الفترة بعد الشِّرَة، ولم أمر بمأزق إيماني، ولكن لقيت من يعانون ذلك.

وفي سن اليقظة الذهنية وهي فترة المراهقة وما بعدها كنت متشاغلا بحفظ القرآن والدروس العلمية على المشايخ ولكن كانت الأسئلة الوجودية تلسع ذهني، فتوترني أحيانا، وتقلقني أحيانا أخرى، ولكن من دون أن تحدث لي أزمة أو حيرة، وهي مرحلة طبيعية في سن الشباب حين يكتمل الإدراك العقلي، ويعيش الإنسان فترة اليقظة الذهنية، وإيراد التساؤلات وتطلب الإجابات، فهي مرحلة ثورة الأفكار والأسئلة

الإيمانية، ولكن الانزلاق الخطير أن ينهمك الإنسان مع هذه التساؤلات فيهوي إلى شقاء الحيرة وتيه الضلال.

ولكن كثيرين يتجاوزون قلقها، ويأوون إلى طمأنينة الإيمان، وسكينة اليقين.

وحدثني أستاذنا عبد العزيز الربيعي أنه كان في بيروت مع الشاعر أحمد الصافي النجفي، فجاء من أخبرهم أن عبد الله القصيمي قد جاء من مصر وهو في الفندق إن كنتم تريدون الذهاب إليه، فقال أحمد النجفي: يا با خليك منه، هذا الذي يقوله القصيمي تجاوزناه منذ زمن بعيد.

إنها حالة مراهقة فكرية تَعبرها ولا تستصحبها.

وكانت أصعب الإشكالات التي عبرتها التفكيرُ في القَدَر والعدل، وكان هو المنزلق الذي هوى فيه القصيمي، ولكني تجاوزتها بمسلمات واضحة عصمني الله بها وكانت بسيطة في ذهني حينها، **ولكني أوضحها الآن، وهي:**

١- أن الله على كل شيء قدير، ومن قدرته أنه خلق الإنسان هذا الخَلْق، وأعطاه حرية الخيار، ومسؤولية القرار.

٢- أننا نُحضِرُ أسئلة القدر فيما هو علينا، وليس فيما هو لنا، فلن تسمع أحداً يقول: تصدقت بهذا المال، وهذا من قدر الله فكيف يثيبني عليه، ولكن يورد سؤال القدر في ذنوبه وخطاياه ثم يقول: كيف يعاقبني الله عليها.

٣- أن القدر فيه ما يتعلق بي وهو مسؤوليتي عما أفعل، وفيه ما يتعلق بالله وهو عدله فيما يحكم، وعلي أن أهتم بما يتعلق بي، أما ما يتعلق بالله فأَكِلُه إلى الله الذي أؤمن أنه إذا أثاب تفضل وأكرم، وإذا عاقب عدل ولم يظلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾، ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ

بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، ثم لا أُدخل نفسي في تكييف عدله وحُكْمه فله الخلق والأمر.

ومن أزمات التفكير حينها أزمة التصورات الذهنية للذات الإلهية، وهي مما كانت تعبر خيالي فتقلقني وتؤذيني، وأراحني فيها القاعدة الرائعة: كُلُّ ما خطر ببالك فالله غيرُ ذلك، وإذا كانت الأبصار لا تدركه فكيف يدركه الفكر والعقل.

وأن من الحماقة أن أنقل قوانين الأرض إلى ما فوق السماء، وإذا كان التقويم الزماني يتغير إذا خرجنا عن الأرض إلى المشتري فكيف بمجرات الكون، فكيف بما وراء ذلك وفوق ذلك.

وعلمت أنها خيالات تعبر الذهن لا يؤاخذ عليها الإنسان؛ ولذا لم أتأزم بعدُ منها.

ومن أسئلة الحيرة محاولة تعليل المصائب والكوارث وما يسمى اليوم بأسئلة الشر، وقد استفدت ممن علمني أن الإنسان ينظر إلى المشهد الكوني الواسع من ثقب ضيق هو حياته في هذه الدنيا على هذا الكوكب المحدود، لكن المشهد أوسع من ذلك بكثير، فآماد الزمان قبل أن يوجد الكون وبعد أن يفنى، وقبل أن نولد نحن وبعد أن نموت آمادٌ وآباد شاسعة، وكذلك الكون أوسع مما نراه وندركه، ومجرات الكون الفسيح بأبعادها، وملايين السنوات الضوئية بينها، وكل هذا هو عالم السماء الدنيا فقط، فكيف بعوالم السماوات فوقها.

إن الأرض ومن عليها هباءةٌ في هذا الكون الفسيح الواسع فكيف يحاكم هذا العقل المحدود العابر في مثل ومضة من الزمان مَنْ خَلقَ هذا الكون قبل أن نوجد، وسيرثه بعد أن نفنى.

وأن هذا العقل إنما وهبه الله لنا لنحاكم به أنفسنا لا لنحاكم به خالقنا الذي وهبه لنا.

ونحمد الله أنه لم يجعل في الدين ما يستحيل قبوله عقلا، وإن كان فيه مالا يُدرك عقلا، وفرق بين ما لا يفهمه العقل وما يحيله، ولذا قيل: يأتي الدين بمَحَارات العقول ولا يأتي بمُحَالات العقول.

وعلمت أن الإلحاد في الغرب ربما كان له ما يبرره، فإن الإنسان منهم إذا استجاب لنداء الفطرة الإيماني صُدِمَ في الكنيسة بدين لا يتواءمُ مع عقله، ولا يقبله تفكيره، فكيف يكون الثلاثة واحداً، وتورث آثام الخطيئة إلى من لم يقترفها، ومن لم يكن خُلِقَ حين اقترافها، وكيف يكون للإله ابنٌ يعذب ثم يقتل ثم يصلب ثم يموت من غير أن يدفع عن نفسه أو يدفع عنه أبوه، ولذا يسلمهم هذا التأزم العقلي إلى الإلحاد بدلا من التعبد لإله هذا وصفه.

فأين هذه الصورة الشائهة للإله، من معرفة المسلم لربه بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، واستشعاره جلاله وعظمته، وأين هذا من ضياء القداسة الذي يملأ فجاج قلبك وأنت تقرأ آية الكرسي أو سورة الإخلاص ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾.

وما كنت أظن أن أحداً عرف الله بإيمان المسلم ثم يكفر به، ولا أحداً عرف الإسلام ثم يرتد عنه، هكذا كانت أفكاري الفطرية، حتى عرفت حال عبد الله القصيمي من خلال كتب الردود عليه الموجودة في مكتبة الوالد، ومنها رد الشيخ أبو يابس والشيخ السويح.

ثم التقيت لما عملتُ في السوق بشاب من لداتي ألفني وألفته، وصار يأنس إلي، وسرَّه أنه وجد عندي علما مما عنده، فقد كان من الجماعة السلفية أصحاب جهيمان، وكان على حال من التشدد، وخاض مع أهله مواجهة شرسة بسبب وجود التلفزيون في منزلهم.

ثم سافر إلى بلدتهم وهناك التقى كهلاً من أقاربه تقاعد من عمله في شركة أرامكو وعاد ليستقر هناك، فصار الكَهل الضال يتحدث معه ويطرح عليه تساؤلات عميقة وأسئلة حرجة لمن هو في مثل سنه وعلمه، ثم قرأ عليه قصيدة الطلاسم لإيليا أبو ماضي:

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت

وسأبقى ماشياً إن شئت هذا أم أبيت كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟

لست أدري!

وجعل يعلق عليها ويوضح تساؤلاتها.

وعاد الشاب متزلزل الفكر، مضطرب الشعور، يحاول أن يجيب على التساؤلات، ويزيل الإشكالات فلا يزداد إلا إيغالا في هذه المتاهة، وترديا في هذه الحيرة، وجعل يناقش أصحابه في الجماعة فاستشكلوا ما يقول ولم يفهموه ولم يشفوه حتى وصل إلى جهيمان، وكان يقول: كان الأكثر إقناعا لي، ولا أظن أنه أقنع فكره ولكن قوة شخصيته ومهابته تجعله يُقصر عن غلوائه، فإذا خَلَى بنفسه انتفشت الشبه في عقله، وكان يحدثني أنه ربما حمل حقيبته على رأسه وسار إلى المدرسة وهو يفكر ثم لا ينتبه إلا وهو واقف أمام البيت قد عاد إليه مرة أخرى.

وما زال وضعه يتأزم حتى حسم أمره بالصفقة الخاسرة، وجعل يحدثني عن عدم إيمانه بوجود الله ثم يرجع فيقول: أنا قبلا كنت أكثر راحة من الآن، أنا أحسدك على سكينتك وهدوء نفسك، ومع ذلك ما كنت أحسب أنه يعني ما يقول حتى كنت وإياه يوماً قبيل صلاة العصر أمام الجامع الكبير وكنت أتهيأ لدخول المسجد لأداء الصلاة فرأيته يتأخر فحضضته وقلت: توشك الصلاة أن تقام، فقال: الصلاة تركتها منذ زمن ولن أصلي من أجلك، وكانت صدمةً جعلتني في مواجهة مع الحقيقة المأساة، وأبقيت الصلة معه ممدودة لعلي أن أكون سبب هدايته بعد أن كان غيري

سبب حيرته، وشعرت من خلال لقائه بعظيم نعمة الله عليَّ بالهداية وازداد تشبثي بـ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، ورأيت الشقاء والحيرة وبؤس الحياة الخاوية من يقين الإيمان ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ ويهدأ قلبُه.

وتفرقت بنا السبل ثم التقينا بعد أمد طويل فبشرني أن الله أعاد إليه سكينته، ورد إليه طمأنينته، وأرجو أن يكون حاله كذلك وأفضل من ذلك.

وفي إحدى زياراتي لمصر زرت شيخا من أعمدة الشيوعيين إن لم يكن عميدهم ورحب بنا، وكنت قد قرأت له طرفا من سيرته فباسطته بها فأنس بي وأدخلني مكتبته، وأشار إلى لوحة لسيدة كبيرة وقال: دي مراتي الله يرحمها، فطمعت أن يكون في هذا العمر قد أعاد حساباته، فسألته ما الذي تراه يحدث بعد الموت؟ فقال: ما تزعلش مني؟ قلت: ما ازعلش، ولكن أرجو ألا أحزن، فقال: ليس بعد الموت إلا الذكر الحسن أو السيئ عند الناس.

وكانت صدمة أن تسمع هذا الكلام ممن هو ابن أهل الإسلام، وعاش على الإسلام وعرفه ثم انتهى إلى هذه الهاوية، وكانت الصدمة الأكبر حين بلغني خبر وفاته بعد شهرين من لقائنا، والله أرحم بعباده منا، والخالق أولى بخلقه وأعلم وأحكم فيما يقضي ويحكمُ.

وشعرت من خلال هذه المواقف بعظيم نعمة الله على عباده بالهداية، ومعنى إلحاح الرسول في دعائه: «**اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»، ورأيت كآبة الحياة المجدبة لمن يعيش محروما من نعيم الهداية وسكينة الإيمان.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾.

ولا زلت أعتقد أن حالات الإلحاد الحقيقية قليلة إن لم تكن نادرة، وأن أكثرها وساوس وليست شكوكاً، وأحياناً تمردٌ يمارسه بعض الشباب ليثبت استقلاليته،

وأحياناً تقع للشاب أزمة مع الشهوات المحرمة فيهرب من تأنيب الضمير وشعور التأثم الذي يجده إلى اقتلاع القضية من أصلها فيهرب إلى الإلحاد ويظن إنه هرب إلى فضاء وسَعة، وما درى أنه سقط في هاوية مظلمة فيها من الوحشة والكآبة أعظم مما هرب منه، وكما ذكر أحد الكتاب أن مشكلة الملحدين (العرب) أنهم يتعاملون مع الله عز وجل كالآباء، إذا لم يُنفذ لهم رغباتهم بدؤوا بإلقاء اللوم عليه، والتشكيك به.

وليت كل شاب يعلم أنه مهما لقي الله به من خطايا وذنوب وهفوات فسبيلها المغفرة إذا لقيه مؤمناً به معظماً لشأنه لم يعبد سواه «**يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً للقيتك بقرابها مغفرة**».

ومن القصص التي تروى هنا أن رجلاً اعترضه قطاع طريق فانتهبوا كل ما معه ثم استاقوه معهم وأوثقوه رباطاً فلما كان آخر الليل رأى أحدهم وقد قام يصلي ويدعو فظن أن هذا يمكن أن يعطف عليه، فزحف إليه وجعل يتوسل له، فغضب منه وعَنَّفه، فعجب من شدة رده، وقال له: ولكنك الآن قائم تصلي، فكيف تصلي لله وتعتدي على عباده، فقال: عجباً لك، هل تريد أن ننفلت من الله جميعاً، دعنا إذا لقيناه بذنوب يعاقبنا عليها كان معنا إيمان وصلاة ينجينا بها.

فلا يكن هذا اللص أفقه منك، واحذر أن تنفلت من الله جميعاً.

مدرسة المحمدية الابتدائية

كانت مدرستي المحمدية الابتدائية في مبناها ونظامها قفزة تاريخية في زماننا، فقد كان مبنى المدرسة من تصميم شركة أرامكو، ولذا جاء بناؤها سابقا لزمانه، فقد أسست عام (١٣٧٣هـ) ولا تزال إلى اليوم في تصميمها ومرافقها سابقة كل ما أُنشِئ بعدها، كانت مبنى ضخما مصمما تصميما مدرسيا رائعا، فيها أفنية واسعة، وملاعب لكرة القدم، والسلة، والطائرة، وصالة للمحاضرات والفعاليات، وقاعات للتربية الفنية، وكنا ونحن طلاب نشعر بهيبة لمبنى الإدارة وكأنه الديوان الملكي، وكان مديرها الأستاذ حمد آل الشيخ رحمه الله ذا سمت تربوي بالفطرة.

وفي صباح يوم خريفي حار أخذني والدي وهو ملتحف بشته الصيفي الأسود وذهب بي ولا أدري إلى أين سنذهب؟! فأوصلني إلى هذه المدرسة، وأدخلني إلى أحد الفصول وهو يقول: اجلس هنا، ثم ذهب وتركني، وشعرت بفزع ورهبة، وجعلت أقول في نفسي: كيف يذهب ويتركني وحدي؟ ولماذا لم يجلس معي؟ ولم أعلم في ذلك الوقت أني قد وضعت قدمي لأخطو الخطوة الأولى في طريق التعلم الذي لا زلت أسير فيه، وأني كلما قطعت مرحلة منه شعرت أنني لا زلت في البدايات بالنسبة لما بعدها.

وكان ذلك في سنة (١٣٨٥هـ)، أوائل تولي الملك فيصل مقاليد الحكم، ولذا أتذكر في تلك السنة أننا كنا نقف في طابور الصباح لنؤدي تحية العَلَم حين يرفع على السارية ونحن نردد:

تحيا المملكة العربية السعودية، يعيش جلالة الملك فيصل.

ثم اختفت هذه التحية بعد ذلك.

وكان للمرحلة الابتدائية أهميتها ومكانتها في ذلك الوقت، فكانت أسماء الناجحين من السنة السادسة الابتدائية تُذاع في الإذاعة وتُنشر في الصحف، ومن العبارات المشهورة عند إذاعة نتائج الناجحين: مدرسة كذا لم ينجح أحد.

بل إن الحفل الختامي السنوي لبعض المدارس الابتدائية ومنها مدرسة المحمدية يبث في نشرة أخبار التلفزيون.

وكان الحفل الختامي في مدرستنا مما يعد له طوال العام، ومن الفقرات الثابتة فيه أغنية «أيها الساري إلى مسرى النبي» يشدو بها الأستاذ عزمي كنانة رحمه الله بصوت شجي هو في سمعي أروع من صوت مطربها محمد عبد الوهاب، وأكثر تفاعلاً مع معانيها.

وإذا تذكرت أساتذة تلك المدرسة فأول من يظهر في شاشة ذاكرتي منهم: الشيخ علي العطار مدرس المواد الدينية، وكان شيخا وقورا ذا سمت وهيبة، ظاهر الوضاءة ناصع الثياب، يفرض على مجلس المدرسين هيبة لا يتكلفها، وكان الطلبة والمدرسون يشعرون بأبوته لهم، وقد درَّسنا في السنة السادسة مادة التوحيد والفقه، وكأني أراه الآن وهو يشرح لنا حديث: «**إن العَبْدُ إذَا وُضِعَ في قَبْرِهِ، وتُوُلِّيَ وذَهَبَ أصْحَابُهُ حتَّى إنَّه لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ**».

ويشرح لنا قوله تعالى: ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾.

أتذكر الأستاذ ناصر؛ والذي كان يشرح لنا، ونحن في السنة الثانية الابتدائية، صفة الصلاة ويقول: -بلهجة أهل بلدته الحريق-: «إذا كنت تصلي وتُعايِنُ مكان سجودك فالله يعاينك».

أتذكر الآن سحنة وجهه الأسمر، ونبرة صوته، وقبضة يديه على صدره، والهيبة التي اقشعر لها قلبي وهو يقول: الله يعاينك، الله ينظر إليك.

كما أتذكر الأستاذ صالح عبد الحق وكان يدرسنا مادة الحساب، فدخل علينا في إحدى الحصص، وبدلا من أن يشرح لنا الدرس بدأ يتحدث بخطاب أبوي ناصح يحرضنا فيه على الجد في الدراسة والصبر عليها، يا ألله كأن المشهد أمام عيني الساعة، بدلته البنية الغامقة، غترته البيضاء، وعقاله، ويده المعروقة التي يشير بها وهو يتحرك بين مقاعدنا، كلماته ونبرة صوته وحرارة الصدق في لهجته.

فهل يشعر مدرسو المرحلة الابتدائية أنهم يكتبون على الصفحة البيضاء الأولى في عقول الأطفال، وأنهم يكتبون عليها بالحبر الناشف الذي لا يجف ولا يمحى.

وكما كانت هذه المواقف الجميلة الزاهية مما يزين تلك المرحلة الدراسية، فقد كان ثَمَّ أمورٌ مؤلمة، منها أن بعض المدرسين يستخدمون الضرب كنوع من التنفيس عن أزماتهم النفسية، وينشرون الذعر في قلوب أطفالٍ صغار أبرياء، حقهم أن يُحبب إليهم العِلم لا أن يفرش لهم طريقه بالعقاب والعذاب الأليم.

لقد كان ضرب الطلاب في المدارس كضرب غرائب الإبل، ضرب بطش وانتقام لا ضرب تعليم وتأديب.

أتذكر أحدهم ضرب أحد زملائنا في الصف بطريقة عنيفة حتى تناثر الدم من يديه الصغيرتين، وازداد ذعر الطالب ونشيج بكائه دون أن يرف لهذا الجبار جفن.

وأقام أحدهم الطلاب الذين لم يكتبوا الواجب على الجدار وأرسل طالبا يحضر العصا ليبدأ احتفالية السلخ اليدوي، فدب الرعب في قلوبنا نحن الجالسين فكيف بالواقفين الذين ينتظرون وجبة العذاب.

وبينما نحن في هذا الانتظار المرعب إذا بأحد الطلاب الواقفين يسقط مغشيا عليه من شدة الذعر، فشغل به هذا الجزار، وكان إغماؤه سبب نجاة البقية من عذاب أليم.

يا لله، هناك مدرسون نسينا أسماءهم وأشكالهم، وتساقطوا من الذاكرة جميعاً، وهناك مدرسون نذكر أشكالهم ونسينا أسماءهم، ومدرسون نذكر أسماءهم وأشكالهم ولكن نتذكرهم بمرارة وألم، وبقي منهم مدرسون لا زلنا نذكر أسماءهم وأشكالهم ولباسهم ونبرات صوتهم، ونتذكرهم اليوم بحنين الابن إلى أبيه فقد ماتوا وأبقوا في نفوسنا بذرة حية نمت بعدهم، فرحمهم الله وأحيا ذكرهم.

ومن طرائف المرحلة الابتدائية أننا كنا ندعى إلى غرفة المراقب ليأخذ عنا معلومات، لا أدري إلى اليوم ما حاجاتها؟ ولا ما يصنع بها، ومنها كم عمرك؟ فلما رجعنا قال لي زميلي محمد: كم قلت لهم عمرك؟ قلت: عشر، قال: لا ما يصلح، كان قلت له ثمان، قلت: ولماذا؟ قال: من شان التقاعد بعدين، وكان يقولها بجدية تامة، وزهو بالاحتياط المبكر.

وكلما تذكرت هذا الموقف ضحكت وقلت: سبحان الله؛ طفل في العاشرة يفكر ويرتب للتقاعد بعد الستين.

والمرء ما عاش ممدود له أمل   لا ينتهي العيش حتى ينتهي الأثر

ومن اللطائف التي أذكرها نصوص كتاب المطالعة مثل: طه والطبلة، لا ترمي قشر الموز، وما كنا رأينا بطة ولا طبلة، وأما الموز فإن من الطلاب من لو وَجَد الموز لأكل قشره معه.

أما الجناية التعليمية علينا فكانت في تدريسنا مواد الدين بطريقة لم نكن نحن ولا مدرسونا نفهمها، كالقواعد الأربع للشيخ محمد بن عبد الوهاب، فقد كانت فوق مستوى أساتذتنا الذين لم يكونوا يفهمونها فضلا عن أن يُفْهِمونا إياها.

لا أزال أذكر الحيرة التي كنت أعيشها وأنا أقرأ هذه القاعدة من القواعد الأربع وأنا في العاشرة من عمري على أكثر تقدير: أن تعلم أن شرك أهل زماننا أعظم من شرك مشركي الجاهلية، وأنا لا أدري من هم مشركو الجاهلية؛ ولا من هم مشركو أهل زماننا.

أما مقرر الفقه فأكثر غُربة وغرابة، فقد صُدِعَت رؤوسُنا في السنة السادسة ابتدائي بنصاب زكاة الغنم والبقر والإبل، والتبيع والتبيعة، وابن اللبون، والحِقَّة التي حُق للفحل أن يطرقها.

كيف يعي طفل في الحادية عشرة من عمره أسنان الإبل وأنصبة زكواتها، فهو لا يعرف من الجَمَل إلا قطعة لحم يحضرها أبوه وتطبخها أمه في مواسم مثل حوليات زهير بن أبي سلمى.

سنوات ست مرت في مدرسة المحمدية كنا نشعر بشقائها بسبب الواجبات الكثيرة والعقوبات الأليمة، والضرب المبرح، فكان أول يوم في الإجازة يوم الفرحة العظمى، وآخر يوم منها هو يوم الفزع الأكبر لنا.

وحين اجتمعنا ليلة بعد المغرب جعلنا ونحن أطفال نحلق بأمانينا الطفولية ليوم الغد الذي سنذهب فيه إلى المدرسة، فكان من أحلامنا وأمانينا أن تنهار مدرستنا غدا صباحا لئلا نذهب للدراسة.

وفي هذه المدرسة وغيرها تعلمنا أشياء لم نستفد منها، وتعلمنا أشياء مفيدة ولكن بطريقة غير صحيحة، وفاتنا تعلم كثير مما احتجنا إليه بعد ذلك.

واليوم أرى الحال وقد تحول، فصارت العملية التعليمية أكثر رشدا ووعيا ونضجا، وصار الأب إذا أراد أن يهدد ابنه قال: إن فعلت كذا فلن تذهب إلى المدرسة، ولو قيلت لنا هذه العبارة يومها لكانت بشرى وليست تهديدا.

وحين كنت في السنة الثانية الابتدائي التقيت بعد المغرب عند دكان الحارة بابن جارنا (عزيوه) الذي كان في الخامسة الابتدائية وجاء ليشتري علبة الأدوات الهندسية التي يستعملها طلاب الخامسة، فقال لي: وُهَيِّب إذا صرت في الخامسة اطلب من أهلك يشترون لك مثلها، فنظرت إلى ثلاث سنوات تفصلني عن الخامسة فإذا هي أمد بعيد بعيد، وكأنها النفخة الأولى للصور، واليوم ألتفت وبيني وبينها نصف قرن فأراها قريبة جداً وكأنها الأمس القريب، يا ألله ما أبعد المستقبل في أعيننا، وأقرب الماضي إلينا.

أتذكر مدرسينا ومراقبينا ومديرنا والهيبة البالغة في نفوسنا لهم حتى كأنهم مخلوقات خارقة نزلت علينا من كوكب آخر.

أتذكر زملائي الآن وأتساءل ما فعل الله بهم وقد ابتعدت عنهم عشرات السنين، أين عادل أحمد هندي وإخوته وحيد ومنير؟ أين محمد الحميِّد، وأحمد العريني وغيرهم من رفاق الصبا والصبوات؟ اللهم متعهم متاع الصالحين، وأحسن لي ولهم الختام.



بسم الله الرحمن الرحيم ١٧/٥/١٣٨٠هـ

حضرة المكرم الفاضل الأستاذ محمد بن عبد اللطيف آل الشيخ مدير المدرسة المحمدية بالرياض المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أقدم هذا لسعادتكم بخصوص ابني عبد الوهاب بن ناصر الطريري آمل إلحاقه لديكم من ضمن طلبة السنة الأولى الابتدائية راجياً أن يحظى منكم بكل عطف وتوجيه كما عودتم أبنائكم الطلبة مقدرين ما تبذلونه لأبنائنا من تربية وتوجيه سليم وأسأل الله أن يعينكم فيما يسركم ولكم مني جزيل الشكر والتقدير.

المقدم

ناصر بن عبد الله الطريري

الرياض - دخنه - حلة آل سلمه

صورتي عند دخول المدرسة وخطاب الوالد بطلب تسجيلي فيها



مدرسة المحمدية الابتدائية في شارع سلام



مع أخي أحمد العريني، من زملاء المدرسة المحمدية الابتدائية

مدرسة ابن خلدون المتوسطة

تقع متوسطة ابن خلدون في شارع الأعشى في منطقة وسطى بين منفوحة ودخنة، وطلابها أخلاط من مجموع هذه الأحياء.

أتذكر مديرها وكان صارماً حازماً، وكانت المدرسة أحوج ما تكون إلى هذا الحزم والصرامة، وكنت أراه إذا جئت مبكراً وهو متلثم يتجول في نواحي المدرسة ويتفقد زواياها وملاذاتها.

وكان نصيبي من حزمه أنه ضربني مرة واحدة على يدي لأني أتيت متأخرا في يوم شديد البرد، فبقيت إلى أن خرجت من المدرسة وأنا أضم كفي المتورمتين إلى جنبي من ألم العصا التي تلقتها يداي المتجمدتان.

وأذكر مُدَرِّساً شرساً كان يشرف على الإذاعة المدرسية، فطلب مني أن أشارك فيها، وأن آتي باكراً إلى غرفة الإذاعة، فنفرت من ذلك ولم أستجب لطلبه، فغاظه ذلك وشعر أني أحاذره فأسرها في نفسه، ثم تصادف أن مر بفصلي ورآني قائما فوجدها فرصة للتشفي، فناداني وهو يقول: اخرج يا بهلوان، ثم دخل الفصل وضربني بعصاه التي لم تكن تسقط من يده ضربا أفرغ فيه نقمته، وتشفى ما شاء أن يتشفى من طفل في الثالثة عشرة من عمره.

ومع مرور نصف قرن على ذلك فإن لسع هذه الضربات كأنما كان يقع على قلبي وليس على يدي، لما أشعر به من حرارة الظلم والعدوان بغير وجه حق.

وأتذكَّر هذا اليوم وأقول: ذاك شخص قد ظلمني فكم ظلمتُ أنا نفسي، وهل يا ترى ظلمت أيضاً غيري؟ وهل شعر أحد تجاهي بمثل ما شعرت به تجاهه؟

وأما هذا الأستاذ رحمه الله فقد سامحته من كل قلبي، وسألت الله أن يغفر لي وله، وأن يجعلنا ممن قال فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

وكان ثم أساتذة فضلاء لا يزال طيفهم حاضرا، وذكرهم عطرا، وأثرهم باقيا.

كان الشيخ عبد العزيز بن بدر العسكر رحمه الله يدرسنا مواد الدين وكان كفيف البصر له أبوة وحفاوة بالطلاب، وكان لي به خصوصية فكنت بعد نهاية الدرس آخذه إلى غرفة المدرسين أو مبنى الإدارة.

وكان أستاذنا الشيخ العابد الزاهد حمد بن راشد الطيار رحمه الله له سمت ووقار في المدرسة، وكأنه هالة قدسية، وأحسب أنه ممن يصدق عليه وصف النبي ﷺ: «**رَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ**». وكان إمام مسجد حينا الجنوبي، فكان واعظاً بخشوعه وحاله، يعيش في الدنيا وكأنما وضع قدمه في الآخرة، فهو في الدنيا وليس من أهلها.

ومن الأساتذة الذين درسونا من أسترجع اليوم دروسه لنا فأشعر أن مكانه كان الجامعة وليس المدرسة المتوسطة، ولا تزال بعض المعلومات التي علقت بذهني منه مما أبحث عنه فلا أجده إلا بعد عناء.

ومن المدرِّسين فيها والذين لهم خلود في ذاكرتي أستاذ التاريخ عصام جستنية رحمه الله، كان محباً لمادته متفاعلاً معها، وكان يُدرِّسنا التاريخ العباسي، وكنت أطالع في تلك المرحلة كتاب «سمط النجوم العوالي في نبأ الأقدمين والتوالي» للعاصمي

في مكتبة الوالد، وتكوَّن لدي من قراءته تصور لذلك العصر، ولذا كنت أتفاعل معه، وإذا خرج عن المنهج صار عندي تلقٍّ لما يقول فيفرح بذلك ويشجعني، فلما أجرى لنا الاختبار الفصلي، وبينما نحن نجيب عن أسئلة الاختبار أخذ ورقتي وقد بدأت الكتابة للتوّ فكتب عليها العلامة النهائية (ثلاثون)، وكان موقفاً تربوياً مؤثراً جعلني في حال استنفار ألا أنزل عما يتوقعه مني.

ومن أساتذتي الذي لا يزال طيفه حاضراً وأثره في نفسي باقياً: الأستاذ حمد الشبانة، وقد تحدَّثت عنه في الجزء الثاني من «**سماء الذاكرة**» بمقالة ذكرت فيها لطائف من براعته التعليمية، وأثره التربوي علينا.

ومن زملائي فيها: الإخوة عبد المحسن العكرش، وعثمان الحسين، وغيرهم رعاهم الله.

وكان من زملائنا في الفصل الأخ العقيلي وكان أكبر منا سناً، وهو الوحيد الذي يلتحف الغترة، وكان يتعامل معنا كرجل، وفيه رزانة وسمت، ويبدو أنه لحق بالتعليم على كِبَر، ويشدني إذا تذكرته تلك الكتب التي كان يحضرها معه خارج المقرر، فأول مرة أرى كتاب: «عنوان المجد في تاريخ نجد» معه، ومما أتذكره كتيب صغير كان معه عن سقوط أمريكا والحضارة الغربية لا أتذكر اسمه ولا مؤلفه، ولكن أتذكر غلافه وعليه صورة كأس وسيجارة، وتصفحت فيه فقرأت كلمة تنسب للرئيس جون كينيدي يصف فيها شباب أمريكا بالضياع وإدمان المشروبات والمخدرات، ولا أدري عن صحة هذا النقل، ولكن الذي أدريه أن أمريكا ازدادت صعوداً وازددنا نحن هبوطاً، وأن الذين كانوا يبشرون بسقوط أمريكا فوجئوا بسقوط الاتحاد السوفيتي، وأن سقوط أمريكا ليس بشرى لنا نترقبها، ولكن البشرى الحقيقية أن نصعد نحن إلى مستوى منافستها.

أما أن تسقط هي وترثنا قوة عظمى غيرُها فما البشرى في ذلك؟

فقد انكمشت بريطانيا فلم نستفد من ذلك شيئا إلا مزيد تمدد للنفوذ الأمريكي، وذلك أن....

دعونا من هذا واسمحوا لي على هذا الاستطراد، فقد صرت مثل شيخنا علي الطنطاوي رحمه الله، يبتدئ قصة ثم يدخل في عشرٍ غيرها، ثم يتوقف ويقول: يا ألله شو عم كنت باحكي؟

رجعنا إلى منفوحة ومتوسطة ابن خلدون.

ومن مشاهد المدرسة المتوسطة تلك المعارك التي تشبه داحس والغبراء، وتكون بعد انتهاء الحصص والخروج من المدرسة، فقد كان الطلاب على بدوات المراهقة، وكان أي شجار يحصل في المدرسة ينتهي فورا بالتواعد في «الطَّلْعة» أي ساعة الانصراف من المدرسة؛ لتقع المعركة اليدوية أمام المدرسة حيث يشارك فيها المتشاجرون، ويتحول بقية الطلبة إلى جمهور، وقلما يتبرع أحد لفض الاشتباك، وأشد المعارك ضراوة ما يكون بين طلاب منفوحة، وكانوا قبائليين حديثي عهد ببداوة، يكفي أن يمر أحدهم على جماعته في بقية الفصول ويقول: اليوم فيه مضاربة في الطلعة، فيتحفزون فورا للمشاركة من غير أن يسألوا من هم؟ ولا كم عددهم؟ ولا سبب معركتهم؟

وفي المرحلة المتوسطة وفي السنة الثانية منها وأنا في السنة الرابعة عشرة من عمري اتضحت لي الرؤية وتحدد الهدف، واخترت الطريق الذي لا زلت أسير فيه، وهو مسار العلم الشرعي والتخصص في نوع من معارفه، ولا زلت منذ ذلك الوقت أسير في هذا الاتجاه مستمدا من الله معونته وتوفيقه وهدايته وتسديده.

وفي هذه المرحلة بدأت بتذوق روائع الكلام، ومحبة الأدب، وعرفت من والدي معنى أسلوب السهل الممتنع، وبدأت ما كنت أظنها محاكاة بعض أساليب الكتاب،

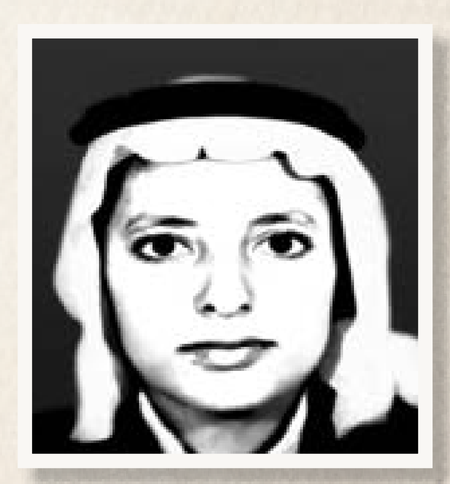
وجعلتُ مادة التعبير متنفسا لهذا الميول فكنت أتعامل معها بجدية في حين لم تكن مادة ذات أهمية في نظر الطلاب ولا الأساتذة، وكانت أعظم إشادة ظفرت بها حين كتبت موضوعا للإنشاء بعنوان «عندما يذبل الزهر»، وأعطيته لأبي ليعطيني رأيه فيه، فلما قرأه قال: لن يصدق أستاذك أن هذه كتابتك، فشعرت أن هذه الكلمة أبلغ من كثير من الثناء، وأخذني الزهو حتى ظننت أني سأعزل أحمد شوقي عن إمارة الشعر، وطه حسين عن عمادة الأدب.

ولا بأس أن يُحفَّز المبتدئ بجرعات من أوهام الغرور، فسوف يكتشف حقيقتها إذا واصل المسير، وسيرجع إلى قواعده بعدها سالماً.

وفي المرحلة المتوسطة كانت معركتي الخاسرة مع اللغة الإنجليزية والتي لا زلت أجني تبعات خيبتها، فبعد ست سنوات من تعلُّم اللغة الإنجليزية في المرحلة المتوسطة والثانوية، ومكابدة رسوب أحيانا ونجاح على الحافة أحيانا لم أتجاوز حفظ الأرقام العشرة الأولى، ولا أحفظ من أيام الأسبوع إلا بعضها لكني لا أستطيع أن أرتبها، ولعل حظي في المستقبل مع اللغة الفرنسية يكون أفضل من ذلك!!

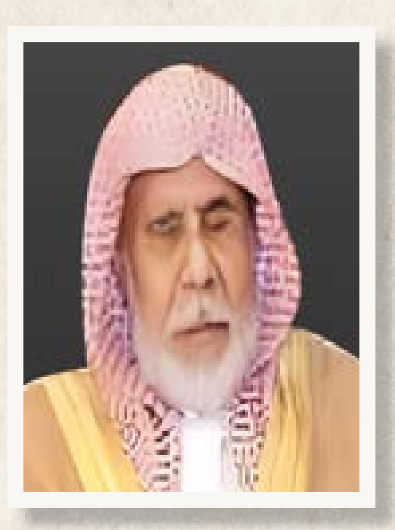


متوسطة ابن خلدون

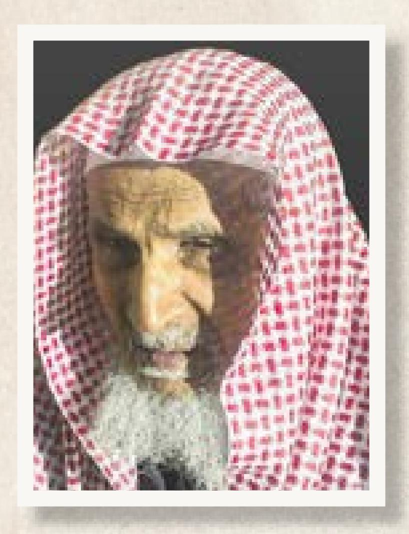




صوري في المرحلة المتوسطة



أستاذي الشيخ عبد العزيز بن بدر العسكر
رحمه الله



أستاذي الشيخ حمد بن راشد الطيار
رحمه الله



أستاذي المربي الأديب
حمد بن محمد الشبانة
حفظه الله



زميلي في متوسطة ابن خلدون،
ورفيقي في طريق الحياة
أخي عثمان بن ناصر الحسين

مدرسة اليمامة الثانوية

كان الأستاذ عبد الرحمن الثاقب العجاجي مدير ثانوية اليمامة قد رفع مكانة المدرسة الثانوية وأحسن إدارتها، فكان لها سمعة في وقته وكأنها جامعة هارفارد، كان مديرا موهوبا قوي الشخصية حازما من غير عنف، وكان شابا في مقتبل العمر وكل المدرسين والإداريين أكبر منه سنا، وكل الطلاب أصغر منه سناً، وكان يحرك هؤلاء وهؤلاء باقتدار عجيب كما يحرك حبات سبحته بين أصابعه.

وقد اختار الوالد أن أدرس في هذه الثانوية لتميزها مع بعدها عن بيتنا ووجود مدارس أقرب منها.

دخلت الثانوية فشعرت بنقلة كتلك التي يشعر بها الطالب إذا دخل الجامعة، فالمدرسون جميعاً من الكبار سنا ونضجا وعلما، والإدارة لها هيبة كأنها قدس الأقداس، وغابت العصا من أيدي الأساتذة فالتعامل مع طلبة وصلوا إلى سن الرجولة، ومع ذلك يكفي أن يقول المراقب إنه سيبلغ الإدارة حتى يكون هذا التهديد أبلغ من كل عقوبة.

في هذه الثانوية نوعية راقية من المدرسين المميزين والذين يفرضون احترامهم، ويحترمون رسالتهم، ومنهم الأساتذة: عبد الرحمن الفارس، وسليمان الشُّرِّيف، وإبراهيم المليفي، ويوسف نصر، وأحمد المشعلي وغيرهم.

وكان الأستاذ الشيخ عبد الرحمن الفارس رحمه الله الأب البار بكل الطلاب والمدرسين لما فيه من رقة وصلاح وورع، وشفافية نفسية، لا يملك من عرفه إلا أن يحبه.

وكان المشرف على جمعية التوعية الإسلامية، وكان فيها أفراد من الطلاب وقد بدأت إرهاصات الصحوة بالظهور، وكان من أنشطة هذه الجمعية إقامة المحاضرات، وممن حضرت محاضراتهم فيها: الشيخ حمد الصليفيح، والشيخ محمد الداعوق، والشيخ عبد الرحمن الدوسري، والشيخ أحمد القاسم، والشيخ عبد العزيز بن باز رحمهم الله.

وكان من فعاليات الجمعية كلمات يلقيها الأستاذ يوسف نصر في فترة الفسحة، والذي كان مثقفا ثقافة واسعة لا نكاد نسأله عن شيء إلا وجدنا عنده منه علما.

وفي هذه الجمعية تعرفت على مجموعة طيبة من الزملاء، وكان المشرف عليها من الطلبة الأخ علي الخضير، وكان ذا سمت حسن، واستقامة وحسن خلق، ولطف في التعامل مع زملائه، مع جد في الدراسة والحياة.

ولكن لم يستهوني في نشاط الجمعية التركيز على ما يسمى كتب الثقافة الإسلامية، ويقصد بها كتب الفكر والدعوة المعاصرة، مثل كتب المودودي وسيد قطب ومحمد الغزالي ونحوها، لأني كنت قد بدأت بالقراءة على المشايخ في المساجد في الكتب العلمية في الفقه والحديث فلم تستهوني الكتب الحديثة، فكنت غير متفاعل معهم، ولِكُلٍ وجهة هو موليها، ولذا لم تطل الصحبة معهم، وبقيت وثيقة ودائمة بأشياخ الجمعية عبد الرحمن الفارس وإبراهيم المليفي وأحمد المشعلي، وكانوا أقرب إلى مشربي العلمي.

وكنت حينها أمر بمرحلة الشَّرَه العلمي، فكنت منقطعاً للقراءة والحفظ، ومجالسة المشايخ، ومن ذلك أني كنت قد وزعت أوقات اليوم بانتظام على القراءة، فبعد العصر

كان للحفظ، وبعد المغرب للقراءة على الشيخ عبد العزيز آل الشيخ، وبعد العشاء أقرأ على الشيخ ابن جبرين، فحدثني أحد أصدقائي عن موعد نلتقي فيه، فقلت: المهم ألا يكون بعد العصر أو المغرب أو العشاء، فقال ساخراً: إذن نجعله آخر الليل!!!

وكنت أمشي في الطريق وأنا أقرأ كتاباً أمسكه بيدي وأسير مطأطئ الرأس، فرآني أستاذنا أحمد المشعلي رحمه الله، وكان لطيفاً ودوداً، فقال لي: لا أرى أن تفعل ذلك فالخليل اصطدم بعمود فمات، فاحذر أن تَصدم أو تُصدم.

وأحسب أنه رحمه الله كان يوصل إليَّ رسالة لطيفة بأن هذا من غلواء النَهم الذي ينتهي بعد ذلك إلى الفتور، وهكذا كان، فقد أعقب هذه الشِّرَةَ[١] فتور واسترخاء، ولكل شرةٍ فترةٌ، ثم استعدت التوازن على شيء من الهدوء والسكينة، ولا أحسب ذلك إلا ببركة احتفافي بالأشياخ المباركين أولي النسك والتأله والرشد العلمي.

ومن أنشطة جمعية التوعية الرحلات الطلابية في الإجازات، ولأنها مع المشايخ الفارس والمليفي وطلاب من الجادين فإن نصيب الجِدِّ والفائدة أكثر من مساحة الرياضة والمتعة، حيث تجري المسابقات الثقافية ويدرب الطلاب على إلقاء الكلمات في المساجد.

ومن الرحلات الخالدة في ذاكرتي: رحلتنا إلى حوطة بني تميم، وكانت في عام (١٣٩٦هـ)، ومما أذكره أنا زرنا هذه البلدة وهي على الحال الأولى لبلدات نجد، حيث البيوت الطينية والشوارع الترابية، من دون كهرباء وإنما الإضاءة بالسرج الغازية وتسمى: «أتاريك».

وكنا في ضيافة المدرسة المتوسطة والثانوية، وهي بيت من الطين كبير، وسكنا في بيت ضيافة من الطين أيضاً.

(١) الشِّرة: النشاط والرغبة. ينظر: «النهاية» لابن الأثير (٢/ ٤٥٨).

وأعدت المدرسة حفل استقبال عصر يوم الوصول وكان فيه فقرات خطابية، فطلب مني الشيخ الفارس أن ألقي كلمة الطلاب، وكانت أول مرة أرتجل خطابا في جمع كهذا، فلما وقفت أمام الجمع أخذني كرب شديد وتغير المشهد أمامي وصرت أرى الرجال كالجبال، وأنظر إلى العيون كأنها فوهات مدافع، ولكني استجمعت ما استطعت من ثباتي وانطلقت بالعبارات المحفوظة، الحمد والتحية والسلام، ثم انطلقت في كلام لا أدري كيف قلته ولا ماذا قلت فيه، لكني كنت أغالب الحرج فيها برفع الصوت وتكلف الحماس، فلما فُصم عني الكرب، وانهيت ما أظنها كلمة شكر على الترحاب، توجهت إلى مقعدي في غاية الحرج، لا أدري هل أحسنت أم افتضحت؟ وما أسرع أن جاء الفرج بهتاف الأساتذة المصريين كعادتهم: فتح الله عليك، ما شاء الله، الله الله، بالصلاة على النبي، فما أسرع أن رجعت إليَّ نفسي واستعدت ثقتي مع ملعقة كبيرة من الغرور، فقد ظننت أني صرت مثل عمي سحبان وائل أو أفصح منه قليلاً.

وفي الحوطة رأينا الكرم التميمي حيث دعينا على مائدة الغداء في شعب ظليل قريب من البلدة، وكانت الضيافة جملا نصبت لطبخه قدور أظنها من القدور الراسيات التي أصابها أهل الحوطة من آنية نبي الله سليمان.

ومن الغد دعانا أمير القويع الشيخ عبد الله بن مهنا رحمه الله على مائدة الإفطار لأننا كنا على وشك العودة للرياض، وكانت الدعوة في بيت داخل حائط نخل أتذكره وأقول: أهكذا كانت نخيل الأنصار ودورهم في المدينة؟

أما الفجاءة فكانت عندما دخلنا إلى مائدة الإفطار الصباحي والتي كانت الذبائح الكاملة على الصحون الواسعة الملأى بالأرز، وهي وجبة لم تكن تؤكل عندنا في الصباح لكن الكرم التميمي يأبى أن يقدم الضيافة الصباحية حبيبات الزيتون وقطع الجبن، فما لم تكن الضيافة لحماً وشحماً ودسماً فليست للضيف بقرى.

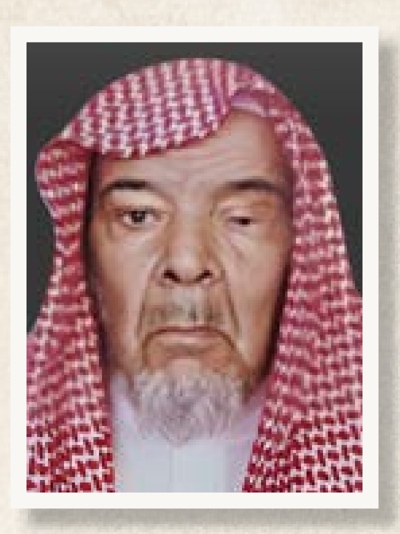
وكانت رحلة مأنوسة وكل ما فيها طريف وجديد ورائع، وكنت فيها بغاية السرور مع مشايخي وأصحابي ومن تعرفت عليهم من بني تميم.

أما فجاءة القدر التي لم أكن أعلم أنها مطوية في الغيب المستور فهي أن يكون من أُعجبت بهم حينها في الحوطة هم أصهاري، وأن أتزوج إليهم، فلنعم الأصهار لي، ولنعم الخؤولة لأبنائي.

وعلمت أن في الزواج معنى من الأجل، فكما لا تدري نفس بأي أرض تموت، فلا يدري أحد من أي أرض سيتزوج.



مبنى ثانوية اليمامة القديم قبل إزالته



الشيخ عبد الرحمن الفارس
رحمه الله



الأستاذ أحمد المشعلي
رحمه الله



الأستاذ يوسف نصر
رحمه الله



الأستاذ عبد الرحمن الثاقب العجاجي
حفظه الله



ثانوية اليمامة



أطلال في حوطة بني تميم والتي كانت عامرة عند زيارتنا لها



الأمير عبد الله بن محمد آل مهنا
رحمه الله



صورتي في المرحلة الثانوية

لهونا

كنت بلا هوايات، سوى المطالعة والقراءة إن تيسر لي ما يناسب أن أقرأه، وكانت الهوايات عند لداتي بسيطة ومحدودة جدّاً.

في مرحلة الطفولة أدركت لعب الكعاب، ولعبة الحَيْد، وعُظَيم سرى، وأم خطوط ونحوها من الألعاب الساذجة، مما عرفتها ولم أشارك فيها، وبعد أن كبرنا شيئا كانت كرة القدم والطائرة هي لهو الفتيان، ولم يكن لي فيها قسمة ولا نصيب.

أما الهوايات الأخرى التي عرفناها بعد ذلك مثل جمع الطوابع، والمراسلة، والعزف الموسيقي فَترفٌ لا تتسع له أوقاتنا، ولا تُحصِّله قروشنا، ولم نعرفه إلا من خلال ملاحق التعارف في المجلات بعد ذلك.

كان الوقت واسعا، وخيارات اللهو ضيقة، وفرصها محدودة وغير متيسرة، والحاجة أم الاختراع، فيخترع الفتيان أنواعا من الشقاوات يؤذون بها الناس ثم يستجمعون بعدها ضحكا، وتظل أحدوثتهم بعدها أياما.

ومما أتذكره من ذلك: أن الناس كانوا يكدحون في الأعمال والأسواق في الصباح الباكر فإذا اشتد الحر واستعرت الشمس عادوا إلى بيوتهم، أما العمال والغرباء فيأتون إلى المساجد والتي كانت باردة نسبيا، فينامون فيها إلى صلاة الظهر، وفي فترة القيلولة

هذه ينطلق فتيان الحارة الأشقياء والذين أرافقهم أحيانا بصفة مراقب، فأنا لا أملك جرأتهم ولا سرعتهم.

فيدخلون المسجد ويغترفون ماء باردا من سقاية المسجد ثم يَختُلون هؤلاء النوام فيختارون أكثرهم استغراقا في النوم فيطوحون عليه ما بأيديهم من مغارف الماء الكبيرة التي كأنها صهاريج، وقبل أن تصل إليه يكونون قد وصلوا إلى باب المسجد ينظرون إلى فزعه إذا فزع، وانفعاله إذا قام في حال اهتياج، وثورةِ غضب، فيعدو خلفهم لعله يظفر بأحدهم فيفرغ فيه ثورة غضبه، ولكن أنى له ذلك وقد تفرقوا في السكك مثل الجرذان، فإذا اجتمعوا بعد العصر كانت أحدوثتهم حكاية شقاواتهم في الضحى، وردات فعل ضحاياهم، وتقليد انفعالاتهم، ولا ينتهي المجلس إلا بإعداد خطة لغارة جديدة يفتتحون بها مسجدا لم يدخلوه، وأرضا لم يطؤوها، ولم تصلها نذر غزواتهم بعد.

ومن شقاواتهم تلك: أن الكيروسين كان وقود الناس بمواقدهم التي تُسمَّى الكولة والدافور (البريموس)، وكان باعة الكيروسين يتجولون في الحارات بعربة كارو يجرها حمار، وعليها برميل مليء بالكيروسين، ويسمى: (القاز)، ولها حنفية خلفية يفرغ البائع منها لزبائنه في أوعيتهم التي في البيوت، وغالبا تكون تنكة، ويسير في السكك وهو ينادي بصوت يترنم به (إيلقاز) ويمد بعض حروفها ست حركات، وبعضها سبعاً وعشرين حركة حتى يسمعه اليقظان والنائم والميت أحيانا.

فكان الأشقياء يتآمرون به فإذا مر بهم، سار خلفه أشقاهم وأخفهم حركة وفتح حنفية القاز بخفة فينتشر في الطريق وهو لا يشعر به، فإذا توقف عند أحد البيوت ليملأ لهم التنكة وجد البرميل فارغاً وحمولته قد تناثرت خلفه في خيط طويل لا يدري أين طرفه، ولا تسل عن فجيعته وفزعه وصياحه على من حوله، وكمرات المراقبة الصبيانية تراقب المشهد ليكون لهم ملهاة ومتعة بقدر ما هو لهذا العامل فاجعة ومصيبة.

ومن تلك المشاهد المثيرة والراسخة في قاع الذاكرة هذا المشهد:

يوجد في كثير من بيوت الحارة أحواش خلفية لتربية الأغنام، فإذا تراكمت فضلاتها

جاء عمال السماد يحملون هذه المخلفات على الحمير ويبيعونها سمادا لأهل المزارع القريبة من الرياض.

وفي ضحوة أحد أيام الصيف استدعى جيراننا أحد عمال السماد هؤلاء لينظف لهم حظيرة الماشية، فجاء بالحمار وجعل عليه الوقر(١) ثم جعل يتردد بين الحمار وحوش الغنم والذي يكون في أقصى مكان من البيت فيملأ زنبيلا كبيراً معه ثم يحمله فوق رأسه ويعود به فينثره في وقر الحمار، ثم يرجع كرة أخرى، ويظل يتردد ذهابا وإيابا ينقل أكوام الروث حِمْلا حِمْلا، حتى إذا امتلأ الوقر مد خشبة بين طرفيه تكون تحت بطن الحمار حتى يتسع هذا الوعاء الكبير، ثم يستأنف رحلة النقل، وكنت صغيرا استمتع بمنظر العامل ذهابا وإيابا، وكان رجلا أسمر اللون، قويَّ البنية، يعمل بهمة ونشاط، وتظن أنه فرحٌ بعمله لا يحب أن يشاركه أو ينافسه فيه أحد، ويتلمظ فرحا للمكافأة التي سيأخذها من صاحب البيت الذي يحمل منه السماد، ومن صاحب البستان الذي سيحمله إليه.

أما الأستاذ الحمار فكان ثابتاً في مكانه، مدلياً رأسه وكأنه مستغرق في تفكير عميق.

وكان الأشقياء يتظاهرون باللعب فيما بينهم وهم يحيكون المؤامرة ويرسمون الخطة المحكمة، فاتفقوا مع ابن صاحب البيت أن يراقبه من داخل البيت حتى إذا لم يبق إلا قدر زنبيل أو اثنين أخبرهم، وهكذا كان، فقد كان العامل ينقل هذه الأحمال، وكلما أوشك الوقر على الامتلاء جعل يوسعه ويمده ويرفع جوانبه حتى يحمل أكبر قدر من الحمولة، وكأنه قد عزم أن يجرف ما في الحظيرة كلها في حمل واحد، وكأنك تراه وقد أوشك الوقر على الامتلاء وأوشك العمل على الانتهاء، وفرصة الظفر توشك

---

(١) الوقر هو زنبيل عريض يصنع من سعف النخل، ويوضع على ظهر الحمار فينفرج طرفاه على جانبي الحمار فيوضع فيها ما يراد حمله.

أن تكتمل إذ جاء ابن صاحب البيت من الداخل يقول هامسا لشيطان العصابة: خلاص خلَّص ما بقي إلا واحد.

فلما دخل العامل ليحمل النقلة الأخيرة وينهي عمله البطيء المتعب الذي دام أكثر من ساعتين إذ بهؤلاء الأشقياء يقلبون الوقر بحمولته التي انتثرت على الأرض، وتبددت على مساحة واسعة، وتبدد معها الجهد الطويل والعمل المتواصل، ثم هربوا سراعا وكأن الأرض فتحت لهم ثم أطبقت عليهم، ولما خرج العامل بحمله الأخير رأى حمولته تلك منتثرة على مساحة واسعة من الأرض، جُن جنونه، وفقد عقله، وانطلق يعدو على غير هدى لعله يمسك بأحد هؤلاء الشياطين، إذن لقطعه إِرَبا، ولخلط لحمه بدمه، وكأني أراه الآن وحالة الاهتياج ظاهرة على وجهه فرجع يسألني: وين راحوا؟ وين راحوا؟ وكنت لصغر سني بعيدا عن التهمة، فقلت له: من هنا، وأشرت إلى الطريق الذي ذهبوا منه، وهي معلومة عقيمة لا فائدة منها، فهو الطريق الذي لا يمكن أن يذهبوا إلا منه، ولكن المشكلة أن هذا الطريق يتفرع بعد قليل إلى ألف طريق، فمن أيها ذهبوا؟ وأي طريق سلكوا؟

ثم جاءني رسولهم بعد ذلك يسألني ماذا فعل؟ وكيف فعل؟ ومتى انتهى؟ وكأنما يريدون أن يستمتعوا بإكمال المشهد المتخيل الذي لم يحضروه.

ولا تعجب من لهوهم هذا فلم تكن لديهم أجهزة إلكترونية، ولا وسائل تواصل، ولا برامج ألعاب، ولا مجلات أطفال، ولا متنزهات ولا مدن ملاهي مما يتلهى به أطفال هذا الزمان ويُشغَلون به.

ولذا أفرغوا طاقتهم في مثل هذه الشقاوات، وجعلوها تسلية ولهوا.



عربة القاز



الحمار وعليه وقر السماد

ميولي الرياضية

لا أذكر أني كنت أشجع فريقاً رياضياً أو أتحمس له، ولا أحفظ من أسماء اللاعبين إلا مبارك عبد الكريم والدنيني وبيليه، ومن الأندية إلا نادي سانتوس البرازيلي ونادي مرخ في الزلفي، ولم أحضر مباراة في ملعب رياضي إلا مرة واحدة في ملعب الملز الرياضي حين سَوَّل لي أخي أحمد أن أذهب معه إلى مباراةٍ بين الهلال والنصر، فذهبت من أجله لا من أجل المباراة، ولذا كنت أتفرج على الجمهور وانفعالاتهم وتفاعلهم وليس على اللاعبين.

ولا أذكر أني جلست أتابع مباراة كاملة، وعندما كنا نتصفح الصحف الورقية كانت صفحات الملحق الرياضي هي الصفحات التي أقفزها جميعاً فلا أقرأ منها سطراً ولا كلمة.

أما تحليل المباريات وسجال المخاصمات حولها فإن شرب سطل من زيت الخروع أسهل عليَّ من الاستماع إليها دقيقة أو نصفها.

وأحسب أن سبب هذا كله ردة فعل عكسية تسبب بها لي يوم السقوط، وما أدراك ما يوم السقوط.

لقد كان من خبر ذلك اليوم أنني في إحدى المشاركات النادرة لي مع فريق حارتنا وكنت في أول المرحلة الابتدائية، وكان من دوري أن أُسدد ضربة جزاء، وكنا أطفالاً

نبالغ في التقليد، وكان اللاعبون المحترفون يثبتون الكرة بقليل من التراب حولها يرفعها عن الأرض حتى يكون التسديد احترافيا، ولذا لما جاء دوري جمعت كل تراب الحارة ورفعت عليه الكرة حتى صارت ترتفع عن الأرض متراً و٦٧ سم (الدقة مطلوبة)، ثم جعلت أرجع إلى الوراء كما يفعل اللاعبون الكبار، ولكن أظنني رجعت أحد عشر كيلو متراً للخلف، ثم جمعت كل قواي وانطلقت عدواً وكأني في مضمار سباق وليس في ملعب كرة قدم حتى إذا وصلت إلى الكرة سددت لها ضربة قوية بقدمي اليمنى حتى تنطلق وكأنها قذيفة مدفع ولكني أخطأتها، فوطِئتُ عليها وانزلقتُ بها، وسقطت بطولي كله إلى الخلف متمدِّدا متبدِّداً كأعجاز نخل منقعر، وتألَّمت وتقلَّبت على الأرض ظهراً لبطن، وفهمت تماماً معنى عبارة: أرغَمَ اللهُ أنفك، فقد امتلأ أنفي وفمي برغام التراب وتراب الأرض، وقمتُ ولا أحد أذل مني إلا الشيطانُ في يوم عرفة، ورجعت إلى البيت ولا أدري إلى الآن كيف كانت نهاية تلك المباراة، ولا ما هي نتيجتها؟

ومنذ ذلك اليوم كرهت كل شيء اسمه: كرة، حتى الكرة الأرضية.

ويزعم بعض المحللين الرياضيين أنه لولا هذه الحادثة لكان لي في كرة القدم مستقبل باهر، ولكن هذا الحادث السيئ لي كان حظّاً حسناً لصالح النعيمة، وماجد عبد الله، ومارادونا، ورونالدو، وميسي، وهذه المواهب الصاعدة التي تمددت في الفراغ الذي تركته لها.

وقد أثر ذلك لدي العزوف عن اللعب والرياضة بكل أنواعها، وعن متابعة الشأن الرياضي والتفاعل معه.

وربما كان في ذلك خير لي من جهة إقبالي على ما توجهت إليه وفراغي له.

وقد ورث عني أبنائي كلهم هذه الأمية الرياضية فليس لهم اهتمام باللاعبين ولا المباريات ولا الأندية، وعندما كانت حُمَّى مباريات كأس العالم في روسيا عام

(٢٠١٨م) على أشدها اشتركت لهم في «قناة الجزيرة الرياضية» حتى يتابعها من يرغب منهم، فانتهت المباريات وإلى الآن لا يعلمون ولا أعلم من الذي فاز وأخذ الكأس، ومن يشابه أبه فما ظلم.

وكان لبعض العلماء عندنا نظرٌ متحفظ إلى كرة القدم يصل إلى التحريم عند بعضهم[١] بحجة أنه تقليد للكفار إن كان اللاعبون مسلمين، وأنها إخلال بالولاء والبراء إن كان التشجيع لفرقٍ غير مسلمة.

وأن لبس شعار فريقٍ أجنبي أمر محرم، لذلك كتبتُ أيام نهائيات كأس العالم مقالة نشرتها في حسابي في تويتر عن جواز ذلك وخلاصتها:

إن إعجاب الشاب بمهارة لاعب لا تعني إعجابه بدينه، ولا سياسة بلده، وكذا إعجابه ببراعته أو خلقه، وقد أثنى نبينا ﷺ على مواقف بعض المشركين وأخلاقهم وعقولهم، كحلف الفضول، وخُلق المطعم بن عدي، وعقل عتبة بن ربيعة.

وأن الألعاب الموجودة في زمن النبي ﷺ هي ذاتها ألعاب الناس في الجاهلية، وهي ثقافة مشتركة مع المشركين كلعب الحبشة بالحراب ونحوها، وكذلك الألعاب اليوم هي مشترك عالمي بين الشعوب لا تخص دينا ولا بلدا.

وأن نظر بعضنا إلى المباريات ومتابعتها على أنه ضياع للوقت هو من العزيمة التي يسعنا أن نلتزمها وليس لنا أن نلزم بها أحداً.

وأنه لا يسعنا أن نطرح قناعاتنا ووجهات نظرنا باسم الدين، فالذي لا نقتنع به نطرحه رأياً وقناعةً ووجهة نظر، وليس ديناً وحلالا وحراما.

كما قيل: إذا فعل الناس ما يدخلهم الجنة لم يمنعوا إلا مما يدخلهم النار.

(١) ينظر: «فتاوى اللجنة الدائمة»، الفتوى رقم: (٤٢١٩).

وفشت هذه المقالة وانتشرت، فرد عليَّ أخي الحبيب الشيخ محمد بن أحمد الفراج رداً خالفني فيه الرأي، وكان يميل إلى ترجيح حرمة ذلك، وكان رده غايةً في الذوق والرفق وحسن التأتي، وسماه: لطيف العتاب لأخي عبد الوهاب، فأعدت نشر رده على حسابي، ثم عقبت عليه بأني لو كنت تاركاً قناعتي لحب أحد لتركتها لحبي لأخي أبي أحمد.

وكتب هو تعقيباً قال فيه: لو كان الحب يمنعني من صدق النصح لأحد لمنعني حبك من نصحك، وكانت حفاوتي بمخالفته أكثر من موافقته؛ لأنها قدمت نموذجاً للخلاف الراقي، والحوار الذي لا يتجاوز وجهة النظر إلى مساحة الأخوة، ولا يستهلك شيئاً من رصيد المحبة.

وكان هذا السجال ممارسة عملية تبين أن مساحة الحب واسعة تحتوي الآراء وإن اختلفت.

قال يونس الصدفي: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى؛ ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة؟!

ليلنا

عرفنا الليل سَكَنا كما جعله الله: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾. فكان عَشَاؤُنا بعد المغرب نجتمع عليه في بهو بيتنا وهو من ساعات الأنس مع أبي ومجال للحديث بيننا، ولم يكن يقطعنا عنه برنامج تلفزيوني، ولا حديث إذاعي، فحديثه لنا إذاعتنا وتلفزيوننا وصحافتنا، ولا نذهب إلى صلاة العشاء إلا وقد قضينا مآرب يومنا وآخرُها عشاؤُنا وواجباتنا المدرسية، فإذا رجعنا من صلاة العشاء وجدنا فرشنا قد مدت منذ مساء اليوم في سطح بيتنا حتى تبرد، فتتلقانا بحنان ونأوي إليها بشوق، وكانت فرشنا هذه طراحات تمد على الأرض مساء وتطوى صباحا.

وما كان شيء يحجبنا عن قبة السماء وزينتها، ولذا نتابع نمو القمر كل ليلة، حتى اكتماله، ثم نقصه حتى يعود كالعرجون القديم، ونرى نجوم السماء ونعرفها بأسمائها، ونلاحظ اختلاف منازلها، وربما حدقنا فيها حتى كأنما تومض لنا، أو توصوص لنا في نجوى خافتة، ونرى الشهب إذا عبرت أفق السماء، ولا تسل عن خيال الطفل ونسج أفكاره في هذا الأفق الرحيب والكون العجيب.

وما كنا نسمر بعد العشاء ولكن كنت أرى أبي وقد أضاء المصباح الكهربائي المتنقل، ونشر كتاب «إحكام الأحكام» للآمدي يسامره ضمن منهج الدراسة في المعهد العالي للقضاء، وأما سمري فكان مع جهاز راديو صغير أنام وهو إلى جانبي

وأستغرق في النوم وبرامجه مستمرة، وكان إضافة ثقافية لي من خلال البرامج التي كنت أتابعها في الإذاعة العراقية، وفيها مناقشات الرسائل العلمية والتي كانت مناظرات أكثر منها مناقشات، فالمناقش عالم راسخ والطالب مجتهد متمكن، ومما علق بذهني منها مناقشة رسالة «الثعالبي ناقدا وأديبا» و«المنبر في التاريخ الإسلامي».

وأتذكر أني سمعت لقاء مع شخصية يسارية يسأله المذيع عن طموحاته، فقال: ما كان طموحي يتجاوز السكن في غرفة في سطح مدرسة ثانوية أدرس فيها، وأستطيع من خلالها توعية الطلاب، ورسخت العبارة في ذهني أتذكرها كلما دعيت إلى كلمة أُلقيها أو ندوة أشارك فيها حفزتني هذه الكلمة ألا أرفض هذه الدعوة، وقلت في نفسي: كان طموح قومي يساري أن تتاح له فرصة الحديث إلى طلاب فصل دراسي، وأنا أتردد في إجابة دعوة يجمع لها طلاب مدرسة، قد صار الواجب عينيا فكيف أعتذر.

وما صرت أعتذر حتى تزاحمت المهمات، وصارت الواجبات أكثر من الأوقات.

ومما أذكره من سمري مع المذياع متابعتي لأحداث أيلول الأسود من الإذاعات التابعة للمنظمات الفلسطينية، وخطابات الرئيس السادات والتي نعرف متى تبتدئ ثم لا نعرف كيف ولا متى تنتهي، ورسائل الأهل في فلسطين لأقاربهم عبر دار الإذاعة الإسرائيلية والتي تختم بالعبارة التي لا تتغير: «نحن بخير طمئنونا عنكم».

وكل هذا في وقت يسير فعادة نلقي بأنفسنا على فرشنا وعيوننا نصف مغمضة، ولم نكن نعرف شيئا يسمى الأرق، فالاستيقاظ الباكر والنوم الباكر كان نمطاً حياتيّاً لجميع الناس.

وفي هزيع الليل الآخر تصلصل ساعة رنانة تستيقظ إليها جدتي فتغلقها ثم تتوضأ وتصلي قيام الليل وتهجده، وكم استيقظت فرأيتها تصلي في سكون الليل وهجعة الناس، في حال من التأله الخاشع.

وكانت صلاتُها وذكرُها سكينةً وطمأنينةً وبركةً على بيتنا، ولا أحسب أن هناء العيش وطيب الحياة الذي كان يغمرنا إلا ببركة ذكرها وصلاتها ودعائها.

أما السهر الليلي فلم يكن ضمن برامجنا ولا من نمط حياتنا، ولا أذكر أني سهرت ليلة حتى الصباح قبل ليلة زواجي.

طموحنا

لم تمر بي تموجات في الطموح، وكان ما عزمت عليه وأنا في المرحلة الأولى من الوعي هو ما صرت إليه ولا أزال عليه، فكان الهدف واضحا ومحددا، وهو الصلة بالعلم الشرعي والتخصص فيه، ولم يقفز إلى ذهني طوال عمري خيار آخر، وكان الدافع ذاتيا، فمع أن البيئة الأسرية تعين على ذلك، إلا أن هذا التوجه كان قناعة خاصة لم أدفع لها، وإنما سرت إليها اختيارا، وأعرضت عن اختيارات أخرى كانت متاحة لي حينها وتوجه إليها كثير من رفاقي لمناسبتها لهم، و﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾.

أما الطموحات المبكرة فقد تحقق منها بحمد الله كثير، وفات منها كثير بسبب التقصير والتسويف، وسوء التخطيط أو سوء التقدير.

وكنت أطمح أن أكون إماما لجامع ومدرسا في الجامعة وقد تحقق لي ذلك بحمد الله وتوفيقه، وأن أكتب شيئا أتشبث فيه بأذيال العلم وأهله، وقد فتح الله من ذلك شيئا قليلا أرجو أن يتقبله الله ويباركه.

أما المناصب والرتب فلم تكن يوماً في خارطة اهتماماتي ولا في طريق طموحي، وليس ذلك زهداً فيها ولا تنزهاً عنها، وإنما قناعة بعدم لياقتي لها.

والآن لو خيرت أن أستعيد عمري من بداياته لما اخترت غير الطريق الذي سرت فيه، والهدف الذي حاولت الوصول إليه، وسأتدارك أخطاءً كثيرة وقعت فيها ولكن سأسلك ذات الطريق وبذات الطريقة.

وقد كان مساري في الحياة وخطتي فيها قبل أن نَعرِفَ كتب التنمية البشرية، ودورات تطوير الذات، ثم عرفت هذه الكتب، وشاركت في بعض هذه الدورات، وجمعت من هذه الكتب حمولة ثلاث سيارات نقل، فوجدت الكثير منها يقدم الفكرة في سطل وكان يمكن أن تقدم في فنجان، وينفشها في كتاب وكان يمكن أن تقدم في مقالة، ولكن يصفو لك من هذا الركام كتب معدودة فيها حكمة وتجربة من مثل: «العادات السبع للمراهقين» لشين ستيفن كوفي، وهو أخصر وأحسن ترجمة من كتاب أبيه «العادات السبع»، و«لليوم أهميته» لجون ماكسويل وغيرها من كتبه، وأعاد صياغة أهم ما فيها وبأسلوب يناسبنا الدكتور عبد الكريم بكار في كتابه «قطار التقدم»، والدكتور إبراهيم القُعيد في «العادات العشر للشخصية الناجحة»، والدكتور البراء الأميري في «اللياقات الست»، والدكتور ساجد العبدلي في «كلمة وكلمتين» وغيرها.

وأما الدورات فقد أخذت «العادات السبع» لدى مدرب محترف متشبع بها ومطبق لها في حياته، وقد أفدتُ من طريقته وحسن عرضه شكر الله له.

وكان ذلك قبل أن تغمرنا الدورات كالمطر المنهمر فيدخل فيها من ليس من أهلها، من أصحاب الدعاوى العريضة، وشهادات الدكتوراه المزورة، فيقدمون دورات قوانين النجاح من غير أن يكون لهذا النجاح أي حضور في حياتهم، ولا تخرج من دوراتهم إلا بمهارة واحدة هي: فن إضاعة أوقات المشاركين وأموالهم من حيث لا يشعرون.

وقد ذكر بريان تريسي قوانين النجاح في: الرغبة، والقدرة، والإرادة، وقال إن الرغبة توجد عند كل الناس، والقدرة عند أكثر الناس، والإرادة عند القليل من الناس.

والحقيقة أن هذه قد توجد عند كثير من الناس ولكنهم لا يدركون في حياتهم نجاحا ولا فلاحا إلا إذا صحب ذلك التوفيق والبركة.

والتوفيق والبركة هبات من الله توهب ولا تكسب، فالتوفيق: أن تزف إليك الفرصة في وقت الاستعداد لها، فيولد التفوق في الإنجاز، فكأنما هي قدر يُساق إلى قدر ليتحقق الإنجاز في أنسب الأوقات له، وأكثرها نفعا وأبقاها أثرا.

والبركة: أن يتحقق من الإنجازات في العمر القصير ما لا تتسع له الأعمار ولا تدركه الطاقة، وهذا ملاحظ في حياة المباركين من أصحاب الإنجازات الضخمة في الأعمار القصيرة، كالنووي، واللكنوي، والقاسمي، وغيرهم.

توفي محيي الدين النووي عن سبع وأربعين سنة وترك نحواً من خمسين مؤلفا من متين العلم، ولا تكاد تخلو مكتبة عالم من كتاب أو أكثر من كتبه.

وتوفي عبد الحي اللكنوي عن (٣٩) سنة، وعن (١١٠) كتاباً.

وتوفي جمال الدين القاسمي عن سبع وأربعين سنة وترك (١١٣) مؤلفاً.

ولأخي الشيخ د. علي العمران كتاب بعنوان: «العلماء الذين لم يبلغوا سن الأشد» أي لم يبلغوا سن الأربعين، ذكر فيه جمعاً من العلماء الذين برزوا ولم يبلغوا هذا العمر.

وتكون البركة في المال فيقضي بالقليل منه أكثر حاجات الإنسان وأهمها، مع الستر والغنى عن الناس.

وتنزع البركة من المال الكثير فيتبعثر سريعاً، وينتهي جميعاً، ولا يبقى منه إلا شقاء جمعه، وإثم كسبه.

قال أحمد أمين: أحمد الله إذ منَّ عليَّ بالتوفيق في أكثر ما زاولت من أعمال، نعمٌ من الله لا أستطيع أن أقوم بالشكر عليها، وهي ظاهرة يصعب تعليلها العقلي

أو تفسيرها بالتحليل الاجتماعي والنفسي، فكم رأيت من أناس كانوا أذكى مني وأمتن خلقا وأقوى عزيمة، وكانت الدلائل تدل على أنهم سينجحون في أعمالهم إذا مارسوها، ثم باؤوا بالخيبة ومُنوا بالإخفاق، ولا تعليل لها إلا أن ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[1].

ونرجع إلى كلمة ابن عطاء الله: «رُبَّ عمر اتسعت آماده وقلَّت أمداده، ورُبَّ عمر قليلة آماده كثيرةٌ أمدادُه».

(١) «حياتي» لأحمد أمين (٢٣٢-٢٣٣).

مجلاتنا

من أولى المجلات التي تعرفت عليها وأنا في المرحلة الابتدائية مجلة «العربي» الكويتية، والتي كان الوالد يُحضرها بانتظام، ويَحتفظ بأعدادها، والتي كان يرأس تحريرها الدكتور أحمد زكي، ويكتب فيها كبار الكتاب، وكانت قومية التوجه ولكنها متنوعة المعارف، وكنت أقرأ فيها ما يناسب فهمي ووعيي، والحق أنها كانت مفخرة لدولة الكويت، وكانت خطوة ريادية مبكرة.

ومن المقالات التي بقيت عالقة في ذاكرتي منذ ذاك الزمان مقالات الأستاذ أحمد زكي، وهي سلسلة في مختلف العلوم بعنوان: «مع الله في السماء»، و«مع الله في الأرض»، ومقالات وقصص تاريخية للأستاذة سنية قراعة، وكانت غزيرة الإنتاج في مجلة العربي، ولا أدري بعد ما صنع الله بكتبها وكتاباتها، ومما كان يستهويني في المجلة تحقيقاتها عن المدن العربية وكثير منها لم نكن ندري عنها شيئا، ومما أتذكره تحقيق عن مدينة تلمسان، ومكناس، وحضرموت وغيرها.

ومن المجلات التي كنت أطالعها في البدوات مجلة «الهلال»، وفي مكتبة الوالد أعداد قديمة منها، فكنت أطالعها، وأتذكر من كتابها الدكتورة عائشة عبد الرحمن، ولا يزال عالقا في ذهني مقال رائع لها عن الحظ، تذكر فيه كفاحها وصبرها الذي أثمر نجاحها، في حين يقول عنها بعضهم: دي معها حظ.

وقد استمرت صلتي بمجلة الهلال بعد ذلك أقرأ فيها لمن بقي من كبار الكتاب كالدكتور محمود الطناحي، ود. نعمات أحمد فؤاد، ووديع فلسطين وغيرهم، إلى أن ذهب هذا الجيل من الكتاب، وذاك النوع من الكتابات.

ومن المجلات التي صحبتني في بداية العمر ثم استدامت صحبتها مجلة «العرب» التي يصدرها الشيخ حمد الجاسر، وكان الوالد مشتركا فيها، ويحتفظ بأعدادها منذ عددها الأول وإلى وفاة الشيخ حمد، ومما كنت أقرأه فيها رحلات الشيخ حمد التي يكتبها بأسلوبه العذب الجميل، وربما حكى فيها طرائف يتندر بها من نفسه، قال في إحداها: ذهبت إلى مؤتمر المستشرقين وكان حذائي مشقوقا، فترددت في الذهاب وأُحرجت فليس ثَمَّ وقتٌ أن أشتري حذاء جديدا، وليس بُدٌّ من حضور المؤتمر الذي أتيت من أجله، وبعد تردد كثير وحرج شديد ذهبت بالحذاء المشقوق وأنا أداريه أن يراه أحد، فرجعت من المؤتمر ولم ينظر أحد إلى وجهي فضلا أن ينظر إلى حذائي.

وقال مرة: كنت في مطعم فجاءني من يقول: هل أنت فلان؟ فقلت: لا أنا حمد الجاسر، قال: سبحان الله تشبهه تماماً، فقال الشيخ: فعجبت من ذلك، فلم أكن أظن أن أحداً يشاركني في هذه الخِلْقَة.

وكنت أتابع مقالاته عن المواضع البلدانية، والتي تضمنها فيما بعد الكتاب الموسوعة: «المعجم الجغرافي للمملكة العربية السعودية».

وعندما زرته فيما بعد تمنيت إليه لو كتب عن المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ولكن كانت قوته أضعف ووقته أضيق.

وليت دارة حمد الجاسر تجمع ما تفرق من كتاباته في هذا الموضوع ففيها كتابات له عن مواضع كثيرة منها، وكل ما كتبه في هذا الفن الذي تميز به ثمين، وسيكون إضافة مهمة من علَّامة محقق في موضوع مهم.

وكل هذه المجلات كانت شهرية، وكان الشهر لا يكفي لهضم ما فيها من مقالات طوال كاملة الدسم.

ومن المجلات الشهرية التي كنت أتابعها باكراً مجلة «هنا لندن» التي تصدرها هيئة الإذاعة البريطانية، وكنت أتابع فيها مقالات كاتب فنان، رشيق العبارة، جميل الأسلوب، هو جوفر حداد، الذي يشبه في أسلوبه كتابات الأستاذ سمير عطا الله.

أما المجلات الأسبوعية فكان أشهرها مجلة «اليمامة» السعودية، ومجلة «الحوادث» اللبنانية، ولكن شراءها مما لا تدركه قروشنا القليلة، ولذا كنا نكتفي بقراءتها في عيادات الأطباء وصوالين الحلاقة؛ حيث كانوا يضعون للزبائن في مكان الانتظار أعدادا قديمة من هذه المجلات وغيرها، يتلهى بها الزبائن وقت الانتظار.

ولكني كنت أقرأ على تباعد وأنا في المرحلة المتوسطة والثانوية مجلة «المجتمع» الكويتية، و«الشهاب» اللبنانية بعد ثناء عليهما سمعته من الشيخ عبد الرحمن الدوسري، وعلق في ذهني من مجلة «المجتمع» مقالات د. عجيل النشمي، والأستاذ محمد أحمد الراشد، ومن مجلة «الشهاب» مقالات وفتاوى الشيخ فيصل مولوي.

أما مجلة «الرسالة» فلم أتعرف عليها قراءة وتصفحا إلا بعد أن تجاوزت المرحلة الجامعية برغم معرفتي لها وتشوقي إليها، وكان مما شوقني إليها حديث الشيخ الطنطاوي وغيره من شيوخ الأدب عنها.

فلما ظفرت بأعدادها مصورة في مجلدات كان حضورها إلى مكتبتي احتفالية كبرى، وجعلت أبحر في مجلداتها الضخمة ومقالاتها الباذخة، وأعادتني إلى مصر في زهوها وتألقها وريادتها الفكرية والثقافية للعالم العربي في النصف الأول من القرن العشرين، وكانت حمولة هذه المجلة مقالات للنجوم السيارة في سماء الأدب والثقافة حينها: الرافعي، والمازني، والعقاد، وطه حسين، وزكي مبارك، وتوفيق الحكيم،

وعبد العزيز البشري، ومصطفى المراغي وغيرهم، ويزين كل عدد افتتاحية الأستاذ الزيات ببيانه المشرق، وعباراته التي كان ينتقيها كما ينتقي تاجر اللؤلؤ حباته لينظم منها عقدا باهر الجمال.

وعلمت بعد من الشيخ الطنطاوي أن الزيات كان يعتكف لكتابة المقال، وكأنه يؤلف كتابا، قال: وربما أتيت إليه فوجدته معتزلا فإذا سألت عنه، قالوا: مشغول بكتابة المقال، وهذا عكس حال الدكتور زكي مبارك والذي كان يكتب المقال كما يحتسي الماء ويتنفس الهواء، ولا يعرف هذا الذي يسميه الناس المسودة والمبيضة.

وكم تأثرت بفجيعة الأستاذ الزيات وألمه حينما قرأت مقالته في رثاء ابنه رجاء، والتي ينبغي أن يقرأها كل أب حتى يعلم نعمة الله عليه بالأبوة.

ولقد أسفت أني لم أصحب هذه المجلة في سن التكوين المبكر، إذا لكنت انتفعت بها لغة وأسلوبا وثراء لغويا، فهي خزانة الأدب في القرن العشرين.

كتبنا

عشنا مع الكتب التي رافقتنا في مسير حياتنا، وكما كان لكل فترة أصحابنا ومدرسونا كان لنا كتبنا وقراءاتنا، ولن أتحدث عن كل كتب تلك الفترة، ولكن حديثي عن تلك الكتب التي إذا قرأتها لم تستطع أن تتركها، فإذا تركتها فإنها لا تتركك بل تصحبك وتعيش معك، ولذا فحديثي عن الكتب التي ألتفت في عمري هذا فأجدني أقلب صفحاتها، وأدرج بين سطورها، وأعيشها كما كنت أعيشها.

وكما تغيب وجوه كثيرة في الزحام تغيب كتب كثيرة في الركام.

فإذا تذكرت أول كتاب بعد القرآن عشت معه وصحبني وبقيت معه وبقي لي فهو: «رياض الصالحين» للإمام النووي، الذي استخرجته من مكتبة والدي وأنا في السنة الرابعة الابتدائية، وكنت أقرأ فيه على جدتي كل يوم قبل صلاة العصر، وكم ترنمت بتلك الأبيات التي أوردها في مقدمته:

إنَّ لِلَّـه عِبـاداً فُطَنـا ... تَرَكـوا الدُنيـا وَخافـوا الفِتَنا

نَظَـروا فيهـا فَلَمّـا عَلِمـوا ... أَنَّهـا لَيسَـت لِحَـيٍّ وَطَنـا

جَعَلوهـا لُجَّـةً وَاِتَّخَـذوا ... صالِـحَ الأَعمـالِ فيها سُـفُنا

ثم قرأت الكتاب على جماعة المسجد بعد صلاة العصر أكثر من مرة.

وكان النووي رحمه الله مباركاً موفقاً في كثير من مؤلفاته، وكان من التوفيق له في هذا الكتاب أنه اختار الأبواب التي يحتاجها كل مسلم من أحاديث الفضائل والآداب والأذكار، ولذا وجد الناس فيه بغيتهم، ولاقى احتياجهم وحاجتهم.

وفي المرحلة المتوسطة كان لقائي الأول مع نظرات المنفلوطي وأسلوبه الأخاذ والقريب منا في تلك المرحلة، وأظن أن النظرات بُخِست حقها حين قيل عن مؤلفات المنفلوطي: يقرأها المتأدب ولا يقرأها الأديب، فهذا ينطبق على روايات المنفلوطي وليس نظراته.

وفي هذه المرحلة أيضاً سقطت من غير بحث على «مختصر صحيح مسلم» للمنذري بتحقيق الألباني في طبعته الأولى فأبحرت فيه واستصحبت ذخيرته، ثم أعدته من بعد أكثر من مرة.

وفي المرحلة الثانوية قرأت ضمن المناهج الدراسية كتاب «الخليفة الزاهد» لعبد العزيز سيد الأهل، وكان مُصَوراً بارعاً جعلنا نعيش مع عمر بن عبد العزيز حياتَه وعصرَه ومن معه كأنما هي نقلة عبر الزمن، وقرأت «الجواب الكافي» لابن القيم، وكان نقلة في نمط القراءة، ثم كتاب «الفوائد» له، وهذه من الكتب التي يصلح أن يقرأها ويستفيد منها كل أحد، وقرأت «صفحات من صبر العلماء» لشيخنا عبد الفتاح أبو غدة في طبعته الأولى المختصرة، فكان شحنة من الطاقة اللاهبة، أذكت العزيمة، ورفعت الهمة، وأمدتني بوقود ما زال مشتعلا يدفعني للأمام ويأبى عليَّ الوقوف، وقرأت ثلاثة فصول من «معالم في الطريق» فلم استروح له، ولكني وجدت بغيتي في «الظلال» مع كثير من تألقاته حين يحلق بك مع آيات العظمة الإلهية، حتى إني قلت لأخيه الشيخ محمد قطب: عندما أقرأ مواضع من الظلال أقول ليتني أرى سيداً وهو يصلي لأرى صلاة العارف بربه كيف تكون.

ومررت في هذه المرحلة بالكتابين الَّذين يُقرآن عادة لمن هو في هذا السن وهما: «دع القلق وابدأ الحياة»، و«كيف تكسب الأصدقاء» لديل كارنجي، والحق أنه رجل حكيم، وأكثر ما جمعه حكم خالدة، أحسن عرضها وقدمها بطريقة جذابة، وكتابه «دع القلق» كتاب مُلهِم، ومن ثم أعاد الشيخ عبد الرحمن السعدي صياغته في «الوسائل المفيدة»، والشيخ الغزالي في «جدد حياتك»، والشيخ عايض في «لا تحزن»، والأستاذ البراء الأميري في «اللياقات الست»، وكلٌ أخذ لُبَّه وكساه بديباجته، ونفخ فيه من روحه حتى عاد خلقاً آخر.

وفي الجامعة قرأت «مختصر صحيح البخاري» للزَّبيدي، و«زاد المعاد» لابن القيم، ولا زلت إلى يومي هذا أعيش بركة قراءة هذين الكتابين وأستجد فوائدهما.

وأما الأدب فقد كان اللقاء الأول في المرحلة المتوسطة مع «جواهر الأدب» للهاشمي، وكان كتابا مشهوراً في وقتنا ولكن زاحمته الآن كتب كثيرة في الاختيارات، وأعجبت بكتاب «لغتنا الجميلة» و«أحلى عشرين قصيدة حب» لفاروق شوشة، وانهيت قراءة «البيان والتبيين» قبل دخول الجامعة.

وقرأت «تحت ظلال الزيزفون» ففتنت بها كأي مراهق يقرأها في طليعة شبابه، وأما من قرأها بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

ولم أقرأ روايةً بعدها إلا حين تخرجت من الجامعة فقرأت روايات نجيب محفوظ، واستهوتني رواياته التي كتبها قبل ثورة يوليو، «الثلاثية»، و«زقاق المدق»، و«القاهرة الجديدة»، واستوقفني في الثلاثية آخر سطر فيها، عندما التقى ياسين بأخيه كمال عند محل العطار، وكان ياسين يشتري أدوات لزوجته التي أنجبت مولوداً، وكمال يشتري ربطة عنق سوداء ليلبسها في عزاء أمه التي تحتضر، وهي إشارة إلى دورة الحياة وتعاقب الأجيال.

أما روايته التي هزت وجداني وقرأتها وكأني أعيشها ثم عشت معها إلى اليوم فهي: «خان الخليلي»، قرأتها بعد العشاء ولم أتركها إلا قبيل الفجر، وخرجت إلى صلاة الفجر وكأني عدت للتو من خان الخليلي معزيا أحمد عاكف بوفاة أخيه رشدي.

وما أصدق وصف غازي القصيبي عندما قال: الأول والثاني والثالث والرابع في كتابة القصة نجيب محفوظ، ثم رتب بعده كيف شئت.

أما الروايات البوليسية فقد كان بيني وبينها كردم يأجوج ومأجوج، فما قرأت في البدوات «أرسين لوبين»، ولا في الشبيبة «أجاثا كريستي»، ولا حدَّثتني نفسي أن أقلب منها صفحة أو أقرأ سطراً.

وأما الروايات الأجنبية فقد قرأت «البؤساء» وأنا في المرحلة المتوسطة وكان أبي يكمل لي الصورة عن بطلها جان فالجان، ولكني لم استوعبها وأتفاعل معها لأنها كانت فوق مستواي وأعلى من معارفي.

ثم أعادني إلى الروايات الأجنبية «غي دي موباسان» في قصصه القصيرة الرائعة بترجماتها الأنيقة في مجلة «الرسالة».

وأما الروائيون الروس فقد فتنني «غوغول» في «المعطف»، وقرأتها أكثر من مرة، وأحسب أنها رواية ينبغي أن يقرأها كل متأدِّب؛ لأن براعته فائقةٌ في تصوير الخلجات النفسية، وتكثيف الصورة حتى كأنك تعيشها، ولذا قال دستوفيسكي: «كلنا خرجنا من المعطف».

ولم أجد ذائقتي عند «دستوفيسكي»، ورأيت إيقاعه بطيئاً لا يناسبني.

أما «تشيخوف» فقد أولعت بقصصه القصيرة، ووجدت فيه «نجيب محفوظ» الروسي، وصار من لذائذي أن أجد له قصة لم أقرأها من قبل.

فهو فنان يحول كلماته إلى ألوان، وقلمه إلى ريشة، ثم يرسم قصته لوحة تراها كما تقرأها.

وعلقت في ذهني وأنا في المرحلة الثانوية كلمة «ديل كارنجي» وهو يصف رواية «الحرب والسلام» لتولستوي بأنها درةٌ على مفرق تاج الأدب العالمي، ولذا تطلبتها في أحسن ترجماتها وطبعاتها، واحتملت مجلداتها الأربعة الضخام، وبدأت القراءة مستبقاً نشوة المتعة بهذه الدرة الأدبية الرائعة، وانطلقت أقلب الصفحات شيئاً فشيئاً فلما بلغت نحو مئة صفحة شعرت بحيرة بالغة، وأحسست أني كمن دخل في أحراش غابة كثيفة ثم لم يعرف من أين أتى ولا كيف يخرج؟ فقد اشتبهت عليَّ الأماكن، وازدحمت عليَّ الأسماء؛ «بيزوخوف»، و«روستوف»، و«شنشين»، و«ناتشوف» أو شيئاً يشبه هذا، ولم أعرف البطل من الباطل، ولا المفعول من الفاعل، ونظرت فإذا قد بقي من المجلد الأول قرابة عشرة آلاف صفحة، وبقيت ثلاث مجلدات ضخام لا تكاد تحملها ثلاثة أباعر، فهل سأظل أكابدها كل هذه المكابدة؟ وماذا عليَّ إذا أعلنت هزيمتي النكراء ورفعت رايتي البيضاء، فاشهدوا عليَّ فوالله ما قرأتها، ولا فهمت ما قرأت منها، وما أنا من المتكلفين.

وكذا أغراني وغرَّني «بيل كلينتون» في مذكراته برواية «مئة عام من العزلة»، فدخلت قراءتها بإصرار وتحدٍّ فما استطعت أن أجاوز ربعها حتى شعرت وكأني محكوم عليَّ بالأشغال الشاقة، فرميت بها وأنا أقول: لعل مونيكا لوينسكي هي التي كانت تقرأها عليه، ولذا وجد هذه اللذاذة التي وصفها، عائذاً بالله من سيئ الظنون.

وبعد: فلست روائياً ولا ناقداً، لكن هذه انطباعات قارئ من هذه الدهماء يصف ذوقه، ولا يصف أدب هؤلاء العظام.

ولم أكن ممن يزدري الروايات أو يرى قراءتها مضيعة للوقت، وقد يكون هذا رأياً لباحث أكاديمي، أما الكاتب فهو بحاجة لتغذية أسلوبه وذائقته بقراءة روائعها، فهي

فن رفيع من التصوير الأدبي يحتاجه كل من يكتب في السِّيرة والسِّيَر والتاريخ؛ ليكون تصويره بعد ذلك مكثَّفاً شائقاً ثلاثي الأبعاد.

وهناك كتب لم تتيسر لي قراءتها كاملة لأنها كتب موسوعية لكنها ظلت أمامي منذ حصلت عليها وإلى اليوم أرجع إليها ولا أستغني عنها، وهي «فتح الباري» لابن حجر، و«فتاوى ابن تيمية» و«تفسير ابن عاشور» فكلٌّ منها عين فوارة مهما اغترفت منها فلن تستنزفها.

ولما سمعت الشيخ الطنطاوي يُسأل عن أهم ما أُلِّف في القرن الرابع عشر الهجري قال: «الأعلام للزركلي» و«يوم الإسلام» لأحمد أمين.

أما لو سئلت لقلت: «التحرير والتنوير» للطاهر بن عاشور، فهو كتاب القرن، بل أحسب أنه لم يؤلف بعد «فتح الباري» لابن حجر كتاب في مثل موسوعيته وتحريره.

وقد سألني يوماً أخي الشيخ عائض: لو كنت في مكان وحدك واخترت كتابا واحدا بعد كتاب الله يكون معك فماذا ستختار، والجواب عندي بلا تردد: «الجمع بين الصحيحين» للحميدي أو الإشبيلي، فهذه الكتب لا أشبع منها ولا أنقطع عنها.

وكما تمنيت أني قرأت مجلة (الرسالة) باكرا، فقد تمنيت أني قرأت «البصائر والذخائر» للتوحيدي باكرا فهو كتاب له من اسمه نصيب، بل هو ذخائر البصائر، وحقه أن يذكر مع كتب الأدب الأربعة الأوائل التي ذكرها ابن خلدون وهي: «أدب الكاتب» لابن قتيبة، و«الكامل» للمبرد، و«البيان والتبيين» للجاحظ، و«النوادر» للقالي، فيكون أحدها إن لم يكن أولها.

مكتباتنا

كانت مكتبة الوالد في منزلنا هي أول مكتبة أعرفها، رفوف الكتب المتجاورة والمجلدات الضخمة، والمجلات المتراكمة وتقسيم الكتب في أماكنها حسب فنونها: التفسير، والحديث، والفقه، والتاريخ، واللغة والأدب، والمعارف المتنوعة.

رأيت «فتح الباري» أول ما رأيته، و«جامع الأصول»، و«تفسير ابن كثير»، و«الصحاح» للجوهري، وإصدارات دار المعارف، و«المرأة بين الفقه والقانون» للسباعي، و«حديث الأربعاء» لطه حسين، و«وحدي ومع الآخرين» لأنيس منصور، و«من هنا نبدأ» لخالد محمد خالد، وهكذا في تنوع معرفي شائق.

وفي هذه المكتبة كانت أول قراءة لي في «صحيح مسلم»، و«تفسير ابن كثير»، و«فتح الباري»، وتاريخ العصامي: «سمط النجوم العوالي»، و«روايات» المنفلوطي.

وكانت الآفاق التي فُتِحت لي واسعة بالنسبة لعمري، ولبيئتي ولداتي، ولذا كانت معلوماتي الدينية والتاريخية وأنا طالب تفوق بعض أساتذتي، وليس ذلك لنبوغي، ولكن لمحدودية الثقافة ذلك الوقت لدى عامة الناس.

وأما الآن وفي ظل هذا الانفجار المعلوماتي صارت مكتباتنا في هواتفنا، ومعارفنا بين أصابعنا، وصرت أحاول اللحاق ببعض معارف صغار أبنائي فلا ألحقه، فأعزي

نفسي بأن هذه الوسائل هي إمرة الصبيان، يتفوق فيها الأطفال على الأشياخ، ولكل زمان دولة وأطفال.

ثم امتدت علاقتي بالمكتبات العامة، فكنت في المرحلة المتوسطة أذهب إلى المكتبة السعودية وتقع في ميدان دُخنة، وغالبا ما أذهب إليها في العاشرة صباحا وهي ساعة يتنفس فيها حر جهنم، وتشتعل الأرض بشواظ من نيران الصيف الحارقة فتكون ملاذاً من الحر اللاهب كما هي مكان للقراءة والإفادة.

وأحسبني حينها أصغر روادها لولا حضور من تعرفت عليه فيما بعد وهو أخي أحمد الرصيص والذي كان أصغر مني سنا ولكنه كان أكثر صرامة وحزما واستقامة ونسكا، وكنت أنظر إليه عن بعد معجبا به، وما زال منظره وهو منغمر في كتاب «الإمام مالك» لمحمد أبو زهرة في استغراق عجيب ودأب طويل، لا تتغير جلسته ولا نظرته وإنما يتغير عدد الصفحات التي يتجاوزها بعد أن ينخلها بعينيه الهادئتين.

واستمرت صلتي بهذه المكتبة حتى كأنها مكتبتنا المنزلية، وذلك لقربها من بيتنا وسماحة الموظفين العاملين فيها.

أما المكتبة الثالثة فكانت دار الكتب الوطنية في شارع الوزير عند تقاطعه مع شارع الخزان وهي مكتبة كبيرة، وقاعاتها واسعة، وفيها ميزة ليست في المكتبة السعودية وهي وجود الصحف اليومية، وكنت أذهب إليها بعد العصر فأصل إليها ولم تفتح بعد وقد سبقني رجال وشباب أكبر مني وازدحموا عند الباب ينتظرون الحارس ليفتح الباب من الداخل، فما أن يسمعوا صوته يحرك المفتاح حتى يتدافعوا عند الباب فإذا فُتِح اندفعوا عَدْوا إلى القاعة، وتناثروا على مقاعدها الكثيرة.

وأحسب ذلك لضيق خيارات اللهو والمتعة مما يجعل مثل هذه الأماكن ملتقيات ومنتديات، ومتنفساً لضيق الحياة، ولذا فأكثر قراءتهم في الصحف، أما الكتب فقلما تغادر رفوفها.

وقضيت فيها عشيات الصيف الطوال من صلاة العصر إلى صلاة المغرب، ولا أتذكر الآن إلا منظرها وحالنا فيها، أما ما قرأته فقد دفن في ركام العقل الباطن تصطاده الذاكرة أحيانا ويفلت منها أحايين كثيرة.

ثم فتح لي أفق أرحب وأقرب إلى مشربي وهو مكتبة كلية الشريعة بشارع الوزير وكانت أقرب إلى بيتنا، وكنت أذهب إليها بعد المغرب وضحوات الخميس حين صار يوم إجازة لنا، وكان أمينها الشيخ أحمد بن عبد الرحمن القاسم رحمه الله، وكان شيخا سمحا ناسكا ورعا يكفي النظر إلى وجهه عن بعد حتى تنفذ إليك سكينته وطمأنينة نفسه الرضية.

وكان الذين في المكتبة نوعية أخرى غير الذين كنت أراهم في المكتبة الوطنية، فهم طلاب كلية الشريعة واللغة العربية والذين يحضرون فيها بحوثهم، وبعض أساتذة الكلية الذين جعلوها كمجالس بيوتهم لطول عكوفهم فيها.

وكنت حينها في المرحلة الثانوية وقد شدوت شيئا من العلم وجالست المشايخ وصرت أكثر لياقة لمكتبة زاخرة كأنها حَجَرُ موسى انفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم.

وفي هذه المكتبة تعرفت على كتب العلم الكبار المتخصصة «بدائع الصنائع»، و«كنز الدقائق»، و«المجموع»، و«المدونة» وغيرها، وشروح كتب السنة، وهي كتب لم أكن وصلت إلى مستواها ولكن كانت معرفتها تعطي المبتدي شيئا من غرور المعرفة الزائف الذي يكتشفه بعد أن يواصل مسيره.

أما المكتبات التجارية فأشهرها كانت مكتبة الآداب في شارع الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ومكتبة الرياض الحديثة في البطحاء، ثم افتتحت مكتبة الحرمين في البطحاء فكانت فتحا عظيما لكثرة الكتب الجديدة بها، وتحديثها وتواصلها مع دور النشر.

وأهم من ذلك بالنسبة لنا المكتبات الأرضية التي تشبه مكتبات سور الأزبكية في مصر، فكانت تعرض في بسطات على الأرض شمال الجامع الكبير، بعد صلاة الجمعة، وبعد صلاة العصر من كل يوم، وينادي عليها البائعون كما ينادي بائع الخضار على الفجل والخيار، ومما كان ينادي به أحد الباعة: «سبائك، سبائك» أي أن هذه الكتب سبائك من ذهب.

وأحيانا تعرض كتبٌ تُوفِّي أصاحبها فينادى عليها في المزاد كتابا كتابا، وشهدت مزادا على مكتبة توفي صاحبها فكان السمسار ينادي ويقول مُغْرِياً بها: ما أخرجها لكم إلا الموت، لولا الموت ما رأيتموها.

ثم جاءت بعدُ المكتبات الكبيرة ومعارض الكتب، ثم المكتبات الإلكترونية وما عاد ثمة كتاب يسمى كتابا نادرا، وصار تحصيل الكتاب أصلا أو صورة أسهل من حزمة البقدونس، بعد أن كانت نوادر المطبوعات كالمخطوطات في ندرتها وصعوبة الحصول عليها.

ويا لتلك الحكاية المؤثرة التي حكاها شيخنا عبد الفتاح أبو غدة في مقدمة تحقيقه لكتاب «فتح باب العناية» وكيف تَعِب وجَهِد، وابتهل إلى الله عند أستار الكعبة أن يجد نسخة من نوادر مطبوعات هذا الكتاب، ثم كيف وجدها بعد إياس، وكأنه عثر على كنز أو اكتشف بئر نفط.

ثم استغنيت عن هذه المكتبات جميعاً بمكتبتي المنزلية والتي تحتل أكبر قاعة في بيتي، ثم ازدحمت المكتبة وضاقت على سعتها، وصارت الكتب تتسلق أعالي الرفوف، أو تتراكم على الأرض، فجعلت أنظر إليها بتأمل وإذا كثير منها كتب تخصصية احتجتها أيام الدراسات العليا، ولم أعد أرجع إليها، فلم يعد في برنامجي مراجعة «التاريخ الكبير» للبخاري، أو «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم، أو «جزء بيبي بنت عبد الصمد» أو «كليلة ودمنة».. وهكذا.

فما كان مني إلا أن اتخذت قراراً باجتثاث كل ما لم يعد مقروءاً، وكانت حملة شرسة تشبه حملة اجتثاث البعث الوحشية في العراق.

وقد ذكر الشيخ الطنطاوي عن محمد كرد علي أنه كان يخرج كتبا عنده فيبيعها وعلى بعضها إهداء مؤلفيها، فاستغرب الطنطاوي منه ذلك فقال له كرد علي: ها قد بلغت ستين سنة ولم أقرأها، فهل سأقرأها في بقية عمري الشحيح؟

وسمعت أن بعض العلماء كان إذا بقي الكتاب في مكتبته ثلاث سنين ولم يقرأه أو يَحتج إلى مراجعته حكم عليه بالإبعاد النهائي، فخرج ولم يعد.

ولذا صرت أُخرج من مكتبتي الكتب التي مر عليها ثلاثون سنة ولم أقرأها وما أكثرها.

وصارت سيارات النقل تغادر مكتبتي تباعاً بأحمالها من الكتب التي انتهى تاريخ حضورها ولا أقول صلاحيتها.

وتنفست المكتبة الصعداء، وخرجت كتب من تحت الركام تحكي لي قصة النظرة الأولى، واللقاء الأول، وسهرة الليلة الأولى معها، وثارت شجون، وحضرت ذكريات، فهذا كتاب «كيف تتفوق في الثانوية العامة»، وعليه تاريخ شرائه، وهذا «ديوان العباس بن الأحنف» وعليه خطوط تروى ذواق الهوى وروائح الشباب.

وهذا كتاب «فقه السيرة» للغزالي وعليه تاريخ شرائه الذي هو تاريخ قراءته.

ولذا صرت أنصح الشباب بأن يكتبوا تاريخ شراء الكتاب إذا اشتروه، وتاريخ القراءة إذا قرأوه، وانطباعهم عند انتهائه إذا أنهوه، وسيجدون لذلك لذة ونشوة إذا فسح الله في أعمارهم، ويتكون من تلك الأسطر القليلة تاريخ تطورهم المعرفي.

وقد رأيت أن نهمة شراء الكتب وجمعها هواية عند كثيرين، وإدمان مرضي عند آخرين، وكأنما ابتلوا بذلك تفريجاً لحال أولئك المعتكفين على التأليف والمنقطعين إلى الكتب، ومع ذلك فإن إنفاق المال على الكتب سواء كان هواية أو إدمانا خير من كثير من عبث الإنفاق، وإدمان التسوق لما لا قيمة له.

وقد كانت مكتبات أشياخنا مختصرة قليلة الكتب، والكتب التي فيها كتب نوعية هي مما يحفظ أو يراجع باستمرار، وإذا دخل الكتاب مكتباتهم لقي العناء بعد طول الراحة من كثرة ما يُقرأ ويُقلب ويؤخذ ويرد، وقد لاحظت مظاهر معاناة الكتب في مكتباتهم من انتشار أوراقها وتخلع أغلفتها، وأكثرها كتب معمرة حضرت عندهم منذ ثلاثين أو أربعين سنة، ثم حكم عليها بالأشغال الشاقة.

ورأيت ذلك في مكتبة شيخي عبد العزيز بن زاحم، والشيخ عبد العزيز بن باز، والذي كنا ندخل مكتبته كثيراً فأرى كتبه القديمة المحكوكة من القراءة حكاً، والتعليقات عليها بتواريخها، وأما الكتب الجديدة والتي تصله عادة إهداء فلا يزال على أغلفتها بريقُها ولمعانُها وسكونُها، وكثيراً ما سئل عن كتب مشهورة فيقول: لم أقرأه، أو لا أعرفه.

وكذا الشيخ محمد بن عثيمين والذي علمت أن مكتبته في أصلها كانت رفوفاً معدودة، ولكنها من كتب العلم المعتمدة التي أتقن قراءتها وتفعيل معلوماتها.

وأكثرهم اقتصاداً في اقتناء الكتب كان الشيخ عبد الرزاق عفيفي، وله نظرة خاصة في كثرة الكتب وتكرارها.

أما أكثر مشايخي لهفاً على الكتب وجمعاً لها مع البحث فيها والقراءة لها هما الشيخان: عبد الله بن غديان، وبكر أبو زيد.

وأما أضخم المكتبات الشخصية التي رأيتها والتي تشبه مكتبات الجامعات، فمكتبة الشيخ عبد الكريم الخضير، والشيخ عبد العزيز بن إبراهيم القاسم.

ثم استغنيت عن كثير من كتبي بالمكتبات الالكترونية في هاتفي الجوال.

وتذكرت فيلماً رأيته قديماً يصور المستقبل، وفيه يتجول رجل المستقبل مع رجل الحاضر في مكتبة مُغبرة قد بليت كتبها، ويبست أوراقها، وصارت تتفتت بمجرد لمسها وهو يقول: هذه تسمى الكتب، كان أجدادنا قديما يكتبون فيها معلوماتهم، فيقول له رجل الحاضر: وأنتم أليس لكم كتب؟ فضحك وقال: لنا علومنا ولكن ليست في الكتب، وكنت أسخر من هذا الخيال الجامح وأقول في نفسي حينها: الكتب خزانة العلم منذ آلاف السنين، كيف يوجد عِلْم بلا كتب ولا مكتبات.

وأظنني الآن بدأت أرى طلائع ما تخيله كاتب قصة ذلك الفيلم.



مع الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم القاسم



مع أخي الشيخ أحمد الرصيص

أسرتي

عشت حياتي منعماً بحياة الأسرة الواسعة في بيتنا، أبي وأمي، وجدتي فاطمة وأختها خالتي وضحى، وإخوتي أحمد وسليمان وعبد الملك، وأخواتي منيرة وفاطمة.

وفي الرياض يعيش جدي عبد الله وزوجته أم سليمان، وكان لا ينقطع عن زيارتنا، ونحن لا ننقطع عن زيارته في بيته في حارة غُمَيتة.

وفي الزلفي كان جدي لأمي محمد الناصر الزيد، وأخوالي عبد الله وإبراهيم، وأما جدتي لأمي نورة السنعوسي فتوفيت قديما ولا تذكرها أمي، ولكن قامت بدورها في حياتنا خالتي عائشة السليمان السنعوسي، رحمها الله وجزاها عنا خيراً فكانت لنا أماً وجدة.

وفي حياتنا أعمام وأخوال وأقارب على جميع درجات القربى، ومن نعيم الدنيا أن حياتنا الأسرية لم تشهد أي نوع من الخصومات أو صور قطيعة الرحم التي تحدث في بعض الأسر، ولذا عشنا حياة سوية، تجمع المناسباتُ الأسرةَ كافة، ومن أشهر المناسبات حين يقدم قادم من سفر فتقام له وليمة تدور على بيوت الأسرة كافة، وكان مستوى بيوتاتنا متقارباً وأحوالنا متشابهة.

عشت طفولتي في هذا الجو الهانئ الهادئ، كان أبي هو الوحيد في جيراننا الذي يحمل شهادة جامعية، والبقية ما بين أمي أو متوسط التعليم، وكان لهذا أثره البالغ في حياتي وثقافتي.

وقد عشنا في كنف أبي وهو موفور الشباب مستتم القوة، فالفارق بيننا في العمر نحو ثلاث وعشرين سنة.

ولذا كان لنا الأب الشاب، الذي نهابه ونخافه، ونلت أنا وأخواي أحمد وسليمان نصيبنا من التأديب بالضرب، وكان الضرب ثقافة اجتماعية، وكان مما ينكره علينا أبي التلفظ باللعن وهو ما يغضبه علينا ويسبب عقوبته لنا، ثم تقدم به العمر ورزق بأخي عبد الملك على كِبَرٍ، فحصل أن استثرت هذا الطفل الشقي يوماً أمام أبي، فغضب وقال لي: ابعد عني الله يلعن أبوك ووالديك، وتوقعت أن تستثير هذه الكلمة أبي وتغضبه كما كانت تغضبه إذا صدرت منا ونحن أطفال، ففوجئت به يضحك ويقول: هذا من عطف العام على الخاص؛ فترك الغضب من الكلمة وانشغل بإعرابها، فأدركت أن لفارق السن أثره، وأن تعامل الأب مع أبنائه في شبابه غير تعامله معهم في كهولته، وعلى المقيمين خارجها مراعاة فارق التوقيت.

وقد عشنا في البيت أسرة متوسطة العدد، فنحن ستة إخوة، وليس كما فعل أحدهم حيث جمع (١٦) ابناً وبنتاً، فإذا صور معهم في يوم العيد ومعهم أبناؤهم لم يقل: هذه أسرتي، ولكن يقول: هذه قبيلتي، بارك الله فيه وفيهم، وحفظه وحفظهم له، قولوا: آمين.

لا إله إلا الله، قولوا: آمين.

نعم، وقد كنا أربعة أبناء: عبد الوهاب، وأحمد، وسليمان، وعبد الملك، وبنتان: منيرة وفاطمة، وأكثرنا رجولة ومروءة أختي منيرة أم نايف على رغم أنفي وأنف عبد الملك، فهي أُختنا وأُمنا، ووليةُ أمرنا، وراعيتنا ونحن رعيتها، وحياتها مفرقة

في حياتنا، ومحطات أعمارنا، ثم تبع اهتمامُها بنا أبناءَنا وبناتِنا، فهي الحاضرة معنا، والمرجع لنا.

ويا وحشة حياةٍ ليس فيها أخت مثل أُختنا هذه.

اللهم احفظها وباركها، وأسعدها وأسعد بها، وتول عنا كفاءها وجزاءها.

ثم في التاسعة عشرة من عمري تزوجت وكان الزواج مألوفا في هذا السن في جيلنا، ولم تكن التكاليف مرهقة حين يتزوج الطالب وهو في الجامعة فيفرِّغ له أهله إحدى غرف منزلهم، ويعيش في بيت الأسرة يشاركهم معيشتهم ويحمل بعضهم بعضاً.

ولقد وجدت فوائد الزواج المبكر، وحمدت الله أن وفقني وأعانني على هذا القرار، وكان من ثمراته الاستقرار النفسي، وتوجه الفكر إلى أهداف الحياة بسكينة وهدوء من غير أن تشوش على أعصاب الشاب وفكره معاناة أو توتر، ثم كان من نعمة الله علي بكور الذرية في أول طريق العمر فيكبرون في قوة الأب وصحته، فيستمتع بصحبتهم، ويكونون في حياته أبناءً وأصدقاء، وهذه هي الثمرة المرجوة من وجود الأبناء في رحلة الحياة، كما قال تعالى: ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾. أي: يشهدون معك الحياة، ولم يقل: بنين ورثة، كأنما ولدوا ليرثوا من غير أن يصحبوا أو ينفعوا.

كما أن وجود الأسرة في حياة الشاب باكراً يحفزه على الإحساس بالمسؤولية، والجد في الحياة، والحزم مع نفسه ووقته، أما إذا عاش فضاء السعة بعيداً عن الالتزام بالمسؤوليات فربما تفارط عمره، وخسر أثمن مراحل حياته، ومن أمثال العامة «العمر لا يؤكل مرتين» لأن الإنسان يعيش كل مرحلة من عمره بما يناسبها فإذا مضت لا تعود مرة أخرى، فكيف إذا كانت هذه المرحلة أثمن مراحله وهي نشوة الشباب ووفور القوة.

ولذا فإني الآن في هذه المرحلة من عمري لم أشعر بالحسرة على مضي الشباب، ولم أتمثل يوماً:

ألا ليت الشباب يعود يوماً

وما بكيت الشباب ولا استبكيت له، ولا قلت:

فليت الباكيات بكل أرض جُمعن لنا فَنُحْنَ على الشباب

بل أشعر أني قد عشت شبابي كما ينبغي، وقضيت فيه وطري ومآربي، واستمتع الآن بهذه المرحلة العمرية وأرى فيها بهجتها ومزيتها ونعيمها، وأتلذذ برؤية الأبناء وقد أورقت غصونهم، وتحركت عجلة حياتهم، واستقبلوا الحياة التي يوشك أن نودعها، وبدؤوا بحمل أعبائها التي وضعناها عن عواتقنا.

وكان فضل الله عليَّ عظيما، بصلاح الأبناء واستقامتهم وعافيتهم، فلم أجد نفسي يوماً في مأزق من أجل أحدهم، ولم أكن مكروبا يوماً لشيء ألم بهم، وأتنعم اليوم ببرهم واهتمامهم وصداقتهم وجمال الحياة بهم.

وقد أكرمني الله بأبناء هم لي أحد عشر كوكبا كإخوة يوسف عليهم السلام: محمد، وناصر، ومالك، وهاشم، وعاصم، وشاكر، وحاتم، وجابر، وعامر، وياسر، وحازم.

وبخمس بنات: إيمان، وجوهرة، ونورة، وسارة، ولولوة.

وكان أحبهم إلي الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يحضر، وقد كبروا بحمد الله جميعاً، فاستووا في حبي لهم، ثم غابوا عني جميعاً فاستووا في شوقي إليهم.

وقد يجمع الله بين الشتيتين بعد ما يظنان كل الظن ألا تلاقيا

وقد وجدت في كثرة الذرية بركةً وأنساً، وخيراً طيباً كثيراً، ووجدت أن الأبناء كعربات القطار تقود العربات الأولى ما بعدها، ويتبع بعضهم على الخير بعضاً.

وزوجاتي اللاتي كنَّ معي زمناً ثم أغنى الله كلا من سعته، أذكرهن بالذكرى الحسنة، وأدعو لهن بخيري الدنيا والآخرة، وأسأل الله أن يعفو عنا جميعاً ما أخطأنا وما قصرنا.

وزوجتي أم ناصر هيا بنت علي آل موسى التميمية، هي التي شربت معي صفو الحياة وكدرها، وذاقت معي حلوها ومرها، وحملت عني من أعباء الحياة ما ينوء بالعصبة أولي القوة، وصبرت في مواقف الصبر، وشكرت في مواقف الشكر.

وهي الشريكة في كل إنجاز، وهي المرأة التي كانت معي وليست ورائي.

وهي من نعم الله العظيمة عليَّ.

وقد تولت الرعاية والعناية بأصعب الأمور عليَّ وهي تربية الأبناء، والاهتمام بهم، فكانوا أعظم مشاريع حياتها، وأروع إنجازاتها.



مع أخي أحمد، والأبناء: محمد، ومالك، وهاشم، وعاصم، وشاكر، وحاتم، وياسر.

إنها كانت وكانت

لم تكن بلغت العشرين ولم أكن بلغت الثلاثين حين رست سفينتي إلى شاطئها.

ولم أكن أعلم أن رياح قدري تسير بي إليها، فلا أنا كنت متوجها لها، ولا هي كانت منتظرة لي، وشاء الله أن يكون لقاؤنا على قدر، والمرء مخبوء له القدر.

ولم أكن حينها قد تأثلت مالاً ولا حالاً، وكل رأس مالي بقية عمري أقاسمها إياه.

ودخلت هيا بنت علي بن فواز آل موسى حياتي ودخلت حياتها، فامتزجت حياتنا وصارت من بعد عمراً واحداً.

وقد أقبلت البركة على حياتي بإقبالها، فكانت بركةً عليَّ في شأني كله.

دخلت عليَّ وفي حياتي بقيةٌ من نزق الشباب ورعونته، فاحتوت نزقي واحتملت رعونتي، ورعتني وراعتني، وجمعت شتاتي، فقد كنت كثير الأسفار، كثير الزوار، فما تبرمت من عناء، ولا شكت من غياب، وعندما كثرت الأعباء تركت دراستها الجامعية وتفرغت لي ليكون شأني هو كلُّ شأنها.

وعندما عبرت حياتي نوبات شدة وضيق كانت مدداً وعونا، تؤازر جَهْدها، وتخفف العبء استطاعتها، وما أشعرتني يوماً أن شيئاً ينقصها إذا نقص، ولا أنها هي كذا وغيرها كذا، ولم أسمع منها يوماً من الأيام الابتزاز بالمقارنات، ولذا عبرنا

الأزمات بيسرٍ وثبات، حتى أنعم الله علينا فيسر وأيسر، وتفضل وأنعم، وأعقب بعد العسر يسراً، فكانت شريكة العسر واليسر، والشدة والرخاء.

ومما كان يزين عشرتها شعار الصدق الذي لا تُخل به ولا تخرمه، ولا تَتأول فيه جواز كذب المرأة على زوجها، فأورثها هذا الخلق وثوقا يَقِينِياً في كلِّ ما تقول، وجعل هذا النقاءُ في القول كلمتَها عندي كاليمين المغلظة من غيرها، وإني لأحتسب لها مباركة الله لها في الصدق، وأنها أصابت نصيبها من بشرى النبي ﷺ: «**إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة**».

وبقدر ما كانت لطيفة في العشرة معي كانت حازمة صارمة في تربيتها لأولادنا، فعبروا من تحت يدها بحمد الله على الاستقامة الأخلاقية، والتفوق الدراسي، وحسن الطريقة في التعامل مع الناس برجولة ووثوق أزدهي به وأحمد الله عليه، وقد كان ذلك حصيلة دأبها ومتابعتها، بينما كنت أنا الحلقة الأضعف مع شقاوتهم، فيجدون عندي انحيازاً إلى لهوهم وعبثهم، ولذا كفَّت عن تهديدهم بي، وكأنها تخشى أن يغويني أحدهم ببعض شقاوته كما فعل ناصر عندما أركبني الدراجة الهوائية وجعلني أقودها خلفه فجعل الأشقياء يعلقون عليَّ بمقولة: رجوع الشيخ إلى صباه.

ولقد سمعت بحمد الله ثناء المحبين على الأبناء فأحيله مع التحية إلى مستحقته وهي أم ناصر، وأشهد الله أني مدين بهذا الفضل لها، فهي التي كانت ترعى وتراعي، وتقوم عني في حضوري وغيبتي بكل ما يحتاج إلى متابعة واهتمام.

كما أن هذه القَوامة التي قامت بها خففت عني الأعباء التي تستهلك العمر، وتفني الوقت، وتشتت الاهتمام، ولذا اجتمع همي، وحُفظ وقتي، وأقبلت على شأني بفراغ قلب وهدوء نفس، ولذا فهي الشريكة لي في كل إنجازٍ أنجزته، وكل نجاح حققته، وكل خير أدركته.

وقد لمس كل من حولي مقامها وقيامها ولذا فإن أمي لا تذكرها حتى تطنب في مديحها، وتعداد مناقبها، وتُسَميها «الكُحَيلة المعرَّبة» أي الفرس الأصيلة المنتخبة، وتلهج دوماً بالدعاء لها بلهف وإلحاح.

ولا أزعم بعد ذلك أن حياتنا كانت خلواً من المشاكل والإشكالات، وإنما كنا نحلق أحياناً ونطير على ارتفاع منخفض أحياناً، وربما عبرنا بعض المطبات الهوائية، ولكن لم نتعرض إلى هبوط اضطراري، ووجود قدر من المشاكل الواقعية في الحياة الزوجية هو الوضع الطبيعي لحركة الحياة وإيقاعها.

وما أحسن ما قاله جون ماكسويل في كتابه عن المشكلات الزوجية: لا توجد حياة زوجية بدون مشكلات، فإن وجدت فإن هذا يدل على مشكلة أكبر غير معلنة، وهي أن أحد الشريكين سحق شخصية الآخر بحيث لا يحدث أي خلاف أو اختلاف. ا.هـ.

وبذا نتفهم كيف وجدت مثل هذه الإثارات الزوجية في بيت سيد الخلق وأعظمهم خلقاً ﷺ.

ولما علم عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن بعض أمهات المؤمنين تهجر زوجها رسول الله ﷺ استعظم ذلك وجاء يناصحهن ويوبخهن فقالت له أم سلمة: يا عمر دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله وأزواجه، أما في رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟ والله إنا لنكلمه فإن تحمل ذلك فهو أولى به، وإن نهانا عنه كان أطوع عندنا منك.

وإن النبي ﷺ هو الذي أفسح لهن مساحة واسعة يمارسن فيها انفعالاتهن من الغضب والهجر والإدلال حتى يُبقي لهن الاستواء النفسي الذي يحفظ استدامة العشرة وتوازنها.

وعندما ذهب ﷺ إلى بيت فاطمة ساعة القيلولة فلم يجد علياً عندها قال: «**أين ابن عمك؟**». قالت: كان بيني وبينه شيء فخرج، وواضح أنها تشير إلى خصومة بينهما

فلم يسألها ما هو الشيء؟ وكيف حصل؟ وماذا كان؟ وإنما خرج يبحث عن علي فلما وجده أخذ بيده وأدخله بيته وذهب، وإلى هذه الساعة لا يعلم إنس ولا جن ما هو الشيء الذي كان بينهما.

وإنما لم يسألها النبي ﷺ لأن هذا هو شأن الحياة الزوجية، وهذه المثيرات فيها علامة الحياة والحيوية والتفاعل الحقيقي بين الزوجين.

وهذا معنى ينبغي أن يتنبه له الشباب جيداً، ويتعاملوا مع مشاكلهم الزوجية بواقعية، ويضعوها في حجمها الطبيعي، وسيتذكرونها بعد ذلك كطرائف ومُلح وقصص جميلة من ماضي حياتهم.

ولذا كانت المشاكل تحدث بيني وبينها ولكنها تبقى على القشرة ولا تنفذ للعمق، وتعبر ولا تستقر، وتمر ولا تضر.

وإذا تذكرت أم ناصر أتذكر أنها نعمة من أعظم نعم الله عليَّ، وإذا تحدثت عنها فمن باب: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

وإذا قارنت حياتي معها بحياة نبينا ﷺ فإنها كانت لي كما كانت خديجة لرسول الله ﷺ، فكانت الزوجة والصَّدِيقة والوزيرة والمعينة، وكانت أم البنين والبنات فقد رزقت منها أحد عشر ابناً وبنتاً، اختار الله منهم بُنية وأبقى منهم عشرة، فإذا ذكرتها قلت كما قال ﷺ عن خديجة: «**إنها كانت وكانت، وكان لي منها الولد**».

قال بعض العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: حسنة الدنيا هي الزوجة الصالحة، وقد كانت أم ناصرٍ لي: حسنة الدنيا.

أسأل الله الذي أسعدنا في دنيانا أن يجعل عاقبتنا في أخرانا موعوده الكريم: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾.



العم علي بن فواز آل موسى
رحمه الله

أحداث حياتنا

أدرك وعينا أحداثاً ضخاماً، لا زلنا نعيش آثارها، وتداعياتها، وارتداداتها في واقعنا.

ولن أتحدث عن هذه الأحداث حديثاً تاريخياً فلها مؤرخوها، وكتبٌ مؤلفة عنها، لكن أحكي وعينا لها وتفاعلنا معها.

إعدام سيد قطب

فمن أول ما أدركه وعيي خبر إعدام سيد قطب ورفاقه، ونظرا لمستوى والدي العلمي ومتابعته للحدث كان لهذا الخبر وقعه في بيتنا وتأثرنا به.

ولم ألحظ على مستوى زملائي تفاعلا مع الحادث، بل ولا معرفة به لعدم إدراك آبائهم ذلك ولا متابعتهم له.

وكان المشهد الخالد في ذاكرتي قيام الشيخ عبد المحسن بن مفيريج مؤذن مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم بعد صلاة الجمعة ينادي في مكبر الصوت: صلوا على سيد قطب ورفاقه، فصلينا عليهم صلاة الغائب، وكان هذا توجيها رسميا في جميع مساجد المملكة.

ثم صرنا نستمع لفصول من كتابه في «ظلال القرآن» يبث من إذاعة القرآن بصوت المذيع المتميز: زهير الأيوبي، ولم أكن رأيت صورة سيد بعد فتصوره ذهني الطفولي بصورة شيخ بلحية بيضاء وعمامة كبيرة، وكانت مفاجأة لي إلى درجة الصدمة حينما رأيت صورته فإذا هو حليق اللحية حاسر الرأس.

واستوعبت بعد ذلك معنى أن تكون قضايا الدين وهمومه على عواتق المسلمين جميعاً، وأنه ليس هناك فئة لها شعار خاص تتصدى لقضايا الدين والبقية بعيدة أو مُبعدة.

وتوثقت علاقتي بالظلال بعد ذلك من خلال القراءة على شيخنا الشيخ عبد العزيز آل الشيخ خطيب الجامع الكبير، والذي كان يطالع كلامه على جميع الآيات التي يستشهد بها في خطبته، وهي الخطة التي سرت عليها عندما صرت خطيبا فإني أجمع الآيات التي في الموضوع، ثم يكون أول ما أراجعه كلام سيد في الظلال.

حرب حزيران ٦٧

أتذكر مساء ذاك اليوم الذي وقعت فيه المعركة والإذاعات تروي الانتصارات الخيالية، وتساقط الطائرات الإسرائيلية، ونشوة كبيرة لدى أطفال الحارة، ورأيت صديقنا محمد السيف وهو أكبر منا قليلا يتحدث وكأنه عاد للتو من أرض المعركة: ويقول: ما تدرون أسلم جمال، وتحارب اليوم مع إسرائيل، وطيحوا مصر طياراتهم كلها، ولا طاح لنا إلا طيارتين، ترى ما طيحوها إسرائيل لكن هي تصادمت في الهواء.

وعلمت فيما بعد أن هذا التحليل الطفولي هو الذي كانت تذيعه إذاعة صوت العرب، وتنشره الأهرام، وأخبار اليوم، وبقية الصحف العربية، ولكن صِغَر أعمارنا وضعف المتابعة الإخبارية لم يجعلنا نتابع الحدث بتفاصيله، ولا نعي الهزيمة بحقيقتها، ولا ندرك الكارثة بأبعادها سوى ما وعيته من أحاديث أبي بعد ذلك عندما صار يتحدث عن أهالي الضفة الغربية الذين نزحوا للأردن ووصل بعضهم إلى السعودية، وصرنا نستوعب مع الوقت ما جرى.

وفي السنة السادسة الابتدائية صار معلم التاريخ والجغرافيا يشرح لنا هذه الهزيمة وما خسرنا فيها، وكان بيده فرجار خشبي كبير فكان يقول لنا: والسر الغامض كيف سقطت هضبة الجولان وهي مرتفعة مطلة على ما تحتها ثم يضع إحدى يديه على قمة الفرجار والأخرى عند قاعدته ويقول: هذه الهضبة وهذه الأرض المحتلة، فكيف تمكن الإسرائيليون وهم هنا أن يستولوا على هذه القمة؟

ثم ترك الجواب معلقاً، وكأنه يقول: لعلكم تعرفونه عندما تكبرون.

وكبرنا وازددنا حيرة بفهم الواقع السياسي بقدر ما نسمع من آراء وما يطرح من تحليلات من يمين اليمين إلى يسار اليسار.

الجيش العربي يزحف إلى تل أبيب

القوات العربية طوقت منطقة النقب وتواصل زحفها

الجيش السوري يدمر مواقع العدوان داخل الاراضي المحتلة تمهيدا للقوات الزاحفة

المساء ٤ ١٠

المعركة الفاصلة تدور الآن داخل إسرائيل

بعد ساعات من بدء المعركة لقي جيش إسرائيل ٣ هزائم منكرة في الكونتيلا وأبو عجيلة وخان

الجمهورية ٤ صفحات ١٥ مليما

سلاح الجو الإسرائيلي يلقى أكبر هزيمة فوق الأرض الع

٨٦ طائرة أسقطها سلاحنا الجوي و٥٠ أسقطتها سوريا و٢٣ أسقطتها الأردن و٧ العراق وواحدة

القوات السورية والأردنية والعراقية تضرب مواقع العدو وتتوغل داخل أراضيه على طول ال

مدمرة مطارات العدو وضرب مصفاة البترول في حيفا وإشعال النيران في ٥ مستعمرات

القوات الأردنية تستولي على جبل المكبر وتطارد قوات العدو في القدس المحتلة وتحتل مستعمر



الأهرام ١٥ مليما ٤ صفحات

قواتنا المدرعة تتوغل داخل خطوط العدو

في معركة عنيفة دارت مساء أمس استطاعت قواتنا أن تحطم هجوما للعدو ... داخل خطوطه

بدأ العدو الإسرائيلي هجومه على الجبهة المصرية جوا وبرا ابتداء من الساعة ٩ صباح أمس

سقط أكثر من ٨٦ طائرة للعدو خلال هجماته الأولى وأسر وقتل عدد من طياريه

تحطيم ثلاث هجمات إسرائيلية بالمدرعات في مناطق الكونتيلا وأبو عجيلة وخان يونس

معارك ضارية على طول الجبهات مع العدو توجه له فيها قواتنا ضربات متلاحقة وتلحق به خسائر فادحة في البر والجو

إسرائيل تعلن أن المدافع الأردنية البعيدة المدى بدأت في المساء ضرب ضواحي تل أبيب

جميع الجبهات العربية تبدأ القتال على الفور وفقا لخطة العمليات الموحدة

الطيران المصري والأردني والسوري والعراقي يعمل فوق أرض العدو طوال يوم أمس

اتصالات خطيرة عن الموقف المريب الذي تقفه الولايات المتحدة وحاملات طائراتها في البحر الأبيض

الملك فيصل يبرق بتأييده لعبد الناصر وعبد الناصر يرد عليه ووزير الدفاع السعودي ... مع وزير الحربية

اتصالات تليفونية بين عبد الناصر وحسين وعارف وبومدين والأتاسي وأمير الكويت وشارل حلو

يتحدث باسم جونسون يناشد السفراء العرب في واشنطن أن تقبل دولهم قرار إيقاف إطلاق النار

عناوين الصحف عن الانتصارات الوهمية في حرب حزيران

وفاة عبد الناصر

في صبيحة يوم الإثنين (٢٨) سبتمبر (١٩٧٠م) ونحن في طابور الصباح التفت إليّ زميلي إبراهيم وقال: مات جمال، لم أكترث لذلك، حتى عدت إلى البيت فإذا الإذاعات تقرأ القرآن، وكأن الدنيا في حال ارتجاج، وصرنا نتابع الأخبار فقد كبرنا شيئا وتوثقت علاقتنا بالمذياع، وصارت إذاعة لندن وبرنامج العالم هذا المساء من وجباتنا اليومية، ولفت نظرنا حجم التعاطف المحلي والعربي مع وفاته، وطويت تلك الخلافات المرة، والمهاترات الإعلامية.

ثم نقلت لنا الصحف صور التشييع الكبير لجنازة عبد الناصر، والعاطفة المتأججة، والتفاعل الهائل الذي أظهره الشعب المصري للزعيم في مشهد لم يتكرر بعد، ولم تره أعيننا لزعيم عربي غيره.

ثم جاء نزار فنسج له قصيدة عشق ورثاء لا أظن قيل بعد مدائح المتنبي مثلها.

تأخرت يا أغلى الرجال فليلنا ... طويلٌ وأضواء القناديل تسهر

أتسأل عن أعمارنا أنت عمرنا ... وأنت لنا المهدي أنت المحرر

وأنت أبو الثورات أنت وقودها ... وأنت انبعاث الأرض أنت التغير

تضيق قبور الميتين بمن بها ... وفي كل يوم أنت في القبر تكبر

رفيق صلاح الدين هل لك عودة ... فإن جيوش الروم تنهى وتأمر

رفاقك في الأغوار شدوا سروجهم ... وجندك في حطين صلوا وكبروا



تشييع جنازة جمال عبد الناصر

حرب رمضان

وقعت هذه الحرب ونحن في المرحلة المتوسطة وقد كبرنا وكبرت اهتماماتنا، واتسعت متابعتنا للأحداث العالمية، ولذا كان اهتمامنا بها ومتابعتنا لها أكثر، وتفاعلنا مع مراحلها وتموجاتها، وزهونا في البدايات ثم مفاجآتنا في النهايات، ومتابعاتنا لجولات كسينجر المكوكية بعد المعركة.

وغلاف مجلة «اليمامة» وعليه عبارة: «أيام حبلى بالمفاجآت»، وقد أدركنا ولادة بعض هذه المفاجآت والتي كان منها اتفاقية «كامب ديفيد» وما بعدها.

ومما لاحظناه في حرب رمضان حضور العاطفة الدينية، واشتهار تكبير الجنود عند عبورهم القناة واقتحامهم خط بارليف.

وعندما خطب الملك فيصل بعد المعركة عام (١٣٩٤هـ) ذكر ذلك وقال: «لما صارت المعركة بين إخوتنا العرب وأعدائهم الصهاينة، فتقدم الإخوة مكبرين لله -سبحانه وتعالى- بقولهم: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، فصارت النتيجة أن اكتسحوا أعداءهم ولله الحمد في منطقة القناة وفي مرتفعات الجولان من إخواننا في مصر وفي سوريا، وهذا مما يثبت للمسلمين أنهم بتمسكهم بدينهم وعقيدتهم وإيمانهم بالله وإخلاصهم له سينتصرون في كل المجالات إن شاء الله»[(١)].

كما تميزت خطابات الرئيس السادات بابتدائها: باسم الله، وكانت الخطابات الرئاسية قبله تُبْتَدأ: باسم الشعب، كما كان يختمها غالباً بآخر آية من سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا ...﴾ الآية.

(١) من تسجيل له رحمه الله على قناة اليوتيوب.

وكان هذا أحد تجليات الصحوة، وانقشاع قتامة الغيوم الداكنة للفكر الماركسي واليساري والناصري؛ التي استبَدَّت بالساحة الثقافية والإعلامية في الستينيات وما قبلها.



رفع العلم المصري على خط «بارليف» في حرب رمضان

مقتل الملك فيصل

في يوم الثلاثاء كنا في مدرسة اليمامة الثانوية، وفي فترة الضحى سمعنا صوت سيارات الشرطة والحرس والإسعافات وضجيجها وكان مجلس الوزراء بجوار مدرستنا وهو الذي يداوم فيه الملك فيصل ويصل إليه يوميا في نفس الساعة والدقيقة.

ولكن هذه الأصوات على شدتها وفجاءتها لم تثرنا، ولم نتساءل عن شأنها، وانتهى اليوم الدراسي ورجعت بعد الظهر إلى بيتنا فلما دخلته وجدت أمي أمام المذياع وهي تبكي، وكانت الإذاعة لم تعلن خبر وفاته بعد وإنما أعلنت أن الأمير فيصل بن مساعد والمعروف باختلال في عقله قد أطلق النار على الملك، وأنه قد نقل إلى المستشفى، ثم أُعلن عن وفاة الملك فيصل ومبايعة خالد ملكا وفهد وليا للعهد.

وكان للمفاجأة صدْمتها ودهشَتُها وذهولها، ورأيت ذلك في حيرة الناس وفجيعتهم، وذهبت بعد صلاة العصر إلى مجلس الشيخ ابن باز فإذا هو جالس في مجلسه يتحدث إلى من عنده عن سماعه الخبر وأنه توجه فورا إلى قصر الملك وعزى زوجة الملك عِفَّت، وأثنى على صبرها وعقلها، وأنه ذهب بعد إلى الإمارة وعزى الأمير سلمان الذي أخبره بأن الأسرة بايعت خالداً وفهداً، قال الشيخ فقلت: نحن تبع لكم في ذلك.

وفي الغد كان مشهد الجنازة مهيباً، واجتماع العامة حاشدا للصلاة على الملك في مصلى العيد ثم الذهاب إلى مقبرة العود القريبة، وشهدت الصلاة التي كان الحضور فيها أكثر من حضور صلاة العيد.

وفي ليلة الجمعة حضرت ندوة الجامع الكبير التي ألقاها الشيخ ابن باز عن الحادث، ورأيت تأثره وبكاءه، وسمعت ثناءه على الملك فيصل ودعاءه له، ثم جعل يُذكِّر بنعمة الله أن هذا الحادث المريع اكتنفه لطف الله فلم تعقبه فتنة، ولم تقع بعده ثورة، وأن الله حفظ لهذه البلاد أمنها وسكينتها.

وكان للملك فيصل اجتماع اسبوعي كل يوم خميس مع العلماء والمشايخ في قصر الحكم، وكان من الفقرات الثابتة التي نسمعها في نشرة أخبار الساعة الثانية ظهراً: استقبل جلالة الملك فيصل في قصر الحكم بالرياض أصحاب الفضيلة العلماء والمشايخ جرياً على عادة جلالته في كل يوم خميس.

وفي مقطع مصور لأحد هذه اللقاءات يظهر فيه الملك فيصل وعلى يساره الشيخ عبد الله بن حميد ثم الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ ابن حميد يقول للملك: اعتقد أن الشعوب فيها خير لكن البلاء في القادة.

فيقول الملك مؤكداً: المشاكل تأتي من القادة طال الله عمرك.

رحمة الله وبركاته عليهم أجمعين.

ومن خطاباته الأخيرة خطاب ألقاه وهو متأثر وبصوت متهدج قال فيه: إن القدس الشريف يناديكم ويستغيثكم أيها الأخوة لتنقذوه من محنته ومما ابتلي به، فماذا يخيفنا؟ هل نخشى الموت؟ وهل هناك موتة أفضل وأكرم من أن يموت الإنسان مجاهداً في سبيل الله؟

أيها الإخوة المسلمون! نريدها نهضة إسلامية، لا تدخلها قومية ولا عنصرية ولا حزبية، إنما دعوة إسلامية، دعوة إلى الجهاد في سبيل الله، وفي سبيل ديننا وعقيدتنا، دفاعاً عن مقدستنا وحرماتنا، وأرجو الله سبحانه وتعالى إذا كتب لي الموت أن يكتب لي الموت شهيداً في سبيل الله[١].

ثم رأيت مجلة الحوادث اللبنانية وعلى غلافها صورة الملك مظللة بالسواد وعليها عبارة: «مات قبل أن يصلي في القدس».

(١) من كلمة له رحمه الله على قناة اليوتيوب.



الملك فيصل، والشيخ ابن باز رحمهما الله في زيارة
للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

القتال في أفغانستان

بدأ الجهاد الأفغاني بنوايا صادقة وعزائم قوية، وتعاطفنا معه بكل مشاعرنا، واستنزف التبرع له ذخائر الأموال والأرواح من أهل السعودية فلا أحسب أن شعبا تعاطف مع هذا الجهاد وعاشه كأنه قضيته كشعب السعودية اللهم إلا أن يكون الشعب الباكستاني بحكم الجوار.

وكان لدخول عبد الله عزام صفوف المقاتلين أثره في جعل هذا القتال قضية دينية يتفاعل معها المسلمون العرب كما يتفاعل معها الأفغان والباكستان، وكان له حماسه الصادق وخطابه البليغ، وقد استنفر الشباب فتوافدوا على مواضع القتال زرافات ووحدانا، وكان ذلك بغطاء رسمي وتسهيل حكومي، ومشاركة شبه رسمية.

ولا تسل بعد ذلك عن أخبار الشهداء، والدماء برائحة المسك، والكرامات الغرائبية، والتبريرات لكل هزيمة إذا وقعت، والاعتذارات لكل خطأ وخطيئة إذا اقترفت، ومنها ما يقال حين يقع القتال بين الجماعات الأفغانية نفسها، فيبرر ذلك بأن القتال وقع بين الصحابة من قبل.

وبرغم تعاطفي الشديد مع المجاهدين الأفغان وتأثري ككثيرين غيري بما يجري هناك من انتصارات حقيقية أو موهومة إلا أن الذهاب إلى هناك لم يستهوني ولم أذهب ولم أشجع أحدا على الذهاب.

وكان قلة قليلة من مشايخي يبدون تحفظهم ولا يجهرون به على ما يجري هناك.

وكان أخطر ما أنتجه اجتماع هذه المجاميع من دول عربية متعددة وأكثرها السعودية ومصر والجزائر، وهم شباب متقدو الحماس قليلو العلم أن نبتت نابتة الغلو والتكفير، وصارت محضنا للفكر القتالي وانتشرت هناك كتب الغلاة المتسترة بكنى

وأسماء رمزية، ثم تطاير شرر هذه الفتنة واستعر أوارها، وتناسلت الجماعات القتالية منها إلى القاعدة فداعش، وإذا حوادث وكوارث، وهرج ومرج، وفتن لا يدري فيها القاتل فيم قَتَل، ولا المقتول فيم قُتل.

نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.



صورة من أيام الجهاد الأفغاني

الثورة الإيرانية

«ثورة العمائم تهز عرش الشاه»، كان هذا عنوان الغلاف على إحدى المجلات في بدايات الثورة الإيرانية، والخميني ما زال في النجف، وما أسرع ما تطورت واتسعت وتسارعت فإذا الخميني في باريس، وإذا الشاه يغادر طهران ويعهد لمجلس الوصاية، ويتولى شاهبور بختيار الوزارة فيصعد الخميني الطائرة ويملؤها بالمرافقين والصحفيين ثم ينزل في طهران، وكم كان منظره صارما مهيبا ووجهه فولاذيا صلبا وهو ينزل من الطائرة معتمدا على ذراع أحد ضباط الجيش في مظهر يعلن انضمام الجيش إليه، وتسليم البلد له.

وما أسرع ما احتوى هذه الدولة الكبيرة بكل إمكاناتها ومقدراتها، واستطاع المحافظة عليها والتشبث بها، وعبور أشد الأزمات التي عصفت بها، ومنها حالات الانشقاق داخل الثورة والتي قتل فيها آية الله بهشتي أحد أعمدة الثورة والمنظور إليه بعد الخميني، ورجائي رئيس الجمهورية، وبا هنر رئيس الوزراء، ثم انشقاق رئيس الجمهورية أبو الحسن بني صدر والذي هرب إلى باريس، ووزير الخارجية صادق قطب زاده والذي أعدم، ومعارضة آية الله شريعتمداري، وانشقاق آية الله منتظري نائب الخميني، ثم الحرب العراقية الإيرانية.

والحق أن شخصية الخميني شخصية استثنائية مبهرة ومؤثرة، ولكن هيئته الدينية السمحة تخفي شخصية دموية باطشة.

وقد رأيت فيلماً وثائقياً عن حياته وأبرز هذا الفيلم أن الخميني رفض تعيين ابنه أحمد في أي منصب قيادي بعده، وأنه قسم أمواله وثروته على الفقراء قبل وفاته.

وقد عُرضت في الفيلم على أنها إحدى مناقب الخميني وفضائله، فقلت: سبحان الله، إن هذا الذي يرونه فضيلةً للخميني هو ذاته الفضيلةُ التي يثبتها المسلمون كافة لنبيهم ﷺ فينازعهم الشيعة فيها، وهي اعتقاد المسلمين كافة أنه ﷺ لم يوص لأحد من أهل بيته، ولم يخلف مالاً يورث من بعده، فخالفهم الشيعة، وقالوا: أوصى بالخلافة لعلي، وورث أمواله لفاطمة.

ومما سمعته من الخميني في هذا الفلم قوله وهو ينتقد نظام الحكم الملكي: إذا كان أجدادنا اختاروا أباك ملكاً فإن هذا لا يلزمنا أن نختارك أنت أيضاً ملكاً.

فهل يعلم أن جيش دولته ذهب ليحارب الشعب السوري ليفرض عليهم حكم رئيس ملكي مؤهله الوحيد أن أباه كان رئيساً انقلابيا ثم رئيساً ملكياً يورث الرئاسة لابنه فلما مات الابن ورث الحكم لابنه الآخر.

وأن الدولة الإيرانية التي تفتخر وتحتفل بالثورة على ظلم الشاه، هي الآن تقاتل وتبيد شعباً في سوريا لأنه ثار على حاكمٍ وراثي ظالم هو أعظم طغياناً من الشاه، وكأن الثورة حق للشيعة في إيران والبحرين واليمن، فإذا ثار السنة في سوريا والعراق صارت ثورتهم إرهاباً ونظامهم الظالم الغاشم شرعياً.

إن منطق الالتواء الطائفي يملك التبرير لكل تغيير، وهذا يذكرني ببعض الإخوة الحقوقيين الشيعة الذين التقيت بعضَهم وتحدثوا عن حقوقهم ومظلوميتهم، وكان رأينا وما يزال أنه لا يجوز أن ينتقص حقٌّ لذي حق، سواء كان مسلماً أو كافراً، سنياً أو شيعياً، ثم تلفتنا إلى هؤلاء الإخوة لما وقع البطش الطائفي عل أهلنا في العراق وسوريا، وصار الحشد الطائفي والحرس الثوري يجرف مناطق السنة بحملة إبادة ممنهجة، وبطريقة فيها تشف واجتثاث، وانتظرنا لعلنا نرى منهم اعتراضاً أو نسمع استنكاراً، وتساءلنا: أين هم؟ أين هم؟ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا؟

نعم وقع إجرام من داعش في حق بعض الشيعة ولكن شتان بين ما تفعله داعش من إجرام في حق الشيعة، وما يفعله الحشد الطائفي من إجرام في حق السنة، فداعش فرقة مارقة مجرَّمة من علماء السنة جميعاً، وضحاياها من السنة أكثر من الشيعة، أما الحشد الطائفي والحرس الثوري فجناياته مدفوعة بفتاوى المرجعيات الشيعية وإسناد الحكومات الطائفية.

وفي السنة الأولى للثورة الإيرانية بدأت المهاجمة الكلامية لأمريكا وإسرائيل، وتكون فيلق القدس من الحرس الثوري الذين سيذهبون من إيران لتحرير القدس، ورأيناهم وقد وصلوا إلى بيروت ثم امتصتهم أرض جنوب لبنان فلم نر لهم أثراً، ولم نسمع عنهم خبراً، ولكن نبت في مكانهم حزب الله، واختار أن يحرر القدس من طريقٍ يمر بسوريا والعراق والخليج واليمن أولاً، ثم لا ندري بعد إلى أين سيتجه؟!!!



وصول الخميني من باريس إلى طهران

حادثة الحرم وجماعتها

كان أول تعرف لي على فكر هذه الجماعة ذات ليلة صيف وأنا في المرحلة الثانوية، وقد انصرف الناس من صلاة العشاء، وبقيت في المسجد مع شاب يمني من طلبة تحفيظ القرآن كان يسكن في غرفة في المسجد، فحدثني عن رسالة «رفع الالتباس عن ملة من جعله الله إماما للناس» لجهيمان العتيبي، ولم أكن سمعت بالكتاب ولا الكاتب، فاستفصلت منه عنها فقام وأحضرها من حجرته وجلست أقرأها في ساحة المسجد، ولا أزال أتذكر الآن هواءه الرطيب تلك الليلة، واستمتاعي بانفساح ساحة المسجد وخلوها، وبدأت القراءة فإذا بي أُشد إليها فما قمت حتى أنهيتها، وشعرت وأنا أقرأها بشعور جاذب غريب، ولما فرغت منها قمت وقد أنكرت نفسي، وإلى الآن لا أدري ما هو ذاك الشعور النفسي الذي تلبسني، فقد قرأت كلاما غريبا غير معتاد ولا مألوف، لم يكن فيها بلاغة لفظية ولا متانة علمية، بل كانت الرسالة مكتوبة بما يشبه اللهجة العامية، ومذيلة بقصيدة شعبية علق منها بيت في ذهني.

يا عيد ما جيتوا من السجن باخبار   من بعدهم يا عيد كثر اطلاشي

فما سِرُّ ذاك التأثير الغريب، وذهبت لأنام ولا أحسبني نمت تلك الليلة بسكينة وهدوء.

وكان من صنع الله لي أني كنت قد دخلت في دوامة الحياة والكدح في طلب الرزق، وابتعدت تلك الفترة عن الشأن العلمي، ولذا فلم يتتابع الاهتمام بهذا الأمر، وكانوا يسمون أنفسهم الإخوان[١]، وهو اسم تتسمى به كل مجموعة فيما بينها حتى يتبرع أحد من خارجها فيسميها بما يميزها.

وكان أكثر ما يميزهم في تلك الفترة العناية بعلم الحديث وكتبه، والتركيز على مسائل خاصة مثل الصلاة في النعال، وتشمير الثياب إلى نصف الساق، واتخاذ السترة في الصلاة، ومحاربة التقليد المذهبي، وبعض من يتأثر بهم من الشباب يبدأ معركة مع أهله حول إخراج التلفزيون من البيت.

ومما استهووا به الشباب تسهيل العلم عليهم، وإشعارهم أن العلم لا يحتاج إلى عناء كبير، وتفوقهم في ذلك الوقت على كثير من أهل العلم المشهورين عند الكلام على تصحيح الأحاديث وتضعيفها.

ولذا فإن الشاب إذا عرف شيئا من أحكام التصحيح والتضعيف، وحفظ بعض الأحكام على الأحاديث المشهورة أحرج فقهاء أكبر منه سنا لم يكن الحديث من علومهم، فيظن أنه صار أعلم منهم.

مع أنهم لو سألوه عن أحاديث غير التي حفظها، أو نقلوه إلى مسائل غير التي يكررها لجفَّ ريقه، واتضحت ضحالة علمه، وشتات معارفه.

وكانت أخبارهم تصلني عن بعد لانشغالي تلك الفترة وبعدي عن الشأن العلمي والدعوي.

وفي ليلة جمعة وبعد انتهاء ندوة الجامع الكبير التي أحضرها غالبا، التقيت بأحد زملائي في حلقة التحفيظ الأخ أحمد، وكان فيه طيبة وود وبراءة نفسية، فأخبرني أنه

---

(١) ولهم أسماء أخرى مثل: «الجماعة السلفية المحتسبة» و«أهل الحديث».

مع الإخوان وحدثني عن سترة الصلاة، وتضعيف حديث خط السترة، وكان مغتبطا بهذه النقلة العلمية التي يعيشها، فعرفت منه تفصيلا أكثر عنهم، لكنه لم يجذبني بسبب تكويني العلمي المسبق.

وذهبت بعد مدة إلى الزلفي لاستخراج حفيظة النفوس فوجدت رجالا كباراً في السن من العوام يتحدثون عن قرب ظهور المهدي، ولم يكن الكلام عن المهدي من مألوف الحديث ومعتاده، ومع ذلك فلم يستثرني الحديث خصوصا أنه جاء عابرا.

وبدأ اسم جهيمان يتردد في الجو العام، وكلما سمعته تذكرت تلك الليلة الليلاء التي قضيتها مع كتابه فأشعر بغموض وتوجس، خاصة أنه يذكر على أنه مختف ومطلوب للدولة بعد صدور كتابه الإمارة والذي لم أكن قرأته بعد.

وفي السوق الذي كنت أعمل فيه تعرفت على شاب من لداتي وبدأنا الحديث فاستهواني واستهويته، وشعرنا كأنا صديقين التقيا في غربة، فقد كان لديه خلفية علمية وأنا كذلك، بينما كان رفاقنا في السوق كلهم من العوام وأشباههم فكان بيننا مجالس مذاكرة ومباحثة علمية نستروح لها، علمت من خلالها أنه كان مع هذه الجماعة، وأنه خرج عنهم بعد أزمة فكرية عقدية كان لا يزال يعيش كربتها، فكان يجد في حديثه معي تفهما لمعاناته الفكرية التي لا يتفهمها كثير ممن حوله، وأخبرني أنه مع بداية أزمته تلك أقلقهم بكثرة تساؤلاته وفوجئت عندما قال وكنت أسأل جهيمان وكان أكثرهم إقناعا لي، فقلت: هل تعرف جهيمان، قال: نعم، قلت: من هو؟ كيف هو؟ صفه لي، فاستجمع قدراته في التعبير وهو يقول: وجهه ... وجهه معبر، ورسخ الوصف في ذهني.

وعبرت الأيام حتى فُجئنا وفُجعنا على حين غرة بخبر الاحتلال المسلح للحرم المكي، والأحداث الدامية في الساحة الآمنة، وأن المهدي يبايع هناك، في (١/ ١/ ١٤٠٠هـ) وتذكرت حينها حديث عوام الزلفي عن المهدي، قبل سنة مضت، ثم انتهت الفتنة وقتل من الجماعة من قتل واستسلم من استسلم، ونشرت الصور

في التلفزيون ومنها صورة جهيمان، فلما رأيتها تذكرت فورا كلمة رفيقي عبد الإله في وصفه له.

وبعد أشهر أعلن عن قتل من شاركوا في حادثة الحرم في عدد من مدن المملكة، وسمعت اسم رفيقي أحمد ضمن من قتل في مدينة تبوك، وشعرت بألم نفسي عليه، كيف أن ذاك الشاب البريء الوديع انزلق إلى هذه الهاوية.

وبقي تأثري بهذا الحدث طويلاً، وسبب لي هزة وجدانية عنيفة، فقد كنت معَّرضا للانزلاق فيه لولا حفظ الله وجميل صنعه بي.

وأشعر أنه إلى الآن لم يُدرس بعد دراسة تليق بضخامة الحدث سوى ما كتبه الأستاذ ناصر الحزيمي عن تجربته من داخل الجماعة[١]، وكم سيكون مفيدا وكاشفا لو نشرت محاضر التحقيق مع أفراد الجماعة، ومحاضر محاكمتهم، لنكشف منها كيف استهوى ذاك الفكر على جنوحه شبابا من بلدان متعددة وبيئات متنوعة؟ وكيف تكونت فكرة تعيين المهدي من خلال الرؤى والأحلام؟ وهل كانت قصص الرؤى حقيقية أو مختلقة؟ وقد كان أحد مشايخي يقول: هذه فتنة شارك فيها الشيطان بشكل مباشر من خلال الرؤى الفاتنة.

ثم كيف كان هناك معارضون لهذه الفكرة من داخل الجماعة ثم تغير رأيهم في آخر لحظة ومنهم محمد القحطاني المهدي الموهوم؟ وفيصل بن محمد، الذي ذكره الحزيمي في مذكراته وغيرهم.

ثم كيف استمروا في القتال في الحرم بعد اكتشافهم مبكرا بطلان توهمهم بمقتل المهدي المزعوم في أول أيام الفتنة.

(١) في كتابه: «أيام مع جهيمان».

ومع أن هذه الجماعة يبعد جدا أن تتكرر بالفكرة والتفاصيل بنفسها، لكن بنيتها الفكرية تتشكل في مظاهر كثيرة، ولذا فإن بينهم وبين جماعات الغلو القتالية كداعش والقاعدة، وجماعات التكفير قواسم مشتركة، مع ما بينهم من الاختلاف في تفاصيل القضايا العلمية، خاصة فيما يتعلق بالتكفير، فإن هذه الجماعة لم تكن تكفر الحكام ولا العوام، ولكن بنيتها الفكرية كانت غالية ومؤهلة للتطور والغلو البعيد.

ومرت على الحادث الصادم سنوات ثم سافرت بعدها إلى مصر، وزرت مكتبة مدبولي فرأيت كتابا فيه جميع رسائل جهيمان، فأخذته بلهف لأعيد قراءة الرسالة التي زلزلتني، وبقية الرسائل التي صدرت ولم أقرأها، وعدت في الباخرة من السويس إلى جدة وكان هذا الكتاب ملتصقا بيدي أقرأه، وأبحث فيه بلهف وشوق، عن ذاك المثير الذي رجف بمشاعري حين قرأته أول مرة، ولكن فوجئت بخمود كلماته التي صرت أقرأها وكأني أقلب كوما من الحجارة، وانطفأ لهبها فصار رمادا، ولم أشعر بعد انتهاء الرسائل كلها بأي شعور غير الاستغراب من نفسي كيف استثارني هذا الكلام حين قرأته أول مرة على بساطته إلى حد السذاجة، وهو ما لم أعرفه من نفسي إلى يومي هذا.

أما الكتاب فألقيته في البحر ليحتفظ قاعه بسره مع ما يحتفظ به من أسرار كثيرة.

ندوة الجامع الكبير

كانت تقام في الجامع الكبير في كل ليلة جمعة محاضرة أو ندوة بين المغرب والعشاء، وفيها رأيت وسمعت أعلام ذاك الزمان مثل المشايخ عبد الله بن حميد، مناع القطان، ابن باز، ابن غصون وغيرهم رحمهم الله، وكان يقدمها ويدير ندواتها الشاب عبد الله المصلح، وأحيانا الشاب إبراهيم الغيث، وكنت مواظبا على حضورها منذ كنت طالبا في المرحلة المتوسطة، وقد أثرت في وعيي وثقافتي وتوجهي، وفيها عرفت الشيخ ابن باز أكثر حيث كان إمام الجامع الكبير، ويحضر هذه الندوات إذا كان في الرياض ويعلق عليها.

وكانت أول معرفة لي بها حين دعي مدرسنا في حلقة التحفيظ ليكون القارئ الذي يفتتح الندوة، واستعد لذلك وتحفز وذهبنا لنشهد أداءه فكانت رؤية الاكتشاف لهذه الفعالية العلمية، فلما عرفتها صرت مواظبا عليها، وعرفت من خلالها أبرز الوجوه العلمية حينها.

وممن عرفته فيها الشيخ عبد الله بن إبراهيم الفنتوخ عميد كلية الشريعة، وكان حينها شابا طموحا متوثبا، أذكر أنه كان له مشاركة في الندوة فأعلن أنه سيجلس بعد صلاة العشاء لعرض مشروع على من يرغب المشاركة فيه، فكنت ممن جلس إليه فطرح فكرة عمل اجتماعي دعوي توعوي لو انطلق لكان بديلا صحيحا عن الجماعات التي

كانت تتشكل حينها، ولكن الحضور لم يكونوا على مستوى الفكرة، ولم يكن الشيخ على اقتدار لتحملها حينذاك، ولذا لم تتجاوز اجتماع الشيخ ذلك فيما أعلم، وبعد حادثة الحرم والتي اعتقل الشيخ فيها داخل الحرم أسبوعا، ثم سجن بعد ذلك بتهمة المشاركة مع المهاجمين مع أنه كان من ضحاياهم، فأثرت فيه هذه الحادثة وكسرت كثيراً من طموحه وفاعليته، لكنه بقي وفيا لمساره الدعوي مقيما للدروس إلى أن ضعف في مراحل عمره الأخيرة، وكانت المعرفة به من خلال ندوة الجامع الكبير.

وفي إحدى الندوات كان المتحدِّث أحد الأشياخ الخطباء البلغاء جهوري الصوت منفعلا في حديثه إذا تحدَّث، فكان يتحدَّث بحماس عن الآراء والملل الكفرية، ويقول بحماس: ولا تسمى اليهودية ولا النصرانية ولا الملل الكفرية: ديناً، ولكنها افتراء، كما قال هود لقومه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾، فهي فِرية وليست ديناً. وبينما هو مندفع يقرِّر هذا المعنى إذا صوت يقاطعه، فالتفتنا فإذا هو الشيخ ابن باز يقول: تسمى: ديناً، ولكنه دين باطل كما قال الله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

فرد على الشيخ قائلا: لكن يا شيخ هذا كان... فلم يتركه الشيخ يكمل كلامه وقال غاضبا: ينبغي التأدب مع كلام الله، ينبغي التأدب مع كلام الله.

ولا زلت عاجبا من سرعة استحضار الشيخ ابن باز، ومتعجبا من عدم استحضار المحاضر لهذه الآية مع وضوحها وقربها.

وكنت أرى أناسا مواظبين على حضورها لا أكاد أفقدهم فيها، ومنهم أخي أحمد الرصيص.

وقد حافظت هذه الندوة على مستوى وعيي والتزامي في سنوات المراهقة.

وفي السنة الثالثة المتوسطة تقريبا حضرت محاضرة في الجامع الكبير كان يلقيها أحد الشيوخ الذي كنت معجبا بهم، وكان يتكلم عن الهجر في الله وقال: هؤلاء الذين

لا يصلون ينبغي أن يهجروا، لقد هجر النبي ﷺ من تخلف عن غزوة تبوك فكيف بمن ترك الصلاة، واتخذت قراري حينها وأنا في الجامع أن أهجر كل من لا يصلي من رفاقي وكانوا أكثرهم، فانقطعت صلتي بفتيان الحارة، وصرت أعيش غربة أخفف وحشتها بالعلاقة مع أشياخ يكبرون أبي من المسجديين، حيث صرت أقضي أغلب وقتي في المسجد، وبقيت على هذه الحال نحو ثلاث سنوات حتى تكونت لي علاقات جديدة في المرحلة الثانوية مع زملاء جدد.

وأفادني ذلك حينها حيث عزلني عن بيئةٍ ربما جرفتني في أحد المسارات غير الرشيدة، ولكنه تصرف اكتشفت بعد ذلك أنه كان خطأً كبيراً، فعلمت من بعد أن الهجر ليس شعيرة تقام بين المسلمين، وأن المسلم العاصي أخ لنا كما قال ﷺ عن الصحابي الذي كان مدمناً للخمر: «**لا تعينوا الشيطان على أخيكم**». فجعله أخاً برغم إصراره على معصيته.

ومادام المسلم في حظيرة الإسلام فله حق الأخوة الإيمانية: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وله حق المسلم على المسلم الذي بيَّنَه ﷺ بقوله: «**المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أخاهُ المُسْلِمَ**».

فالعلاقة بين المسلمين هي الأخوة الدينية بلوازمها، والعلاقة مع غير المسلمين هي الأخوة الإنسانية بلوازمها، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، فسماه أخا لهم، وسماهم قوما له.

وما زالت الندوة مستمرة في جامع الإمام تركي بن عبد الله وبحضور المفتي سماحة الشيخ عبد العزيز آل الشيخ.

ولكن لم يعد لها وقعها ولا دورها لكثرة البدائل الخَيِّرة بحمد الله كإذاعة القرآن، والقنوات التلفزيونية الهادفة مما قرب الفائدة للناس ويسر عليهم تحصيلها ومتابعتها.



الجامع الكبير



أحد أروقة الجامع الكبير مفروشاً بالحصر

الغفوة والصحوة

كان للنزغات والنزعات في الوطن العربي صداها عندنا، وكانت الدعوات الوافدة من ناصرية وبعثية وشيوعية وقوميه مختلفة ومتنافرة، لكنها متفقة على ازدراء الدين. ويصورها من داخلها ما كتبه د. تركي الحمد في روايته العدامة، ويصفها من خارجها شيخنا أبو عبد الرحمن بن عقيل في تباريحه وبعض مقالاته.

ولعل من أسباب ذلك الانفتاح الفجائي عن طريق الإذاعات حيث بدأت هذه الأفكار تصل بشكل مباشر من مصر والعراق وسوريا، وسهولة التواصل مع محاضن هذه التيارات، ولكل توجهٍ رسلُه ومبشروه.

وربما ساعد على ذلك أن بعض الشخصيات الدينية لم تكن مقنعة للشباب الذي انفتح بانبهار على الحضارة الغربية أو الأفكار الشرقية ثم يسمع أن من العلماء من يحرم تعلم اللغة الإنجليزية، وينكر دوران الأرض، فيحدث له ذلك نفرة عنه، وعن الدين بعامة.

وكانت الناصرية هي أقوى الاكتساحات على مستوى الشباب المتعلم، ورحم الله الشيخ عبد المحسن التويجري الذي زرته في المستشفى وسألته عن تلك المرحلة وكان ممن استهوته رياح الناصرية في عنفوانها، فاستروح في الحديث وانطلق فيه بإسهاب، وقال: كنا نبحث عن زعامة تلاقي حماسنا، وكانت الزعامات

العربية حينها غير مقنعة في نظرنا، وكان طرح عبد الناصر أقرب إلى طموحنا وآمالنا فاستهوانا.

ثم إن هذا الناصري العتيد تحول في محطات عمره الأخيرة داعية عابدا متدينا أرجو أنه أصاب نصيبه من قوله ﷺ: «**إذا أراد الله بعبد خيرا استعمله، قالوا وما استعمله، قال: يوفقه لعمل صالح قبل وفاته ثم يقبضه عليه**».

وكانت مظاهر عدم التدين تظهر في انقطاع كثير من الشباب عن المساجد وعدم شهودهم الصلوات، ومن لم يكن يصلي في المسجد فهو لا يصلي غالبا في بيته لقرب المساجد من البيوت، وربما كان لبعضهم موقف من الدين.

وفي يوم أغريت أحد رفاقي ونحن أطفال دون البلوغ أن يذهب معي لصلاة الجمعة فوافق وسرنا إلى الجامع الذي لم يكن بعيدا عنا فلحقنا أبوه وكان ممن لا يصلون وسأله: وين بتروح، قال: ابروح مع وُهَيِّب نصلي الجمعة، فقال: ارجع، وأخذه معه في السيارة ورجع به، وكان حرج رفيقي وارتباكه حينها شديدا، ثم إنه ما إن بلغ رشده حتى كان من الأخيار المستقيمين زاده الله هداية وتسديدا.

والعجيب أننا ونحن فتيان كنا نظن هؤلاء الحليقين الأنيقين مثقفون، وأنهم سبقونا وآباءنا وعياً وعلماً، فلما أدركهم شبابنا وعرفناهم كهولا، وصرنا نجلس إليهم وقد رشدوا لم نجد عندهم ثقافة ولا علما ولا وعيا، وكأنما كان ما هم عليه حالةُ تمرد، ورفضٌ غير متزن للوضع الذي كانوا يعيشونه ويسخطونه.

ولصغر سني في تلك الفترة لم يكن لدي إدراك للآراء والحركات والأحزاب التي عُرف تاريخها بعد ذلك، ولا متابعةٌ للمعارضين الذين خرجوا وصاروا أصواتاً صاخبة عبر إذاعات مصر، ثم عاد كثير منهم آخر الأمر ونزعوا عما أوغلوا فيه، وأدركوا أنه كان سرابا يحسبه الظمآن ماء.

وكل ما يعيه إدراكي المظاهرُ التي وصفتها من هجر المساجد وترك الصلوات، وربما صاحبه بعض الانحرافات التي توجد حين تغيب الرقابة الدينية، ولكن كثيراً ممن عرفناهم بذلك رشدوا من بعد وتجاوزوا ذلك وخُتِمَ لهم بالذي هو خير.

أما الصحوة فيبدو أنها قد نمت على مراحل، وربما كانت هزيمة سبع وستين مرحلة، وخروج الجماعات من السجون في مصر واستئناف نشاطها والتمكين لها مرحلة أخرى، ثم كانت حرب رمضان ٦ أكتوبر مرحلة دافعة وبقوة، وهذه المرحلة هي التي وعيتها.

ويذكر د. غازي القصيبي رحمه الله أنه أول من أطلق مصطلح: (الصحوة)، فقال: أنا أول من استخدم هذا التعبير، أو من أوائل من استخدمه في نهاية السبعينات في بعض البيانات الرسمية التي كنت أعدها بحكم موقعي الرسمي، ولم يكن هذا التعبير في ذلك الوقت شائعاً، والصحوة هي اكتشاف المسلمين لتراثهم وهويتهم، فقد مرَّ حين من الدهر على المسلمين كانوا فيه مستعمرين مستضعفين، ولم يكونوا يعرفون شيئا عن دينهم وعن تراثهم، والآن عبر العالم الإسلامي بدأ هناك شعور بالفخر: أنا مسلم لا يوجد لدي ما أخجل منه، أنا لدي تراث، أنا لدي انتماء[(١)].

وللملك فهد بن عبد العزيز رحمه الله حفاوة بالصحوة واعتزاز بها، وجهود واسعة في دعمها.

ومن أقواله فيها: يشهد عالمنا الإسلامي اليوم صحوة مباركة، أعادت إلى كل مسلمٍ اعتزازه بدينه وتراثه، وانتمائه لحضارته الإسلامية، وإن مضمونها الأساسي قائمٌ على التسليم بإفلاس الأفكار المستوردة، وعلى الاقتناع بأن المشاكل التي تعاني منها البلاد الإسلامية لن تنتهي إلا بحلول إسلامية مستلهمة من روح الشريعة السمحة ومتجاوبة مع احتياجات العصر.

(١) من كلمة له رحمه الله على قناة اليوتيوب.

إن هذه الصحوة الإسلامية ليست خطراً على أحد، ولا شراً على أي مجتمع، يُؤمِّن للإنسان المسلم تطلعاته إلى الحياة الكريمة التي تليق بالكرامة الإنسانية، ويحقق للبشرية ما تصبو إليه من أمن وسلام واستقرار[١].

ومما ينبغي ملاحظته أن الصحوة في السعودية لم تكن تحولاً من حال إلى حال كما في كثير من البلاد الإسلامية التي حصل فيها انقطاع عن التدين وتجاهر بمخالفة الدين، وإعلان التمرد عليه، وهجر شعاره وشعائره، ثم جاءت الصحوة فيها عودا حميدا.

أما في السعودية فقد كان الدين له السيادة، وبخاصة مع دعوة الملك فيصل إلى التضامن الإسلامي، وكان التجاوب مع تيارات اليسار والقومية إما تعاطفا وجدانيا أو حركات خفية خافتة.

فالصحوة هنا كانت رُشدا في التدين ووعيا به أكثر منها عودة إليه.

وتجلت مظاهرها في انجفال الشباب إلى المساجد، وظهور المناشط الدعوية، والمحاضن التربوية والتفاعل مع قضايا الأمة إسلاميا.

ومن أوضح وأصرح من تكلم عن التحول الاجتماعي ورصده بوعي ومعايشة شيخنا العلامة الأديب أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري أمتع الله بحياته، فهو المخضرم الذي أدرك حلوك الحياة الثقافية وظلمتها، وعايشها وشارك مثقفيها ثقافتهم، وأدباءها أدبهم، وفنانيها فنهم.

ثم أدرك في سن الأشد من عمره وعي الالتزام وصحو الصحوة، وكتب عنها كتابات منصفة بأسلوبه العذب، وأدبه الرفيع في كتابيه: «تباريح التباريح» و«شيء من التباريح» ومقالاته في الصحف.

(١) باختصار من كلمته أمام مؤتمر القمة الإسلامية في مكة المكرمة.

ومما قاله حفظه الله:

«ولقد أكرمني ربي بأن رأيتُ بعد بلوغ الأشدِّ شباباً من أبناء بلدي، تحقَّقت لهم دعوة المصطفى ﷺ ببهاء وتوهُّج أراه في وجوههم الكريمة العريضة المُلْتَحِية.

وقيَّض الله للأمة قبيل القرن الخامس عشر بعقود رجالاً مهَّدوا للصحوة لجيل الالتزام، كان دأبهم تحرير العقل من الانهزام للغرب فكرياً وروحياً، مؤكدين للناس أن المستقبل للإسلام.

واعترافاً بالحق أقول: مهما أُحصِيت المؤاخذات على قلَّة من المنتسبين للصحوة، فلا يعدُّ ذلك شيئاً في بحر حسناتهم.

لقد كان الناس قبل جيل الالتزام -لا سيما عامة الشباب- قلَّما رَأَوا الفجر الصادق والكاذب، وقلَّما استمتعوا بطلوع الشمس، أما الآن، فقد ارتبطتْ يقظتُهم بالأسحار.

فشبابُ اليوم الذين لم ينتصفوا في العقد الثالث، وهم يحفظون القرآن، وأحاديث الأحكام...، هم الآن مشايخ، وأملأْ بها فمَك...

وقبل جيل الالتزام كان المذياع العربي، والمجلة العربية، والكتاب العربي يقذفُ بالشبهات والتشكيك في الدين والتاريخ... فجاء جيل الالتزام وحوَّل الإيمان بالدين إلى عملٍ... وآثرتُ التعبير بجيل الالتزام بدل جيل الصحوة؛ لأن رقعتنا -حتى على مستوى العوام- لم تفقدِ الوعيَ بأحكام دينها.

وتبدَّلت الخنافس وشعيرات كالجعلان تحت الأنف وعراجين ضاحية نضبت فيها ثغرة الميلاد... تحوَّلت كل تلك إلى لِحًى عريضة، وشوارب مخبتة، وثفنات سجود.

ففداء لجيل الالتزام ألف ألف هفوة، وقد أخرجونا من حريق العفن إلى نعيم العمل.

وكنت امرأً لولا الله -ثم وعيي بجيل الالتزام- لأصبحتُ من اللاهين إلا ما شاء ربك، والله المستعصم فيما بقي»[١].



الشيخ
عبد المحسن بن محمد التويجري
رحمه الله



الشيخ
أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري

(١) من مقالة ماتعة رائعة لشيخنا في كتابه «من أحكام الديانة».

الصحوة وإرث التشديد

أما اتهام الصحوة بالتشديد على الناس في الدين، وأن مظاهر المحافظة هي من صنع الصحوة وتأثيرها، فربما كان ذلك صحيحا في أمور محدودة معدودة، ولكن التشدد في المحافظة، وممانعة التغيير ومواجهته كان شيئا وعينا عليه قبل أن نعرف الصحوة، وصدر من علماء لا يمكن أن يوصفوا بأنهم من نتاج الصحوة.

ومن ذلك ما نجده في فتاوى مفتي المملكة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله المتوفى سنة (١٣٨٩هـ) قبل أن تهب رياح الصحوة أو يعرف اسمها ويسك مصطلحها، وهي فتاوى قد ينظر إليها على أنها متشددة ولكنها كانت متوائمة مع وقتها وظرفها.

ومنها:

١- هجر حالق اللحية (٢/ ٥٦).

٢- عدم جواز الاحتفال باليوم الوطني والتهنئة به (٢/ ١٠٦-١٠٧).

٣- منع الدف في الأعراس نظرا لتوسع الناس فيه (١٠/ ١٩٨).

٤- منع الابتعاث للخارج (١٣/ ٢١٧).

٥- لا يجوز الصلاة خلف حالق اللحية أو شارب الدخان لأنه فاسق (٢/ ٢٩٤).

٦- اقتراح إيقاف حركة السيارات في أوقات الصلاة (٢/ ١٣٢).

٧- ومن فتاوى اللجنة الدائمة للإفتاء: تحريم الوقوف للسلام الوطني وأنه بدعة منكرة (١/ ٢٣٥).

وحدثني الفنان الأستاذ عبد العزيز الهزاع أنه اتفق مع الفنان سعد التمامي على إقامة حفل ترفيهي في إجازة عيد الفطر، وكان منصة تقام في حديقة البلدية يقدمان عليها فقرات فكاهية تعتمد الحكاية وتقليد الأصوات وهو نوع من التمثيل كانا يُعرفان به، وكان الحفل رجاليا فقط، وأُعلن عن الحفل وبيعت التذاكر، فجاء الأمر من الملك فيصل بإيقاف الحفل، فذهب الأستاذ الهزاع ورفيقه التمامي لمقابلة الملك وشكاية الحال إليه، وأنهم قد تكلفوا في الإعداد وتحملوا الخسارة، فلما ذهبوا إلى الملك وطلبوا منه هذا الطلب كان رَدُّه غاضبا ومحذرا ومنذرا، ورجعا وكأنما أفلتا من عقاب شديد، ورضيا من الغنيمة بالإياب، وللأستاذ الهزاع أسلوبه الساحر في رواية تفاصيل الواقعة.

ولذا فإن التشدد كان إرثا اجتماعيا، ولم يكن حالة صحوية، وله نظائر في بلدان أخرى، وتختلف مظاهره باختلاف ظروف تلك البلاد.

الجماعات كيف عرفتها

لم أدخل في إطار جماعة من الجماعات التي كانت موجودة في وقت النشأة، ولم يكن ذلك بسبب قرار اتخذته، أو موقف مسبق منها، ولكن لأن فترة التكوين وهي مرحلة الدراسة الثانوية والجامعية، والتي هي فترة الاحتواء لدى الجماعات كنت أجثو فيها على الركب في حلق العلم لدى الشيخ عبد العزيز آل الشيخ، والشيخ عبد الله بن جبرين، و الشيخ عبد الله الغديان وكان إمام مسجد حينا، وكنت حينها قد تحدد لي الهدف الذي أقصده، وسلكت المسار العلمي الذي لا زلت أسير فيه، ولم أعرف الجماعات كتنظيمات إلا في فترة متأخرة جدا بالنسبة لمن هو مثلي، وذلك قبيل الثلاثين من عمري وبعد أن أصبحت غير لائق لها، فأنا أكبر من أن أُقاد، وأصغر من أن أَقود.

وأحسب أن الخلفية العلمية الجادة أعطت مناعة من الاحتواء الحركي، أو اتباع الحراك الجمعي، وعندما تعرفت على الأنشطة الدعوية كان قد ارتفع سقف الطموح عندي، فكانت القدوات أمامي ابن باز، وابن حميد، وابن جبرين، ولذا كان جو الجماعات الدعوية أقل إبهاراً لي ولم يكن طموحي هناك.

ثم اكتشفت متأخرا أني دخلت إحدى الجماعات وخرجت من الباب الخلفي دون أن أشعر أني دخلت ولا أني أُخرجت، وربما كان ذلك لكثرة اللغط الذي كنت

أحدثه بالحديث عن التوجه إلى العلم المؤصل وكتب المتقدمين من العلماء، فربما كنت مصدر تشويش للمجموعة، فجاء قرار إخراجي حفاظا على انسجام المجموعة ونظامها، وهو شيء لم أشعر به حينها وإلى اليوم لست منه على يقين وإنما هو ظن غالب.

ولاحظت في فترة معينة أخطاءً تربوية في هذه المحاضن في طريقة التعليم والتربية وعندما صارحت بها بعض المشرفين وافقوني على التخطئة تماماً، وأخبروني أنها كانت في مرحلة وتم تداركها وتجاوزها.

ولازال هناك من ينتقدون ويكررون القول عن هذه الأخطاء التاريخية، مع أن الذي يَنْتقِدُ أي منظمة سواء كانت جماعة أو مؤسسة أو دولة فإن عليه أن يُحدِّث معلوماته ليتأكد هل ما ينتقده ممارسة آنية أم تاريخية؟

ولأني لم أكن مُنَظَّما في جماعة بعينها فقد بقي قلبي سليما عليها جميعاً، وبقيت صديقا للجميع.

وعرفت الجماعات عن بعد، فأحببت مزاياها، ولم أعرف خباياها.

وأكثر الناقمين على الجماعات والمهاجمين لها هم الخُلعَاء الذين كانوا فيها يوماً ما ثم خرجوا أو أُخرجوا، فانقلبت الصداقة عداوة، والمودة نقمة.

ولم تكتمل معرفتي بالجماعات إلا بعد لقاء مع الشيخ حمد الصليفيح رحمه الله، والذي حدثنا عن بداياتها حديثا فيه مكاشفة وتفصيل، ولكن كان ذلك في وقت متأخِّر، ولم ألحظ من كلامه الذي طرحه يومها بشفافية وصراحة تامة أي طموح سياسي لهذه الجماعات عند تكونها، وإنما كان هدفها دعويا توعويا لتواجه تنظيمات كانت هي الأخرى تتمدد في الخفاء، وكان تساؤلي حينها وإلى الآن: فلم كانت السرية إذن؟!

كما لم ألحظ مما عرفته عمن أعرفهم منها أي امتداد خارجي لها.

ولا أنها كانت منظمة تنظيماً حزبياً هرمياً أو شبكياً، وإنما كانت مجموعات أقرب من أن تكون جماعات تنظيمية، ولذا تفرقت إلى أكثر من مجموعة، والفروق بينها هي الفروق بين توجهات الموجهين المشرفين عليها.

وقد كبر الصغار، وشاخ الكبار، ومات الشيوخ، ولم يكن ثم خطوة أخرى يخطونها بعد أكثر من الهدف الدعوي والتوعوي، والجهد في الإصلاح العام.

وأما التنظيمات القومية والبعثية والناصرية السرية فقد كانت تسعى إلى هدف واضح عند جميع أعضائها وهو الثورة، وقلب نظام الحكم، والاستيلاء على السلطة، وكان لبعضها محاولات متقدمة في ذلك باءت بالخيبة والفشل، وكفى الله شَرَّها وضُرَّها، ومع ذلك فلا يجد من كانوا منظَّمين فيها يوماً ما حرجاً أن يعترفوا بذلك، ويودعوه مُذكِّراتهم ورواياتهم، ولا غضاضة عليهم في ذلك.

أما من كان مع جماعة دعوية فلو اعترف أنه عَبَرها فترة من عمره ولو قصرت فكأنما كشف عورة لا تستر، وباء بذنب لا يغفر.

وعندما كتب الشيخ بكر أبو زيد كتابه عن تحريم الانتماء، أعطاني الكتاب وهو مخطوط قبل أن يطبعه وأبديت له تحفظي على بعض ما فيه، وأن الأمر يحتاج إلى تفصيل يراعي حال كل بلد، ونشاط كل جماعة، وطبعه الشيخ ولكنه لم يلح على هذا الأمر ولم يجعله هِجّيراه، بل تجاوزه بعد ذلك إلى ما سماه: قلب المواجهة، وهو التصدي لظاهرة وحدة الأديان، والمدارس الدولية، وتصنيف الناس، وحراسة الفضيلة ونحوها، أي مواجهة الخطر الخارجي العام، وكتب رسالته الشهيرة في الدفاع عن سيد قطب، والتي انتشرت كالغيث استدبرته الريح.

سجال السلفية

نشأتُ وتعلَّمتُ في بيئةٍ تتحرى الاتباع لدلائل الكتاب والسنة، وتحرص على نقاء التدين، وتنفر من الابتداع، وهي في مجمل شأنها على منهاج النبوة من غير أن تحمل ملصق السلفية.

رأيت في حال بعض من أدركتهم طلائع النشأة حال الرعيل الأول من سلف الأمة، ومن أعظم مشاهده حضورُ الآخرة في حياتهم، وعبادتهم الله كأنهم يرونه، مع نقاء تدينهم، وصفاء نفوسهم، ولقد رأيت خالي صالح بن عبد الله الرومي رحمه الله على حال من العبادة عجيب، فلما قرأت ترجمة حماد بن سلمة بن دينار رأيت فيها: لو قيل له: إنك تموت غداً ما استطاع أن يزيد في عبادته، فوجدت هذا الوصف منطبق تماماً على حال خالي رحمه الله.

وقرأت سيرة الزهري والليث بن سعد، فكأني أرى حال شيخنا عبد العزيز بن باز رحمه الله، فبين هؤلاء الثلاثة قواسم مشتركة، وهي اجتماع خصال الخير فيهم من العلم، والحلم، والكرم، وقضاء حاجات الناس، والصلة بالولاة ومناصحتهم، والنسك والتأله، ولذا كان لهم إمامة وجلالة ليست لغيرهم.

وسرت بعد في هذا الطريق والتزمت منه ما وافق قناعتي، ويقيني وما أدين الله به، وتجافيت عن بعض ما ذهب إليه من عشت فيهم أو تلقيت عنهم من التوسع في

التبديع، وتأصيل الهجر، وبعض تطبيقات الولاء والبراء، والتزام الظاهر في مسائل معينة هي محل تفقهٍ واجتهاد، والقطع في مسائلَ مع أن الخلاف فيها سابق وسائغ.

ثم فشت السلفية شعاراً لفئة واسماً لجماعة، فلم أنتسب للسلفية جماعة ولا لقباً، ورأيت أن المنتسبين إليها ليسوا جماعة واحدة ولكنهم طيف واسع فيه ألوان كثيرة، وفيه الغلاة كما في غيره.

وقد رأينا بعض من ادعى الانتساب للسلفية وقد ولغ في الدماء، وخرج على الحكومات بالتكفير كالجماعة السلفية المقاتلة في الجزائر، ومن خرج على الحكومات والشعوب باسم قتال أهل البدع، فاستباحوا قتل إخوانهم المسلمين في النزاع الأخير في بنغازي بليبيا بحجة أنهم خوارج كلابُ النار.

وعلمت أن السلفية ليست استبانة يملأها التابع فإذا اكتملت صار سلفيا، وإذا نقصت طُرد وصار من الثنتين والسبعين فرقة.

وأن السلفية ليس لها سدنةٌ ولا كهنةٌ يَمنحون جواز المرور إليها، وينتظر منهم السالك تزكيتهم له، أو اعترافهم به.

وأن السلفية منهج قد يوجد مطَّرداً عند البعض، ويوجد بقدر عند آخرين، فتجد من يتبع السلف في العبادات وهو على مذهب الخلف في توحيد الصفات، وتجد من هو على مثل حال السلف في الصفات وله اجتهاده الواسع في التوسل والتبرك ونحو ذلك.

ولذا تجد عالِماً عَلَماً كالشاطبي يستدلُّ به السلفيون فيما يتعلق بالبدعة مع أنه في الصفات كغيره من الأشاعرة وهكذا.

وعلمت أن ما عليه السلف الصالح من صلاح الحال وسلامة الاتباع لا يمكن أن يدعي أحد الإحاطة به فضلا عن امتلاكه والمزايدة عليه.

وبعد أزمة الخليج تحولت بعض الجماعات السلفية من محاربة البدع والشركيات

إلى محاربة الأحزاب والجماعات، ويا لله كم صرنا نمتحن بمثل: ما تقول في سيد قطب؟ وما تقول في حسن البنا؟ وأحياناً يختصر الطريق بمثل: هذا إخواني أو ذاك سروري؟ وهذه هي الدعوى الوحيدة في الدنيا التي لا تحتاج إلى إثبات ولا بينات.

وقد اتهم كثيرون مَنْ سَلكَ من السلفيين هذا المسلك بأنهم صنيعة الأجهزة الأمنية، وأعوذ بالله أن أبهت أحداً منهم بهذا، والذي أعتقده فيمن عرفت منهم أن هذه قناعة راسخة في نفوسهم، بل عرفت من أفاضلهم أهل زهد وعبادة وورع، كالشيخ مقبل الوادعي، والشيخ سعد الحصين رحمهما الله، وهما أورع من أن تُشترى مواقفهم، ولكن كان هذا ما يدينان الله به.

وكان من نتيجة ذلك إعادة تفعيل مسألة الهجر فكنت أرى طلبة صغاراً في الجامعة إذا بدأتهم بالسلام أعرضوا وتعبدوا لله بهجر أهل البدع، وهم نحن الذين كنا ندرس كتاب التوحيد وكشف الشبهات جثواً على الركب على مشايخنا قبل أن ينكح آباؤُهم أمهاتِهم.

وصليت مرة الفجر في أحد المساجد اتفاقا، ومن عادتي إذا صليت قريبا من الإمام أن أقوم وأسلم عليه، وغالبا ما أثني على قراءته إن كانت تحتمل ذلك، فقمت إلى الإمام مسلما فأشاح عني، فقصدته ماداً يدي فوضع يديه في إبطيه وهو يقول: لن أسلم عليك، وأحسبه غفر الله له يرى هذا دينا يدين الله به، وخرجت وأنا أرثي لحاله أن يتعبد الله بسوء الخلق، وأتساءل: أليست هذه بدعة في الدين قبيحة؟!

وشهدنا بدايات تفشي الوقوع في أعراض الدعاة وطلبة العلم باسم السلفية، والاستطالة بتجريحهم بحجة أن هذا هو علم الجرح والتعديل، ومنهج السلف في التحذير من أهل البدع، وانتشر الامتحان بمثل: ما تقول فيمن يقول؟ ونحو ذلك، وذهبت أعمار أناس وهذه قضيتهم التي يحطبون في حبلها، ففنيت أعمارهم، وضلت أعمالهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

وكان مما أدركتُ غلواءه عبارة: «الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح»، والتي حبكها الشيخ الألباني رحمه الله، وأحسبه يقصد بها المعنى العام الذي يذكره ابن تيمية وابن رجب في رسالته «فضل علم السلف» وغيرهم، ومعلوم أن رأي أبي بكر وعمر ﵄ خير لنا من رأينا، وأن اجتهاد مالك والشافعي رحمهما الله أوثق من اجتهادنا، وأن حال السلف محل اتفاق وقبول، وكل يدعي وصلاً بليلى. ولكن العبارة صارت كلمة مجملة غامضة، ولافتة يرفعها بعض المؤطرين للسلفية، حتى يكون لمنهجهم ما يميزه.

وكنت أستغرب هذه العبارة وأناقش فيها من يُرددها؛ لأن الذي أعتقده أن فهم السلف الصالح ليس طلسما لا يستطيع أحد معرفته إلا مدعوه المتسمُّون به، وليس سرّاً مهموساً لبعض الخاصة.

ولذا فلا بد أن تفكك هذه العبارة وتنقل من غموض الإجمال إلى وضوح التفصيل في قواعد واضحة منضبطة ومطردة، وذلك أن فهم السلف هو ما كتبه العلماء الراسخون جيلاً إثر جيل.

فطريقة السلف في تلقي الأخبار هي ما كتبه الحاكم في «معرفة علوم الحديث»، والرامهرمزي في «المحدث الفاصل» ومن جاء بعدهم.

وطريقتهم في تلقي القرآن وتفسيره هي ما ذكره ابن جرير الطبري في مقدمة تفسيره وما بعده، ومن تبعه.

وطريقتهم في رواية السنة هي ما كتبه مالك في موطئه، والبخاري في صحيحه، وغيرهم من حملة السنة ورواتها.

وطريقتهم في فهم النصوص والتفقه فيها هي ما كتبه الشافعي في «الرسالة» ثم من جاء بعده، ويمكن تلخيص ذلك مجملاً في الضوابط التالية:

١- تلقي النصوص الثابتة وفق قواعد اللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن، وتكلم به الرسول ﷺ، وفهمه عنه الصحابة ﵃، فإذا أتانا أحد بمعنى يخالف لغة العرب رددناه عليه، وعلمنا أن هذا ليس مراد الشارع.

٢- جمع النصوص وفهمها بضم بعضها إلى بعض، وعدم تسليط بعضها على بعض، فإذا قال النبي ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»، نظرنا هل لم يرد في المسألة إلا هذا النص فقط، حتى نقول: إن من زنى فقد خرج من الإيمان بالكلية، أم ورد في المسألة غيره، فنجد أن النبي ﷺ يقول: «**مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ**» فعلمنا حينئذٍ أن المنفي ليس أصل الإيمان وإنما كماله.. وهكذا.

وأكثر جنوح الطوائف والفرق إنما كان بإعمال نصوص معينة وتسليطها على باقي الأدلة، ولو أعملت النصوص جميعاً ائتلفت وما اختلفت.

٣- فهم النص ضمن مقاصد الشريعة ومساراتها العامة، ولذا ذهب طائفة من العلماء إلى أن أحاديث الآداب تحمل على الاستحباب، ومناهيها تحمل على الكراهة.

وهو فقه الصحابة في تلقي النصوص، فإن النبي ﷺ لما قال لهم: «**إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوس فِي الطُّرُقَاتِ**»، قالوا: ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها، مع أنهم أعظم الخلق تعظيماً لأمر رسول الله ﷺ، لكنهم فهموا بفقاهتم أن هذا النهي مراد لغيره وليس لذاته، فأرادوا معرفة ما يتوقونه، فقال لهم النبي ﷺ: «**فَأَمَّا إِذْ أَبَيْتُمْ إِلَّا المَجْلِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ**».

وعندما نهاهم عن الوصال في الصيام واصلوا؛ لأنهم فهموا أنه نهي إشفاق لا نهي تحريم.

ولذا أعمل أهل الرسوخ في العلم المقاصد وحكَّموها في النصوص الجزئية كما عمل الفاروق عمر في قضاياه المشهورة، وابن تيمية في فتاواه التي خالف فيها غيره، ومحل ذلك كتب الأصول والمقاصد فليس في علوم الشريعة «العلم المضنون به على غير أهله».

فهذه ضوابط تلقي النصوص وفهمها مجملة، وتفاصيلها في كتب الراسخين من العلماء، وفي تطبيقها مساحة اجتهاد يختلف اجتهادهم فيها باختلاف نظرهم.

وأما ما جرى عليه بعض الإخوة من جعل هذه العبارة لافتة عامة، ثم تطبيقها بشكل انتقائي على مسائل معينة يختارونها، وأن رأيهم فيها هو فهم السلف، ويصبح عليها بعد ذلك ولاء وبراء وامتحان، فنتج عنه بعد ذلك التشقق في الجماعات المنتسبة للسلفية، والاحتراب بينها حتى صارت السلفية سلفيات، وفَصَّل كل منهم السلفية على مقاسه، وانكمشت مساحة السلامة والاتباع حتى لا تتسع إلا لمواطئ أقدامهم، ولا أعلم لذلك سبباً إلا اختلاط الآراء بالأهواء ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

ولذا فالذي أحرص عليه هو اتباع الرعيل الأول وهم الصحابة رضي الله عنهم والراسخون في العلم بعدهم في تعظيم النصوص وتلقيها بتوقير وانقياد، وأن أخلع عند عتبة النص قناعاتي وآرائي المسبقة سائلا الله أن يجعل هواي تبعا لما جاء به، وأنقاد لما دل عليه بتعظيم وخضوع لما أعتقد أنه مراد الشارع فيما ورد عنه، ولا يكون في قلبي عظيم أُعظِّمه أعظم من رسول ﷺ إلا الذي أرسله.

فلست سمسارا لمذهب من المذاهب، ولا مُسوقاً لمنهج من المناهج، ولا مريدا لشيخ من المشايخ، ولكني مجتهد في اتباع دين محمد ﷺ والدعوة إليه، منقاد لما أعتقد أنه مراد الله فيما أنزل، ومراد رسوله فيما بلَّغ، ومستضيء في ذلك بعلم الراسخين من علماء السلف والخلف، فما زال منهم في كل عصر قائمٌ لله بحجة، وقبل ذلك وبعده سؤال الله أن يهدينها فيمن هدى من عباده، «**اللهم اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**».

المشهد السياسي

وعيت الأخبار والأحوال العالمية، والملك فيصل هو ملك المملكة العربية السعودية، وعبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة، ونيكسون رئيس أمريكا، وبرجنيف سكرتير الحزب الشيوعي السوفيتي، ويوثانت سكرتير الأمم المتحدة، وعبد الخالق حسونة أمين عام جامعة الدول العربية، وكل هؤلاء ذهبوا وذهب من جاء بعدهم، وخلفت من بعدهم خلوف، وأما الذي لم يتغير عليَّ منذ ذلك الزمن وإلى يوم الناس هذا فهو أن ملكة بريطانيا هي إليزابيث الثانية، فلا يعرف عمري لبريطانيا ملكا ولا ملكة قبلها ولا بعدها، ولكل أجل كتاب.

وكان جيلنا هو الجيل الذي جاء بعد الحرب العالمية الثانية، وإنشاء الأمم المتحدة، وترسيم الحدود واستقرار الأوضاع الدولية.

وكانت بؤر الصراع والحروب محدودة ومن أشهرها في وقتنا الحرب الفيتنامية والتي كانت أخبارها تتتابع في نشرات الأخبار، والحرب الهندية الباكستانية التي انفصلت فيها باكستان الشرقية وصارت بنجلادش.

والحرب الكمبودية وزعماؤها الأمير نوردوم سيهانوك، والخمير الحمر وزعيمهم بول بوت ومجازرها المليونية، والثورات في فنزويلا، ومقتل أو انتحار سلفادور

ألندي، والحرب الباردة بين حلف الأطلسي وحلف وارسو، ونحو هذه الأخبار التي كنا نعيشها أحداثا وصارت اليوم تاريخا.

ومن أكثر ما يلفت نظري في المشهد السياسي أن الدول الجمهورية الثورية التي تدعي أنها قامت على الانتخاب والترشيح الرئاسي، وكانت الدول الملكية محل السخرية والازدراء لدى مثقفي هذه الدول الثورية، وبخاصة اليساريون منهم، والذين لا يصفونها إلا بالرجعية، وما كنا ندري أن أعمارنا ستدرك أعتى الدول الثورية الشيوعية وقد تحولت إلى جمهوريات ملكية وراثية، يرث فيها الابن أباه، والحفيد جده، ففي جمهورية البعث العربي الاشتراكي يرث بشار أباه حافظاً، وفي العراق كان صدام يؤهل ابنه عدي لخلافته، وفي ليبيا كان القذافي يؤهل ابنه سيفا ليرثه.

وهذا ما حدث في الدول الشيوعية الحمراء التي قامت لمحاربة الملكية الفردية فضلا عن الملكية الوراثية، فتحولت إلى جمهوريات إقطاعية وراثية فرأينا كاسترو الشيوعي الأحمر عندما أُنهِكَ من سنوات الحكم الخمسين أهدى الدولة كلها لأخيه راؤول وكأنها إحدى مقتنياته الشخصية، وكوريا الشمالية الشيوعية الحمراء صارت جمهورية ملكية يُورِّثها الجد للابن ثم للحفيد.

وكما أدركنا بعض النخب الثقافية وهي تزدري الدول النفطية وكأن النفط كان سبةً وعاراً.

والعالـــم العربي يخـــزن نفطه في خصيتيـــه وربـــك الوهاب

ثم لما قفزت أسعار النفط، وتضاعفت ثروات الدول الخليجية، وسقط الاتحاد السوفيتي رأينا هؤلاء يلعقون الموائد، ويتسقَّطون الهبات من الدول النفطية، والذين ذهبت أعمارهم في مشاتمة أمريكا وتوزيع أوصاف العمالة للإمبريالية على الدول الخليجية رأيناهم وقد تقرَّحت ألسنتهم من لعق الحذاء الأمريكي، ونعل من كانوا يسمونهم يوماً عملاء أمريكا الإمبرياليين.

يوما يمـــانٍ إذا لاقيـــت ذا يمن وإن لقيـــت معديـــا فعدنانـــي

وكانت أعظم الاهتزازات التي وعيناها وتفاعلنا معها وما زالت لها تداعياتها وارتداداتها، الثورة الإيرانية وما تناسل منها من حروب وكوارث، وانهيار الاتحاد السوفيتي والذي كان يتداعى من داخله حتى انهار فجأة، وألقيت حينها محاضرة بعنوان: موسكو تحطم أصنامها، ذكرت فيها الخسائر الهائلة من الدماء والحريات لتطبيق هذه الأيدلوجيا الحمراء، ثم بعد هذا كله يقال: آسفون كانت تجربة خاطئة، وكأن الشعوب فئران تجارب أو أهون من ذلك، وزرت الساحة الحمراء في موسكو فإذا أمام قبر لينين مجمع تجاري ضخم فيه البضائع المستوردة من الدول الإمبريالية، والتي لا يمكن أن يشتريها إلا أمراء المال ومليونيرات الثروات.

ثم أفقنا على حماقة غزو صدام حسين للكويت، وما جرَّت بعد على المنطقة من نكبات وكوارث ما زال بعضها يجر بعضا، وما أسرع أن غفرت له الشعوب المتعطشة للبطولة جرائمه وجناياته، ونَصَّبته بطلا لموقفه يوم إعدامه، فهل يا ترى تصاب ذاكرة الشعوب بالخرف أيضا؟

ورأيت تطلعات الشعوب العربية وتلهفها للبطولة، وسهولة اجتذاب عواطفها وانفعالاتها، فقد انجفلت الجماهير خلف عبد الناصر، واستهواها خطاب المواجهة، مع أنه كان يهدد إسرائيل، ويحارب في اليمن، والحصيلة كارثة ماحقة سميت تلطيفا بالنكسة.

ثم جاء صدام حسين ودغدغ هذه العاطفة، فتعلقت به الآمال لما استعرض بالمزدوج والكيماوي، وتوعد إسرائيل ولكنه غزا الكويت وعاد على المنطقة كلِّها بكوارث ما زالت تتابع تداعياتها.

ولا يزال حسن نصر الله يستثمر في المشروع ذاته وبالشعارات ذاتها، ويهدد إسرائيل ويقاتل في سورية والعراق واليمن.

وما زالت الشعوب تنتظر الزعيم الأوحد، والمخلص المنقذ، وتردد عند كل أزمة:

ألا يا صلاح الدين هل لك عودة؟

رب وا معتصماه انطلقت.

لأن هذا الانتظار يريح الإنسان من القيام بدوره، وتحمل مسؤوليته، فيرتفع التكليف وتسقط التكاليف إلى أن يُبعث الزعيم المنتظر.

وقد علمتنا السياسة أنها مثل جبل الثلج، الظاهر منه أقل من ثلثه وبقيته غامض مغمور.

وأن الذين يدَّعون معرفة ما خفي منها إنما يتلهون بعقول ضعاف العقول، كما قال الشيخ الطنطاوي رحمه الله لمن قال له: إن اجتماعا سريا عقد بين زعماء أمريكا والاتحاد السوفيتي، وجرى فيه كيت وكيت، وقرروا فيه كذا وكذا، فقال له: هل أتيت تستخف بشيبتي هذه الليلة؟ إذا كان اجتماعا سريا فكيف عرفت ما فيه؟

ورأيت أن السياسة كالقَدَر أعلم الناس بها هم أجهلهم بها وأكفهم عنها، ولا زلت أتذكر كلام محمد حسنين هيكل وهو يؤكد بجميع المؤكدات اللفظية والمعنوية أن أوباما لن يفوز في انتخابات الرئاسة الأمريكية، ففاز أوباما بفترتين رئاسيتين متواليتين.

وقبله أكد محمد جلال كشك بعد غزو العراق الكويت أن الكويت صارت تاريخا، ولن تقع حرب ولاهم يحزنون، ثم وقعت بعد ذلك حرب لا يزال يتطاير شررها، وألف بعدها كتابه: «الجنازة حارة».

فإذا كان هذا محصول من ذهبت أعمارهم في متابعة الشأن السياسي وتحليله فكيف بمن يناقشك بثقة وحصيلته السياسية استماع نشرة الأخبار كل تسعة أيام، أو

إذا كان فيها تغطية لحدث رياضي، فليتحدث كيف شاء ولكن من غير إلزام الآخرين بالاستماع إليه فضلا عن الاقتناع بآرائه.

والسياسية ليست طلسماً ولا سحراً، ولكنها أسرار محجوبة لا تخرج للعلن إلا بعد أن تفقد صلاحيتها فلا تكون أسرارا، ولا يعلمها إلا من يعملون في مصنع القرار السياسي، وهؤلاء يعلمون ولا يتكلمون، وغيرهم يتكلمون وهم لا يعلمون، واخترت أن أكون من الذين لا يتكلمون بما لا يعلمون.

ولقد عشت مع أناس كانوا يتحدثون في الشأن السياسي بحماس شديد وانفعال ثائر تظن حين تسمعهم أنك تستمع إلى تشي جيفارا أو مارتن لوثر كنغ، ثم رأيتهم وقد هرموا وشاخوا وصار حديثهم عن زواج المسيار، ومزايين الإبل، ويا ألله حسن الخاتمة.

إن السياسة علمٌ له أصوله وفنونه وتأثيره، وله أهله المؤثرون فيه، وهو يؤثِّر في كلِّ أحدٍ ولا يؤثر فيه كلُّ أحد، وحيث إنه لم يكن من منطقة تأثيري فلم أضيع فيه وقتي وطاقتي وعاطفتي.

وعلمت أن الله في غيبه أقداراً فوق علم البشر وتقديرهم وتدبيرهم، وليس كل ما يقع هو ما كان متوقعا، فسقوط الاتحاد السوفيتي الفجائي، والثورة الإيرانية، وغزو العراق للكويت، وأحداث الحادي عشر من سبتمبر، وغيرها أحداثٌ ما كانت مخططة ولا متوقعة، ومع ذلك سيفاجئك من يقول: إن كل ما كان وما سيكون مخطط له سلفا، وأنه مؤامرة يتم تنفيذها، وأن الخطة موجودة في ملف أخضر علَّاقي في الدرج الأسفل من الخزانة التي على يمينك إذا دخلت المكتب الرئاسي في البيت الأبيض.

الحالة العلمية

تكاد حالتي العلمية أن تكون منذ بدايتها وإلى اليوم مستقرة على مسارها الأول وهو التوجه إلى العلم الشرعي، ثم العناية بعلم الحديث، ثم العناية بالسيرة بخاصة، ولكن إذا نظرت للحالة العلمية حولي فيمكن أن أصف السائد منها في كل مرحلة.

ففي المرحلة الأولى من الصحوة كان الرواج لكتب الفكر الإسلامي إن صحت هذه التسمية، وبعضهم يسميها كتب الثقافة الإسلامية، ويقصد بها كتب الدعاة المعاصرين التي تعنى برد الشبه حول الإسلام، وتأكيد صلاحيته لكل عصر، وشموليته لقضايا الحياة ونحو ذلك.

ككتب المودودي والغزالي وسيد قطب ومحمد قطب وبعض كتب أبي الحسن الندوي، ومالك بن نبي ونحوها.

ولم تكن الكتب العلمية المتخصصة للعلماء الراسخين سلفا وخلفا هي المتداولة حينها إلا في البيئات العلمية الضيقة.

أما المحاضن التربوية فلم تكن تعنى بذلك، وربما كان السبب في ذلك أن الإنسان يضع يده على مكان ألمه، فكانت هذه الطروحات تعالج حالة الإعراض عن الدين، والرد على المتجرئين عليه حين كانت ظاهرة التدين توصف بالرجعية والتخلف، بل وجدت في تلك المرحلة ظاهرة التجاهر بالإلحاد فكتب إسماعيل أدهم: «لماذا أنا

ملحد؟» وكتب عبد الله القصيمي كتبه: «هذي هي الأغلال»، وما بعدها، ونشرت مجلة الجيش السوري مقالة جاء فيها: إن الله والدين ستكون تحفا في متحف التاريخ.

وحدثني الأستاذ محمد قطب عن تلك الفترة في مصر وكيف أن الجرأة على الدين انتقلت إلى بيوت المشايخ فكان بعض المتمردين هم أبناء المشايخ، وأنه دخل في حوار مع بعضهم فلما استمروا في الحوار وفوجئوا بمنطقه وثقافته قالوا له: أنت خُسارة في الإسلام، يعني أن ثقافتك ليس محلها حالتك الدينية.

فكانت المواجهة لهذا الإضلال بهذه الكتابات ونحوها، وهو عمل صحيح وجهد مبارك، وحقق أهدافه وآتى أكله، ولكن الخطأ كان في تطبيق بعضهم لهذه المنهجية بازدراء التوجه العلمي، وتسمية كتب العلم وحلق التعليم بدروس الحيض والنفاس، وتقسيم الدين إلى قشر ولباب ليكون ما هو محل عنايتهم هو اللباب وما يعنى به غيرهم هو القشور، وكنا نسمع من يقول: أنتم تتكلمون في هذه الأحكام والشباب ألحدوا وتزندقوا، أنتم كمن يداوي الجرح والرأس مقطوع، ونحو ذلك وكان الأولى أن يسير الجهد متوازيا، ويتوجه كل إلى حيث قناعته وموهبته، وكنت ممن سار في هذا الاتجاه وكان سار فيه قبلي جمع من لداتي اختاروا هذا التوجه وسلكوه فكانوا رأس القاطرة بالنسبة لنا، ومنهم الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم القاسم، والشيخ سعد الحميد، والشيخ عبد الله الدويش رحمه الله وغيرهم، ولذا لما دخلت في جمعية التوعية الإسلامية كان السائد بين شبابها هو التوجه الفكري الثقافي، وكنت بالتوجه العلمي نشازا بينهم فلم نأتلف وسار كل في طريق هو الأنسب له وفي كلٍ خير.

ثم سرعان ما فشا بعد ذلك التوجه إلى العلم الشرعي وكان في مجمله توجها حديثيا حيث انتشر التصحيح والتضعيف، والسؤال عن درجة الأحاديث صحة وضَعفا، وممن ينبغي أن يذكر أثره في ذلك الشيخ الألباني رحمه الله فقد أعلى راية النقد الحديثي وسهله وجعله ثقافة شعبية، ولذا صار العامة وطلبة العلم المبتدئون يتكلمون في

الأحاديث بطريقة ينقصها أحيانا العمق والتأصيل، وصارت كتب الشيخ الألباني تطير في أيدي الشباب كأنها شيكات، وأثَّر ذلك في الجو العام فصار الكُتَّاب والمتحدثون يراعون ذلك، ويحرصون على معرفة صحة الحديث وضعفه قبل الاستشهاد به.

وكان لهذ التوجه سلبيات مصاحبة في التطبيق من أهمها الإغراق في الجزئيات، وتحويل المسائل الفرعية إلى مسائل أصلية يكثر فيها الجدل والأخذ والرد، وفشو مدرسة اتِّباع الدليل والتي كانت تظهر الازدراء بالفقه المذهبي، وهي في الغالب تسير على نهج مذهبي آخر وهو المذهب الظاهري، وتسوقه بدعوى نبذ التقليد واتباع الدليل، وإنما هو اتباع لمنهج معين في فهم الدليل وطريقة التدليل، وهذا الفقه ربما أسعف في مسائل العبادات ولكنه لا يسير قدما إلى مسائل المعاملات والأقضية وغيرها من أبواب الفقه التي يحتاج الترجيح فيها إلى فقاهة وأصول وتأصيل، ولذا فأكثر ما يكون الجدل بينهم في مسائل معينة من مسائل الطهارة والصلاة ثم لا تتجاوز ذلك.

ومن سلبياتها أنها أخذت مع علم الألباني طبيعته النفسية في حدة الردود والشدة مع المخالفين، وهذا إن كان مغموراً في فضائل الشيخ فإنه لا يليق بشباب مبتدئ لم يقرأ من العلم إلا كتابين لم يكمل الثاني منهما[١]، وقد عالج الشيخ بكر هذه الظاهرة بشدة مضادة في كتابه «التعالم».

ومما انتشر في هذه الفترة وشغلنا وأربكنا ما يمكن أن نسميه الهيشات العلمية، حيث تأخذ مسألةٌ من مسائل العلم حجماً أكبر من حجمها الطبيعي، وتنتقل من حوار المتخصصين إلى أن تكون سجالا عاماً، وامتحانا للآراء فيها، ومن ذلك مسألة التكفير بالحكم بغير ما أنزل الله، والعذر بالجهل، وحجاب وجه المرأة، وحكم التمثيل

(١) من تعبيرات الأستاذ الهدلق.

والأناشيد، وهل وسائل الدعوة توقيفية؟ وهل الفرقة الناجية هي الطائفة المنصورة، أم بينهما عموم وخصوص؟ ونحو ذلك.

ثم إذا تجاوزها الوقت خمدت وعادت إلى حجمها ومكانها الطبيعي بحثا للمتخصصين فيها، وهذا يذكرنا برسالة الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله بشأن يأجوج ومأجوج، والتي صُعِّدت في وقتها حتى استدعى للرياض لمقابلة الملك عبد العزيز والذي احتوى الموقف وأظهر من إكرام الشيخ ما يليق به، مع توجيهه له بعدم طرح هذه المسألة.

ثم طبع الكتاب في زماننا، ودخلت المكتبة ورأيته مستريحاً على رفوفها وكأنه في إغفاءة فما أَبِهَ به أحد، ولا أثار جدلاً ولا لفت نظراً، ولذا كان مما أخذت نفسي به عدم الدخول في هذه المسائل حينما تكون هيشاتٍ وامتحاناً.

ثم تكاملت المسيرة العلمية وصارت أكثر رشدا ونضجا، وصار الجيل الجديد يملك ذخيرة من التجارب الراشدة تجاوز فيها التذبذبات السابقة، ولقد لحظت ذلك في مرحلة التدريس الجامعي فكان في الطلاب الذين على مقاعد الطلب من هم في نضج المدرسين وقد يفوقونهم، وصار التحصيل العلمي أكثر تأصيلا وتكاملاً.

واليوم أرى التوجه إلى الدراسات العقدية والمقاصدية في المقدمة اهتماما واعتناء.

وصارت الدراسات المطروحة أكثر جدة وجدية، وارتفع مستوى المتلقي فصار أكثر انتقاء وتمييزاً.

وتراجع كثير من الجدل المستعر في قضايا معينة في الماضي إلى موقعه الطبيعي، فاختفت كتب التخريج المركومة بأرقام المجلدات والصفحات، والمحشوة بكثير من التشقيقات التي ليست من متين العلم ولكنها من باب: ألهاكم التكاثر، وقلَّت كتب الردود والمماحكات، وذهبت كتب امتحان العباد في مسائل الاعتقاد، مثل مسألة

جنس العمل، والعذر بالجهل، وسجال الحاكمية، وغيرها وأخذت هذه المسائل وغيرها حجمها ومكانها الطبيعي لتكون محل بحث لدى المتخصصين في سياقها ومكانها الطبيعي.

وظهرت العناية بفقه الحياة كفقه الأولويات، والموازنات، والمصالح والمفاسد، وأحوال الأقليات، وغير ذلك.

واتسع الأفق العلمي فما عاد المتخصص في العلم الشرعي عاميا فيما سواه، بل له مشاركة فيما هو من شأن الثقافة العامة، ومشهور العلم الذي لا يحسن جهله.

وهو تطور معرفي فاتنا أن ندركه، وسعد به الجيل الجديد فهنيئا لهم وقُرَّة عين.

رمضاننا

«رمضان الذي فقدته»، كتب الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تحت هذا العنوان مقالة ذات شجون وشجى، يتذكر فيها رمضان الذي رأته عينا طفولته، يَطْلُع على الناس فيرون هلاله في الأفق ونوره في القلوب، وأثره في النفوس وفي البيوت وفي الأسواق والمساجد، ثم تغير رمضان بعدُ في ناظريه بعد أن تقدم به العمر وتغير الحال، فلم يعد يرى رمضان الذي رآه، فقال: كان رمضان الذي يجيئنا ونحن أطفال رمضاناً حقيقيّاً، ثم اختفى فلم يعد له وجود إلا في مفكرة التقويم، أين ذلك الرمضان؟ أين هو؟ دلوني عليه لعلي أجد فيه ماضي الذي فقدته، وأُنسى الذي أضعته.

ثم تدفق قلم الشيخ في مقالة باكية يشكو فيها بثه وحزنه، وينثر أساه ولوعته، ويقارن ماضيه بحاضره، وينعي رمضان الذي عرفه ثم فقده، وكانت مقالة مؤثرة جعلتني أطوف في ذكريات العمر وأسترجع قوافل رمضان الذي أدركه وعي صباي وبدوات شبابي، ماذا سأقول لو أردت أن أحكي كما حكى الشيخ وأروي كما روى؟

تذكرت فطافت بي ذكريات وازدحمت مشاهد، وثارت في النفس شجون، أين رمضان ذاك الذي أدركته؟

وأين منه رمضان هذا الذي أعيشه؟

أدركت رمضان في بدوات العمر ووعيته في حارة متواضعة بين البيوت الطينية، والأزقة الضيقة المتربة، والحياة المتخففة من كثير من رفاهية الحياة، وتدافعت أطياف المشاهد أمام ناظري فأثارت لواعج الحنين إلى ذاك الزمن، وتلك الشخوص، وذاك الإيقاع الهادي للحياة.

ولكني أصدق نفسي وأصدقكم فلن أُلوّن الماضي وأزوقه، ولن أرسم الذكريات بريشة رسام يصبغها بمشاعره لتكون الأجمل الذي لن يعود.

أتذكر رمضان الذي عرفته فإذا قارنته برمضان الذي أعيشه فلن ألتاع كما التاع الشيخ الطنطاوي، ولن أنتحب كما انتحب، أدركت رمضان فتى فلم أجده بين لداتي بإشراقه وروحانيته، كنت أغشى المساجد وأتبع أثر أبي إليها، فلم تكن روح رمضان موجودة إلا في الأشياخ العُبَّاد الزُّهّاد الذاكرين المتهجدين، أما الشباب في سني حينها فلا تجدهم في الصفوف الأول فضلاً عن المحاريب، ولكن تجدهم في المساجد إن وجدتهم في أطراف الصفوف المتأخرة ينفلتون منها بعد أن يقضوا صلاة سريعة.

إن تَلَفَتَّ في المساجد قبل الصلاة وبعدها فإن الذين يسندون سواريها هم بقايا الأشياخ، أما لداتي من الفتية والشباب فقد تفرقُوا هنا وهناك، مما لست أدريه أو لست أحكيه.

كان رمضان في حياة أترابي شهراً تتغير فيه مواعيد المباريات وتتسع أوقات اللهو.

أما روح رمضان وروحانيته فلا نجد لها ذواقاً، فلا أذكر في حيِّنا مسجداً يؤمه شاب، ولا تسمع القرآن من حافظ إلا قلة من الأشياخ لهم ترنم بالقرآن غير مجود.

لا أتذكر في رمضاناتنا دروساً ولا مواعظ ولا رقائق إلا الترنم بكتاب «عقود اللؤلؤ والمرجان»، يقرأه الإمام قراءة ملحنة ليس لها أثر ولا تأثير.

إذا تذكرت رمضان في بدوات أعمارنا فلن أزعم أنه رمضان التهجد والتلاوة والذكر والروحانية، لا والله فما كان ذلك مما يتذوقه الشباب في عمري وإن كانوا يرونه في حال الآباء والأشياخ.

كانت صلاة العشاء تقام صفوفاً ثم ينفض أكثرها بعد السلام، ثم تقام التراويح بمن بقي فيتناقصون بعد كل سلام حتى لا يبقى إلا من هم خلف الإمام.

كنا في غمرات الشباب نقطع رمضان فلا نعيش روحه وروحانيته ولا نلتذ بلذاذته.

ولم يبق في ذكرياتنا منه ما يستثير الحنين إليه، أدرك شبابُنا رمضان منطفئاً عبرناه في غفلة العمر ولهو الشباب، فلم نعش فيه روحه ولا حياته، ولا نذكر من مراسمه ورسومه إلا تلك الأكلات القليلة التي لا تُعمل لنا إلا في رمضان فقط لا غير، فكأنها من شعاره وشعائره.

ثم رحلت بنا السنون، فأدركنا في عقود العمر الأخيرة رمضان آخر، رأيناه في صفوف المساجد المتراصة، وفي وجوه الشباب النضرة تزدحم على الصفوف الأُول، وتملأ جنبات المساجد، رأيناه في المحاريب يقف فيها الشباب الحفظة المجودون يترنمون بالقرآن غضّاً كما أُنزل.

أدركنا اليوم رمضان تقام فيه صلاة العشاء وتنتهي آخر التراويح والجمع هو الجمع أو يزيد في حشود لا تُمايزُ المظاهرُ فيها صدقَ التدين، فالكل يذوب في سبح إيماني، وتألق روحي، ربما صليت وإلى جانبك شاب مرسل الشعر بملابس الشباب الحديثة، فإذا استغرق في صلاته غلبك ما تشعر به من حاله، مخافةٌ في الدعاء، ورقةٌ في الخشوع، وصدقٌ في الإقبال على الله، فلا تتمنى إلا أن يدعو لك في دعائه لأنك لا تظن إلا أن أبواب السماء فتحت لدعواته الضارعة، وأن ربه قد عجب له.

أدركنا اليوم رمضان ونحن نرى المصاحف ترفعها الأيدي الشابة المتوضئة بقراءة عذبة متقنة، ورأينا سنة الاعتكاف وقد أحييت وفشت، وأدركنا رمضان اليوم في

شبابنا الذين تمتد سواعدهم الرحبة في الأعمال التطوعية من زيارة الأربطة، وتوزيع الأطعمة، ومواساة العمالة المغتربة، وإحصاء الأسر الفقيرة، وتنافسٍ في مشاريع البر وأعمال الخير.

أدركنا رمضان بشبابنا الذين عرفوا لرمضان قدره وحقه، فأهاتفهم من قلبي المحب لهم وأقول: اهنئوا برمضان فما هو برمضان الذي كنت أعرف، أنتم جعلتموه أكثر إشراقاً وبهاء، وعمرتموه فعادت لروحانيته الروح، وعاد رمضان شهراً للقرآن وللقيام والتهجد والخشوع، وعبرات الخشية تذرف على وجوه غضة نظرة.

أما إن تذكرت ما أشتاق إليه من رمضان الذي أدركته فهو ما كنت أراه من حال الأشياخ الذين أدركناهم وكانوا أنضاء عبادة، يتحاملون على أجساد هزلى واهنة بتعبد يتذوقون لذاذاته، أتذكر وجوههم وقد ذوت في أصائل النهار وبدا عليها لغوب الصيام قبل أن تزور وسائل التكييف والترفيه بيوتنا.

أتذكر بحنين وشوق يوم كنا نسير في الأزقة في نهار رمضان فيسرب إلى مسامعنا من خلل أبواب البيوت الضيقة صوت يترنم بالقرآن من تلك البيوت العامرة بالذكر.

تلك هي المشاهد المضيئة التي تومض في ماضي الذكريات، أما ما نعيشه اليوم في رمضان فأنوار غامرة، وروح وحياة، وحضور لمعاني رمضان وحقيقته.

فيا أيها الشباب اهنئوا برمضان، واحمدوا الله على ما فُتح به عليكم، ولا يزهدنكم في رمضان اليوم حديث الكهول عندما يتباكون على رمضان الأمس فإنما ينعون شبابهم وليس رمضانهم.

فإذا تحدثت عن رمضان اليوم فسأقول: رمضان الذي وجدته.

حجنا

كنا نعرف الحجاج بعد مجيئهم من الحج ونميزهم عن غيرهم بالسمرة التي كانت تعلو وجوههم ويبقى أثرها مدة طويلة، وذلك للإجهاد الذي كانوا يعانونه، ولفح الشمس الذي يتلقونه، والحرارة التي كانوا يصطلونها في غياب وسائل التهوية والتبريد إلا مراوح يدوية يلوحون بها على وجوههم، ولذا يبقى أثر وعثاء السفر على الوجوه المجهودة أمدا حتى تسترد نضارتها.

ورأيت رحلة الحج الأولى التي وعيتها حين حج أبي بجدتي وأنا في السنة الرابعة الابتدائية، فأذكر التحفز والاستعداد لذلك قبله بأيام، وذهبت مع أبي بأمتعتهم للسيارة التي سيسافرون عليها، فإذا هي سيارة نقل كبيرة من تلك التي تنقل فيها البضائع والأغنام والأخشاب، وقد قسمت لطابقين، الطابق الأسفل للنساء يجلسن فيه والسقف فوق رؤوسهن، والرجال والأمتعة في الطابق الأعلى المكشوف.

وكانت الرحلة إلى الحج على هذه السيارات تأخذ يومين أو ثلاثة فلا الطرق معبدة ولا السيارات سريعة.

فإذا وصل الناس إلى هناك مجهودين منهكين، بدأت رحلة عناء أخرى في تحصيل مكان للخيام، وفي جلب الماء للمخيم، وفي التنقل فلا تسل عن معاناتهم

في الحر اللاهب إذا وافق الحجُّ فصل الصيف، والصيف في مكة ثلاثة عشر شهرا في السنة أو يزيد.

فكان الحج جهادا وغاية لا توصل إلا بشق الأنفس، فإذا عاد الحجاج من حجهم فكل ما تسمعه منهم عن الخصومات والحوادث والزحام، فيتحدث الحجاج عن حجهم كأنهم عادوا من معركة، يذكرون الإصابات والحوادث والمشاجرات والانتصارات، وماذا قيل لنا وماذا قلنا، وماذا جرى لنا وماذا جرى علينا، وكنت أسمع ذلك بخيال الطفل وتصوره فلا أتصور الحج إلا معركة وشدة وزحاما ومهلكة.

وقد تمادى بي العمر فلم أحج في بدوات الشباب، وإنما تأخرت إلى أن بلغت العشرين من العمر وذلك عام (١٤٠٠هـ) مع أن كثيراً من أترابي حجوا مع أهليهم أو رفقتهم قبل ذلك.

أتذكر أول حجة حججتها، أتذكر كل تفاصيلها: الدهشة الأولى، والاحتشاد الأول للمشاعر، والذي يظل حاضراً ويقظا في الوجدان لا يخبو.

لم تكن حملات الحج الداخلية قد تنظمت حينها، وإنما كان الناس يحجون رفقة يأتون بخيامهم وحاجاتهم، أما أنا فحججت وحدي بلا رفقة، وهذا ساعدني على الاستغراق فيما أنا فيه، والانجماع لما قصدت إليه، ولم يتفرق همي بالحديث مع رفيق أو انتظاره أو البحث عنه.

كانت لذة التلبية الأولى بالحج وعمقها في النفس، وابتهاج الذين يلبون في الحافلة، وكثير منهم مثلي يحجون أول مرة، وتلذذهم بلبس الإحرام مشهداً لا ينسى.

أحرمت متمتعاً؛ وكان في النفس تشوف واقتدار على تطبيق السنة والأخذ بالعزائم، وكان لرؤية الكعبة، ولرؤية حشد الطائفين حولها جلال وهيبة، ولتقبيل الحجر الأسود لدونة يجدها من يقبله، ويستشعر أنه يهوي بشفتيه حيث هوت شفتا رسول الله ﷺ، ويقف حيث وقف، ويسير حيث سار.

في الطريق إلى منى يوم التروية ركب الحافلة معنا شيخ بشوش، صافح كل من حوله بود، وكنت بجانبه فقال لي: معك أحد؟ قلت: لا. قال: تكون خويي (صاحبي)؟ قلت: أبشر.

كانت صحبتي لهذا الرجل خيرا لي، فقد كان لي المرشد والمؤنس في أيام الحج، ثم فقدته آخر يوم من أيامِّ الحج، فكانت لوعة أني لم أودعه ولم أقبل يمينه وجبينه، ثم انقطعت أخباره عني، فليت بعض من يقرأ كلامي هذا يفيدني عنه (العم سالم الزهراني أبو جعفر) كان يعمل عام (١٤٠٠هـ) في معهد الباحة العلمي.

قضيت أصيل عرفة على حافة الموقف بانتظار الغروب، وكان مشهد ضراعة الناس وهم يسارعون لحظات اليوم الأخير مشهدا مؤثرا شديد الوقع على من يراه.

لم نشعر بالغروب إلا عندما ثار الغبار في عنان السماء بسبب انطلاق الناس، واندفع الناس في طريق المشاة سراعا لا يلوون على شيء فكان مشهدا من مشاهد يوم القيامة.

كلما تذكرت ذاك المشهد وانطلاق الناس مشاة شبه عراة، حاسري الرؤوس، يسيرون سراعاً لا ينظر أحدٌ إلى أحد، وإنما يسيرون قُدماً، كأنهم جراد منتشر، فكأني أرى مشهداً من مشاهد الآخرة، حين يخرج الناس سراعاً إلى ربهم يوفضون، ولا تسل بعد كيف وجف القلب، واهتاجت المشاعر، والتاعت النفس، وعرجت الروح إلى الأفق الأعلى.

ثم حججت بعد ذلك مرات وحاولت أن أستعيد ذاك المشهد بذاك الإحساس وتلك المشاعر، ولكن كانت اللهفة الأولى شيئا آخر.

ومن عرفة إلى مزدلفة سلكت أنا وصاحبي طريق المشاة، ولم نشعر فيه بالتعب لأنك حيث التفت رأيت الناس يسيرون أمامك كأنهم سيل العرم.

وفي الطريق إلى مزدلفة رأيت حجاجاً يحملون في أيديهم نعالا وأخشاباً، فقال العم سالم: إنهم يحملونها لتكون قذائف يرمون بها الشيطان غدا صباحا.

مع أني درستُ شيئا من العلم الشرعي، وجلست إلى الأشياخ، وقرأت المناسك، فقد كان مرشدي في الحج العم سالم، رجل عامي، لكن سبق له الحج مرارا، إنه الفرق بين النظرية والخبرة.

في مزدلفة جمعت حصى الجمار، وكانت جلاميد ملأ الأكف، لو رميت بواحدة منها رأس ثور لهشمته، فلما رآها العم سالم ضحك مني وأراني بِم يكون الرمي.

قضيت أيام منى في مصلى مخيم الدعوة، وكان مخيماً بارزاً على طريق المشاة، وقعتُ فيه اتفاقاً لا قصدا فأشار عليَّ صاحبي بالمقام وكان نعم المقام.

وكان الناس في منى في خيام ليس فيها من وسائل التهوية إلا مهفات السعف، أما المكيفات فما كنا نراها إلا في الدوائر الحكومية.

وكان مخيم الدعوة عامرا من الصباح إلى ما بعد صلاة العشاء، ما بين محاضرة وندوة وإفتاء، والمشرف عليه هو الشيخ جابر مدخلي رحمه الله.

كنت شابا قليل العلائق أجلس في مخيم الدعوة أستمع وأستفيد، ثم صرت ألزم مخيم الشيخ ابن باز بعد ذلك وأكتفي به.

كان الإمام في مخيم الدعوة: الشيخ صالح الفوزان أو الشيخ محمد بن عثيمين، وكان في المخيم جمع من المشايخ كالشيخ عبد العزيز الداود، والشيخ صالح الأطرم، والشيخ عبد الرحمن الدرويش، والشيخ عبد الله الزايد رحمهم الله جميعاً.

وممن كان له حضور في الإفتاء شيخنا الشيخ صالح العلي الناصر، وهو فقيه حنبلي متمكن.

وكنت ألحظ تفاوت المفتين في فتاواهم تشديدا وتيسيرا، ولم أر في التيسير أوسع من الشيخ ابن باز رحمه الله.

وكما لاحظت تفاوتهم في التشديد والتيسير، لاحظت تفاوتهم في احتمال الناس والصبر عليهم، فمنهم من تنفد طاقته النفسية سريعاً فيضيق خلقه بالإلحاح والاستفصال.

ومنهم من وهبه الله نفسا رضية، وخلقا واسعا لا تكاد تفرق بين إجابته لأول سؤال وآخر سؤال ومن هؤلاء ابن باز وابن عثيمين وابن جبرين رحمهم الله.

زارنا في المخيم عبد رب الرسول سياف والشيخ يونس خالص، وألقيا كلمة عن الجهاد الأفغاني، وكان التأثير الأكبر لكلمة يونس خالص على بساطة تعبيره فعشنا ذلك اليوم بل تلك السنة تأثير ذلك المشهد.

يا ألله من كان يظن أن بساط تلك الدماء والتضحيات والمشاعر والآمال، سيطوى على ما انتهت إليه الحال اليوم هناك؟

لقاءات الحج

من أجود ما اكتسبته في رحلات الحج لقيا العلماء، وقرب الوصول إليهم، فقد لقيت علماء لم يكن إلى لقياهم في غير هذا الموسم من سبيل.

ومن الأشياخ الذين رأيتهم في الحج فقط: الشيخ الألباني، والشيخ عبد الله بن الصديق الغماري، والشيخ صلاح أبو إسماعيل، والشيخ يونس خالص، والشيخ محمد جميل غازي، والشيخ نسيب الرفاعي، والشيخ بخاري عبده، والشيخ عبد الله المطوع، وغيرهم رحمهم الله.

وهناك من كنت ألقاهم في الحج وغيره، ولكن كان للقائي بهم في الحج ميزة خاصة كالشيخ ابن باز وابن عثيمين وعبد الرزاق عفيفي وغيرهم رحمهم الله.

فممن لقيت في الحج الشيخ عبد الله بن الصديق الغماري، وكان هذا اللقاء الأول مع الشيخ، وأجازني فيه بمروياته ومؤلفاته وهي أول إجازة أخذتها.

لقيته وقد كبر وأخذه رعاش في اليد، ولكنه كان حاضر العلم، يقظ الذهن، وكانت تفد إليه وفود من طلبة العلم، وممن رأيته عنده طلبة من الأحساء.

لقيته في اليوم السابع وكان قد فرغ من ذبح الهدي فسألته كيف ذبح الهدي قبل العيد؟

قال: قد بلغ الهدي محله.

وكان يرى جواز ذبح هدي التمتع قبل يوم العيد كما هو مذهب الشافعي، لأن هذا أرفق بالحجاج، وهو رأي شيخنا عبد الله بن منيع وله فيه رسالة.

فلما ذهبت يوم العيد إلى المنحر، فإذا الذبائح مركومة تجرفها الجرافات إلى هاوية سحيقة ثم تطمر بعد ذلك، ومنها ما يذهب إلى المحرقة.

فعلمت أن هذا القول مهما قيل فيه فهو خير من أن تؤخر إلى يوم العيد ثم تنحر وتطمر، فلم يشرع الله الهدي لإطعام الأرض، ولكن لإطعام القانع والمعتر.

وعجبت حينها من علم الشيخ بالمخطوطات وما لم يطبع من الكتب، وعلق بذهني كلامه عن حديث: «**من كنت مولاه فعلي مولاه**»، ورسالة ابن عقدة في طرقه.

وممن كنت ألقاه في الحج: شيخنا الشيخ عبد الرزاق عفيفي، وكان له مخيم يشترك معه فيه الشيخ عبد الله بن غديان والشيخ عبد الله بن قعود رحمهم الله.

وكنت أرى من تقدير الشيخين له وحفاوتهما به الشيء العجيب، وإنما يعرف أقدار الكبارِ الكبارُ مثلهم.

وكان لدى الشيخ عبد الرزاق عفيفي اقتدار في تبسيط المعلومة وتوضيحها، ومما حدثني عنه الشيخ ابن منيع قال: درسنا الشيخ عبد الرزاق عفيفي في المعهد العلمي وفي الكلية وفي المعهد العالي للقضاء.

وكان شرحه لنا في المعهد غير شرحه في الكلية وغير شرحه في المعهد العالي للقضاء، ونجد عنده في كل مرحلة ما لم نكن نجده في غيرها.

وقال لي الشيخ محمد لطفي الصباغ: لقيت علماء من مشارق الأرض ومغاربها، فما رأيت مثل الشيخ عبد الرزاق عفيفي في علمه.

وله رسوخ في العقيدة والأصول، قال لنا: قرأت التدمرية مرات كثيرة، وفي كل مرة أجد فيها ما لم أجده في القراءات السابقة.

وكان علمه من تفكُّره وليس من تذكُّره، ولذا قال عنه شيخنا ابن عقيل الظاهري: الشيخ عبد الرزاق عنده علم نفسه، وفلان عنده علم غيره.

وكان مبدعا وليس مكرِّرا، ولكنه مع رسوخه العلمي ومتانة تقريره إلا أنه لم يؤلف؛ إما لعدم قناعته بالتأليف، أو أنه لم يفتح عليه فيه.

لقيت الشيخ عبد الرزاق وقد كبر وصار يستروح للحديث عن الماضي -ويبدو أنها الحالة التي بدأت تتلبسني الآن- فحدثني عن حجهم قديما، فقال: قدمنا منى، وكان معنا الشيخ حسن البنا قبل أن يشتهر، وكان فيها بيوت تؤجر لكن الذي سكنا عنده قدَّرنا ولم يأخذ علينا أجرا، فقلت باستغراب: كيف يؤجرون في منى بيوتا وهي مَشْعر حج؟ فلم يعجبه سؤالي وقال: اسألهم أنت، وكان فيه رحمه الله صرامة.

ولاحظت فيه إعجابا وتعظيما لابن حزم، فذكرنا له شذوذاته، فقال: لكن شذوذاته وأخطاءه منكشفة باديةٌ عورتها.

ومما سمعته عنه من طلابه الشيخ مناع القطان ود. عبد الله المصلح موقفه مع الشيخ حامد الفقي، وذلك أن حامد الفقي كان رئيس جماعة أنصار السنة في مصر والشيخ عبد الرزاق نائب الرئيس، وكان حامد الفقي شديد الوقيعة في جماعة الإخوان ومؤسسها حسن البنا، فقال له الشيخ عبد الرزاق: يا شيخ حامد، الناس مديه الدين أفاها، والشيخ حسن يعدلهم لك ويقول لهم: إلى الإسلام دُر، ولمَّا يعدلهم قولهم بقي اللي أنت عاوزه[١].

وممن لقيتهم في الحج شيخنا أبو محمد عبد الجميل بن عبد الحق الهاشمي العمري، المشهور بأبي تراب الظاهري المتوفى عام (١٤٢٣هـ)، رحمه الله .

وكان هذا اللقاء بترتيب وصحبة أخي الشيخ الدكتور عبد المحسن العسكر، وهي إحدى إلطافاته الكثيرة إليَّ.

زرنا الشيخ أبا تراب في شقته في جدة فإذا بيته مكتبته، وهو معتكف فيها مع العلم اعتكاف الرهبان في صوامعهم، وأمام كرسيه طاولة صغيرة متطامنة علمت أنه يكتب

(١) الكلام باللهجة المصرية المليحة، وترجمته: يا شيخ حامد الناس معرضة عن الدين ومولية إليه ظهرها، والشيخ حسن يعدلهم ويقبل بهم، فإذا أقبلوا على الدين فصحح لهم تدينهم وقل لهم ما ينبغي أن تقوله.

كتبه ومقالاته عليها، فعجبت كيف يتدلى لها ليكتب ويقرأ، وكيف أن كتبه التي تربو على الخمسين كتابا، ومقالاته وبرامجه الكثيرة ولدت على هذا المكتب الصغير المتواضع.

وفي هذه الزيارة أجازني بمروياته وفيها ثبت والده الشيخ عبد الحق الهاشمي رحمه الله، والذي أجاز به شيخنا ابن باز.

حدثنا عن دروس والده في الحرم وعن بقية الدروس التي كانت في حصوات الحرم وأروقته، وعن رحلته إلى مصر ولقائه بالكوثري وأنه كان يقول له: لأحنفنك يا أبا تراب، أي: سأجعلك حنفيا وليس ظاهريا.

وكان لديه ثروة ثمينة من الذكريات واللقاءات والأخبار ومعرفة العلماء من أمصار العالم الإسلامي، فقد ولد ونشأ في الهند ودرس على علمائها، ثم درس على والده في مكة والتقى بعلماء مكة والوافدين عليها، ثم رحل إلى مصر واليمن والمغرب، وغيرها ولقي علماء تلك البلاد وزار خزائن كتبها.

ولو قدر الله معه لقاءً عن ذكرياته لكانت حلقاته ثروة تاريخية نادرة.

وفي الحج كان اللقاء بالشيخ المحدث محمد ناصر الدين بن نوح بن نجاتي بن آدم الألباني رحمه الله، وكان عالِماً نجما، فقد ملأ الدنيا علما، وكانت كتبه كما وصفها شيخنا بكر أبو زيد: تطير بأيدي الناس كأنها شيكات.

والشيخ مسيرةٌ من الدأب المتواصل، والعشرة المستديمة للعلم، وكان المترددون على المكتبة الظاهرية بدمشق لا يظنون إلا أنه أحد موظفيها لطول لبثه فيها.

وكان في ذروة مجده العلمي له معجبون وأتباع، ولذا كانت رؤيته حلما، فإن ظفرت منه بلقاء أو كلمة فذلك شيء سترويه لكل من تلقاه بزهو، ولذا كنت من المنجفلين إلى المخيم الذي فيه الشيخ، أملا ورغبة في رؤيته والاستماع إليه.

وعند الخيمة رأيت شبابا مجتمعين يطلبون ما أطلب، وفيهم من ينظر عبر فتحات في ستور الخيمة لعله يراه.

صلينا الظهر في المخيم ثم ألقى الشيخ كلمة عامة لم يعلق بذهني الآن منها شيء، فانتظرت الأسئلة متشوفا إلى حوارات الشيخ وتحقيقاته العلمية، وكانت المفاجأة يوم أُلقيت الأسئلة وإذا هي أسئلةٌ موجهة لنقد الجماعات، وأحسب أن الإخوان كانوا هم المستهدفين فيها، وكان الشيخ يجيب باستطراد وتفصيل ممل.

فكتبت ورقة إلى المقدم أذكرها تماماً: يا أخي هذه الجموع جاءت لتسمع علم الشيخ، أما هذه القضايا فيستطيع الحديث عنها كل تلاميذ الشيخ.

ورمقت الورقة وهي تنتقل من يد إلى يد حتى وصلت ليد المقدم فنظر إليها نصف نظرة ثم نحاها جانبا.

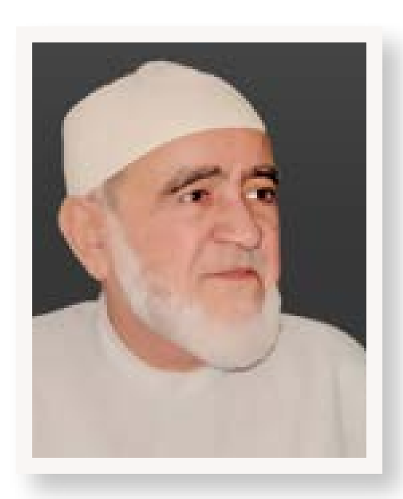
انتهت الأسئلة وبقي شوقي أن أصافح الشيخ وألثم محياه، وما إن قام الشيخ حتى ازدحم حوله جم غفير، فتلقيته من أمامه وصافحته ولثمت محياه، وكان خلفه الشيخ أبو إسحاق الحويني، وكان حينها شابا جلدا يحيط الشيخ بعناية بالغة.

لفت نظري مزيد تعظيم طلاب الشيخ له وقارنتها بتعاملنا مع أشياخنا ابن باز وابن جبرين والذي كان فيه احترام وحب قلبي وتعامل بسيط عفوي.

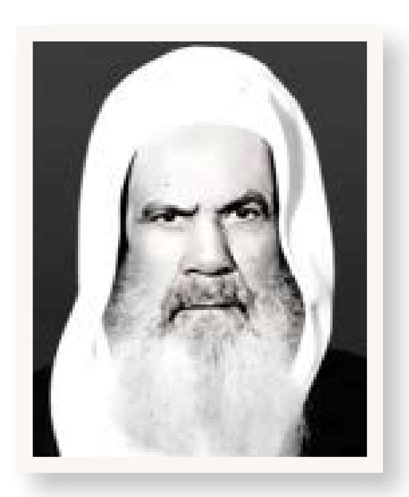
رحم الله الشيخ فقد كان تاريخا من الدأب والمثابرة، والصبر الطويل الجميل، وحصيلة ضخمة من الإنجاز العلمي، ومجددا من مجددي السنة في حياة الأمة.

وكان التنقل بين هذه النوعية النادرة من العلماء، ولقاء الأكابر من أهل العلم وجبة علمية وتربوية ووجدانية أقتاتها العام كله.

فقد كان لكل واحد منهم تميزه واختصاصه، وعند كل واحد ما ليس عند غيره، وفي كل منهم خير طيب كثير مبارك فيه.



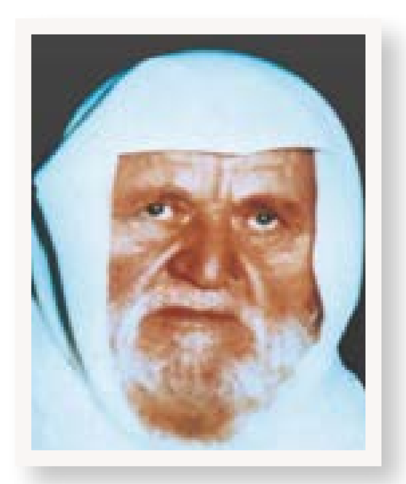
الشيخ عبد الله بن الصديق الغماري
رحمه الله



العلامة عبدالرزاق العفيفي
رحمه الله



الشيخ أبو تراب الظاهري
رحمه الله



الشيخ ناصر الدين الألباني
رحمه الله

الحج مع الشيخ ابن باز

عرفت الطريق إلى مخيم الشيخ ابن باز فلزمته وقصرت عن كثير من التطواف، ومن قصد البحر استقل السواقيا.

قال مسروق بن الأجدع: جالست أصحاب محمد ﷺ، فوجدتهم كالإخاذ[١]، فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم، فوجدت ابن مسعود من ذلك الإخاذ.

أقول: وجالست العلماء فوجدتهم كما وصف مسروق، ووجدت الشيخ ابن باز من ذلك الإخاذ الأخير، لو قصده أهل الأرض لصدروا عنه رواءً علما وفضلا.

وكان مجرد الجلوس إلى الشيخ في مجلسه والنظر إلى حاله وسمته يعود بفائدة وجدانية، حتى وإن لم تسمع منه علما.

وكنت أتذكر وصف الحسن البصري كلما نظرت إلى الشيخ، قالوا عنه: إن الرجل ليرى الحسن لا يسمع كلامه ولا يرى عمله، فينتفع بذلك.

كان من سعادة عمري أني كنت أجلس أيام منى في مخيم الشيخ ابن باز رحمه الله، وفيها أفدت أهم ما أفدته منه.

كنت أرى في هذا المخيم كرم الشيخ، وحكمة الشيخ وعلمه وطاقته النفسية المذهلة.

كان باب مخيمه مفتوحا كأنما يدعو الناس ويرحب بهم، كان يمتلئ عن آخره بالناس ويوضع فيه الطعام لجميع الحاضرين.

---

(١) الماء المجتمع في الأرض كالغدير.

كنت ألاحظ تنوع القاصدين لمخيم الشيخ من كل الجنسيات عربا وعجما، ما يظهر شخصية الشيخ العالمية.

في مخيم الشيخ كنت أرى بعض الضعفة الذين يحج بهم الشيخ على حسابه وكأنه يتحرى قول نبيه ﷺ: «**أبغوني ضعفاءكم**».

كان مخيم الشيخ مقصد أهل العلم، هناك رأيت المشايخ عبد الرزاق عفيفي، وعبد الله بن قعود، وعبد الله المطوع، ونسيب الرفاعي رحمهم الله وغيرهم.

رأيته أول ما نزل المخيم يوم التروية في منى وجلس كان أول ما فعله أن عين مؤذنا للمخيم وأوصاه بتعاهد الوقت.

كانت الصلاة تقام في المخيم فيؤمنا الشيخ ويلقي كلمات بعد الصلاة غالبا ثم يجلس للإجابة عن الأسئلة.

وربما تأثر الشيخ وهو يتحدث، ولا أزال أتذكره وكأني أراه الآن رافعا إصبعه يحكي بتأثر وبكاء قول رسول الله ﷺ: «**اللهم هل بلغت؟ اللهم اشهد**».

كنت أعجب من صبر الشيخ على الأسئلة رغم تكرارها وإلحاف السائلين فيها، وكانت طاقته وهو يجيب عن آخر سؤال كحاله وهو يجيب عن أول سؤال.

كان أكثر الأدلة ترددا على لسانه وهو يجيب على أسئلة الحجاج: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾. لا أكاد أحصي كم يقولها.

له اقتدار عجيب على تجريد السؤال الطويل الشائك من الأوصاف غير المؤثرة والصمود إلى محل الإشكال بحيث نفاجأ بقرب تناوله للجواب الذي ظنناه بعيدا.

سأله سائل فقال: ما حكم ارتداء الذهب المحلق للنساء، فضحك الشيخ وقال: الارتداء لما يلبس على الظهر، ثم أجابه بالجواز.

سأله شاب عن الأذان الأول لصلاة الجمعة والقول بأنه بدعة فغضب وقال: القول بأنه بدعة قول قبيح، فيه نسبة الصحابة للبدعة.

سأله أخي الشيخ على المري وأنا معه عن طواف الحائض إذا سارت رفقتها، فأجاب بفتوى شيخ الإسلام أنها تتحفظ وتطوف.

أتى إلى الشيخ شاب ومعه جهاز تسجيل يطلب إجابات على أسئلة من أمريكا، فاحتفى به وقام معه للمجلس الخاص، كانت عالمية الشيخ تمتد للبعيد والقريب.

ربما أعقب الشيخ في الإجابة عن الأسئلة بعض المشايخ، وأكثر من كنت أراه يعقبه الشيخ عبد الله بن غديان رحمهما الله.

في يوم عرفة كنت ترى مسيره تطبيقا عمليا ليوم النبي ﷺ سواء بسواء، لا تكاد تلحظ ثانية تفلت منه دون أن يَرحلها بصالح عمل: ذكر ودعاء وإجابة سائل.

في يوم عرفة يتناول الشيخ غداءه في المخيم في زحام الناس، كأنه يتعبد لله بالمسكنة مع الناس، ويزدحم الناس على سفرته برغم كثرة السفر الموضوعة.

في عصر يوم عرفة وفي انشغاله بما هو فيه من الدعاء أتى إليه أحد كبار السن بصبي صغير ليسلم عليه فأقبل الشيخ على الصبي يلاطفه ثم قال: من ربك؟ من نبيك؟ وجعل يدعو له، يا لله أي سعة في هذه النفس؟ كأن الشيخ يتعبد لله بإدخال السرور على قلوب من حوله.

رأيته عند النفرة من عرفة قبل الغروب وهو في الحافلة في غمار الناس مستغرقا في دعائه فما أحسبني رأيت حالا هي أعظم عظة لقلبي من حاله تلك.

لقيته مرة بالليل عند جمرة العقبة فرمقت طريقته في الرمي وتحريه لمكان الوقوف عند الجمرة، كحديث ابن مسعود في صفة وقوف النبي ﷺ.

في كل السنوات التي جلست فيها في مخيم الشيخ لاحظت أن الشيخ يتأخر إلى اليوم الثالث عشر وأحسب أن هذا كان دأبه دائماً.

كان اليوم الثالث عشر فرصة للاقتراب أكثر من الشيخ لقلة الحضور، فنكون معه كأننا في جلسة خاصة.

من أكثر ما استفدته منه في هذا المخيم رؤية التطبيق العملي لحسن الخلق والقدرة على احتواء الناس على اختلاف أجناسهم وأخلاقهم واغراضهم.

رغم رهق العمل الذي يتحمله وكثرة الأسئلة التي يجيبها وكثرة من في المخيم ممن هم في ضيافته فإني لم أره يوماً متوترا أو متحفزا، وإنما تراه مسترخيا عليه السكينة كأنه لا يكرثه شيء، يسع الجميع بره ولطفه.

عندما تقدم له القهوة في الصباح في المخيم يدعو الناس بنفسه للقهوة والتمر فتسمعه ينادي: تفضلوا القهوة التمر، كأنه يجد السعادة في إكرام من عنده.

سأله رجل عن حاج دخل مخيماً وجلس فيه وأكل معهم وليس منهم فقال: ما داموا يرونك فهذا إذن منهم، وواضح أن لكرم الشيخ أثرا في هذه الفتوى.

تطبيقه للسنن والفضائل راسخ في حياته تراه يطبقه بشكل عفوي لا تكاد تفلت سنة عن محلها.

رأيته يكلم بالهاتف مكالمة يبدو أنها مهمة فلما سمع الأذان قال لمن يكلمه: أذن عندنا، سنجيب المؤذن ثم نحى الهاتف واستغرق في متابعة الأذان.

حج الشيخ (٥٢) حجة ولم ينقطع عن الحج منذ عام (١٣٧٢هـ) إلا في عام (١٤١٩هـ) لمرضه، وكأنما كان غيابه عن الحج ذلك العام إيذانا بقرب غيابه عن الحياة.

ولا يكتمل الكلام عن الشيخ ابن باز دون ذكر مساعده الشيخ إبراهيم بن عبد الرحمن الحصين رحمه الله، والذي كان عينه الباصرة، ويده الكاتبة، وكان ملازماً للشيخ متناغماً مع شخصيته، وكأنما يكمل كل منهما الآخر، وكنت أراه مع الشيخ كلما أتيته في بيته أو مخيمه، فألقاه بوجهه السمح، وابتسامته الرضية، وروحه الطيبة، حتى توفي عام (١٤١٠هـ)، فرثاه الشيخ عبد العزيز بن باز وترجم له في كتابه: «تحفة الإخوان» رحمهم الله.



الشيخ
عبد العزيز بن باز
رحمه الله
في السنة التي لم يحج فيها
وتوفي بعدها بـ(٤٧) يوماً



الشيخ
إبراهيم بن عبد الرحمن الحصين
رحمه الله

عيدنا

كان لصباح العيد زهوه وفرحه الاستثنائي، ثوب العيد الجديد له بهجته، والطاقية الجديدة لها بهجتها، فجديد الثياب لا يزورنا إلا في هذه المناسبات.

ولذا يُلبس ثوب العيد أكثر من مرة قبل العيد للتأكد من مناسبته، وتُرتَشف فرحته تباعا.

وبعد صلاة الفجر يوم العيد يكون البيت في حال استنفار، أمي وإعدادها للطعام، وجدتي واستعدادها للخروج لمصلى العيد، وهي من الحالات النادرة التي تخرج فيها من البيت، ثم نذهب وأبي ملتحفٌ بشته الأسود، وجدتي بعباءتها المرسلة حولها، وأنا ممسك بيدها المخضوبة بالحناء، وأنا الذي أسير بها إلى مصلى النساء وأكون قريبا منها لأعود بها بعد الصلاة.

ومصلى العيد هو المساحة الواسعة على شارع الوزير قرب كلية الشريعة، وبرج البرقية.

فإذا خرجنا رأيت السكك تسيل بالناس متجهين إلى المصلى والهتاف بالتكبير يضج من تلك الأزقة الضيقة، وهي من مشاهد الازدحام القليلة في حياتنا، فإذا جلسنا في المصلى بانتظار الصلاة شخصت أعيننا إلى مكان الإمام وربما قمنا أكثر من مرة ننتظر وصول الملك فيصل الذي نعرفه بتاجه، وهو عقاله المقصب وقوامه الرفيع الفارع.

كل ذلك حتى نقول لأصحابنا: رأيت الملك فيصل، إيه رأيته، وهي دعوى يدعيها حتى من لم يحضر صلاة العيد، فإذا دخل الملك فيوشك أن يدخل الشيخ محمد بن إبراهيم ليقيم بنا صلاة العيد وخطبته.

ومن المشاهد المحفوظة في الذاكرة تلقي الملك للشيخ محمد بن إبراهيم حين نزوله من المنبر وتقبيله لرأسه رحمهم الله.

ثم يذهب الملك مشيا على الأقدام إلى قصر الحكم لاستقبال المهنئين، وفي إحدى السنوات سرت خلف الملك وأتذكر أني كنت قريبا منه ليس بيني وبينه إلا أربعة جنود متماسكي الأيدي كصف خلفي يسير وراءه مباشرة حتى وصلنا قصر الحكم وسرت في صف المهنئين وأنا طفل لا ألبس الغترة، فسلمت عليه، وكان يقف مادا يده مثل الرمح بقامته المديدة ووجهه الصلب.

وخرجت من الاستقبال وذهبت إلى البيت عدوا وأنا أشعر أني أحلق بعيداً عن الأرض وقريبا من السماء من شدة الزهو، ثم دخلت البيت وأنا أصرخ من الباب الخارجي: يمه يمه سلمت على الملك فيصل، فردت علي من غير أن تلتفت إلي فرمتني بكلمتين خشنتين هشمت غروري، وأطفأت زهوي، وأعادتني إلى مواقعي، وعجبت كيف لم تفرح لفرحي، ولم تأخذني على قدر عقلي.

ثم قرأت بعدُ في بعض كتب الأدب هذه الطرفة التي أجابت عن تساؤلي: جاء رجل إلى فقيه فقال: إني خاصمت امرأتي فقالت: اذهب فإنما أنت من الدهماء، فقلت لها: إن كنتُ من الدهماء فأنت طالق، فما حالها وهل طلقت، فقال له الفقيه: هل تخرج يوم العيد لرؤية الأمير؟ قال: لا، قال: اذهب فلست من الدهماء.

وفهمت رسالة أمي التي وصلت إلي ذلك اليوم: إن الذي يرفع مقدار المرء ليس التصاقه بالمشاهير والعظماء، ولكن يرفعه اجتهاده وإنجازه.

رعاك الله يا أمي كيف لو رأيت اقتتال غوغاء الناس اليوم حتى تؤخذ لهم صورة مع لاعب أو فنان أو مشهور في مواقع التواصل، لعذرت طفلا فرح أن صافح ملكا.

رجعنا إلى عيدنا وحديثنا.

فإذا رجعنا من المصلى حملت وإخواني طعام العيد الذي صنعته أمي وذهبنا به إلى مسجد الرضيان القريب منا والذي يجتمع فيه أهل الحارة، ويُحضرُ أهلُ كل بيت طعام عيدهم، ويجتمع معهم الفقراء والغرباء، فإذا صُفت أواني الطعام قام الرجال يأكل كل واحد من كل إناء غرفة أو غرفتين ثم يقوم للذي بعده حتى يشعر أهل كل بيت أن طعامهم الذي صنعوه قد أكل منه كل الحضور.

وكنا نتنقل بين الأواني حتى نصل إلى مائدة آل خضر، وهي صينية نحاسية كبيرة قديمة لها قاعدة ترفعها على الطراز النجدي القديم، وكان طعام عيدهم دائماً جريش يصنع على طريقة أهل الرياض، ويسفح السمن على وجهه، وله مذاق مميز، فإذا وصلنا إليه كان هو محطتنا الأخيرة، ولم نغادرها حتى نكتض شبعا، فله مذاق لذيذ مميز، رحم الله يدين مباركتين كانتا تعدانه لنا بهذه العناية البالغة والذوق الرفيع.

وكان اجتماع أهل الحارة على طعام العيد المنوع عادة في كثير من الأحياء والبَلْدات، ولكن أكثرهم يضعون الطعام في الطريق، أما حارتنا ففي هذا المسجد، فإذا عدنا بإنائنا إلى بيتنا انطفأ عيدنا فلم يكن العيد بالنسبة لنا إلا هذه السويعة أول النهار ثم نعود إلى رتابة اليوم، ولا أنسى كآبة عشيات العيد، والضيق الذي يطبق على صدورنا نحن الأطفال لأننا نشعر أن هذا يوم فرح استثنائي ولكن لا يوجد أي مظهر من مظاهر الفرح، ولا فعالية من فعاليات العيد، وإنما نتردد في الشوارع الخالية، ونقف أمام الدكاكين المغلقة، ثم نعود إلى رتابة يومنا وكآبته.

ولم تنكسر رتابة يوم العيد حتى اتسعت حال الناس وصار بمقدور كثير منهم تملك سيارة، فصار مما يشعرنا ببهجة العيد أن يزورنا قريب أو نذهب لزيارة قريب.

فإذا رأيت الآن ما تعده أخواتي وبناتي في بيتنا الكبير من فعاليات العيد واحتفالاته، فللصباح احتفاله، وللعصر احتفاله، وللمغرب والعِشاء لهوه وغناؤه، وأطفالنا في مهرجان فرح صاخب يستعدون له قبل العيد بأيام، ويتحدثون عنه بعد العيد بأيام، حمدنا الله وشكرناه على أن رأينا ما تمنيناه صغارا فرحا بهيجا يُشع من عيون أطفالنا، فنفرح بفرحهم، ونسعد بسعادتهم، ويكبر عيدنا بقدر ما تكبر الفرحة في قلوبهم.



ساحة مصلى العيد في مدينة الرياض

أسفارنا

عشنا بدايات أعمارنا والسفر قليل، ومكلِّفٌ على إمكانات الناس المتواضعة، وما كان السفر في حياة الناس إلا لحاجة، وأكثر الحاجات إلجاء للسفر هي العلاج، لتواضع الإمكانات الطبية في بلدنا ذلك الوقت، وكانت وجهة السفر غالبا مصر أو بيروت.

أما السفر إلى أوروبا وأمريكا فكان أقلَّ من القليل ولبعض الطلاب المبتعثين.

أما السفر للسياحة فشيء لم نعرفه ولم نسمع عنه، وأول مرة سمعت عن السياحة وأنا في السادسة الابتدائي من مدرس الجغرافيا عبد الله الغرشي رحمه الله، وكان الدرس عن لبنان فقال: ولبنان مقصد للسياحة، هل تعرفون السياحة؟ فكأنه قال لنا كلمة باللغة الروسية، فلم يعرف أحد من طلاب الفصل معنى هذه الكلمة الغريبة، فشرحها وقال: السياحة أن تسافر وحقيبتك مملوءة نقودا، وترجع وهي مملوءة ذكريات.

ومع ذلك لم يكن هذا الشرح كافيا ولا مقنعا؛ لأننا لم نكن نعرف أحدا سافر هذا السفر ولا حكى لنا حكاياته.

أما الطبقة التي كانت تسافر للسياحة في ذلك الوقت فهي قليلة جدا ولم نكن على تماس معها.

وكان توديع المسافر كتشييع الميت حيث ترى النساء تذرف الدموع الغزار، والرجال في حال تحفز وتجهيز يبدأ قبل السفر بأيام، وينتشر خبر السفر ويتساءل المعارف والجيران: مشوا؟ متى بيمشون؟

أما القدوم من السفر فيكون مفاجئا فليس ثَمَّ وسائل اتصال، ويكون بشرى تتناقل: وصل فلان، وصلوا آل فلان.

وعندما قدم والدي من مصر سبقه صاحب التكسي الذي أحضره من المطار وضرب الباب بقوة توشك أن تخلعه، فقمت أنا وجدتي إلى الباب فإذا هو يصرخ: أبشروا بناصر، أبشروا بناصر، فقدوم المسافر بعافية وسلامة بشرى يأخذ من يبلغها عادة هدية تسمى (بشارة).

ثم تقام الوليمة للقادم بين المعارف والجيران، وتنتقل من بيت لبيت، وهي الولائم الكبيرة التي تذبح فيها الذبائح ويجتمع الأقارب، وتكون احتفالية للأسرة وأقاربها.

الله ما أسرع تبدل الحال، فاليوم يمتلئ جواز أحدنا بأختام الدول بعيدها وقريبها وما شعر أحد بسفره حين سافر، ولا بعودته حين عاد.

وقد بدأتُ الأسفار وأنا في المرحلة الجامعية، ثم صارت احتياجاً نفسياً احتاج إلى إشباعه بحسب اقتداري وما تيسر لي.

ومما سرت عليه في السفر وحمدته بعد ذلك أني كنت أسافر مع أبنائي وحدنا، فكنت أسافر مع ابني محمد وأخواته إيمان وجوهرة، وكانوا في المرحلة المتوسطة، ثم الثانوية، ثم صرت أسافر مع ناصر، ومالك، وهاشم، وعاصم، ونورة وهم في هذا السن، ثم إخوانهم شاكر، وحاتم، وجابر، وعامر، وياسر من بعدهم، حتى استحكمت العوائق فعذرتهم وعذروني.

والسفر صحبةَ الأبناء وحدهم له روعته وأنسه، وجميلُ ذكراه، فالخلطة في السفر معهم، والانفراد بهم طوال الرحلة يرفع كثيراً من الحجب، حتى تحس كأنك تتعرف

على أبنائك من جديد، ففي كل منا جوانب لا يكشفها إلا السفر الذي يُسفر عن الأخلاق والطبائع، كما أن السفر مع الأبناء في صغرهم، وصحبتَهم خارج وطنهم، هو رسم صورةٍ في قاع الذاكرة تبقى في مخزون ذكرياتهم، يروونها من بعد عن أبيهم.

وإني لأعجب ممن يسافر مع أصدقائه ورفاقه ولا يسافر مع أبنائه.

ولقد شعرت أني أُودِعُ في أعمارهم بقيةً من عمري، حين عشت وإياهم دهشة اكتشاف العالَم والمعالِم.

وعندما ذهبت معهم إلى أحد المتاحف التي سبق أن زرتها اقترحت عليهم أن يدخلوا المتحف وسأنتظرهم في الخارج فتشبثوا بي وقالوا: ادخل معنا فلا نأنس إلا معك، فَرَقَّت لهم مشاعري جدا، وقلت في نفسي: بؤسا لمن يحرم أبناءه لذة الأنس معه، ويظن أن إذا أتخم جيوبهم فقد أشبع نفوسهم، ولن يذكر الأبناء كم أعطيتهم، ولكن سيذكرون كم عشت معهم، وكيف عشت، سيذكرون أنك كنت معهم هنا، وذهبت معهم هناك، ورأيتم كذا، وحصل لكم كذا، وهكذا من شجون الحياة وشؤونها.

وكنتُ وإياهم في السفر كما في الحضر نتعامل كأصدقاء، فنحكي لبعضنا حكاياتنا، ونتشاور في كل أمورنا، ونجدُّ أحياناً ونهزل كثيراً.

ومن المحظورات في السفر الغضب أو الخصام، فالسفر للأنس والإجمام، ولذا فالمرونة سيدةُ الموقف.

وأحذر جَهدي أن أقع في شيء من التوتر والانفعال الذي يُفسِد جو الرحلة ويطفئ بهجتها ويشوه ذكراها، فأنجح أحيانا، وأخفق أحياناً وتنجحُ شقاوتهم.

وإذا تذكرت اليوم هذه الرحلات فإذا هي من أجمل الذكريات، وأحمد الله أن أعمارنا كانت مأنوسة بهذه السعادات المبهجة، وكم تحضر أحداث هذه الرحلات وطرائفُها في أحاديثنا وأنسنا وكأنما نجدد سرورها بتذكرها.

والسفر مع زوجتي بمفردنا له ذوقه وأُنسه، فليس السفر مع الزوجة خاصٌّ بشهر العسل، ولكني كنت أحرص أن نسكب العسل على حياتنا كلِّها، وفي السفر مع الزوجة بعيدا عن الأولاد ونمط الحياة المنزلي، وفعاليات اليوم المعتادة تجديدٌ للحياة والحيوية، وتمتين للعلاقة، وإثراء للذكريات الجميلة، وإشهار لمكانة الزوجة وقدرِها وأهميتها، وهو ما تتفنن بنات آدم في التباهي به، فتجد من تُصم أذني زوجها ليسافر بها فإذا رضخ لذلك بعد جهد جهيد، بدأت تحدث رفيقاتها وتشتكي لهن أنها لم تكن تريد السفر ولكنه ألح عليها وتوسل لها فلم تُرِد أن تكسر خاطره يا عيني، وصعب عليها حاله، فأجلت كل أشغالها بما فيها غسيل الصحون ذلك اليوم؛ لأن الحياة في نظرها تقوم على التضحية مع شيء من التظاهر والمظاهر.

ومن خلال السياحة تَكوَّن لي ذوقي الخاص في السفر، فأول ما يستوقفني في السياحة الآثار والمعالم الإسلامية التي أقف عندها فيحضر تاريخُها ورجالُها، أما إذا سافرت إلى أوروبا ورأيت آثاراً تالدة، ومعالم تاريخية، فإنها لا تستثيرني ولا تستهويني لأني لا أشعر بانتماءٍ إليها.

وإذا زرت بلداً فإني أحرص على السكن في منطقتها التاريخية، فأجد فيها ما يميزها، وأتعرف على خصوصيتها وخصائصها، أما الفنادق الراقية في الأماكن الحديثة فهو ما أهرب منه ولا أحب أن أسجن فيه.

ولما زرت فلورنسا استروحت لها كثيراً لعراقتها وعتاقتها، وبقايا الشواهد العامرة فيها، فكانت المدينة التي كررت الزيارة لها أكثر من مرة، ونادراً ما أفعل ذلك.

ولما ذهبت مع أخي إلى جنوا في إيطاليا كان يحمل عنوان فندق رشحته له زميلة في العمل فأصر على أن نذهب إليه، فأعطينا العنوان صاحب السيارة فانطلق بنا حتى خرجنا من المدينة ثم صعدنا على قمة جبل وإذا فندق كبير واسع فنزلنا، وأعجبتنا الحجرات والخدمات والمرافق، وتجولنا في الفندق الذي كان شبه خالٍ، ثم بدأنا نشعر بالملل الذي تحول إلى وحشة، فليس حولنا أُنسُ المدينة ولا صخبها، وليس في

الفندق معنا أحد، وجثم الوقت ثقيلا بطيئا على قلوبنا، وشعرت أننا في سجن الباستيل ولسنا في رحلة سياحية، فسألنا عن الطريق إلى مركز المدينة، فقالوا اطلبوا سيارة أجرة فليس هنا باصات ولا وسائل مواصلات.

فهربنا منه وسكنا في فندق بسيط داخل المدينة حيث عتاقتها وآثارها وحياتها وحيويتها، وشعرت أننا عدنا إلى الحياة بعد موات.

وتعلمت من الأسفار أن المدينة لا تبوح لك بأسرارها إلا إذا سرت فيها على قدميك، أما إن كنت تتجول في الحافلة السياحية فكأنك تتصفحها في ألبوم مصور.

وتعلمت في أسفاري أن أتبع اللحظة ولا أتبع الخريطة، فإذا وجدت سروراً وأُنساً في مكان أقمتُ وأنِستُ واستمتعت؛ فساعات السرور قصار، ولا أجعل الذي يسيرني هي خارطة الأماكن التي أعددتها فلا بد أن أستوعبها، وأقف عليها كلَّها، وكأني ساعي بريد كلُّ همه أن يصل إلى العناوين، ويوصل الرسائل ثم يمضي، ولذا فكم ذهبت في رحلة على أن أعبر عدة محطات فأصل إلى إحداها وآنس بها فأرتوي منها وأكتفي بها، وأستشهد بكلمة أمي: ابن آدم من ساعته التي هو فيها.

وتعلمت أن أرحل عن كل بلدة قبل أن أملَّها، فأغادرها وما زالت لي بها بعضُ حاجة، حتى تبقى ذكراها مصحوبة بالشوق إليها وليس السآمة منها.

وتعلمت أن السياحة ما لم يصاحبها تعرف على أهل البلد وخلطة بهم وعلاقة معهم فإنها زيارة إلى كهف لا حياة فيه، إن أبنية المدينة ومعالمها هي جسدها، وأهلها هم روحها وحياتها.

وكم أعجبتني كلمة أحد الآثاريين حين قال: الآثار بدون سكان خرائب.

وعندما قرأت رواية «طعام وصلاة وحب» لإليزابث جلبرت وجدتها وصفا لرحلة طويلة إلى إيطاليا، والهند، وإندونيسيا، ليس فيها وصف فنادق ولا شوارع ولا مبان

ولا ومعالم، ولكن وصف من لَقِيت، ومعاشرتها لهم، وقصصها معهم، وهذا هو ما يبقى في الذاكرة حيا يتجدد.

أما الشوارع الحديثة والمباني الزجاجية، والفنادق الراقية، فليست مما يستهويني، ولذا قلت لابني بعد جولة معه في أمريكا: إذا سئلت ما المفاجأة في أمريكا؟ فالجواب: المفاجأةُ في أمريكا أن لا مفاجأة؛ لأن أمريكا رحلت إلينا بمظاهرها ونمط حياتها، فالشوارع هي هي، والبنايات هي هي، ولن يرجع اليوم أحد من أمريكا ليقول: أمريكا التي رأيت.

وعندما وقفت مع أخي إبراهيم السبر رحمه الله في طابور طويل أمام يونيفر استديو في لوس أنجلوس قال لي: هنا تصنع عقول العالم، فنظرت إلى الطابور الطويل وهم سياح من بلدان متباعدة متناثرة على الكرة الأرضية، وكلهم بنفس اللباس والهيئة، لقد تم تنميط الحياة على هذا النموذج، وكان مصنع النمذجة هذه الآلة الإعلامية الهائلة، وصارت المدن ونمط الحياة متشابهة في أكثر بلدان العالم.



مع الأبناء: حاتم، وجابر، وعامر، وياسر، ولولو .

في بلاد العجائب

كانت الرحلة إلى بلاد العجائب من أوائل رحلاتي، وذلك قبل خمس وثلاثين سنة قبل أن توجد وسائل التواصل، وقبل أن يجعل ستيف جوبز العالم بين أصابعنا نتجول في هذه الأرض، نسير في فجاجها، وندخل زواياها، ونرى مناظرها ونحن في غرفنا على فرشنا.

ولذا كانت رحلتي تلك رفعاً للستار عن ذلك المشهور المجهول، فمن الذي لا يعرف الهند؟ ولكن عجائبها بقيت مخزونة في عين من رآها أو وصف من رواها.

ولذا لما ذهبت رأيت ما سمعت عنه وما لم أسمع، وكلها غرائب وعجائب ومدهشات، وقديماً قيل: ليس راءٍ كمن سمع.

ذهبت إلى الهند أنا وأخواي الحبيبان محمد التركي ومحمد الخضيري لتحصيل مخطوطات لكتاب «مسند أبي داود الطيالسي»، والذي كنا سجلنا تحقيقه لأطروحة الماجستير.

وصلنا دلهي فتلقتنا مشاهد الفقر ومظاهر العوز في الأكواخ البدائية، وخرق على شكل أكواخ، ومنظر الفقراء المصطفِّين في طابور أمام المطاعم ينظرون إلى الداخلين بعيون ضارعة ينتظرون من ينفحهم بوجبة أو بقاياها.

وكنا نتحدث ونحن طلاب في المرحلة المتوسطة أن الفقراء في الهند يتسولون عند إشارات المرور فرأينا ذلك أول ما وصلنا دلهي عند كل إشارة، ثم انتشر هذا السلوك فصار ظاهرة عالمية، رأيتها في كثير من البلاد التي زرتها، ولكن براءة هذا الاختراع بقيت محفوظة للفقراء الهنود، وعندنا في الرياض لا توجد إشارة إلا وعندها مجموعة تستثمرها، وترابط عندها، قد تغير الشمس مكان طلوعها ولا يغيرون هم أماكنهم.

وفي دلهي رأينا بقايا العمارة الإسلامية في الجامع الكبير، والقلعة الحمراء التي شيدها ملوك الهند المسلمون الذين نثروا الأبنية المشيدة في قارة الهند من تاج محل، وجار منار وغيرها، وكان التساؤل الذي قفز إلى ذهني كيف كان أثرهم في العمارة والحروب كبيراً وأثرهم في نفوس الناس قليلا؟ فلم ينتشر الإسلام في الهند بما يناسب كثرة سكانها وخلوها من دين سماوي يكسب أهله يقين الاعتقاد.

وزرنا مدينة بنارس وفيها الجامعة السلفية واحتفى بنا مديرها مقتدى الأزهري رحمه الله، وأخذنا في جولة على المدينة فمررنا بنهر جونجا المقدس لدى الهندوس، وعلى ضفاف النهر رأينا حرائق الجثث التي يلقى رفاتها بعد ذلك في النهر، وكان منظر الحريق ورائحة الشواء مقززة منفرة، وكانت شناعة مرآه أشد من بشاعة سماعه.

وعجبت كيف بقي هذا التقليد البشع الذي يهين جسد الإنسان وهو خزانة روحه، ويشوهه بالحريق، ألا تَعَلَّموا من الغراب الذي يبحث في الأرض ليواري سوأة أخيه؟

ثم سرنا إلى مدينة بتنة لزيارة مكتبة «خدا بخش» ففيها نسخة نادرة من كتاب «مسند أبي داود الطيالسي»، وكانت مكتبة زاخرة بالمخطوطات النفيسة، ورأيت فيها نسخة من كتاب أظنه «مختصر مسند عبد بن حميد» بخط أحد علماء نجد، ولكن كان القائم على المكتبة طائفي حاقد، عدو للكتب، مبغض للعلم وأهله، لا يُمكِّن أحداً من التصوير أو النسخ أو الاطلاع الطويل، الكتب لديه: ممنوع اللمس، ممنوع الاقتراب.

وقد حاولنا معه بشتى الحيل، واستعنا بزملائنا الهنود فلم تنجح مساعينا في الحصول على صورة من «مسند الطيالسي» ولا غيره، ولكن وعدنا بعض مرافقينا بالمحاولة واقترحوا علينا الانتظار فوليناهم المهمة وغادرنا إلى مدينة حيدر آباد الدكن، وهي مدينة إسلامية عريقة وفيها معالم إسلامية مثل «جار منار» أي: «المنارات الأربع»، وقلعة هائلة في سورها الضخم سراديب هي متاهة مضللة لا يمكن للداخل إليها أن يهتدي طريقه إلا بدليل، وراعى مصممها تفرع السراديب إلى مخارج فرعية أحدها صحيح والباقي تمويهية، والعجيب أن الصحيح هو آخر ما يتبادر إلى ذهنك لو فكرت.

أما أهم ما زرناه فيها فهي مكتبة دائرة المعارف العثمانية، وشدتنا بساطتها، ورأينا الطاولة الكبيرة التي يجلس عليها الباحثون جلسة جماعية.

يا ألله، أهنا كان الشيخ العلامة عبد الرحمن المعلمي وفريقه؟ ومن هنا خرجت الذخائر النادرة: «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم، و«التاريخ الكبير» للبخاري، و«الإكمال» لابن ماكولا، وغيرها؟

وفيها زرنا مدرسة دينية يشرف عليها الشيخ محمد عاقل الدين الحسامي رحمه الله والذي استضافنا فيها حيث قمنا بجولة في فصول المدرسة، وكانت غرفات متواضعة يجلس فيها الطلاب للدراسة نهاراً وينامون فيها ليلا.

وعند خروجنا لَقِيَنا شاب جاء على دراجة ومعه حقيبة فيها قرابة خمسة كيلو غرامات من الأرز، فعلمنا أن هذا أحد طلاب المدرسة يقوم بجولة على بيوت المسلمين في الصباح فيعطونه من كل بيت قليلا من الأرز كأساً أو نصف كأس فيجمعها في هذه الحقيبة فإذا أنهى جولته عاد بحصيلته تلك، وكم كان المشهد مؤثراً وأنت ترى حال هؤلاء المجهودين ووسائلهم البدائية التي يجمعون بها القليل مع الأقل ليقيموا أود علمهم وتعليمهم.

ثم زرنا لكنو وندوة العلماء والتقينا بالشيخ أبي الحسن الندوي رحمه الله[1]، ثم عبرنا منها إلى بومباي ننتظر الإخوة الذين وعدونا بتحصيل صورة للمخطوطة، وفي بومباي صار لدينا فسحة من الوقت فتشوقتُ لرؤية المعابد الهندوسية، فلما ذهبنا رأيت في الطريق حوانيت يعمل فيها العمال تماثيل الآلهة من الجبس، وهي تماثيل مشوهة على شكل أفيال ومخلوقات غريبة.

فكان هذا مشهداً للانحطاط العقلي، أن تصنع الآلهة كما يصنع الطوب ثم يصبح المصنوع إلهاً معبوداً، ويبقى الصانع عاملا مسحوقاً.

(١) تقدم ذكر ذلك في «لقاء الأعلام».

ولما دخلنا أحد المعابد فوجئت عند دخولنا بأحد الهنود وهو يهوي بجبهته على الدرج قبل أن يدخل تعظيما لبيت الآلهة، وكان منظراً صادماً أن أرى الشرك عياناً مع أنا كنا نقرأ عنه ونسمع، ولكن لمنظره شناعة وبشاعة، فعبادة الأصنام من أعظم الحماقات في تاريخ البشرية، ولما أخبر الله موسى أن قومه قد فُتنوا من بعده وعبدوا العجل، رجع إليهم فلما رأى بعينه ما سبق أن علمه ثار غضبُه، وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه، لشناعة ما رآه، وإن كان قد سبق علمه به، فليس الخبر كالمعاينة، وليس راءٍ كمن سمع، وما أعظم فضل الله علينا بالهداية لدينه القويم وصراطه المستقيم، وتجلى لنا في أي متاهة عمياء يضل العقل إذا ترك صراط الله ودينه: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾.

وتجولنا في المعبد وكان كل ما نراه ينطق بانحطاط التفكير وضلاله، فهاهنا أصنام مشوهة، وصور أناس عراة يوارون سوآتهم هم الكهنة القدامى، وكانت مشاهد تثير الدهشة والعجب، وإذا بأحد الهنود الذي يبدو من لباسه ولغته الإنجليزية الطليقة أنه كان متعلما مثقفاً، يستوقفنا وكأنه لاحظ استغرابنا فأُحرِجَ عقله أمام دهشتنا، فجعل يشرح لنا أن هذا الذي نراه هو قناعة للملايين من الناس، ولهم فيه نظرة وفلسفة خاصة، ولابد أن نتفهم ذلك.

وكانت محاولة تبرير واهنة تنم عن أزمة العقل مع الخرافة.

وقضينا في بومبي أياماً، وكنت أسير في شوارعها وأسواقها وأنا أبحث عن طيف جدي الذي كان يأتيها بحاراً ثم عاش فيها مشرداً هائما جائعا حتى لطف الله به وأعاده إلى الزلفي، ولو بقي فيها فالله وحده يعلم ماذا كنت سأكتب في هذه المذكرات وبأي لغة كنت سأكتبها.

ومع أننا لم نزر معالم الهند الشهيرة كتاج محل وروائع كشمير، فإني لم آسف على ذلك، ولم أر أنه فاتني كبير شيء، لكني أسفت حين أدركت أننا فوتنا لقاء

الأكابر فيها وكان ميسوراً لنا ذلك، من مثل الشيخ عبيد الرحمن المباركفوري مصنِّف «مرعاة المفاتيح»، وغيره من بقايا المسندين والعلماء العباد الزهاد، والذين هم بقية الطراز الأول من أهل العلم.

وتطاول علينا الأمد فقد بقينا في الهند شهراً كأنه دهر، ونفد رصيدنا من الصبر، وجاءتنا النذر من إخواننا الذين تركناهم يحاولون الحصول على المخطوطة بخيبة مسعاهم، فارتفعت حرارة الضجر لدى أخي محمد التركي، وهو سريع الاشتعال، شديد الانفجار، فجعل يبحث عن أقرب حجز يعيدنا للرياض وهو يقول:

فيم الإقامة بالزوراء لا سكني ... بها ولا ناقتي فيها ولا جملي

فلما حجز ذهب بنا قبل موعد إقلاع الطائرة بسبع عشرة ساعة ونصف، حتى لا تفوتنا الرحلة لا قدر الله.

فأقلعت بنا الطائرة ونحن نقول: آيبون تائبون، وكان هذا آخر العهد بالهند، والسلام.

مصر

كان من فاتحة الخير وباب الإغراء بالسفر أن تكون أول سفرة خارج المملكة إلى مصر التي قرأت عنها وأحببتها وتشوقت إليها، وكان ذلك عام (١٩٨١م) ولا أدري هل كانت زيارتي لمصر يُمناً أم شُؤماً عليها؟ فقد مررنا بعد وصولنا بمدينة نصر وعبرنا ميدان الاستعراض العسكري، فلما حاذينا المنصة قال لنا سائق السيارة: هذي المنصة، غداً احتفال السادس من أكتوبر، والعرض العسكري.

وفي صباح الغد حضر الرئيس ووقع حادث المنصة الذي قتل فيه السادات.

ثم توالت الزيارات إلى مصر، وكل زيارة توثق العلاقة وتغري بالمعاودة، وفي كل مرة أشرب من ماء النيل ثم أعود إليه، وفي كل عودة تفاجئني مصر بكل جميل، وعرفت حين عرفت مصر لم سماها ابن خلدون: أم الدنيا.

ولو أن بعض الظرفاء من مصر يقولون: دي مش أُمِّنا دي مراة أبونا.

وقد وصف نبينا ﷺ أمه هاجر المصرية بقوله: «**فألفى ذلك أم إسماعيل تحب الأنس**». وما زالت هذه الصفة في قومها إلى اليوم، فالمصريون يتوارثون صفة أمنا هاجر المصرية فهي «**تحب الأنس**» وهم شعب يحب الأنس، يأنس ويُؤنَس، ويَألفُ ويُؤلَف، ويُحِب ويُحَب، تلتقي بالمصري في مقهى فيفتح لك باب قلبه ويدخلك إليه حتى يصعد بك إلى السطوح، فيخبرك عن أموره وأحواله وخصوصياته وكأنك تعرفه منذ ثلاث وعشرين سنة.

وينطلق معك في الحديث بلا توجس ولا محاذرة، وهذه العافية النفسية لا توجد في شَعبٍ كما توجد في شعب مصر، إنه شعب يحب الأنس.

ولقد كانت مصر فئة يتحيز إليها المسلمون، ومثابة يفيئون إليها يوم سقطت بلاد الشام بأيدي الصليبيين، ويوم سقطت بغداد بأيدي التتار، ويوم سقطت الأندلس بأيدي النصارى، ويوم سقطت الخلافة في الآستانة.

وشُهرت مصر بحفاوتها بالطارئين عليها وتفاعلها الإيجابي معهم، ولذا يأتيها الغرباء فلا يشعرون بالغربة، ففيها يستوطنون وهناك يموتون.

أُخرج الإمام العز بن عبد السلام من الشام فتلقاه أمير الكرك وعرض عليه النزول عنده، فقال: بلدك تصغر عن علمي، ثم ذهب إلى مصر فجعله أهلها سلطان العلماء.

وتتابع إليها العباقرة من بلاد كانوا فيها مغمورين فدوى صيتهم، فمن كان من العرب سيعرف جمال الدين الأفغاني لو لم يأت مصر ويجلس مع مثقفيها في قهوة في العتبة؟!

وجاءها محمد رشيد رضا من طرابلس فأنشأ مجلة المنار، ومحب الدين الخطيب من الشام فأنشأ مجلة الفتح، وعلي باكثير من إندونيسيا فصار الروائي والأديب، وجاء قبل ذلك القرطبي من الأندلس فصار إمام التفسير، وجاء أحمد بن قائد من نجد فصار شيخ الحنابلة، وجاء الخضر حسين من تونس فصار شيخ الأزهر، وجاء الصحفيون فأشهرتهم مصر وأظهرتهم، جاء جورجي زيدان من بيروت فأنشأ دار الهلال، وجاء سليم ووليم تقلا فأنشآ الأهرام، وجاء الفنانون إلى مصر فأشهرتهم، وقديماً قيل: يا داخل مصر منك ألوف.

أيام اليمن

كم كنت مشوقاً لزيارة اليمن، ورؤية صنعاء القديمة، وكان أكثر ما شاقني لزيارتها أنها البلد الذي لا زال يحتفظ بعراقته ونكهة تاريخه، وأن السائر في صنعاء القديمة يخطو فيها فيراها كما كانت منذ مئات السنين، ويرى التاريخ الذي يروي واقعاً شاهداً، ويرى أماجد اليمن وبقايا علمائه وأعلامه على ذات السمت والهيئة.

فلما زرت صنعاء ذهبت من فوري إلى صنعاء القديمة، وزرت جامع صنعاء وتراءت لي هناك أطياف علمائها وأعلامها، وكأنما أرى ابن الوزير، وابن الأمير، والمقبلي، وغيرهم.

وكنت بصحبة أخي الشيخ محمد العامري، وكان دليلنا في جولتنا الشيخ الإمام الشوكاني رحمه الله، فقد تحدَّث عن صنعاء وجامعها وحلق دروسها في كتابه: «منتهى الأرب»، فكأنما كنا نرى ما رواه.

وحول جامع صنعاء ترى الأحياء القديمة بمبانيها وأسواقها وفيها عتاقة وعبق، ومشاهد تاريخية تعيد السائر فيها إلى عصور ماضية، ونمط حياة يوشك على الاندثار. وكان المنظر والرائحة والضجيج مثيرات للخيال والوجدان، تستثير النفس، وتستحضر التاريخ، فأرى غير ما أرى، وأعيش الماضي حاضراً منظوراً، ولكل ذلك انفعاله ونشوته:

أما هذه «صنعا» نعم إنها هنا ... بطلعتها الجذلى، بقامتها الفرعا
بخضرتها الكحلى، بنكهة بوحها ... بريا روابيها، بعطرية المرعى
لقد كنت في قلبي حضوراً على النوى ... ولكن حضور القرب عند الأسى أدعى[1]

---

(١) بلقيس في قصر أموي للبردوني.

وفي اليمن التقيت بعلماء أعلام من النمط العتيق، كالشيخ القاضي إسماعيل الأكوع، والشيخ القاضي محمد بن إسماعيل العَمْراني، والشيخ حميد قاسم عقيل رحمهم الله. وهم من علماء الطراز العتيق في التلقي والطلب والتكوين.

وفي شيوخ قبائل اليمن صفات السيادة والقيادة العربية الفطرية، فالشيخ عبد الله الأحمر شيخ حاشد يذكرك بالأحنف بن قيس في حلمه وحكمته، والشيخ سنان أبو لحوم شيخ بكيل يذكرك بهرم بن سنان في كرمه وزعامته.

وكنت أسمع أخبارهم وكأني أقرأ مناقب سروات العرب في الجاهلية والإسلام.

وحازت اليمن وأهلها وساماً نبويّاً من أعلى ما يفخر به أهل بلد، وعندما زارهم الشيخ أبو الحسن الندوي ألقى محاضرة بعنوان: «شلالات الإيمان»، وقال فيها: يا أهل اليمن خذوا أنهارنا وثرواتنا وأعطونا فقركم وقول رسول الله ﷺ لكم: «**الْإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ**»[1].

تجولت في اليمن فرأيت في شخصية أهلها خلطتها السرية وهي مزيج من الطيبة، وصدق اللهجة وعمق التدين، وعفوية التعامل وبساطته، مع حمية النعرة العربية، وصلابة الأرض الجبلية.

ورأيت في مباني صنعاء القديمة مسحة رفاهية تظهر في شموخ البنايات وارتفاع طوابقها وتزاويق نوافذها، وتعدد أنواع الطعام والتفنن فيه، وعلمت من المؤرخ علي بن جار الله الذيب أن اليمن لو استمرت في خطوات التطور التي كانت في العهد العثماني لصارت اليوم في المقدمة الحضارية أمام كثير من دول العالم، فقد كان فيها برلمان منتخب عام (١٨٧٢م)، وسكة قطار عام (١٩١١م)، وجامعة بها عدة كليات عام (١٩٠٢م)، ومصانع للسلاح والحديد والصلب والنسيج[2]، فكيف ستكون اليمن لو استمر هذا التطور، وأين ستصل لو سار هذا التقدم؟!

(١) «صحيح مسلم» (٨٢).
(٢) ينظر: «شواهد النهضة اليمنية في العهد العثماني» للمؤرخ الشيخ علي بن جار الله الذيب.

ثم حصل التقهقر والتدهور بعد استيلاء الحكم الإمامي على اليمن، فدمَّر أعظم الشواهد، وطمس أجمل المعالم، وعرقل الوثبة الحضارية المتحفزة.

وزرت مدينة إب، وتسمى: اللواء الأخضر، ولها من اسمها نصيب، فمع زياراتي للمنتجعات الأوروبية إلا أن خضرة إب وجمالها طبيعي بكر، لم تشذبه أدوات الحضارة، ولم تعبث به آلاتها، فهو زينة الأرض وزخرفها، كما خلقها الله وزينها.

ولما تنقلنا في مدن اليمن بين قمم الجبال الشاهقة، ومهاوي الأودية السحيقة تذكرت قول النبي ﷺ: **«وَالله لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلَّا اللهَ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ»**[١].

وكأنما كان ﷺ ينظر إلى هذه التضاريس الوعرة، وتلافيفها الملتوية، التي يصعب سلوكها فضلاً عن حمايتها، فاختار أشد الطرق وعورة وخطراً ليخبر أن الأمن سيظللها، فكيف بغيرها من رحاب الجزيرة وفجاجها السالكة؟!

وعدت من اليمن وأنا على يقين أن هذا البلد مزدحم بالمواهب الواعدة، التي يمكن أن تقوم بأعظم الأعمال وأضخم الإنجازات، متى استقامت لهذا البلد حاله، وائتلفت كلمته.

ولئن كان اليمن رحم العروبة التي تدفع بأجيالها قبائل إثر قبائل، فإنها ما عقمت ولا زالت تنجب نجباءها، وكما أهدت إلى الإسلام أنصاره الأوس والخزرج، فإنها تدخر من أبنائها أنصاراً إثر أنصار، يرددون هتاف شاعر اليمن:

نحـــن اليمانين يا طـــه تطير بنا ... إلى روابي العـــلا أرواح أنصارِ
إذا تذكـــرت عمـــاراً وســـيرته ... فافخر بنـــا إننا أحفـــادُ عمارِ[٢]

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٨٥٢، ٦٩٤٣).
(٢) بشرى من الغيب، للبردوني.



باب اليمن بوابة صنعاء القديمة

سورية

شعرت وأنا متوجه إلى سورية أني ذاهب إلى بيتي الذي أعرفه، وأهلي الذين أعرفهم، فقد كانت خُلطتي برجال سوريا الذين عرفتهم في بلادنا د. محمد لطفي الصباغ، وشيخنا عبد الفتاح أبو غدة، والأستاذ همام بهجة البيطار، وبهاء الدين الأميري وابنه البراء أحمد، وغيرهم ممن يحملون وجه سوريا الصبوح، أخذ بيدي شيخنا علي الطنطاوي فطاف بي دمشق فما ترك زقاقا إلا وأولجني فيه، ولا معلما إلا أوقفني عليه، ولا علَما إلا عرفني به، وذاك حين قرأت مذكراته فنظرت فيها إلى كل ما رأى، ولقيتُ كلَّ من لقي.

ثم أخذ بيدي نزار قباني فأدخلني البيت الدمشقي فرأيت إيوانه وبحرته وياسمينه وغرفاته وشرفاته، والقطة الكسولة وهي تتمطى فيه ومعها صغارها الذين يقال إنهم ثمرة علاقة حب غير شرعية، وصف نزار البيت الدمشقي وكأنه يصف زاوية في الجنة.

وصلت إلى دمشق صباح يوم باسم جميل، فالجمال يتلقاك في دمشق كلما أقبلت، ويتلفت إليك كلما التفت، وذهبت إلى الفندق الذي أعطاني عنوانه أحد أصدقائي الذين يرتادون سورية فلما وصلته إذا عمارة كبيرة وبهو استقبال فخم كأني في الشيراتون أو الفورسيزن، فخرجت من فوري وقلت: لو كنت أريد هذا لاستأجرته في الرياض، وذهبت إلى فندق شعبي في البحصة كان بيتاً دمشقيا قديما ثم صار نُزُلاً يسكنه في الغالب العابرون الأوروبيون، شعرت حينها بعبق الشام وسكينته، وخرجت إلى المسجد الأموي بشغف، وكأني على موعد مع أعلامه، ابن عساكر، وابن تيمية، وابن الزملكاني، وبدر الدين الحسني، وغيرهم وما أكثرهم.

قضيت أكثر وقتي في حارات دمشق القديمة حول الجامع الأموي، القيمرية، الشاغور، باب توما، حارة اليهود، الميدان، وأطلقت العنان لقدمي تجول بي في

زواريبها، وتستوقفني عند معالمها، وتروي لك خبر النعماء والنعيم التي كانت تغمر هذا البلد حتى كأنه قطعة من الجنة سقطت على الأرض، ثم حالت وبقيت آثارها وأخبارها، واللوعة في قلب كل من يحبها.

في دمشق القديمة لقيت أعلامها الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، والشيخ نور الدين عتر، والشيخ أحمد كفتارو، والشيخ المعمر محمد فؤاد بن سليم طه، والذي أجازني بروايته عن الشيخ بدر الدين الحسني، وكان قد نيف المئة حين زرته في المسجد العمري في حي العمارة بدمشق العتيقة.

رجعت من دمشق وأنا أتلمظ بلذيذ طعامها الذي أكلته في بيوت أهلها الكرماء الذين ما إن يلقوا القبض عليك حتى يعتقلوك ولا يفرجوا عنك حتى تأخذ بحقك من الضيافة والإكرام، فيقدم لك ذاك الطعام الهني من أيدي نظيفة حاذقة، وهو شيء آخر غير الذي تجده في المطاعم، فيه لذة العافية، ونكهة البركة، مع كثير من الحب، وطيب الكلام، وكرم النفس.

ليبيا

ذهبنا إلى ليبيا بمعية الشيخ سلمان وجمع من الأحبة، وكنا نتوقع استقبالاً جميلاً وتعاملاً رائعاً ثم كانت المفاجأة إلى حد الإدهاش أن ما لقيناه كان أجمل مما توقعناه وأروع مما تخيلناه.

لقد رأيت الحب يلمع في العيون، والترحاب تنطق به كل قسمات الوجوه، وكم استثيرت دهشتي وأنا أرى أعذب مشاعر الانفعال الصادق عندما نصل إلى الاجتماع فأرى الصدق في الانفعال الفجائي بمجرد أن تقع عيونهم علينا، كنت أقرأ صوراً من الحب أراها في طفرة الفرحة تُطل من الوجوه فتتحدث بألف لغة حب، بريقُ العيون، وابتسامةُ الفرح، واستطلاق كل أسارير الوجه، وطيش الانفعال اللاإرادي، كانت احتفالية من الترحاب جعلتني لا أحفظ كلمات الترحاب الصادقة لأن انفعالات البِشْر والاستبشار كانت أبلغ وأصدق من كل تعبير وكانت بحق وطناً من قلوب.

وكان من البشائر الجميلة ما رأيناه من وفاء أهل هذا البلد لدينهم؛ فقد لمست التدين الفطري الصادق في عامة الناس، تراه في المسؤول الكبير، وطالب المدرسة، والتاجر، ورجل الأمن، ورجل التعليم، تلمس هذا التدين في حفاوتهم بأهل العلم، في أسئلتهم المستبرئة للذمة، في صلتهم الوثيقة بالقرآن، في طلبهم الدعاء بيقين وصدق ممن يظنون به الخير.

وتتدافع المفاجآت الجميلة والتي كان من أكثرها تأثيراً يوم زرنا وادي الكوف عرينُ عمر المختار في الجبل الأخضر، لقد كنت أتجول في هذا الوادي برفقة المشايخ والأساتذة الذين استقبلونا ولكني كنت أشعر بأني أتجول وحدي مستغرقاً مع مشاعري، كنت أتتبع شيخ المجاهدين وأرى طيفه، تراءى لي ضوء وجهه ولحيته البيضاء كأنما هي هالة من نور تشع من وجه قدسي.

كنت أسير في وادي الكوف وأشعر بأني أسير على أرض معطرة بدماء الشهداء الذين واجهوا سلاح المعتدي الغاشم بلحم أيديهم، فشربت هذه الأرض دماءهم، واحتضنت أشلاءهم، ولا أحسب إلا أنهم عبروا منها إلى الجنة، وأحسست في وادي الكوف بنقلة وجدانية عندما يرحل بك المكان عن الزمان، وكأنني لا زلت في بيت الحاج محمد بن عمر المختار أحتضن صورة أبيه الشيخ عمر المختار لحظة إلقاء القبض عليه، وقد أمسك الجنود الإيطاليون بذراعيه، جعلت أتفرس في صورة وجهه والتي كانت واضحة تمام الوضوح فإذا أنا أنظر إلى وجه صلب كأنه صخرة، وعينين كأنما تشعان لهباً.

وتمنيت أني قبلت جبينه المعظم بالسجود، ويده المعطرة بغبار الجهاد وأني قلت له: يا سيدي عمر؛ لقد كنت أعلم أن الشهداء أحياء يرزقون عند ربهم، ولكني اليوم علمت أن حياتهم تسري في حياة الأجيال من بعدهم.

رَكَـزُوْا رُفَاتَـكَ فِـي الرِّمَـالِ لِـوَاءَ ... يَسْـتَنْهِضُ الـوادي صَبَـاحَ مَسَـاءَ

يَـا أَيُّهَـا السَّـيْفُ المُجَـرَّدُ بِالفَـلاَ ... يَكْسُـو السِّـيُوْفَ عَلَـى الزَّمَـانِ مَضَـاءَ

خُيِّرْتَ فَاخْتَرْتَ المَبِيْتَ عَلَى الطَّوَى ... لَـمْ تَبْـنِ جَاهَـاً أَوْ تَلُـمَّ ثَـرَاءَ



مع الحاج محمد بن الشهيد الشيخ عمر المختار
رحمهم الله

الجزائر

كل شيء في الجزائر يحدثك عن تاريخها ومجدها وجهادها.

هناك ترى شيخاً كبيراً فيقال لك: هذا من المجاهدين، وتلقى رجلاً فيقال لك: وهذا ابن شهيد، وتتحدث إلى شاب فيحدثك عن استشهاد جده وكفاح أبيه.

في الجزائر رأيت البنايات الشامخة الجميلة على الطراز الأوروبي، فعلمت أن هذه بنايات المحتلين بنوها لأنفسهم لأنهم ظنوا أنهم لن يغادروها.

وصليت في مسجد شامخ البناء فأخبرت أنه كان كنيسة بناها المحتل حين كان يظن أن سيجعل أهل البلد نصارى، فجعل أبناؤهم الكنيسة مسجداً.

وذهبت فرنسا بطاغوتها وطغيانها وبقي في الجزائر دوي كلمة عالمها الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

وشهدت محاضرات في مساجد الجزائر الكبيرة، فعجبت من كثرة الحضور كأنهم الغمام، فلم أملك مشاعري من الزهو باحتشادهم، وهتفت:

ليت للبرَّاق عيناً فيرى

ليت آباءكم وأجدادكم الذين نثروا دماءهم الغالية رخيصة لدينهم ووطنهم يرونكم اليوم، إذا لقرَّت أعينهم ولقالوا: كافحنا لوطن يستحق كفاحنا، ونثرنا دماءنا لأجيال تستحق تضحياتنا.

بقي الفرنسيون في الجزائر قرنا ونيفا فما بردت الأرض لجنوبهم، ولكن أقض مضاجعهم نفير المقاومة المتتابع طوال هذا التاريخ المتطاول، ولو نظرت إلى طريق

الجهاد في الجزائر لرأيته كظيظ الزحام برجالاتها العظام، الأمير عبد القادر الجزائري، والمجاهدة للا فاطمة نسومر، وبو عمامة ابن العربي بن الحاح، والعقيد الشهيد عميروش، والشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ البشير الإبراهيمي، وغيرهم كثير كثير، والذين كانوا يقاومون بعقيدة المؤمن ويقينه، حتى خرجت فرنسا من الجزائر راغمة صاغرة، وهي التي أتت محتلة لتبقى، وودعها الجزائريون وهي مدبرة ولسان حالهم يقول لها:

نصحتك فالتمـــس يا ليث غيري طعامـــا إن لحمـــى كان مـــرا

في الجزائر لقيت القامات العلمية الشامخة من شيوخ العلم المعمرين، والذين كان من سعادة العمر اللقاء بهم، فلقيت الشيخ محمد الصالح الصديق، الشيخ الذي قارب المئة، وله أكثر من مئة مؤلف.

والشيخ محمد الطاهر آيت علجت شيخ شيوخ الجزائر والذي تجاوزت سني عمره المئة ببضع سنين، وكان قاضيا لجبهة التحرير قبل الاستقلال، بارك الله في حياته ونسأ في عمره.

والشيخ محمد سعيدي المشهور بابن يوسف رحمه الله، والشيخ د. عمار الطالبي وغيرهم.

فأجازني منهم الشيخ بن يوسف والشيخ علجت، وحمدت الله أنه صار لي نسب علمي بالجزائر وعلمائها.

لقد زرت الجزائر قبل سنوات زيارة قصيرة أياما معدودة، ثم غادرتها ولم يغادرني حبها والشوق إليها.

ولا ملامة على من عرف الجزائر وأهلها أن يتولَّه بها حباً، ويتحرَّق إليها شوقاً.



مع الشيخ محمد طاهر علجت



مع الشيخ محمد الصالح الصديق

المغرب

لولا عياض لما عرف المغرب، حضر المغربُ إلى المشرقِ في علمائه، القاضي عياض، أبو بكر بن العربي، وابن خلدون في الأقدمين، وعبد الحي الكتاني، وعبد الله كنون، والمكي الناصري وعبد الله بن الصديق الغماري من المعاصرين، وسير مجاهديه، عبد الكريم الخطابي وعلال الفاسي وغيرهم.

وكنت متشوقا للمغرب أن أزورها لأرى قطعة من الأندلس ما زالت تحيا حياتها وترث رجالها، فلما زرتها عدت إلى الأندلس تاريخا ووطنا، ورأيت في هذه البلاد أنواعا من المسرات، وصنوفا من اللطائف والمبهجات.

لقيت أكابر علمائها ممن كانوا على النمط العتيق، كأنهم أتوا من حلقة ابن عبد البر، ودرس ابن العربي، ومدرسة ابن رشد، فلقيت عبد الله بن الصديق الغماري، وعبد الله التليدي، والأمين بو خبزة رحمهم الله، ومصطفى البحياوي، والشيخ المعمر المسند عبد الرحمن بن عبد الحي الكتاني، وأدباءها الكبار الأستاذ عبد الهادي التازي، ومحمد بن شريفة، وفيلسوف المغرب الدكتور طه عبد الرحمن، ثم الجيل الذي أعقبهم من رجالات الفكر فيها: أبو زيد المقري الإدريسي، والدكتور محمد الصُّغَير، والشاهد البو شيخي، و... وهكذا في زحام من أهل الفضل والعلم.

وفي مذاكرتهم نمط غير ما عهدناه، وعلم غير ما تعلمناه.

ودخلت الدور المغربية العتيقة التي حولت إلى مطاعم وفنادق ومتاحف، وبقي كثير منها عامراً بأهله، فإذا هي تحكي رفاهية المعيشة وترف الحياة.

واستضافني ومن معي بعض كرامها ففاجأني نوع من الإكرام ما وجدته عند غيرهم، فقد جاءت الصحاف زحوفا فلما أكلنا ورفعنا أيدينا شِبَعا رُفعت الصحاف،

ثم زفت إلينا أطباق أخرى ملأى وكنا قد شبعنا، وما علمنا أن هناك دفعة ثانية فنبقي لها من جوعتنا بقية، فأحرجنا أن يؤتى بهذا الطعام فأكلنا بمجاهدة وتجرعنا الطعام بعد الطعام تجرعا حتى كاد يغمى على كل منا من الكِظَّة، فرفعنا أيدينا، فرفعت الأطباق، لتأتي بعدها الصحون بما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، ولكن أنى لنا بعدها فقد امتلأت بطوننا وضاقت بما تحملت، فلم يسعنا إلا أن نوري بالقليل من العمل، وجعلنا نتذوق تذوقا، ولا نجد له مسلكاً.

وما علمنا أن الطعام يأتي أرسالا، ويحضر تباعا، لقد اجتمع عندهم كرم العرب، ونعمة المغرب، ورفاهية الأندلس، فجاء هذا التأنق في الإكرام.

ولا يفوق هذا الإكرام إلا تلك الدماثة في التعامل، واللطف في المعشر في كل من عرفناهم، وكأنما أجيبت لنا دعوتهم الجميلة: «الله يلَقِّينا باللِّي أَحْسن مِنَّا».

وغادرت المغرب وفيه شعبة من قلبي، وبقيةٌ من روحي، ولو اخترت أن أعيش في بلد غير بلدي لما اخترت غير المغرب بلدا.

ثم زرت وزرت، وذهبت وأتيت، ولكن لن أجعل هذه المذكرات كتاب رحلات فقد طوفت بلاداً كثيرة، وفي كل بلاد خِيارُها وأخبارها، ولكني وقفت حيث وقف بي قلبي، ونطقت بما أنطقني به حبي، ومن وجد الإكرام قيدا تقيدا.



مع الأستاذ محمد بن شريفة
رحمه الله



مع الأستاذ عبد الهادي التازي
رحمه الله

أخبار الأسفار

أولعت بالأسفار التي لا يطول أمدها، فهي تتراوح بين الأسبوع والعشرة أيام، ووجدت فيها تجديداً لرتابة الحياة، وإجماماً للنفس، وتوسيعاً لآفاق المعرفة، وتعميقاً للتفكر والنظر، وبعد هذا التطواف تُختصرُ بعض الأماكن عندي بلقطة، أو مشهد، أو حوار، وبعضها بمشاهد وأحداث، وبعضها سقطت من الذاكرة كأنه ليس فيها ما يُتذكَّر أو يروى، ولذا فسأروي هنا نثاراً من أخبار متنوعة، عن بلدان متباعدة متعددة، هي مشاعر أكثر منها مناظر، فما عاد في هذه الدنيا شيء يوصف منظرُه، إلا وقد سبقت صورتُه.

في الدنمارك كنا وقوفا في الطابور وكان أمامنا مجموعة من السياح الأمريكيين فكان أمامي رجل كهل وأمامه سيدة في مثل سنه، فكانا يتحدثان حديث المتعارفين في الطابور، فسألته أليس معك أحد؟ قال: لا، جئت وحدي، قالت: أليس لك علاقات؟ قال: في هذا السن أُصلح علاقتي مع ربي في السماء، فهي فرصتي الأخيرة، ولفت كلامه صاحبي، واندهش، لما سمع في هذا الحوار، فقلت: وما العجب إنها الفطرة التي فطر الله الناس عليها، أن تتوجه قلوبهم إليه، وتتأله له حباً ورغباً ورهباً.

لكن كيف سيروي هذا المتلهف ظمأه، إذا دخل الكنيسة وجد نفسه في أزمة مع عقله، وإن تركها عاش في حيرة مع فكره، فمتى يهتدي إلى الصراط المستقيم؟

ألا ما أعظم منة الله علينا بالهداية، وما أشد حاجتنا إلى تكرار سؤالنا لربنا: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

وفي رومانيا سألت السائق عن الفرق بين الحكم الشيوعي والحكم الذي بعده فقال: زمن الشيوعية كان معنا نقود ولا يوجد ما نشتريه، والآن كل شيء موجود وليس معنا نقود نشتريه بها.

وهي عبارة تشبه مقولة أحد الإيرانيين قال: في حكم الشاه كنا نصلي في البيوت، ونرقص في الخارج، وفي حكم الملالي نرقص في البيوت، ونصلي في الخارج.

وفي إحدى زياراتي لبانياس على الساحل السوري جلست مع أبنائي في مطعم فرأيت رجلاً كبيراً في السن على طاولة وحده ينتظر طعامه، وشعرت بكآبة الوحدة التي يعيشها، فدعوته، وقلت: تعال حتى نأكل من طعامك الذي طلبته، فضحك وفرح ولم ينتظر حتى أعيد عليه الطلب، أو أشرحه له، فجلس معنا، وحدثنا حديث عمره كله، وكان مما حدثنا عنه سفره إلى أوروبا وهو شاب ومغامراته هناك وزواجه وعلاقاته وحياته، ومتى رجع ولماذا؟ واسترسل يتحدث بنفس منفتحة استعاد بها حيويته وشهيته، وأحسب أن لذته بالمؤانسة والحديث إلينا كانت أعظم من لذته بالأكل الذي أكله، ولا زلت أتذوق سرور مؤانسته، ورفع كآبة الوحدة عنه، فهي حاجات نفسية نحتاج إلى تلمسها فيمن يحتاجها، وأن نستشعر أنها من مواضع الإسعاد والإحسان.

وفي سفرتي مع ناصر سكنت معه في فنادق الشباب (الهوستل) فإذا نمط من السفر والتجوال فاتنا نحن، فسكنتها معهم بصفة مراقب، ورأيت كيف يستمتع فيها الشباب بشبابهم، وكيف يتعارفون سريعاً، ويلهون جميعاً، ويتقاسمون بنقودهم القليلة أطعمتهم الرخيصة فتطيبها العافية والحيوية، وكيف يستغرقون في الضحك، ويستغرقون في النوم، ويأخذون نصيبهم من جنون الشباب ومرحه:

إن الشـــباب حجـــة التصابـــي روائـــح الجنـــة في الشـــباب

وفي إحدى جولاتهم السياحية خرجوا في الصباح وبقيت سيدة في بهو النُّزل فلما عادوا وجدوها ما زالت جالسة في مكانها، فسألها ناصر: ما زلت في مكانك؟ لماذا لم تخرجي معنا؟ فقالت: أيها الشقي ستدرك بعدما تتجاوز الثلاثين أن متعة الجلوس والتأمل ستصير أكثر من متعة الجولات التي يدفعكم إليها فائض الحيوية.

يقول ناصر: المشكلة أني وصلت إلى هذه المرحلة قبل أن أصل إلى الثلاثين.

وفي جلسة حوار مع أحد الشباب سأله ناصر عن هذه العلاقة الشديدة بين الشباب في الهوستل ألا ينتج عنها علاقات عاطفية دائمة فقال له: بيننا اتفاقية غير مكتوبة أن علاقة السفر تنتهي بانتهاء السفر، قلت: أما نحن فكم علاقة ابتدأت في السفر، وصحبتنا بقية العمر، كم من الخيرين من مصر أو الجزائر أو العراق أو غيرها تعرفنا عليهم في سطح الحرم في جلسة إفطار في رمضان ثم صارت معرفة وصحبة وزيارة وعلاقة مستمرة. ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

وفي إسبانيا دخلنا قلعة أثرية وبينا نحن نتجول فيها وجدنا كهلا يسوق قطيعا من الأطفال أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة.

فقال له أخي عبد الملك ملاطفا: هؤلاء كلهم أولادك؟ فضحك وقال: هؤلاء طلابي، ورأيناهم يتحدثون معه بثقة ويتحدث إليهم بود، وعلمنا منه أنه مدرس في هولندا، وأنه جاء مع الأطفال في رحلة مدرسية، وتعجبت أن يأتي أطفال في المرحلة الابتدائية في رحلة مدرسية من دولتهم إلى دولة أخرى مع مدرسهم، وتذكرت حينها ابني عندما كان في المرحلة الأولى ثانوي واستأذنوا المشرف أن يذهبوا وإياه في رحلة مدرسية إلى المنطقة الشرقية، فطلب المشرف إذن المدرسة، فطلبت المدرسة إذن إدارة التعليم، وطلبت إدارة التعليم إذن وزارة التربية، ولا أدري هل طلبت الوزارة

الإذن من الديوان الملكي أم لا؟ المهم أنه إلى هذه الساعة لم يأت الرد، وأما الطلاب فقد ذهبوا في نفس الأسبوع وبدون مشرفهم ثم عادوا بسلام، والسلام.

وفي فلورنسا مررت بكنيسة ضخمة من كنائسهم الأثرية وكنا في يوم الأحد، فتشوفت لرؤية ما فيها، فدخلت بهو الكنيسة وإذا القسيس واقف على المنصة متجلبب بأطباق من الثياب واحزمة وقلائد، وهو يخطب وكأنه في قاعة محاضرات مزدحمة بسبعة وعشرين ألفا كلهم يصفقون له.

مع أن الحضور كانوا ثلاث عجائز جلسن في آخر القاعة قريبا من الباب اثنتان تتحدثان إلى بعضهما بشيء من النميمة فيما أظن، والثالثة قد تدلى رأسها مستغرقة في نوم عميق، وقلت: سبحان الله هذه الصلاة الأسبوعية وهذا حضورها، وفي كل مسجد من مساجد المسلمين صفوف في الصلوات الخمس اليومية، فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها من نعمة.

وفي كوسوفا كنت مع أخي أبي فياض فأوقفنا على مسجد أثري قديم قبيل المغرب وأخبرنا أنه من أقدم المساجد في شرقي أوروبا، بناه العثمانيون في بداية فتوحهم، وأنه منذ بنائه وإلى اليوم لم ينقطع فيه الأذان ولا الصلاة، وبينا نحن وقوف في سكينة الأصيل، وهدوء الغروب إذ صدح الأذان الشجي من المسجد، وأصغيت إليه بتلذذ، وانتقلت في رحلة خاطفة أسرع من سرعة الضوء عبر الزمان والمكان، وكأني أنظر إلى أبي جهل، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وأشقياء قريش الذين ظنوا يوماً أنهم سيطفؤون نور الله بأفواههم، أين هم الآن ليسمعوا ما أسمع؟ هل يعلمون أن اسم محمد ودينه يتردد بعد ألف وأربعمئة سنة؟ يخترق آماد الزمن، ويعبر فجاج الأرض، هناك وراء مدينة هرقل ينادى: أشهد أن ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وصدق الله ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

وفي موريتانيا كنا نسير على شاطئ البحر فمررنا بعد الظهر بشاب عامل قد ترك عمله وفرش على الأرض قطعة كرتون يصلي عليها صلاة الظهر، لا أدري كيف طفر

إلى ذاكرتي حينها حديث حذيفة ﵁، أن رسول الله ﷺ قال لهم: «**أَحْصُوا لي كَمْ يَلْفِظُ الإِسْلامَ**، قالَ: فَقُلْنا: يا رَسولَ الله، أَتَخافُ عليْنا ونَحْنُ ما بيْنَ السِّتِّمِئَةِ إلى السَّبْعِمِئةِ؟»، وقلت في نفسي: يا لله لأصحابَ النبي ﷺ الذين رأوا أنهم صاروا كثرة كاثرة حين بلغوا السبعمئة، وها نحن في أقصى نقطة في غرب أفريقيا هي غرب العالم عندهم، ليس وراءها إلا بحر الظلمات الذي لا يدرون ما وراءه، وكل هذه المساحة متصلة بأمة مسلمة.

ليت للبرَّاق عينا فيرى

ليتهم يرون مسجدهم الذي كان يجمعهم كلَّهم رجالا ونساء صار الباب الواحد من أبوابه يرتشف في ثانية واحدة ما بين الستمئة إلى السبعمئة وصدق رسول الله ﷺ: «**ليبلغن هذا الدين ما بلغ الليل والنهار**».

وفي زيارتي لسويسرا وصلت مدينة بيل في ساعة متأخرة من الليل وكان أول شيء أفعله إذا دخلت غرفتي أن أفتح النافذة أنظر إلى ما حولي، كان سكون الليل وظلمته، وهدوء المدينة مشهداً محبباً لنفسي، ولكن عيني وقعت على نافذة بعيدة أمامي، مفتوحة على غرفة مضاءة، وإذا رجل يصلي وظهره إلى النافذة، ويركع ويسجد في هذا المكان النائي، وفي هذه الساعة المتأخرة، وفي سكون الليل، وهدوء حركة الحياة، أغلقت نافذتي ومشاعرُ تمور في وجداني لا أحسبني أحسن التعبير عنها، ما أعظم فضل الله على بعض عباده حين يختارهم دون غيرهم لمناجاته ونجواه.

وبقي المشهد حيا متألقا في ذاكرتي كأني كل ليلة أراه.

اللهم متعه حيا، وارحمه ميتا، وأفض علينا من خير ما أفضته عليه.



الابن ناصر أمام الهوستل، يذهب سائحاً كمتشرد

بقايا الأخبار

وبقي من أخبار الأسفار ما سأرويه على تحرُّجٍ واستحياء، ولكن سأنثره لكم ليكون من أبازير هذه المذكرات، ففي طلائع عام (١٤١٢هـ، ١٩٩٢م) ذهبت مع رفقة خيِّرة في رحلة سياحية، وكنت الدليل السياحي لهم لأني قد سبقتهم بزيارة هذا البلد، وكان أميرنا في رحلتنا شيخنا الجليل المبارك، وبينا نحن نسير في شارع تجاري مزدحم تلقَّفنا رجل على وجهه مسحة شيطان، يتكلم لغة عربية بلكنة أعجمية يقول: عندنا بنات، تريدون بنات، روسيات جميلات، وجعل القَوَّاد يُلح بعروضه رغم إعراضنا، فنظرت فإذا شيخنا يخب أمامنا ملتحفاً كل ثيابه التي كان يلبسها، وكأنه يسير في بعض خبوب (أرياف) القصيم، فأشرت إليه وقلت لهذا الزنيم: اذهب إلى الأمير وكلِّمه، فلما سمع كلِمة الأمير انفلت إليه عَدْواً ولم يتردد، مع أنه يراه يرفل في جلبابه الطويل، ويحمل لحية كثة مسترسلة، ويعتمر طاقية بيضاء على هامته.

وجعل يتفلَّت عليه ويقول: عمي عندنا بنات، روسيات، والله حلوات، فغضب الشيخ وقال: نحن مسلمون، نحن مسلمون، فقال بإصرار: عندي مسلمات، والله مسلمات حلوات، فكان كمن أراد أن يُكَحِّل عيناً فقلعها، فزاد غضب الشيخ ونُفرته؛ فهي المرة الأولى في حياته يسمع هذا العرض الفاحش بهذه الوقاحة، وكاد أن يقع بينهما ما لا تحمد عقباه لولا أن أدركناه وتداركناه، وخلصناه منه وجعل الشيخ يقص

لنا ما قال له مستنكراً متعجباً، وكأنها من عجائب الدهر، ولا يعلم –حفظه الله– إلى هذا اليوم أن ذلك مما عملت أيدينا أنا وذاك القفاري، عفا الله عنَّا.

وما أسرع ما عوجلت بالعقوبة وأحاطت بي عاقبة السوء، وذلك أن شيخنا اقترح علينا قبل يوم من المغادرة أن نذهب إلى شارع الاستقلال ونتفرق هناك؛ ليشتري كل منا ما يرغب من هدايا لأهله، فذهبت معهم إلى هناك وتفرقنا في الميدان، ولأني لا أحب الأسواق ولا التسوق فقد أطلقت العنان لساقي أسير في زحام الناس، تقودني الكثرة بلا وجهة، وكان المشي متعتي في هذه الأزقة التي ينتهي إليها شارع الاستقلال، وجعلت الجموع تسير بي من غير فكر مني، فليس ثمَّ وجهة أقصدها ولكن ثمَّ وقت أقضيه، وسارت بي الجموع وسرت معها وإذا بها تزدحم عند بوابة حديدية كبيرة، وكلهم يدخلونها فدخلت معهم، ثم رأيت بعض الجموع تأخذ في زقاق ضيق ذات اليمين فأخذته معهم فانتهى بي إلى طريق مسدود، ولفت نظري أن أبواب البيوت كلها مفتوحة يحجبني عنها زحام أمام كل باب منها، وكأن هؤلاء الواقفين ينظرون إلى شيء ملفت لهم، فحملني الفضول وحب الاستطلاع أن أتطلَّع حيث يتطلَّعون..

وكانت المفاجأة الصادمة التي لم أستوعبها من أول نظرة؛ فقد رأيت نساء متفاوتات الأعمار متبذّلات، ينظرن إلى هؤلاء الواقفين بإشارات مريبة، ونظرات وقحة، والتفت أنظر إلى وجوه الواقفين فقرأت في بعضها التردد، وفي بعضها السخرية، وفي بعضها ما لست أدريه ولا أصفه.

وأصبت بحيرةٍ ودهش: يا ألله أيّ قاعٍ هذا الذي سقطت فيه؟

ولما ترادَّ إليَّ وعيي وذهبت حيرتي عرفت أني في شر مكان يمكن أن أكون فيه، وأن هذه بيوت اللذة المحرَّمة، وهاته النساء هن من كنا نسميهن: «المومسات»، ثم صرن يسمين: «بائعات الهوى»، وشعرت بما يشبه الدوار، ورغبة في التقيؤ، وخطرت ببالي أسوأ الظنون.

ماذا لو رأى أحدهم إمام الجامع ومدرس الشريعة في هذا المكان الذي لا يقصده ولا يصله إلا خبير بدروبه، ومتوجِّه إلى متعه؟!

ورهقني كرب عظيم، كيف سأخرج وأستتر بستر الله عليَّ؟ ونظرت إلى آخر الزقاق فخُيِّل إليَّ أنه أطول من محيط الكرة الأرضية، وأخرجت منديلاً غطيت به بعض وجهي، وجعلت أسير وقد دليت رأسي في الأرض وأنا ألهج بالدعاء: ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون، ولا أدري كم استغرقت من الوقت وأنا أقطع غمرات هذا الزحام، ولكن يُخيِّل إليَّ الآن أنها قرابة ثلاثة قرون ونصف.

ولما لفظتني تلك الأزقة الموبوءة بعد هذا العناء إلى فضاء ساحة عامة وطريق سالكة، وترادت إليَّ نفسي قلت: الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين.

يا ألله هل دعت عليَّ أمي يوماً كما دعت أم جُريج على جُريج يوم قالت: اللهمَّ لا تمته حتى تريه وجوه المومسات؟! اللهمَّ قد رأيتها فاجعله آخر العهد بها.

وبقي المشهد المقزز لهؤلاء المتزاحمين أمام الماخور يتعاقبون على أجساد قذرة كالمراحيض العامة، يصيبني بالاشمئزاز كلما تذكرته، حفظني الله وإياكم وإياهم من الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

ذاكرة الأماكن

كانت وما زالت علاقتي بالمكان، والحنين إليه، واسترجاع جماليات الزمان بالرجوع إلى المكان، فقد عشت معنى البكاء على الأطلال، وتذوقت لوعات الشعراء إذا وقفوا حيث كانوا فبكوا وأبكوا.

وقوفا بها صحبـــي علي مطيهم   يقولون لا تهلك أســـى وتجلد

ومن الذي لا يلتاع للوعة كُثيرَ وقد هاجته ذاكرة المكان وذكرياته.

خَليلَيَّ هَـــذا رَبعُ عَـــزَّةَ فَاِعقِلا   قلوصَيكُما ثُـــمَّ اِبكِيا حَيثُ حَلَّتِ
وَمُسّـــا تُراباً كَانَ قَد مَسَّ جِلدَها   وَبيتا وَظِلاَ حَيـــثُ باتَت وَظَلَّتِ
وَلا تيأَســـا أَن يَمحُـــوَ اللهُ عَنكُما   ذُنوبـــاً إِذا صَلَّيتُمـــا حَيثُ صَلَّتِ

ولا يهتاج لما أهاج عروة وأذرف دمعه.

أفي كل يـــوم أنـــت رام بلادها   بعينيـــن إنســـاناهما غرقـــان
ألا فاحملانـــي بـــارك الله فيكما   إلـــى حاضر الروحـــاء ثم ذراني

ومن الذي لا يتوجد لتذكار عهودٍ مضت، وأيام خلت، قد بعدت مواضعها وأوحشت أماكنها، وما أبرع تصوير أحمد شوقي للوعات النفوس حينما تحدثها الأرض أخبارها،

وتستثير الأماكن ذكرياتها، حينما أنشد على لسان قيس بن الملوح في مناجاة شاجية حديثه إلى مرابعه عند جبل التوباد:

جبل التوباد حياك الحيا ... وسقى الله زمانينا ورعى

فيك ناغينا الهوى في مهده ... ورضعناه فكنت المرضعا

وعلى سفحك عشنا زمنا ... ورعينا غنم الأهل معا

هذه الربوة كانت ملعباً ... لشبابينا وكانت مرتعا

كم بنينا في حصاها أربعاً ... وانثنينا فمحونا الأربعا

وخططنا في نقا الرمل فلم ... تحفظ الريح ولا الرمل وعى

كلما جئتك راجعت الصبا ... فأبت أيامه أن ترجعا

قد يهون العمر إلا ساعة ... وتهون الأرض إلا موضعا

ولا أحسب قيساً لو وقف بها سيقول أروع مما قال شوقي على لسانه.

وقد عشت أحاسيس المكان واسترجعت ذكرياته في كل مكان أعود إليه كان لي فيه ذكرى.

خُلقتُ ألوفا لو رحلت إلى الصبا ... لفارقت شيبي موجع القلب باكيًا

سرت مع أبي في طرقات الزلفي القديمة، وبين بيوتها الطينية بعد أن صارت أطلالاً، ورأيت كيف اهتاج لرؤيتها واستذكر الماضي البعيد وهو يقول: في هذه الطريق كنت أسير مع أمي، ثم تختفي مني داخلة على صديقة أو قريبة، هنا مدارج أقدامها، يا ألله كأنها بالأمس كانت هنا، ثم يتوقف ساهما وكأنه ينتظرها لتخرج إليه.

كم عدت إلى حارة دخنة أستعيد شبابي الذي تركته فيها، وزرت حي الشهداء الشمالية في الطائف استرجع عمري الذي تركت قطعة منه بها.

وكم زرت أماكن تاريخية فكأن أصحابها نشروا لي فيها.

وعندما أقف في مكان له ذكرى مهما بعدت فإنها تتراجع في تخيلي حتى كأنما أعيشها.

دخلت مسجد قرطبة فكانت لي فيه خطوات حائرة، ونظرات شاردة، فكأنما أرى أعلام الأندلس تدف أقدامهم فيه وهم يرتدون برانسهم، وتنشر الكتب في حلقاتهم، كأنما ابن عبد البر، وابن حزم، وابن رشد وأعلام قرطبة وعلماؤها الذين أشرقت شموسهم من هذا المشع العملي العظيم وكأنما نشروا في فنائه، وجلسوا في بهوه، وتفرقوا عند أعمدته، فأنست بهم، وسمعت حوارهم وجدلهم، هذا مصلى المنذر بن سعيد إمام قرطبة، وهذا منبره، وهنا كانت خطبته.

هنا دفت أقدام علماء أعلام، وأئمة عظام، وفي هذه الجنبات كانت حلقهم وأنوار علومهم هنا كانت، وهنا كانوا.

لقد كان هذا المسجد جامعاً وجامعة، وكان بناؤه آية في العظمة والمتانة ودقة الصنعة، وما زال إلى اليوم يتحدث بصمت مهيب عن عزه القديم ومآثره السالفة.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصَّفا أنيسٌ ولم يسمر بمكة سامر

ودخلت مسجد أيا صوفيا ورفعت رأسي أنظر إلى سماء قبته وطالت قامتي زهواً حتى ظننت أني مسستها أو كدت، وعشت نشوة الانتصار وظفر الفتح.

وفي مصر ذهبت أنا وأخي أبو هاني وأنا أقول له: نريد أن نذهب إلى مسجد المؤيد الذي دَرَّس فيه العيني وابن حجر، فطال عليه الطريق وأعياه المسير، فلما وصلناه بعد عناء، قال: والله لو كان ابن حجر جالسا ينتظرنا لما سرت معك في هذا الطريق.

أما أنا فكان لي شأن آخر، فهذا المكان قد عرفتُ خبره وقرأتُ سيرته في كتاب «إنباء الغُمْر» لابن حجر، وقصة بنائه، ومن وُظِّف في تدريسه، فعادت كل هذه الأخبار أشباحا وأرواحا.

وزرت بيت شيخ العربية محمود شاكر بعد وفاته وكان تعمره أم فهر -رحمها الله- فتلقَّتنا بحفاوة، وألفينا سيدة كريمة هي الطيبة كلُّها، وكانت تعيش في البيت مع طيف الشيخ وذكرياتها معه، تجد في كتبه البقيَّة من ذكراه ولذا رفضت بيعها، وشقته مكتبة كبيرة يعيش فيها فلا يرد بصره إلا الكتب، في المجلس، والصالة والطرقات وبقية الغرفات، فالكتب تحيط بك حيث نظرت.

جلست في مجلسه حيث تعقد ندوته ويقصده طلابه ومريدوه، وتذكَّرت وصف نجيب الكيلاني لكرمه على ضيوفه، وما كانت أم فهر تتفنن في إعداده لضيافتهم.

وعلمت من حال الشيخ من مرافقيه أن علمه يظهر في حواره إذا حاور، وفي بحثه إذا بحث، أما التدريس والمحاضرات فليست هي أفقه العلمي الذي يُحلِّق فيه، وأعلمُ الناس بقدره أكثرهم عِلماً وتخصصاً، ولذا فإن تلاميذه ومريديه هم نوابغ المحققين؛ كالدكتور محمود الطناحي، والدكتور عبد الرحمن العثيمين، والدكتور عبد الرحيم عسيلان، ونحوهم، ولقد لقيت الدكتور الطناحي فلما فتح الحديث عن أبي فهر نسى نفسه وهو يتحدث عن شيخه وكأنه يتكلم عن المبرد أو الأخفش.

وجلست على مكتبه أُقلِّب نسخته من لسان العرب، والتي وشاها بتعليقاته وتحريراته بخطه الدقيق على حواشيها بالقلم الرصاص.

وأحسب أن في هذه التعليقات نفائس وذخائر لو جمعت واعتني بإخراجها لكانت إضافة لغوية نفيسة من علم من أعلام العربية وعلمائها.

رحم الله الشيخ أبا فهر قد كان نمطاً فريداً، ونمطاً صعباً.

وزرت كرمة ابن هانئ وهو قصر أحمد شوقي فوجدت فيه ذوق الشاعر وفنه، ورأيت خط أحمد شوقي عندما تداهمه الخاطرة فيكتبها على علبة سجائر أو ورقة مستخدمة، وصورته مع سعد زغلول ومحمد عبد الوهاب، وهذا صالونه وهذه مكتبته، وهذه غرفة نومه، وهذا سريره الذي لفظ عليه آخر أنفاس حياته.

زرت بيت طه حسين (رامتان) في شارع الهرم وسوف تكتشف أنه بيت كفيف لم يشارك في لمسات بنائه.

قصر أحمد شوقي بيت فنان، وبيت طه حسين منزل كفيف.

لفت نظري في بيت طه حسين مكتبه ومكتبته، وعجبت من قلة الكتب التي لم تملأها، ولو ملأتها ما كانت كثيرة، إنها مكتبة أديب وليست مكتبة عالم، ورأيت مجلسه الذي يعقد فيه ندوته كل أحد فإذا هي مقاعد معدودة فتوقعت أنها مجلس رفقة وليست ندوة مفتوحة كندوة العقاد.

زرت بيت العقاد الذي جعل منه رواية في كتابه «في بيتي» وكأنما كنا نسكن معه فيه، فوجدته مأهولا بأسرته وبنات أخيه، وما زالت اللوحة التي تحمل اسمه على بابه، فدخلنا صالونه الذي كان يعقد فيه ندوته، والذي صنع منه أنيس منصور عالَمَ ملحمته «في صالون العقاد كانت لنا أيام».

رأيت المكتب كما كان، والمقاعد كما كانت، والغرفة الصغيرة التي تسمى صالونا، وكيف كانت تتسع لكل رواد الندوة.

تجولت في خان الخليلي، وأطيافُ حارات نجيب محفوظ تتراءى لي، حتى يخيل إلي أني سأقابل سي السيد، وسأرى أحمد عاكف، والمعلم نونو، وكمال وياسين.

زرت السكرية أبحث عن النافذة التي كانت عائشة تطل منها، ووقفت بين القصرين أحاول أن أرمق عين أمينة تومض خلف شيش النافذة.

ودخلت زقاق المدق، وجلست أمام قهوة المعلم كِرشَة، وتعجبت كيف جعل خيال نجيب محفوظ من هذا الزقاق القصير الصغير ميداناً لأحداث وحوادث روايته الشائقة.

ودخلت مسجد دمشق وخيل إليَّ أن معاذ بن جبل خرج منه للتو، وأن عبادة بن الصامت قادم إليه، وأن عمر بن عبد العزيز سيؤمنا في محرابه.

نظرت إلى أعمدته الهائلة وأروقته العالية، وكأنها أجنحة النسر إذا بسطها، وفي وسطه قبة النسر حيث كانت تُعقد تحتها الدروس الحافلة لعلماء الشام، هنا كان ابن عساكر، وابن تيمية، والمزي، والعز بن عبد السلام، والبلقيني، وبدر الدين الحسني.

هنا رياض علمهم، ومجالس تدريسهم.

ثم أقفرت مرابعهم، وأوحشت مجالسهم، وحالت وتحوَّلت، وقلت كما قال أحمد شوقي:

مررت بالمسجد المحزون أسأله هل في المصلى أو المحراب مروان

تغير المسجد المحزون واختلفت على المنابر أحرار وعبدان

فلا الأذان أذان في منارته إذا تعالى ولا الآذان آذان

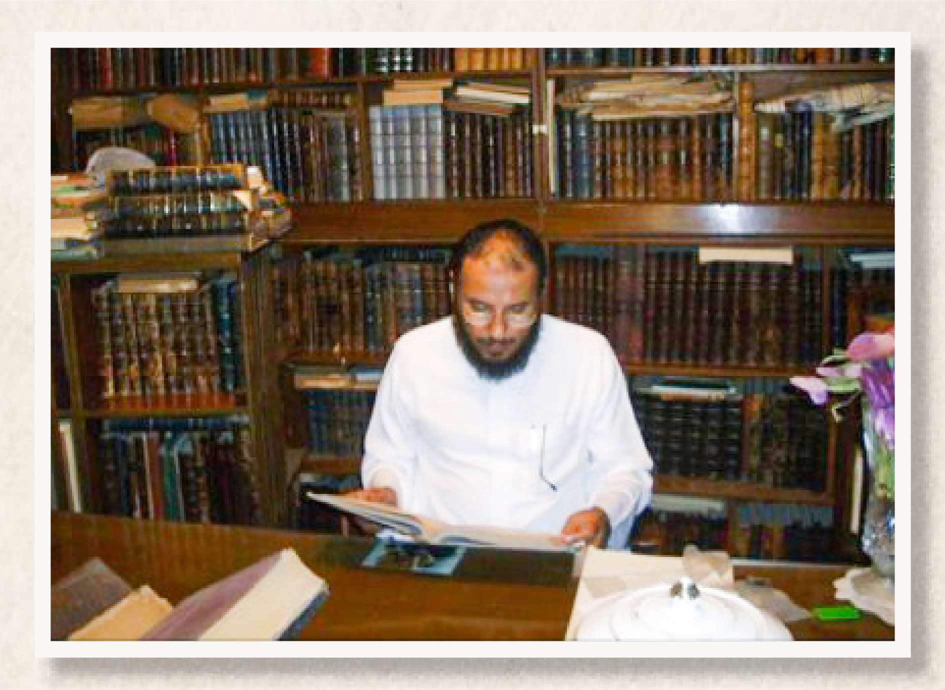
وقفت أمام أبراج قلعة دمشق التي سجن فيها ابن تيمية ومازال المشهد يتكثف في خيالي حتى ظننت أني لو صرخت لرد عليَّ ابن تيمية، ولو انتظرت لخرج إليَّ ابن القيم.

وحضرت الدروس الحسنية في الدار البيضاء فلما انتهى الدرس وخرجنا من البهو كنت أسير في حشد من علماء المغرب ببرانسهم الزاهية، وأرديتهم الضافية، فسافر بي الخيال إلى الأندلس وعلمائها، وقصور ملوكها وأيام مجدها، إنها ليلة من ليالي مجد

الأندلس، وكأنما خرجنا من قصر الزهراء أو الحمراء، ومن ضيافة المعتمد بن عباد، أو المنصور بن أبي عامر، أو الحكم بن هشام.



في صالون العقاد كانت لنا ساعة



على مكتب الشيخ محمود شاكر رحمه الله



مع الناشر المعلم مدبولي رحمه الله، برفقة الابن محمد

أصدقاؤنا

في كل محطات العمر كنت محفوفا ومحظوظا بالأصدقاء الرائعين، وأما ذم الناس والشكاية منهم فشيء قرأته ولم أشق به، وقد اتضح لي أن أكثر الناس ذماً للناس هو أقلهم عطاء ونفعا لهم.

وما زالت ماثلة لي تلك الحكاية التي سمعتها أن رجلا قال: لا زلت أبحث عن صديق فلم أجده، فقال له حكيم: أنت تبحث عن صديق يعطيك، ولو بحثت عن صديق تعطيه لوجدت كثيرين، فكل علاقة مشروطة بالمنافع فهي قصيرة المدى ضيقة الأفق، أما الصداقة عندما تكون إلفاً ومودة وليست معاوضة ولا مقايضة فهي العلاقة العميقة والمديدة، وهي الأنس في الرخاء والذخر في الشدة.

ألا إن خير الود وُدٌّ تطوعت به النفس لا ودٌّ أتى وهو متعب

وقد أجارني الله أن أشقى بما شقي به ذاك القائل:

وزهَّدني في الناس معرفتي بهم وطُول اختياري صاحبًا بعد صاحبِ

فلم تُرِني الأيامُ خِلّاً يسرُّني بَواديه إلا ساءني في العواقبِ

فلم أقل بقوله، ولم أتمثل به، وإنما سعدت بكثير ممن عرفت، وأنست بأكثر من لقيت، وكان طريق الحياة عامراً بالمودات، مزدحماً بذوي المروءات والمكرومات،

والذين كانت صحبتهم أُنساً، ومعرفتهم غِنى، ولقيت من برهم وفضلهم ما أعجز عن ذكره وشكره.

وأحسب هؤلاء الذين أولعوا بذم الزمان وأهله إنما يريدون أن يزكوا أنفسهم، وكأنهم الاستثناء الوحيد من حال زمانٍ سيئٍ بأناسيِّه.

ووالله إني لجحود كنود إن ذممت هذا الناس وفيهم من كرام من عرفت مَن هُم زينة الدينا وبهجة الحياة.

وكيف أذم هذا الزمان وفيه لقيت د. نبيل الراجح، ود. محمد التركي، والشيخ محمد الفراج، والشيخ محمد بن ناصر العجمي، ود. خالد البهلال، وخالي ناصر، وطارق المسفر، وسليمان البطحي، وسعد الحميد، وحمد الغماس، وسعد الزيد، وعبد الرحمن المجيدل، وأحمد الصقر، ود. عائض القرني، ود. عمر المقبل، ومحمد الحمد، وعبد العزيز الدهش، وخليل التويجري، ود. محمد بن سعيد القحطاني، ود. عبد الله الصبيح، ومحمد زبير جامي، وخالد القفاري، وعبد الرحمن النصيان، وعبد الله الأومير، وعبد العزيز الحسين، وعبد الله المحسن، ود. سلمان العودة... وغيرهم وغيرهم، وبقيةٌ لم أذكرهم هم كاللؤلؤ المكنون في قاع الأعماق من شغاف القلب، ولو كتبت مَن أعرف من نظائر هؤلاء لما كفت سطور ولا صفحات، فهل يذم زمان فيه هؤلاء أو بعضهم؟!

أحبابنا ما أجمل الدنيا بكم   لا تقبح الدنيا وفيها أنتم

ولقد لقيت من أصدقائي أنواع الألطاف والمباهج، وتلذذت بمشاركتهم أفراحي فكبرت واتسعت، وواسوني في شدائدي فهانت وصغرت، وأتحفوني بأنواع من البر ومواقف المروءة والنبل لا ألحق لها كفاءً ولا أستطيع لها جزاءً.

مرضت وبقيت في المستشفى أسبوعا في غرفة العناية الفائقة ومرافقي صديقي الصدوق أبو ريان، فكيف أنسى له هذا الجميل.

وعزلت من وظيفتي فجاء كثيرون يعرضون هباتهم ومعونتهم إن كنت أحتاجها، فشكرتهم أبلغ الشكر، واعتذرت إليهم أرق الاعتذار، وبقي جميلهم وكريم موقفهم حياً في نفسي لا يبلى ولا يُنسى.

واغتربت فكان منهم من ركب الطائرة وسبح خمس ساعات في الفضاء ولا حاجة له إلا أن يلقاني ويطمئن عليَّ ويتلمس حاجاتي، وهكذا كانت حياتي مأنوسة بأصدقاء الصدق، الذين عُمِّرت موداتهم في حياتي، وتنقلت في مراحل عمري، وكبرت معي كلما كبرت.

وكانت علاقتي بأصدقائي تمتد إلى أسرهم فأتعرف على آبائهم وأمهاتهم وإخوانهم، وقد امتدت صداقتي بأخي سعد بن العزيز الزيد إلى والده ووالدته أمي نورة الصُّبَي رحمهما الله، وإخوته جميعاً، وكنت أتحدث إلى والدته وأسافر مع أبيه، وأدخل دارهم وكأني في بيتي.

وتوثقت علاقتي بأخي محمد التركي وبوالده ووالدته وأخويه الدكتور عبدالله والأستاذ تركي، وبقرابته، وكنت أتحدث إلى والدته أمي حصة السلمان بعفوية ووداد، ولم تتحمل نفسي أن أغير اسمها أو رقمها بعد وفاتها، وبقي في هاتفي بحاله كأنما هو بقية الأنس بها رحمها الله.

وكنت أتصل وأزور أمي نورة اللحيدان رحمها الله والدة أخي سلمان العودة، وكم استللت منها بعض ما كان يخفيه عني، فإذا جاءها قالت له: «كَلَّمَنْ عبدالوهاب وتَرَايْ شَقَّيْت غَرْبِكَ»[١].

(١) بلهجتها القصيمية ومعناه: أظهرتُ له ما كنتَ تخفيه.

وهكذا بقية الأصدقاء أكون قريبا من أقاربهم حتى لا تدري من الذي تعرفت عليه بواسطة الآخر.

وما زالت حياتي مأنوسة بإخوان الصفا وخلان الوفاء لا حرمني الله أنس الحياة بوجودهم، وكأنما استجيبت لي دعوة أهلنا في المغرب: الله يُلقينا بمن هم أحسن منا.

وفي أصدقائي من هم أكبر مني سنا، رجالاتٌ؛ أهل مروءة وكرم، ووفاء ونبل، تتمثل فيهم مروءات العرب في الجاهلية والإسلام، واستفدت من صحبتهم تلقي المكارم عن أهلها، وخبرة الحياة ممن جربها.

وكان ممن سعدت به منهم: الأعمام إبراهيم بن عبد العزيز الشتوي، وعبد الله بن علي الخضيري، وسعد بن عبد الله الموسى، وعبد الله بن إبراهيم بن راشد، وعبد الرحمن بن ناصر الرشيد، ومحمد بن عبد الله الفهد، ومحمد بن صالح بن سلطان، ومحمد العثمان الرشيد، ود. محمد بن أحمد الرشيد، ومحمد بن عبد الله الغماس وغيرهم، وفيهم العباد الأتقياء الأنقياء، ومنهم: الأعمام جاسر العبد الكريم الجاسر، وعبد العزيز بن سعد الزيد، وعبد المحسن بن عبد الرحمن التركي، وغيرهم رحمهم الله.

ومنهم لداتي وأترابي، وهم جم غفير أَعدُّ منهم ولا أعدهم.

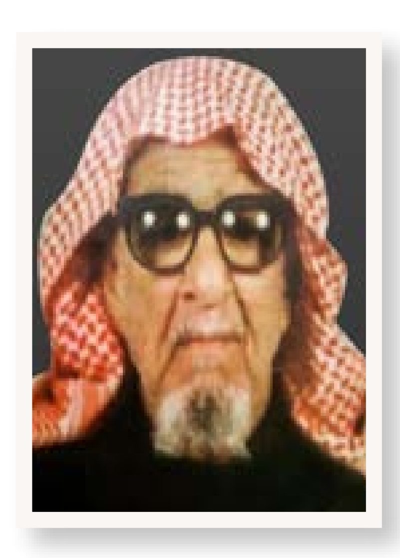
ومنهم من هم أصغر مني سنا وهم أصدقاء أبنائي الذين أنست بهم، وصرت أنافس أبنائي عليهم أيُّنا أقربُ لهم وُدًّا.

ولم أشق بما شقي به لبيد حين قال:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقيت في خلف كجلد الأجرب

ولم أقل كما قال من بعده: كيف لو أدرك زماننا؟!

بل قلت: في كل زمان خياره وأفاضله، ولو خليت لخربت، ولقد لقيت في كل بلد زرته، وكل جيل عاصرته من كرام الناس من كانت معرفتهم من غنائم العمر وبهجة الحياة، أمدَّ الله في أعمارهم، وبارك لهم في آثارهم، وزادهم من كريم فضله وجزيل عطائه.



العم الشيخ إبراهيم الشتوي
رحمه الله



العم الشيخ عبدالله بن علي الخضيري
رحمه الله



العم الشيخ عبدالرحمن بن ناصر الرشيد
رحمه الله



العم الشيخ عبد العزيز بن سعد الزيد
رحمه الله



العم الشيخ ناصر بن محمد الحسين
رحمه الله



معالي د. محمد بن أحمد الرشيد
رحمه الله

مشايخنا

بدأت علاقتي بحلق العلم حضوراً واستماعاً في مرحلة مبكرة بالنسبة لأقراني، فقد بدأت في المرحلة المتوسطة حيث كان أبي يأخذني لنصلي العصر في الجامع الكبير ونحضر بعده درس الشيخ ابن باز في «صحيح البخاري»، والقارئ عليه الشيخ محمد ناصر بن باز، أتذكر الحضور القليل وكلهم من كبار السن، ولم يكن فيهم أحد من أقراني، وأتذكر الحديث الذي قرأه وهو حديث أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان**»، وأتذكر شرح الشيخ بنغمته المميزة.

وبعد انتهاء الدرس تقدم إلى الشيخ أعرابي سأله عن مسألة في الطلاق فأفتاه الشيخ فقال: أعطني كتاباً، قال: تعال غداً ضحى في البيت.

فعلمنا أن للشيخ جلسة علم في الضحى، فلما كان الغد أخذني أبي وذهبنا إلى بيت الشيخ وجلسنا، وكانت جلسة إفتاء وقضاء حوائج، ورأيت فيها عطاء الشيخ وقيامه بأمر الناس، وأرتسم المشهد في ذهني، فلما عدنا سألت أبي ونحن في الطريق عن حال الشيخ هذه، وما تأخذ من جهده ووقته، وكنا نسير متحاذيين فلما سألته هذا السؤال استدار أمامي حتى استقبلني وهو يقول: كيف لا يكون كذلك وهو يحتسب عند الله حديث: «**إن الله وملائكته، وأهل السموات والأرضين، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير**»، وألقاها بطريقة مؤثرة حتى إني أتذكر

المشهد والمكان والزمان، وأشعر أن نفسي تشربت هذا المعنى، وأنه بذلك ألقى البوصلة في يدي، وتحدد بذلك طريقي واتجاه سيري.

ثم واظبت على حضور ندوة الجامع الكبير الأسبوعية، وكنت وأنا في حلقة التحفيظ أرى في ناحية المسجد حلقة الشيخ ابن جبرين والتي كان الحضور فيها لا يتجاوزون الثلاثة وقد يقلون.

وكانت بعد صلاة العصر، وكذلك كنت مستمعاً لدروس الشيخ عبد الله بن غديان وكان إمام مسجدنا وله درس مطول قبل صلاة العشاء في «منتقى الأخبار» وكان يفضله على غيره من كتب أحاديث الأحكام.

وأما القراءة على المشايخ في المساجد على النمط العتيق فقد بدأت بها في السنة الأولى الثانوية عام (١٣٩٦هـ)، وكان أول درس بدأته على الشيخ عبد العزيز آل الشيخ في كتاب «عمدة الأحكام» مع شرحه «تيسير العلام»، وكنت في السادسة عشرة من عمري، وكان الشيخ في الثالثة والثلاثين، وتحولت التلمذة على الشيخ إلى أُلفةٍ وصُحبةٍ وخُلطة، وممن كان يشاركني القراءة الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم القاسم وكان يقرأ على الشيخ في فتاوى ابن تيمية بعد العصر، وفي «فتح الباري» بعد المغرب، وكنت مستفيداً مما أسمع ومما أقرأ، وكان للشيخ استظهار لكلام ابن تيمية واختياراته وإعجاب مفرط بعلم شيخ الإسلام وسيرته.

ثم طلبت إلى الشيخ عبد الله بن جبرين القراءة عليه وأنا في السابعة عشرة فكان الدرس عليه بعد صلاة الفجر يحضر معي عنده الأخ أحمد السناني، في شرح الطحاوية، والأخ عبد الله اليمني.

ثم تحول الدرس إلى بعد العشاء ويشاركني فيه الشيخ عبد المجيد الريمي رحمه الله، ثم تحول إلى ما بعد صلاة العصر يشاركني فيه العم ناصر البصري، وشيخ من المجالسين نسيت اسمه، وكانوا يقرؤون قراءة للبركة والمحبة وقد كبروا ولهم

أعمالهم وأشغالهم ولذا يبدأون قبلي ثم يذهبون إلى أعمالهم وأبقى في الدرس الأخير أنا والشيخ وحدنا، ومع ذلك يشرح لي وكأنه في قاعة محاضرات، ويتدفق وكأنه شلالات نياجرا.

أما الشيخ عبد الله بن غديان فقد طلبت منه أن أقرأ عليه فلم يستجب لي، وشعرت منه أنه يراني دون ذلك، وكان مصيباً في رأيه ذلك، فما كنت على مستوى طرحه الأصولي ولا نمطه العلمي، فقد كان الشيخ طفرة جينية في البناء العلمي التقليدي، وكان توجهه للأصول والمنطق خلاف المسار السائد في وقته، ولم يكن أصولياً تقليدياً ولكن كان فارساً له نظره واجتهاده الخاص.

ومع أنه اعتذر عن القراءة عليه لكنه وجهني بنصيحة علمية ثمينة ما زلت أُلقيها على أبنائي ومن ألتقيهم من طلبة العلم في بداية طريقهم، وهي العناية في البدايات بالتأصيل والتعمق، ثم البحث والتوسع، وأن التوسع لا يكون إلا بعد التأسيس وبناء القاعدة المحكمة.

وفي السنة الأولى من المرحلة الثانوية زرت مجلس الشيخ ابن باز بعد المغرب لدعوته لإلقاء محاضرة في مدرستنا الثانوية، ففوجئت به ينادي: عطونا «صحيح البخاري» نسمع صوت عبد الوهاب، فقرأت الحديث الأول حديث عمر: «**إنما الأعمال بالنيات**» قراءة حسنة بالنسبة لسني، أو هكذا أظن، وبدأ الشيخ شرحه فسألته عن مناسبة هذا الحديث لباب «كيف كان بدء نزول الوحي على رسول الله ﷺ» فرأيت اشراق وجهه وإعجابه بالسؤال، ثم شرح لي أن هذا الحديث في مقام الخطبة للكتاب.

وبيني وبينكم أني كنت أعلم ذلك من قبل فقد قرأته في «فتح الباري»، ولكنه نوع من غرور الصغير إذا ظن أنه صار كبيراً.

ثم صرت أحضر دروس الشيخ مستمعاً، وكانت بعد الفجر أربعة أيام في الأسبوع، وكانت في بداياتها حلقة واحدة غير واسعة، وذلك عام (١٤٠٠هـ) وما بعده، وما

زالت تتسع حتى صارت الحلقة حلقات، والحضور بالمئات، وصرنا إذا حضرنا لصلاة الفجر وجدنا الكتب منشورة على أرض المسجد يحجز بها أصحابها مجالسهم، ثم طلبت من الشيخ أن أقرأ عليه في «صحيح ابن حبان» فقرأت عليه قرابة جزء من أوله.

ولم أكن من خاصة الشيخ أو طلابه الملازمين، وكان أكثر طلابه ملازمة له واستفادة منه الشيخ عبد العزيز الراجحي، والشيخ عبد العزيز بن إبراهيم بن قاسم، والشيخ عبد الله بن مانع، والشيخ فهد السنيد، والشيخ علي المري، ود. صالح العقيل، ود. عبد العزيز المشعل وغيرهم.

وحضرت دروس الشيخ عبد الله بن حميد في مسجد حينا في «الروض المربع» وبعض كتب أئمة الدعوة، ولدروسه رحمه الله رونق وجاذبية، وطريقته في الشرح مرتبة، ومعلوماته منظمة، وتنسيقه فيها بديع، وأحسب أن إخراجها ونشرها مفيد جداً، فقد كان الشيخُ شيخَ المذهب في وقته.

وقد كان علماء نجد في مجملهم على سنة واحدة، ومستوى متقارب، وكان تمكنهم في العقيدة وبخاصة توحيد العبادة، والفقه على مذهب الإمام أحمد، وكان الشيخ عبد الرحمن بن سعدي طفرة فقهية في خروجه عن المذهب وتنوع اختياراته، والشيخ ابن باز طفرة حديثية في عنايته بكتب السنة وتصحيح الحديث، والشيخ عبد الله بن غديان طفرة أصولية لرسوخه في الأصول والمنطق، والشيخ بكر أبو زيد طفرة بلاغية في أسلوبه الأدبي المتميز، مع اشتراكهم جميعاً في بقية العلوم.

ثم تعرفت على علماء أهل فضل ورسوخ من خارج محيط النشأة والتَّلقِّي الأول من علماء الأمصار، من الحجاز، والشام، والمغرب، ومصر، واليمن وغيرها، فجلست إليهم وذاكرتهم وشاممت علمهم، فَفُتِحت لي بمعرفتهم آفاق أخرى، وكانوا في مجملهم أصحاب إفادات علمية ومنهجية وتربوية، ومنهم الشيخ أحمد معبد، والشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والشيخ عبد الله بن بية، والشيخ عمر بن حامد الجيلاني، والشيخ

محمد سالم عدود، والشيخ جعفر شيخ إدريس، والشيخ مصطفى البحياوي، والشيخ محمد أمين سراج وغيرهم.

وفي لقاء العلماء من مدارس متعددة إفادة وإضافة، وتهذيب للشطط الذي يَتَكوَّن من أُحادية التلقي، وتَصورٌ للآراء الأخرى ممن هو مقتنع بها، فتأخذ وجهة النظر من أكثر من زاوية.

وهذا ما أفدته من لقائهم، فقد تعلمت منهم سمتاً وهدياً، وعرفت منزعهم فيما يخالفون فيه ووجه قناعتهم، وسماع الحجة في مقام الاستدلال بها غير سماعها في معرض الرد عليها، فخفف عندي ذاك الحسم الذي كنت آخذ به بعض المسائل المختَلَف فيها، ووضعت كثيراً من مسائل الخلاف في حجمها الطبيعي، وفتحت في تفكيري نوافذ كانت مغلقة، وأبواب كانت موصدة.

وهذه الإفادات إنما يلقاها طالب العلم إذا كان يلقي هؤلاء الأعلام ليستفيد منهم ويحفظ لهم أقدارهم، لا أن يذهب إليهم مناظراً لهم، مستعلياً بما عنده على ما عندهم، فلن يرجع حينئذ إلا خائباً ممقوتا.

ثم انتشرت الدروس العلمية، وكان أقلها فائدة تلك الدروس الطوال التي تستمر لعشرين سنة وهي لم تتجاوز كتاب الصلاة، ولا أدري ماذا سيستفيد طالب من درسٍ يدخله وهو طالب ويتخرج منه بعد أن يحال إلى التقاعد.

ثم تطورت الدروس إلى دورات مكثفة يَعلَم الشيخ والطالب متى تبدأ ومتى تنتهي وما سيشرح فيها، وهذه كانت أكثر تأصيلاً واختصاراً وإفادة، وهي ما أعتقد أنه المناسب الآن لطلبة العلم والأفيد لهم.

ومما كنت أُحذِّر الطلاب منه عندما كنت مدرساً في الجامعة أن يعتمدوا على الدروس المسجدية ويظنوا أنها تجمع علماً أو تصنع عالما، وأنهم إذا حضروا درساً أسبوعياً عند عالم صاروا كابن حجر أو ابن باز.

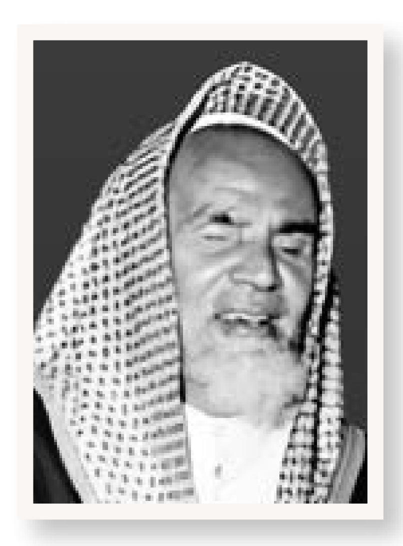
فأذكِّرهم أن هذه الدروس تصلح روافد علمية لكنها لا تؤصل ولا تخرج، وليست هذه هي الدروس التي كان يتخرج بها العلماء السابقون، فتلك كانت دروساً متطاولة الزمان يجلس فيها الطلاب إلى شيوخهم فتمل الحصُر ولا يملُّون، ويبدأ الدرس بعد الفجر وينتهي بعد العشاء، أما درسكم الأسبوعي نصف ساعة بعد المغرب فلن تجمع منه إلا فتاتاً، وعلماً أشتاتاً، فاستفد منه ولا تعتمد عليه.

ولا يمكن أن يتغير نمط حياتك كلِّه ويبقى نمط التعليم لا يتغير، ومدارس السابقين تغيرت وتطورت حسب الفترات التاريخية، ولذا كانت المدارس النظامية والمملوكية أشبه بالجامعات الشرعية الآن، ولم تكن الدراسة في عهد ابن تيمية وابن حجر كما كانت في عهد الزهري وسعيد بن المسيب.

فهل تريد أن تدرس في القرن الخامس عشر كما كان العلماء يدرسون في القرن الأول وقد تغير كل شيء في نمط حياتك وفعالياتها؟



الشيخ عبد الله بن غديان
رحمه الله



الشيخ عبد الله بن حميد
رحمه الله



مع الشيخ أحمد معبد



مع الشيخ جعفر إدريس

الصفق في الأسواق

بعد تخرجي من ثانوية اليمامة كان اتجاهي واضحا وخياري محسوما، وهو التوجه إلى كلية الشريعة، وكنت استشعرت هيبة للدراسة في الكلية ولقاء الأشياخ مع أني قد أخذت بطرف من مناهجها مما أقرأ على المشايخ لكني مع ذلك تهيبت النقلة للجامعة، واتخذت قرارا أن أترك الدراسة سنة أكمل فيها حفظ القرآن، وألم بالمقدمات التي يدرسها طلاب المعاهد العلمية والتي لم أدرسها في المدرسة المتوسطة والثانوية حتى أدخل الجامعة على استعداد تام لها فقد كان هدفي في الدرجة الأولى التحصيل العلمي المؤصل، وقد عارضني في هذا القرار الوالد ولكنه كان كعادته يعرض رأيه ولا يفرضه، وأما الوحيد الذي وافقني الرأي فهو الشيخ عبد الله بن غديان والذي قال لي: هذه همة طيبة، ولعله قرأ اصراري فسايرني لألتزم بما عزمت عليه من إكمال حفظ القرآن.

ومضت الأشهر الأولى وأنا عاكف على الحفظ، وكنت أكرر المقدار الذي أحفظه ثلاثين إلى أربعين مرة، وقطعت في إتمام الحفظ قدرا صالحا مع مسايرة ذلك بالقراءة على المشايخ، والتي كنت بدأتها وأنا في المرحلة الثانوية، وفي أثناء ذلك وفي نهاية السنة بدأت أعراض الشدة والضيق المادي تظهر على الوالد الذي بدأ بناء منزلنا بمورده المحدود، كما كنت قد توجهت إلى الزواج الذي يتم عادة في هذا السن بين جيلنا، فكان الشاب يتزوج بين الثامنة عشرة والعشرين، وهذا لم يكن

ميسورا لي في ظرف الوالد الصعب، ولذا توجهت إلى العمل وكان العمل المناسب لسني حينها وكنت في الثامنة عشرة بيع المرطبات، فهي لا تحتاج إلى رأس مال كبير وإنما لجهدٍ بدني، حيث ندفع عربة بعجلة واحدة فيها أكوام علب العصير وعليها ركام من الثلج ونجول بها في الأسواق يطفئ الناس بها حرارة الصيف اللاهب فلم تكن الأسواق المغلقة المكيفة قد وجدت، والناس في بداية الطفرة فلديهم قوة شرائية، ولكنها كانت تحتاج إلى جهد مرهق، فحمل العربة ذات العجلة الواحدة وهي مثقلة بأحمالها ودفعها لمسافات طوال مما يحتاج قوةً وصبراً، وكان منظر العرق يتصبب من وجوهنا تحت لهيب الشمس الحارق يدل على جهد وإصرار كان يَلَذُّ لنا بقدر ما كان يجهدنا، ولا يزال يرن في أذني صوت لا أنساه، فقد كنت أدفع العربة المثقلة في عصر يوم لاهب الحرارة في أحد الأسواق، ويلمح كل من يراني حينها الجهد الذي أبذله، والإرهاق الذي أعانيه، وإذا بي أسمع من يقول: كفاح، والله كفاح، فالتفت فإذا رجل أنيق البزة من الإخوة السودانيين ينظر إلي ويكرر: كفاح، والله كفاح، وكأنه يقول أعنيك أنت، وتبادلنا النظرات والبسمات، وكانت كلمته الطيبة صَدَقة تصدق بها عَليَّ أحوج ما أكون إليها «**والكلمة الطيبة صدقة**»، ووالله إن صداها ليرن اليوم في أذني، وإن لذاذتها لتتردد في نفسي كلما تذكرتها، اللهم إن كان حيا فمتعه، وإن كان ميتا فارحمه، واجزه عني خير الجزاء وأوفاه.

استمريت على هذا العمل أشهراً عدة حتى ظهرت الثفنات في كفيِّ، ويبس جلد باطن الكف الرقيق، وفهمت فيما بعد معنى حديث فاطمة رضي الله عنها أنها جرَّتْ على الرحي حتى مَجِلَت[1] يدها، إنها الخشونة التي كانت في باطن اليد، وقد كانت في يدي من حمل العربة المثقلة والسير بها ساعات النهار الطوال.

(١) أي: ثَخُن جِلْدُها ويبس.

وكان هذا العمل موسمياً ينتهي بنهاية الصيف، فتوجهت إلى العمل في سوق شعبي في حي العليا، وقد ظل هذا السوق الشعبي يتنقل حتى استقر الآن فيما يعرف بأسواق العويس شمالي الرياض.

وفي هذا السوق الشعبي بعت كل ما يشترى ويباع، من ملابس النساء، ولعب الأطفال، وأدوات السيارات، والعدد اليدوية، وأشياء لا أذكرها اليوم.

وفي هذا السوق تعلمت من أحوال الناس وأنماط سلوكهم وطرائق حياتهم ما لا يُتعلم في كتاب، ولا يُدرسُ في مدرسة ولكن يؤخذ بالخلطة والممارسة والمعاناة.

ومنه عرفت من أحوال النساء ما لم أكن أعرف، ورأيت شيئا مما حكاه ابن حزم في «طوق الحمامة».

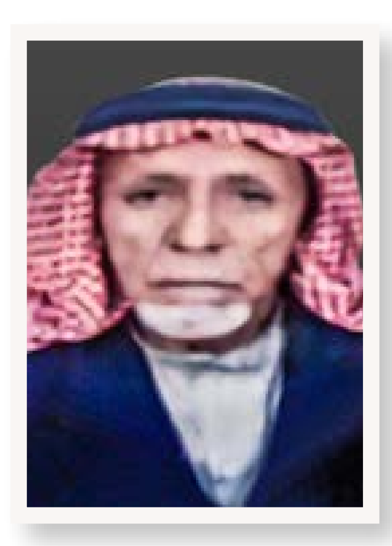
ثم وجدت بعض زملائي الشباب في المرحلة الثانوية يتعاهدونني بالزيارة في محل البيع، وربما ساعدوني في حساب الزبائن فتركوا لي حساب الرجال واستأثروا بحساب النساء، وكان حسابهم يتحول إلى مفاوضات لا أدري سبب طولها ولا محصولها، وكنت أحسب أن هذه الزيارات المتتابعة والطويلة مؤانسةٌ لي وتعاون معي، ولكن يبدو أن لهم فيها مآرب أخرى لم أكتشفها بعد.

وكما كسبت ثروة من التجارة فقد كسبت معرفة رجال كرماء فضلاء هم زينة أيام العمر ومنهم أبو تركي محمد الجابر وأخوه سلطان، وعبد الله الحمودا، ولهم علي فضل ومعروف لا أنساه، فقد انتقل السوق من موقع إلى موقع، وفي الموقع الجديد انتُهِبَت الأماكن فلم ألحق منها شيئا فتبرعا لي من موقعيهما بمساحة قل من يجود بها، فدام لهما مني الثناء والدعاء.

وممن عرفت الأخ سعد الدرعان، وسعود الدويش رحمهما الله، والإخوة حمد الحسين، وعثمان الحسين، ولا يزالان من أساطين السوق إلى اليوم، وآخرين غيرهم سقطت أسماؤهم على كبر أقدارهم من ثقوب الذاكرة الواسعة.

واستمرت فترة انقطاعي عن الدراسة سنتين كانت في بداياتها تفرغا للحفظ والعلم، وفي بقيتها كدحا وصفقاً في الأسواق، وجنيت من بداياتها حفظ ما حفظت وعلم ما علمت، ثم الكسب الطيب من عمل يدي، والذي رتق ما فُتِق من احتياجاتنا، وحصَّلت منه ما تزوجت به أواخر عام (١٣٩٩هـ)، وما أعنت به الوالد في أزمته المالية حينها، وهو موقف لا تساويه في نفسي كل لذائذ الحياة ومغانمها.

واستغنيت بما كسبتُ واكتفيت به، ورأيت أني قد أخذت نصيبي واستوفيت حاجتي، فسلَّمت محلي لأخوي أحمد وسليمان يكملان ما بدأت، ويكدحان كما كدحت، وعدت أنا إلى حيث بدأت، طالباً للعلم وجالساً على مقاعد الدراسة، وأفلت من شباك التجارة وقلما أفلت منها من علق بها، ودخلت جامعة الإمام، وفيها كانت لنا أيام..



العم عبد الله بن محمد الحمودا رحمه الله



أخي محمد بن ناصر الجابر

أيام الجامعة

دخلت كلية الشريعة ودرست في مبناها القديم الذي درس فيه أبي والأجيال التي جاءت بعده، وكان ذلك عام (١٤٠٠هـ) وفي هذه الكلية أدركت البقية الباقية من علماء الأزهر الذين تلقوا العلم فيه على النمط القديم المؤصَّل قبل أن يتحول الأزهر إلى جامعة على النمط الهجين المطور.

وكان من هؤلاء الكبار الشيخ أحمد كُحيل، والشيخ أحمد شباط، والشيخ الأحول وكل هؤلاء نحويون، ولقيت فيها الشيخ عبد الغني عبد الخالق وكان أصولي الزمن ورأيت حفاوة علماء الجامعة به وإجلالهم له، والشيخ عبد الخالق عضيمة الأصم نحوي الزمان، وغيرهم.

وأول ما تفاجأت به حين دخول الجامعة انطفاء الهيبة التي كانت في نفسي من الدراسة الجامعية، فقد كنت متهيبا محتشدا أظن أن ابن قدامة سيدرسنا الفقه، وابن حجر سيدرسنا الحديث، وابن تيمية سيدرسنا العقيدة، وابن جرير سيدرسنا التفسير، فلما دخلت السنة الأولى وجدت الأمر أقرب من ذلك بكثير، ووجدتني مقاربا بقية زملائي، ودخل علينا المدرسون وإذا هم طبقات بعضها فوق بعض، فمنهم أولو الرسوخ العلمي، والتبحر المعرفي كالشيخ عبد الله بن جبرين، والدكتور طه جابر العلواني، وفيهم دون ذلك، ومنهم من هو أشبه بمدرس الكُتَّاب لا يستعدون بتحضير للدرس، ولا يفيدون عند سؤال، وخير ما يصرف فيه وقت دروسهم ذكر الله وما والاه.

وكان الطلبة في المستوى الأول يغلب عليهم اللهو لقرب العهد بدراسة المعهد، ولم يكتسبوا اللياقة الجامعية بعد، ثم يحزمون أمرهم ويَجدّون فيما بعد، ويتسرب من لا تناسبهم الجامعة ولا توافق لياقتهم.

وكان ثمَّ مواقف طريفة تحدث في القاعات تبقى طرائف لا تنسى لمن شهدها، ومن ذلك أن أحد المشايخ المكفوفين، وكان يدرسنا الفقه ويتحدث عن وجوب قطع الصلاة فقال: ومن أمثلة ذلك إذا رأيت أعمى يوشك أن يقع في حفرة وأنت تصلي فيجب عليك أن تقطع الصلاة وتناديه: قف، قف، ورفع صوته وهو يكررها، وفي أثناء ذلك فتح المراقب باب القاعة ليأخذ حضور الطلاب ففاجأه الشيخ وهو يصيح: قف، قف، فاضطرب وتراجع بسرعة وفزع يظن أن الشيخ يعنيه، فضحكنا جميعاً فسأل الشيخ: ما لكم؟ قلنا: المراقب وقف عند الباب ثم رجع، فناداه وقال: تعال، تعال، لم أكن أعنيك، كنت أعني الأعمى الذي كان سيسقط في الحفرة، فكانت طرفة نذكرها ونعجب من لطف اتفاقها.

ومن ذلك أن أحد زملائنا أتى متأخرا عن المحاضرة الأولى وقد وصل وهو نصف مستيقظ وعيناه شبه مغمضتين، فلما دخل الفصل استوقفه شيخنا الشيخ أحمد كحيل، وقال له: كنت فين؟ وعينيك حمرا كمان، فقال: يا شيخ لسا متزوج، وإذا الشيخ ترتد له حيويته، وتتورد وجنتاه، ويضحك بنشوة، وهو يقول: ادخل يا بني، حنكرمك عشان أنت أكرمتها، حنكرمك عشان خاطرها، وقد تخرجنا من الكلية وصاحبنا لم يتزوج بعد!

وفي السنة الثانية من كلية الشريعة دَرَّسنا مادة الحديث الشيخ أحمد معبد عبد الكريم، وكان شابا حديث عهد بتخرج ولكنه كان عالما نحريراً، أثرت طريقة تدريسه فيَّ حتى استهواني لعلم الحديث، وقادني بسلك من حرير فأخرجني من رواق الحنابلة إلى إيوان المحدثين.

وفي السنة الثالثة أخذنا مادة الفقه عن الشيخ الدكتور محمد بن أحمد الصالح، وكانت باب الإجارة وما بعده، وأبهرنا الشيخ بطريقته التجديدية في تدريس الفقه، وعنايته بالنوازل المستجدة، ثم أدهشنا وهو الكفيف باطلاعه الدقيق على الأحوال الاجتماعية والتجارية، وما يحتاج الحكم إلى تصوره لإنزال الحكم عليه.

وقد كان لقاء الشيخ من مكاسب العمر، فقد توثقت به الصلة، واستحكمت العلاقة، وصارت صداقة ومودة، وأخوة كأخوة القربى، وكان هو الذي يرعى الود، ويرتق التقصير، ويقابل بالتي هي أحسن، وسَرَت علاقتي به إلى أسرته وإخوته وأبنائه، ومعارفه الذين يجمعهم مجلسه العامر، ومآدبه الحافلة، ولا زلت في نعيم هذه الرعاية وأنس هذا الوداد.

وفي السنة الثالثة سافر شيخ أصول الفقه فجاءنا اتفاقاً الشيخ د. يعقوب الباحسين في محاضرة عارضة مكان الشيخ الذي غاب، فلما جلس سألنا: أي مادة التي أنتم في محاضرتها؟ فأخبرناه أنها أصول الفقه، فسألنا: أي موضوع كنتم تدرسونه؟ فأخبرناه بموضوعنا، فانطلق يتكلم فيه بإسهاب وكأنه لا يحسن غيره، فلما سألناه سافر بنا إلى البلاغة والمنطق، وحلَّق بنا في دقائق العلم حتى انقطع الإرسال بيننا وبينه، وشُدهنا بهذه الموسوعية العلمية، والعمق في التخصص، والتكامل في المعارف، وما زال الشيخ أمتع الله به وهو في الخامسة والتسعين من عمره، غزير الإنتاج، متواصل العطاء بارك الله في عمره وعلمه.

وفي السنة الرابعة درسنا الفقه الشيخ الدكتور عبد الله بن علي الركبان، وكان آية في الرسوخ العلمي، والعقلية المنظمة وقوة الاستحضار، كما كان أعجوبة في الحفظ، فقد حضرت له مناقشة رسالة فلما جاء دوره في المناقشة بدأ يطلب من الطالب قراءة صفحة كذا، وسطر كذا حتى انتهت المناقشة وكل ذلك من حفظه، وكان إضافة نوعية من بعد إلى هيئة كبار العلماء.

وممن درسنا في السنة الرابعة الدكتور طه جابر العلواني، وكان له طرح تجديدي ثائر على النمط القديم، وقد استفدت من استطراده أكثر مما استفدته من شرحه، وكانت آخر سنة دَرَّس فيها ثم انتقل بعد ذلك إلى أمريكا وأنشأ مع آخرين معهد الفكر الإسلامي الذي اشتهر بعد بمنهجه وإصداراته.

وكان ممن درسنا الشيخ عبد العزيز الداود رحمه الله، وكان عالما ربانيا متألها استفدنا من حاله أكثر من مقاله، وما زال حاله واعظا لقلوبنا، ولا أحسبه إلا من أولياء الله وأهل معرفته.

وكنا ننظر بإجلال إلى الشيوخ الكبار من جيل الأزهر العتيق، وكان في الكلية بقايا من بقاياهم، وبخاصة في النحو، فكان الشيخ عبد الخالق عضيمة والشيخ أحمد كحيل رحمهم الله من البقية الباقية من هذا الطراز، كأنما خلقوا للنحو، تشعر أن النحو فيهم ليس علما ولكن عشقا.

وكنت أذهب باكراً لصلاة الجمعة في الجامع الكبير، فأجد الشيخ عبدالخالق عضيمة قد بكَّر واستغرق في القراءة، فربما قطعت عليه أُنسه ببعض التساؤلات فيكون الحوار بالكتابة مني لثقل سمعه.

وبعد صلاة الجمعة يذهب الشيخ عبد الخالق والشيخ كحيل سوياً إلى شقة الشيخ عبد الخالق أمام الجامع، وكنت وخالي نرمقهما وهما يسيران الهوينا ثم يقفان قليلاً لكبر سنهما ثم يسيران بعد، فكان خالي ناصر يقول لي: هل تدري لماذا يمشيان ثم يقفان؟ قلت: لماذا؟ قال: هما نحويان يسيران يتحدثان ثم يقفان فيعربان ما قالاه.

وسرنا معهما يوماً إلى شقة الشيخ عبد الخالق، فإذا غرفة ساذجة وملحقاتها، ليس فيها فرش إلا سرير الشيخ وكرسيه ومكتبه وكتبه، ذكرتنا بساطتها ببساطة عيش علماء السلف وكفافه، وخيل إلي أن الأخفش أو ابن يعيش النحوي لو عاشا زماننا لكانا يسكنان في مثل هذا البيت، إنه منزل جد صغير، يعيش فيه اثنان، النحو وعبد الخالق عضيمة.

وبات على النار الندى والمحلق

وفي الجامعة كانت طريقة التدريس يعتورها شيء من القصور، وكان لنا ونحن طلاب ملاحظات عليها، فلما صرنا مدرسين أعدنا الطريقة وكررنا كثيراً من أخطائها؛ لأنها ما أعتدنا عليه وألفناه.

وكنت أرى وأنا طالب ولا زلت أن المهم في الجامعة تعليم الطالب مهارة البحث، وفن الصنعة، وليس حفظ المسائل.

وفي الجامعة كانت فرصة الصحبة بأقران مميزين منهم الأخ الشيخ د. عبد الرحمن السديس، والأخ الشيخ د. عيسى السعدي، والأخ الشيخ د. عبد العزيز المشعل، والأخ الشيخ د. حسين العبيدي، والشيخ د. عبد العزيز الدهش وغيرهم ممن سعدت بهم وأفدت منهم.

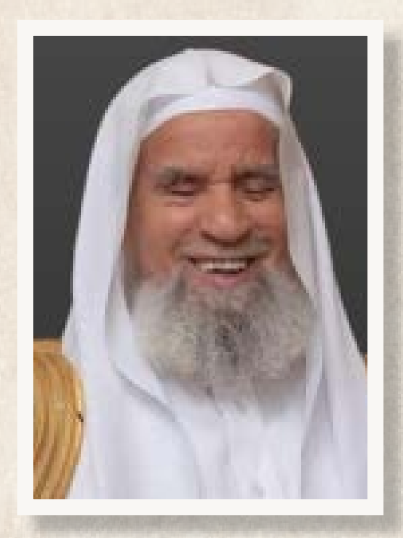
وكان هناك طلبة متميزون جدا صحبتهم في مرحلة الطلب الدراسي وكانوا شعلا من الذكاء يبشر تفوقهم بمستقبل خارق، ولكن انطفأوا وغابوا في زحام الحياة، ليتني أصرخ بأعلى صوتي أناديهم: أين أنتم؟ ما صنع الله بكم؟

وكم تمنيت أني في أيام الجامعة كررت قراءة الصحيحين، ومختصر تفسير ابن كثير، وأتقنت مختصرا ميسرا في الأصول، ومختصرا ميسرا في مقاصد الشريعة، قراءة تحصيل وتأصيل، إذا لصحبني نفعها بقية عمري، وكانت أفضل من ذاك الشتات المعرفي الذي ضللت في متاهته، وقد كان يمكن اللحاق به من بعد.

ولقد تداركت منها بعض ما يمكن تداركه، وفاتني الوقت الذهبي لتحصيل بقيتها، وعلى المقيمين خارجها مراعاة فارق التوقيت.



الشيخ أ.د. محمد بن أحمد الصالح



الشيخ أ. د. عبد الله بن علي الركبان



الشيخ أ.د. يعقوب الباحسين
رحمه الله



الشيخ عبد الخالق عُضَيمة
رحمه الله



مبنى كلية الشرعية في الرياض قديماً

الدراسات العليا

تخرجت في كلية الشريعة وعُينت معيداً فيها، ولكني اخترت أن تكون مواصلتي للدراسات العليا في كلية أصول الدين في قسم السُّنَّة، للتعلق الذي صار لي أثناء الدراسة بعلم الحديث وكان قد استهواني من خلال القراءة في «فتح الباري»، ثم من طريقة تدريس شيخنا د. أحمد معبد لنا في كلية الشريعة مادة الحديث.

وابتدأت سنة الدراسات العليا وهي السنة التي لا تنسى، فقد جمعتني بأعلام الأشياخ الشيخ عبد الوهاب البحيري، وهو شيخي وشيخ والدي درَّسه في المعهد العالي للقضاء، وشيخ شيخي محمد أمين سراج، فهو ملحق الأصاغر بالأكابر، وقد دَرَّسنا مادة الحديث التحليلي ويكتب لنا شرحه في صفحات نأخذها ونصورها فنقرأها وكأنا ننظر إلى لوحة رائعة، لجمال خطه وأناقة كتابته.

كما تلقينا عن شيخنا المحقق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وكان لي به خصوصية ومعرفة سابقة، وقراءة لتحقيقاته الباذخة خصوصا: «رسالة المسترشدين»، و«الأجوبة الفاضلة»، و«الرفع والتكميل»، وكتبه البديعة وبخاصة: «صفحات من صبر العلماء»، وكان الجو العلمي مُربداً عليه بسبب ردود الشيخ بكر أبو زيد، والتي كانت بليغة القول بالغة الشدة، وما كانت في ظني صائبة، فأشد ما فيها الإلزامات بما لا يلزم، ولذا سمعت عن الشيخ عبدالكريم الخضير قوله: إن كان الإنسان لا يؤاخذ إلا بما قاله هو لا بما قاله غيره فليس فيما قاله الشيخ عبدالفتاح أبو غدة في كتبه ما يؤاخذ عليه.

وكان في تدريسه يتحمل تنمَّر بعض الطلبة الذين كانوا متأثرين بهذه الردود ومتفاعلين معها.

لكني كنت أعامله بإجلال، وعندما ذهبت إليه في شقته ومعي أحد زملائي من مصر ورآني أهويت لأقبل يده، عاد وهو في غاية العجب أن يكون الشيخ عندي بهذه المنزلة، وأني أحتفي به هذه الحفاوة.

وتلطفت بالشيخ فاستأذنته أن أوصله بسيارتي من شقته إلى الكلية وأعود به، فوافق فكانت الرحلة إلى الكلية والعودة منها درسا آخر يفيدني فيه الشيخ، وأحسب أنه قد وثق بي ولذا كان يستروح في الحديث إليَّ، وقد سألته عن لقائه الأول بالشيخ الكوثري، وعن تميزه الذي أبهره فحدثني عن ذلك بلا تحفظ.

وفي هذه السنة كان لقائي الثاني بالشيخ أحمد معبد في مادة التخريج، وكان في مادته متمكناً أمكَن، فما يستطيع الطلاب أن يتسوروا اقتداره العلمي إلا بجدل يشبه حرب العصابات، ولكن الشيخ كان يحتوي جدل الطالب بأن يقطع طريق الجدل، فإذا أجاب عليه بالرد العلمي ختمه بقوله للطالب: ويبقى لما قلته وجه معتبر، حتى يقطع على الطالب التعليق بـ(لكن) وما بعدها.

كما كان لدى الشيخ مع تمكنه العلمي الروح المصرية السمحة، والدعابة التي تسيل في كلامه لا يتقصدها ولا يتكلفها.

وكانت المدارسة مع الشيخ مستمرة منذ دَرَّسنا في السنة الثانية من كلية الشريعة، ولذا كنت أزوره في شقته التي إذا دخلت بابها فلا بد أن تشمر ثيابك وتحتاط في مشيك، فتضع خطوةً بأناة ثم ترفعها باحتراس، فأمامك أكثر من كتاب مفتح الصفحات، وعلى يمينك بطاقات مصفوفة فاحترس أن تبعثرها، وأمامها صور لمخطوطة فإياك أن تنزلق فيها، وهناك ملف لبحث لم يكتمل بعد، وعلى يسارك صحن فيه بقية طعام لم يرفع

بعد، فتعبرها وكأنك تتخطى حاجزا من الأسلاك الشائكة، فإذا تجاوزتها بسلام فاحمد الله على السلامة والعافية، وفكر في الصعود قبل النزول.

وفي هذه السنة التقيت بزملاء رائعين كأنما انتُقُوا لهذه الصحبة انتقاءً، فوثقت العلاقة بهم، واستمرت الصلة معهم، وما زالت بحمد الله باقية وتتجدد، ولذا كنا نسمي هذا العام: عام الجماعة.

وهم المشايخ الدكاترة: سلمان العودة، وعائض القرني، ومحمد التركي، وحمد الشتوي، وعبد الرحمن المجيدل، وسعد الزيد، وعبد الرحمن الزميع، والحسين شواط، ومحمد العمران، وحمود الصايغ، وحسن فتيحي وفقهم الله، وعبد الله الرشيد رحمه الله.

وكان الشيخ سلمان قد وصل متأخرا قليلا فلما وصل سحب الأضواء، وصار المنظور إليه من المشايخ، وكنا نرقب سؤاله إذا سأل، فإذا قال: يا شيخ، التفتنا جميعاً وأحسسنا أن قنبلة توشك على الانفجار، واستفدنا من أسئلته وتعقيباته، كما استفدنا من شرح شيوخنا وإفادتهم، وقد أتى إلينا شبعان راويا متضلعا من العلم فكان مفيدا كما كان مستفيدا.

أما الشيخ عائض القرني فكان أُنس الرفقة وبهجةَ الجلسة، وجعل من أيام هذه السنة متعة العمر، كانت النكتة الجميلة تفاجئه وتفاجئنا على غير توقع منه ومنا، فتنطلق من فمه مثل الطلقة بلا تكلف ولا إعداد، فتجعل الجو حوله مرحا بهيجا.

وكان مع هذا المرح والإيناس قارئا نهما متجدد المعلومات، ولذا كُلَّما سألناه عن أفضل كتاب أجاب بجواب غير جوابه السابق؛ لأن قراءته متواصلة ومعارفه متجددة.

وله فنه في رواية ما سمع أو قرأ فيريقه في مسامعك بحلاوة العسل ونشوة الخمر.

كان باختصار متحدثا أخاذاً، وصديقاً أنيساً مأنوساً، في حديثه أنس وفي مذاكرته إفادة.

وفي هذه السنة ومع هذه الرفقة تعارفت الروح بإلفها، وصحبت أصدقاء عمرها، فكانت مكاسبها أغنى المكاسب، وثمراتها أطيب الثمرات.

قـــد يهـــون العمر إلا ســـاعة وتهـــون الأرض إلا موضعـــا

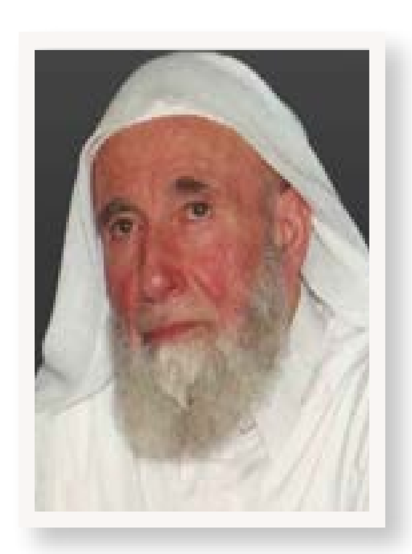
وعندما انتهت سنة الدراسة العليا وبقي تسجيل رسالة الماجستير هممت بالتسجيل في موسوعة تحقيق كتاب «الكامل في الضعفاء» لابن عدي، واستشرت أخي وشيخي الشيخ صالح آل الشيخ فنهاني عن ذلك، وقال: هذه بدايتك مع البحث المتعمق ولا يصلح أن تكون هذه البداية مع الأحاديث الضعيفة التي يمتلئ بها هذا الكتاب.

وكانت مشورة حصيفة حكيمة اتبعتها فوراً، فسجلت في كتاب تحقيق «مسند أبي داود الطيالسي»، وأحاديثه صحيحة في مجملها، واستفدت من هذه النصيحة الوصاة لكل إخوتي من طلبة العلم أن يكون تحصيلهم في بداية تكوينهم العلمي صحيح الأحاديث، ويقينيات العلم، وأمهات المسائل، فإنها التي تبقى معه بقية عمره، ثم يرد إليها ما يكسبه بعد من أشتات العلم، وأنواع المعارف.

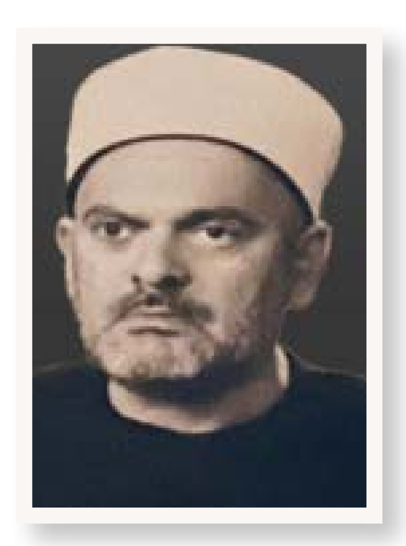
أما في مرحلة الدكتوراه فقد كانت بمشورة حسنة من أخي الحسين شواط، وكان قد حقق جزءاً من «إكمال المعلم» للقاضي عياض، وأشار عليَّ بكتاب أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي المتوفى سنة (٦٥٦هـ)، ودراسة كتابه «المفهم في حل ما أشكل من تلخيص كتاب مسلم»، وقد وجدته سبيلاً ذُلَلاً، وجادة مطروقة، فهو قد استبطن كتاب القاضي عياض، فأفدت فائدة عظيمة من قراءة كتاب واسع في شرح أحاديث صحيح مسلم ودراسته بتمامه، ووجدت ثمار ذلك ذخيرة لا زلت أستصحبها.

وصرت أنصح الطلاب بأهمية دراسة الكتب الموسوعية في أطروحاتهم وبخاصة الماجستير، لأنها تقدم له من خلال دراستها استعراضاً أفقياً لأبواب العلم في تخصصه،

فالبحث في كتب الشروح الفقهية أو الحديثية أو التفاسير ستحمل الطالب على القراءة المتأنية الباحثة في كتاب واسع يبحر في عبابه عابراً أبواب الفن الذي يتخصص فيه.



الشيخ عبد الفتاح أبو غدة
رحمه الله



الشيخ عبد الوهاب البحيري
رحمه الله

التدريس الجامعي

عندما كنت طالبا في المرحلة الثانوية كنت أتخيل نفسي معلما شرعيا للمرحلة الثانوية، فأتصور في خيالي وقوفي وإلقائي، فلما صرت في الجامعة تخيلت نفسي مدرسا في الجامعة، وتكونت في ذهني طريقة إلقاء المادة، وتكميل ما كنت أرى أنه ينقصها، فلما تخرجت وعينت معيدا في الكلية، وبدأت التدريس فيها للمستويات الأولى وجدت في التدريس متعة وإفادة وتنمية للمعلومات، وزادت قناعتي بهذه المهمة وتحولت من طموح عمل إلى رسالة وهواية، وذلك أن طلبة الجامعة في سن نضوج ووعي، والمستوى العمري معهم متقارب، وكثيرٌ منهم كانوا زملاء أكثر منهم طلابا؛ ولذلك فالتدريس هنا مذاكرةٌ وليس تعليماً، وإقناعٌ وليس تلقيناً، فمضت فيها ثنتا عشرة سنة بغاية المتعة والفائدة.

وقد تعلَّمتُ وعَلِمتُ أن الذي يفرض احترامَ المدرس هو احترامُه لمادته بالإعداد لها، وحسن التهيئة لعرضها، وأنَّ الطلبة يكتشفون في الدقائق الثلاث الأولى من المحاضرة ما إذا كانت حقيبة الشيخ مليئةً بالعلم، أم هي فارغة ويحاول أن ينفخها بالحشو، كما قال أديب يصف أحد مدرسيه: كان يدخل علينا خالي الوفاض يحتال لهذا الوقت الطويل كيف يمضيه، فيخرج كشف أسماء الطلاب برفق وكأنه لوح من زجاج يخشى أن ينكسر، ثم يخرج نظارة القراءة المقعرة بتأنٍ ففي العجلة الندامة، ثم يبدأ بقراءة الأسماء كاملة، الاسم الرباعي أو الخماسي إن وجد، فإذا أنهى قراءة الاسم

ورد الطالب قائلا: حاضر، خلع نظارته وأجال بصره ليطابق بين الاسم والمسمى، ثم أعاد لبس النظارة ليقرأ الاسم الذي بعده، فلا ينتهي من قراءة الأسماء حتى تكون المحاضرة قد انتهت، والشمس قد غربت، وكل عام وأنتم بخير.

ولذا كنت أستعد للمحاضرات فاقضي يومي من بعد صلاة العصر وإلى ما بعد صلاة العشاء في التحضير لدرس الغد، وأنا في كامل المتعة لذلك.

ومما كنت أراعيه الدخولُ إلى القاعة بحيوية ونشاط وليس بتثاقل وتواقر، والإقبال على الطلاب باسماً وكأنني قد تلقيت بُشرى أو أتيت بِبشارة، وأحتسب أن لي بها أجراً عن كل طالب، فتبسمك في وجه أخيك صدقة.

ولم أكن أراعي رسوم الاستئذان من الطالب عند الدخول والخروج، بل أعطي إذنا مطلقا عند أول محاضرة أن من جاء في أي وقت فليدخل بهدوء ويسلم على من حوله.

وأما إخراج طالبٍ من الفصل فهي جنايةٌ عافاني الله منها، وما شعرتُ يوماً أني أملك هذا الحق، وما أحوجني أحدٌ إلى التفكير فيه، فليست الجامعة بيتي بل هي بيت الطالب ومملكته.

وعندما كنت طالباً جامعيّاً كنت أنتقد طرقاً يسلكها بعض مدرسينا، وأعتقد أن ثمة طرقاً هي أجدى وأنفع منها، فكان كثير من أساتذتنا يُحضِّر المادة ثم يلقيها في القاعة، والمهرة من الطلبة يكتبون ما يلفظ من قولهم لا يغادرون منه صغيرة ولا كبيرة، وكأنهم الرقيب العتيد، فإذا قارب الفصل الدراسي على نهايته أخذ بقية الطلاب ما كتبه المتابعون فصوروه وذاكروه واختبروا ونجحوا.

فيتخرج الطالب وحصيلته مُذَكِّرات مصورة لم تمس يده كتاباً من كتب العلم، ولم ير صفحاته بالعين المجردة، فبدأت بتطبيق ما كنت أطمح إليه، ولذا كان أهم ما أحرص عليه هو مد يد الطلبة إلي خزائن العلم ليتعاملوا معها مباشرة، فيتفهموا لغتها وترتيبها، وتتبع مسائل العلم المتناثرة فيها، لأنها المصدر الذي سيرجعون إليه بعد

ذلك، ولذا كنت أعطيهم وظائف أثناء الفصل الدراسي هي أشبه بالواجبات المدرسية، وهي سؤال أحدد الإجابة عنه من كتاب من كتب العلم المرجعية، فهذا سؤال جوابه في «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، وذاك سؤال جوابه في «ميزان الاعتدال» للذهبي، وآخر في «شرح صحيح مسلم» للنووي، وهكذا بحيث يكون للطالب تنقُّل بين هذه الكتب، وتعرُّف عليها، وإلف للغتها.

وأحيانا آتي بشرح الحديث من «فتح الباري» ونصور موضعه من الكتاب ثم نقرأه سويا قراءة تحليلية، تكون خارطة طريق لقراءته بعد ذلك، وفي بعض المستويات المميزة أختار شرح الحديث من كتاب مخطوط فأصور لهم صفحات شرحه من المخطوطة حتى يبدأ التعارف بينهم وبين المخطوطات وطريقة قراءتها.

وكنت أجتهد في تعليم اللياقة مع الخلاف، وعدم أخذ المسائل بِحَدِيَّة، وأنه لابد من المرونة في دراسة مسائل الخلاف، ومعرفة منزع الخلاف ووجه استدلاله، وكان ذلك مهماً لانتشار المنزع الظاهري في ذلك الوقت باسم اتباع الدليل، وكان الشيخ الألباني رحمه الله حاضراً ومؤثراً بمنهجه ذلك، ولذا كنت أقارن بين منهج العالمين العَلَمين المتعاصرين ابن عبد البر وابن حزم، فهناك من تقرأ كلامه فتُبحِر معه في بحر هادئ، وهناك من يحشرك في زاوية ضيقة فإما أن تقول بقوله وإلا فأنت مخالف للدليل ترد على الله وعلى رسوله.

ومما كنت أحرص عليه إشماماً لا دواما إحضار كُتبٍ من خارج التخصص، لأن بين كثير من العلوم وشيجة وصلة، بل تداخل وتمازج، ولذا كنت أحضر «البيان والتبيين»، و«القاموس المحيط»، وأحيل على مثل: «حلية طالب العلم»، و«جامع بيان العلم» ونحو ذلك.

وكثيراً ما كنت أُحضِر بعض الكتب معي حتى يراها الطلاب بالعين المجردة، وأقرأ منها حتى يألفوا لغة العلم المتينة المحررة، ولا يعتادوا لغتنا السيالة المرتجلة.

ومما كنت أراعيه مفاكهة الطلاب أحياناً، وتخفيف رزانة الإلقاء، فكنت وأنا مستغرق في الدرس أرفع العقال من رأس أحد الطلبة أمامي واستمر في الشرح ثم أعيده إلى رأسه.

وأرسل الطرفة أحياناً أو أتلقاها من الظرفاء، وقد كان من أشياخنا من هو موهوب في ذلك مستروح له كالشيخ صالح العلي الناصر رحمه الله، ومنهم من هو مقتصد يُحمِض بها إحماضا كالشيخ د. محمد بن أحمد الصالح، ومنهم الجاد الصارم الذي يغلق الأبواب والنوافذ، فيلقي محاضرته وكأنه يخطب خطبة الجمعة، فالابتسامة من المحرمات، والضحك من الموبقات، وأقم الصلاة.

وكنت في بداية أول محاضرة في الأسبوع أتحدث حديثا تربويا خارج المنهج في نحو عشر دقائق، يكون المدخل إليه قصة من السيرة أو موقف من حياة عالم وهكذا.

وعندما لقيت أحد الإخوة الذين درسوا معي في إحدى السنوات قال لي: كل ما شرحته لنا في المنهج نسيناه وبقي معنا تلك الكُليمات في طلائع المحاضرات.

وكنت أحرص على التعامل معهم كزملاء، فأتجنب رسوم المشيخة، وكان التقارب العمري بيننا مما يُجسِّر العلاقة، ويقرب المسافة، وكان في الصفوف طلاب نوابغ كانوا إذكاءً للدرس، ووقوداً وطاقة، يجعلون كل جُهدٍ يبذل معهم مجديا، وعملا مثمرا، ولقد لقيتهم بعد في طرق الحياة فإذا هم كما رجونا، وكانوا كالأرض الطيبة تلقت الغيث فأنبتت الكلأ والعشب الكثير.

وأزعم أني استفدت منهم أكثر مما أفدتهم، وقد وجدت معهم صدق مقولة: أنا تلميذ تلامذتي.

وكما سعدت بهم زملاء في قاعة الدرس سعدت بزمالتهم بعد تخرجهم، وبقي التواصل الجميل معهم، أتراءاهم الآن في مخيلتي وأنا أكتب حروفي هذه وأدعو الله أن يزيدهم توفيقا وتسديدا.

وبوجود هؤلاء وهم كثير صار التدريس الجامعي بالنسبة لي نعيما وذكرى جميلة أحن إليها.

وغالبا ما أطرح على الطلاب في نهاية كل فصل استبانة يجيبون عنها من غير أن يكتبوا أسماءهم دفعا للحرج، وتتضمن أسئلة من مثل: ما هي ملاحظاتك على طريقة دراسة المادة في هذا الفصل؟ ماذا استفدت من دراستك لهذه المادة في هذا الفصل؟ ما هي اقتراحاتك لتكون دراسة المادة أكثر فائدة؟

ومن خلال هذه الاستبانات أحصل على وجهة نظر المتلقي، وتتكون لدي تغذية راجعة تفيدني في التركيز على الإيجابيات وتطويرها، وتلافي السلبيات أو تقليلها.

وقد أفدت من هذه الآراء التي هي في غالبها جادة وناضجة.

وعندما عزلت عن التدريس نظراً لما تقتضيه المصلحة العامة، شعرتُ بلوعةٍ وأسى، لغرامي بهذه المهنة الشريفة، والعمل الرسالي الذي هو أشبه بوظيفة الأنبياء.

ومع كل ما ذكرته فلا بد أن أصارح ببعض ما وقعت فيه من أخطاء في تدريسي الجامعي هي عثراتُ أولِ الطريق ولكني أبرزها اليوم ليستفيد منها غيري.

لقد بدأت التدريس الجامعي شابا مندفعا بطموح الشباب ومثاليته وخياله؛ ولذا كنت منضبطا وحازما، أكثر مما ينبغي، وكان لدي اهتمام بانضباط القاعة وعدم التسيب فيها فكنت أشدد على أهمية الاستماع، وأتوتر لو أن طالبا تهامس مع رفيقه أثناء إلقاء الدرس، أو انشغل بقراءة كتاب آخر، أو وضع رأسه على المكتب واستغرق في نوم عميق.

وكنت أعاتب أحياناً وأعنِّف أحياناً، وأقول: ينبغي ألا تكون القاعات الدراسية كالمقاهي، وهذا الضبط له خسائره التي هي في نظري الآن أكثر من أرباحه، فإن أهم ما ينبغي أن يربحه المعلِّم هو حب الطلاب له وتأثرهم به، وهو ما يخسره عندما يتشدد، وما كان الرفق في شيء إلا زانه.

والتحدي الذي ينبغي أن يدخله المحاضر مع نفسه هو أن يحول بين الطلاب والحديث الجانبي، والشرود الذهني، فيطرح الدرس بطريقة جذابة فيها التفاعل والامتاع، وهو ما فطنت له واتبعته في محاضراتي الآن ووجدت له تأثيرا وإفادة.

ومن الأخطاء التي كنا نقع فيها في التدريس الاستقصاء في الشرح والتفصيل في المسائل، فإذا شرحت حديث: «ليس في الحلي زكاة»، ذكرت من قال بذلك من العلماء وبقية أدلتهم ومن خالفهم وأدلتهم، وجواب هؤلاء عن أدلة هؤلاء، واعتراض هؤلاء على استدلال أولئك، ويدخل الطالب إلى متاهة لا يدري كيف يخرج منها، وينتهي الفصل ولم نأخذ من المنهج إلا قليلا، وربما كان ما لم نصل إليه أهم وأولى بالعناية مما انهيناه.

ولذا صارت الطريقة التي أسلكها من بعد هي عرض دلالة الحديث على الحكم وبم أجاب عنها من يخالف، أما باقي الأدلة وبقية الأقوال فمحلها كتب الفقه المقارن التفصيلية.

ومن الأخطاء عدم العناية باختيار المسائل التي تُشرح من المنهج، والإكثار من المادة العلمية إلى حد التخمة، ثم صرت أركز الآن على تعليم الطلاب المهارة في تحصيل المعلومة وتقييمها، وليست كثرة المعلومات وتفصيلها.

ومع أهمية وجود قدر مشترك في منهجية التعليم الجامعي ينبغي أن يحافظ عليها كل معلم، إلا أن هناك هامشا واسعا يراعي تفاوت طرق المعلمين وتعدد مناهجهم وقديما قيل: لكل شيخ طريقته.

الخطابة

كنت أذهب مع أبي إلى صلاة الجمعة وألاحظ احتفاء الناس بالمناسبة والمشهد، يظهر ذلك في ارتداء أبي بشته الأسود، وتعطره وبكوره إلى المسجد، ورؤية الناس جميعاً وقد لبسوا أحسن ثيابهم والتحفوا بشوتهم وتضوعت روائح البخور منهم، فإذا دخل الإمام واعتلى المنبر شعرت أنه شخصية استثنائية، وركزت معه في الخطبة ألاحظ أداءه وإن تقاصرتُ عن فهم خطابه.

ولشدة الإعجاب بهذا المشهد اتخذت عصا وربطت في رأسها قطعة تشبه لاقط الميكرفون، ثم وضعتها أمام الدرج في بيتنا فأصعد درجتين أتخيلها المنبر، وأخطب خطباً شتى فيها بعض ما حفظت وبعض ما أَلَّفْتُ من كلام لا يفهمه حتى من علم منطق الطير، وكل الجمهور جدتي التي تكون أمامي تقرأ في مصحفها، وتحتمل بصبر جميل ضجيج الصوت ولغو القول.

وكنت أقلد في أدائي خطب الشيخ عبد الرحمن بن سعد، وهو خطيب مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم، وله نغمة عذبة يترنم بها في أداء الخطبة التي هي من محفوظاته من خطب أئمة الدعوة، وهي مواعظ جوامع قصيرة.

وأقلد أحياناً الشيخ عبد الرحمن الفريان والذي كنا نصلي معه أحياناً، وكان جهوري الصوت، وإلقاؤه قاصف مجلجل، مع أنه يقرأ خطبته مكتوبة إلا أنه يتفاعل معها بحماس شديد.

ثم كانت النقلة حين عين الشيخ عبد العزيز آل الشيخ خطيباً في مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم وكان شاباً دون الثلاثين من عمره، وكانت خطبه مرتجلة في موضوع محدد يجمع شواهده ويؤديه بطريقة خطابية، ليس فيها تلحين ولا تنغيم، وكانت خطبه تجديداً في الخطب التي كانت تنقل عادة من الدواوين، كخطب أئمة الدعوة، وخطب المخضوب (الحكمة البالغة).

ثم بدأت القراءة على الشيخ وأنا في المرحلة الثانوية، وكان مما يخصني به القراءة عليه عند تحضير خُطبه، ورأيت كيف يجمع عناصر الخطبة بحيث تكون مشبعة بالنصوص من الآيات والأحاديث، وبأي التفاسير يستعين للتعليق على الآيات التي يستشهد بها.

ومما أفدته منه الاحتشاد للخطبة، وإعمال الذهن قبل إلقائها، بحيث يلقيها وقد تشبع بها وصار مسارها واضحاً في ذهنه، فلا يصعد المنبر إلا وقد عرف من أين يبدأ، وكيف يسير، وإلى أين ينتهي.

ولذا كانت خطبه في ذلك الوقت حديث الناس في مساجدهم ومجامعهم وأسواقهم، لأنه نزل إلى واقع الناس في معاملاتهم وسلوكهم وجعلها مواضيع لخطبه يبين فيها الخلل، ويصحح الخطأ، فكان التجاوب معها مباشراً، والتأثر بها بالغاً.

ثم انتشرت خطب الشيخ كشك في أشرطة الكاسيت فاستمعت إليها معجباً ببراعته الإلقائية، وصياغته التشويقية، حيث يحول الموضوع إلى ملحمة درامية، تجعل الجمهور يُشَد إليها ويتفاعل معها.

وعندما قرأت كتاب ديل كارنجي «كيف تؤثر في الناس عن طريق الخطابة» وجدت أن الشيخ كشك يطبق أكثر ما ذكره كارنجي مع يقيني أنه لم يقرأ الكتاب ولكنها الموهبة الفطرية.

ثم عينت خطيباً في جامع الملك عبد العزيز عام (١٤٠٤هـ) خلفاً لأخي الشيخ د. حمد الشتوي وبمسعى منه، وكان إعداد الخطبة معاناة أسبوعية، وكان أشق شيء عليَّ فيها اختيار الموضوع المناسب، ثم اختيار المدخل المناسب، ثم أجمع كل ما أستطيع جمعه من مواد مقروءة أو مسموعة، حتى تختمر وتكتمل الفكرة.

وأكثر ما كان يفيدني في الإعداد إعمال الذهن في الموضوع، ثم الحديث فيه مع من يتناغم مع فكري ويشاركني الاهتمام، وكان أكثر من يسعفني في ذلك أخي عبد العزيز الماجد رحمه الله.

فكانت مذاكرته للموضوع إثراءً له بخواطر يلقيها بطريقة عفوية فأتلقفها منه وأستبطنها في الإعداد.

أما كتابة الخطبة فما كنت أتهيأ لكتابتها إلا إذا تضايق الوقت ضحى الجمعة فأكتبها على حال من التوتر، ولذا فإني لا أكتبها كاملة وإنما أكتب طلائع من أولها ثم أضع الباقي عناصر فأجمع بين القراءة والارتجال.

وربما لم يكف الأسبوع للإعداد وتأتي الجمعة ولم يكتمل بعد فلا أريد إحراقه، فألجأ إلى زميلي الشيخ إبراهيم الريس وهو خطيب لمسجد قريب مني فنتناوب الخطبة وإياه، أخطب في مسجده ويخطب في مسجدي.

ثم تطور أدائي للخطبة بالممارسة والاستماع للنقد والنصح من المحبين، فصار لي مسار في إعداد الخطبة وإلقائها يمكن تلخيصه في نقاط:

١- الاحتشاد لها والتفكير فيها وإعمال الذهن في بنائها، وقد يستغرق ذلك مدة تطول أو تقصر حسب الموضوع.

٢- بناء أعمدتها من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

٣- اختيار المدخل المشوق وغالباً ما يكون قصة من السيرة.

٤- عدم إفشاء موضوع الخطبة في أولها حتى لا ينطفئ وهج الموضوع، وإنما أُسَرِّبه شيئا فشيئا داخل الخطبة حتى ربما انتصفتُ في الخطبة والمستمع لا يستطيع تحديد موضوعها، وإن كان السياق يؤدي إليه.

٥- إثارة التساؤل والاستفهام أثناء الخطبة، وطرح السؤال التحفيزي بحيث يشارك المستمع في الوصول إلى النتيجة.

٦- إثراء الخطبة بالمعلومات المتعلقة بموضوعها من إحصاءات ومقولات وشواهد تفيد تدعيم القضية التي يُتحدثُ عنها.

وبذلك صار بيني وبين جماعة المسجد المستمعين للخطبة تجاوب وتفاعل، وتشوق وتشويق، ومن طرائف ذلك أني ألقيت خطبة الجمعة وكنت يومها مريضاً ولكني بمجرد أن واجهت الناس انطلقت في الخطبة ونسيت ذلك، وكانت عن معركة مؤتة، فسرت مع الجيش إلى الشام، والتقى الجيشان وكان عدد الروم أضعاف عدد المسلمين، ودارت معركة طاحنة، واستشهد قائد المسلمين زيد بن حارثة، فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب واقتحم عن فرسه وهو يقول:

يــا حبــذا الجنــة واقترابهــا ... بــاردة وطيــب شــرابها

والــروم روم قــد دنــا عذابها ... علــيَّ إذ لاقيتهــا ضرابهــا

ثم قتل جعفر.

وألقيت الأبيات بحماس وانفعال شديد استنزف قواي كلَّها فأغمي عليَّ وحملت إلى المستشفى، ثم أفقت وكان مجرد إعياء واجهاد لهذا العارض الصحي، فذهبت إلى بيت والدي في حي الشفا لأستريح هناك، فلما كان بعد المغرب جاءني جمع من جماعة المسجد للزيارة، فلما استووا جلوسا بادرني العم جاسر قائلا: يا عبد الوهاب حنا مشغول فِكرُنا عليك وعلى الجيش الذي ذهب إلى الشام ودخل المعركة وقتل

قواده، والآن رأيناك بحمد لله بخير، بقي الجيش طمنا عنهم، خاطرنا مشغول معهم، إيش صار عليهم؟

وكان يسأل بلهف وكأن المعركة ما زالت قائمة وهم قلقون يترقبون نتيجتها.

فوعدته أن أكملها الأسبوع القادم، فقال: لا، علمني ها الحين، ما نصبر إلى الأسبوع القادم، خاطري مشغول معهم.

فأعطيته النتيجة مجملة بما أراح قلبه، ووعدته بالتفصيل في الخطبة القادمة، وكم كان سروري بهذا التفاعل والاهتمام، وأن الكلمة قد بلغت محلها وأثرت أثرها.

ثم بعد غزو الكويت وما أحدث من اهتزازات، وما كشفت من فجوات، صار صوت الإصلاح أعلى نبرة وأكثر صراحة، وصارت الخطب والمحاضرات العامة منبراً لذلك، وهذا ما زاد تفاعل المستمعين، وزاد متابعة الأجهزة الرسمية، ولذا كثرت الاستدعاءات والتعهدات وكانت إمارة الرياض تمد بيننا وبينها شعرة معاوية تشدها وترخيها، حتى انقطعت هذه الشعرة عام (١٤١٤هـ) وعُزلت عن الخطابة.

وكانت تلك مرحلة حافلة، وتجربة ثرية يقال عنها ما يقال عن كل تجربة في تلك المرحلة العمرية بإيجابياتها وسلبياتها.

وبعد ذلك صار كثير من المحبين يقترح عليَّ طباعة هذه الخطب أو ما يناسب منها وإخراجها للناس مطبوعة منقحة، ولكني لم أتوجه لذلك ولم أره مناسباً؛ وذلك لأن الخطبة في ظني عمرها أسبوع وليست مُعمَّرة، ولذا شُرعت كل أسبوع لتجديد الموعظة والذكرى.

ولم يخطب أبو بكر بخطب النبي ﷺ، ولا خطب عمر بخطب أبي بكر، فلكل حال ظروفها وخطبها[١].

---

(١) من عبارات الشيخ عبد الرحمن الدوسري.

وأيضاً فإن الخطبة مثل الثوب على لابسه[١]، فهي تناسب كاتبها وملقيها، وقد لا تناسب غيره إذا ألقاها، ولم أر في كتب الخطب الكثيرة المطبوعة ما يمكن أن يقال إنها تسد الفجوة وتحقق الغرض، ولكن يمكن أن يستعين بها الخطيب ولا يخطب بها، إلا ما رأيته في خطب الشيخ صالح بن حميد، فإنها مسبوكة سبكا أدبيا متقنا هي أشبه بمقالات الزيات في «الرسالة»، وتشعر أن الجهد المبذول في إعدادها يؤهلها للبقاء والتكرار.

وبعد أن صرت مستمعا للخطب ارتفعت عندي حاسة النقد وما عادت طريقتي في كثير مما قلته تلاقي قناعتي اليوم، ومن أهم ما أتحراه اليوم في الخطبة أن تلاقي حاجة المستمعين وفائدتهم في حياتهم من تصحيح تصور أو تصحيح سلوك، لا أن تطربهم وتلاقي أهواءهم.

وتلمُّسُ هذه الاحتياجات في كل مجتمع مهمة تحتاج إلى جهد ومعاناة ليست يسيرة.

وعلمت أن خطب الإثارة العاطفية التي تطرب الحضور حين إلقائها سرعان ما تنطفئ ولذا يلجأ من يسلك هذا المنهج إلى إعلاء النبرة في كل مرة ليحافظ على مستوى الإثارة، وغالبا ما يُستهلكُ ما عنده سريعاً.

بينما الذي ينبغي أن يفكر فيه الخطيب هو ما الذي سيبقى من خطبته في نفوس الناس، وما الذي سيستصحبونه منها؟

وعلمت أن خطبة الجمعة لا يجوز أن تكون لعرض وجهات النظر الخاصة، والقناعات الشخصية، فهذه محلها مقال في صحيفة أو حديث في مجلس، وإنما خطبة الجمعة لعرض هداية الشرع وآدابه ومقاصده المتفق عليها.

وأن الشرع لم يتعبد الناس بالبكور إلى الجمعة، ووجوب الإنصات للخطيب إلا لبلاغ خطاب الشرع وهداية الكتاب والسنة وليس وجهات النظر الخاصة.

---

(١) من عبارات الشيخ صالح بن حميد.

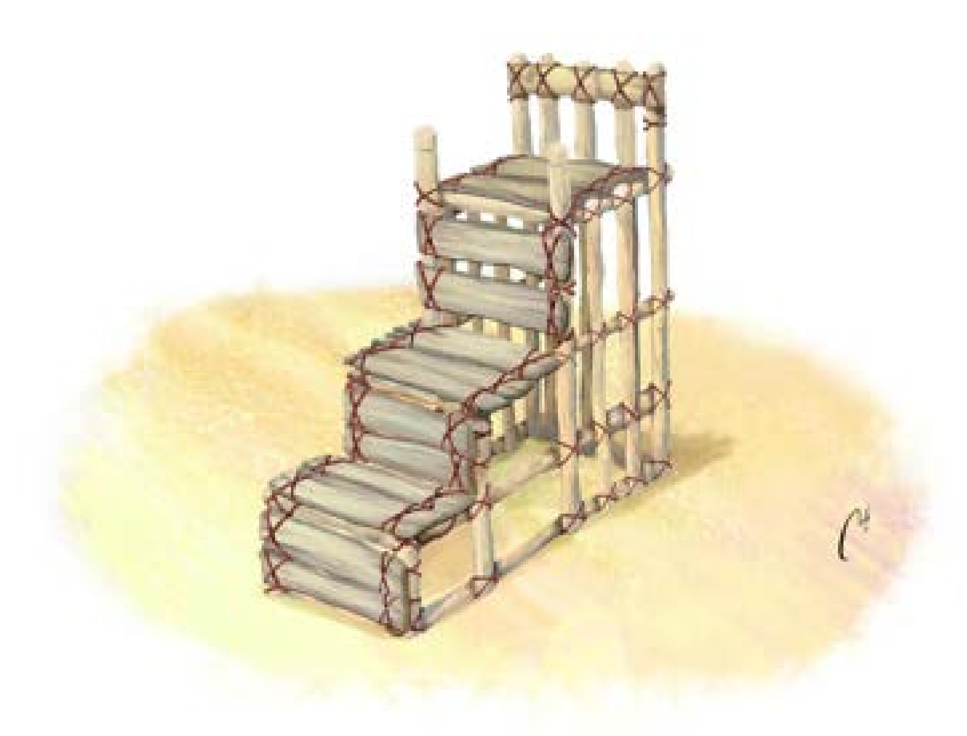
وأن الخطبة هي شحنة وجدانية لا تحتمل كثرة التفصيل ولذا فلا يصلح فيها التقسيم والتعداد، ولقد حضرت خطبة عن أمراض القلوب ذكر فيها الخطيب أسبابا عشرة لأمراض القلوب عددها واحدا واحدا، وكل واحدة أطول من أختها، حتى إذا ظننا أنها فرجت، قال وأما أعراض أمراض القلوب فهي وبدأ يعدد عشرة أعراض لأمراض القلوب لم ينته منها حتى دعونا الله: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾.

إن الخطبة ليست محاضرة ولا بحثاً علمياً، ولا رسالة أكاديمية، فقد جعل الله لكل شيء قدراً.

وعندما سألني مذيع قناة تلفزيونية: لو عدت للخطابة هل ستكون كما كنت؟ قلت: لا، فتلك مرحلة مضت، فقد كانت الخطبة انفعالا يخرج من القلب فيصل إلى القلب متوهجاً مشتعلا، وأما الآن فإنها تخرج من القلب ثم تمر على العقل فينطفئ بعض لهبها ويخفت بعض وهجها.



جامع الملك عبد العزيز في شارع العليا حيث كنت خطيباً



رسم تخيلي للمنبر النبوي

المِنبَر النبوي، أول منبر في الإسلام، صُنع من خشب أشجار الأَثْل (طرفاء الغابة)، مشدودة -فيما يظهر- بسيور من الجلد، وكان بسيطاً وصغيراً بقدر الحاجة، ليس فيه فَخامة عروش الملوك، ولا أُبَّهة مجالس المتعاظمين، فلا زخارف، ولا تزويق.

وارتفاع المنبر من الأرض إلى مكان جلوس النبي ﷺ ذراعان (متر تقريباً)، وارتفاع رمانتي المنبر التي يضع اصلنبيُّ ﷺ يديه الكريمتين عليهما إذا جلس شبر وأصبعان (ربع متر تقريباً) فوق مجلسه، وارتفاع ظهر المنبر -وهو محل الاستناد عن مجلسه- شبران وشيء (نصف متر تقريباً)، وله درجتان، وكلُّ درجةٍ عرضها شِبر (ربع متر تقريباً)، وارتفاعها مثل ذلك، ودرجة ثالثة هي البَسْطَة التي كان يجلس عليها النبيُّ ﷺ، وهي الدرجة العُليا من المِنبَر عرضها ذِراعٌ وعُمقها ذراع (نصف متر في نصف متر).

وقد بقي المنبر في المسجد النبوي إلى أن احترق في حريق المسجد سنة (٦٥٤هـ)[١].

(١) ينظر: «وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى» (٢/ ١٢)، و«شرح الشفا» لملا علي القاري (٢/ ١٥٤).

حرب الخليج

كان غزو صدام للكويت مظهراً من مظاهر الرعونة والطغيان الفردي، والتضحية بمصائر الشعوب إرضاء لنزوة طاغية لا ينظر إلى شعبه إلا أنهم حطب لحرائقه التي يشعلها هنا وهناك.

فما إن التقط الشعب العراقي أنفاسه بعد معركة طاحنة مع إيران اصطلى بنارها ثماني سنين، أكلت أخضرهم ويابسهم، ونثرت المآتم في قراهم ومدنهم، فإذا بهم على حين غفلة يُخرج بهم في مغامرة فاجأتهم كما فاجأت إخوانهم في الكويت، وتطورت وتسارعت مقدماتها وكأنما كانت تدفع إلى هذه النهاية، واستيقظنا صبيحة يوم (٢/ ٨/ ١٩٩١م) على فجاءة الخبر، ولم نستوعب ما حصل أول وهلة، حتى انجلى الغبار عن كارثةٍ مفجعة، أصابت أهلنا في الكويت ثم ارتدت على أهلنا في العراق.

أما نحن في السعودية فقد كانت الأخبار تصلنا بشيء من التهويل والإفزاع، وصارت طلائع الإخوة الكويتيين تأتي أفواجا إثر أفواج، نازحة من بلد عاش هادئاً وادعا وإذا به يصبح في خندق المعركة، وكان التفاعل الشعبي مع أهلنا الكويتيين رائعاً وواسعاً، وبذل أهل الخير والإحسان بسخاء إعداداً لتلقي الإخوة النازحين إلى المنافذ الحدودية السعودية.

وخرجتُ مع مجموعة من الإخوة لزيارة الشباب المتطوعين الذين كانوا يتلقون النازحين القادمين من الطرق البرية الترابية فيصلون مجهودين، فيستقبلهم هؤلاء الشباب الاستقبال الحسن، والمساعدة بما يحتاجون، وأخذهم في طريق الإيواء إلى حفر الباطن ليتفرقوا بعدها في مدن المملكة.

ورأيت في هذه المراكز الحدودية شباباً رائعين محتسبين، جاؤوا مبادرين، لم يدعهم أحد إلا داعي الشهامة والخير في نفوسهم.

ورأينا تداعي أعضاء الجسد الواحد، وظهرت مكارم العرب وأخلاق أهل الإسلام، في مشاهد رائعة من التآخي والتآزر، فكان الموقف الشعبي متوازيا مع الموقف الحكومي الرسمي احتواء ومواساة، وكان لسان حال الناس جميعاً يتلقاهم:

أهـل الكويـت وأبنـاء العمومـة هـل ... تشـكون جرحـا ولا نشـكو لـه ألمـا

إذا حزنتـم حزنـًا فـي القلـوب لكـم ... كالأم تحمـل مـن هـمٍّ ابنهـا سـقما

وكـم نظرنـا بكـم نعمـى يجسـمها لنـا ... السـرور فكانـت عندنـا نعمـا

إذا المـكارم مـن أخلاقكـم سـلمت ... فـكل شـيء علـى آثارهـا سـلما

وفي هذه الفترة أصبح حديثنا وحديث الناس كله حول هذه الحدث الفاجئ الفاجع، وعكفنا على الإذاعات والقنوات الإخبارية نتابع تطورات الحدث، وتحول الناس كلهم في أحاديثهم إلى محللين سياسيين، وخبراء عسكريين.

فتوى الاستعانة بالقوات الأجنبية:

وصدرت فتوى هيئة كبار العلماء بجواز الاستعانة بالقوات الأجنبية، وألقى الشيخ سفر الحوالي شفاه الله محاضرة يحذر فيها من قدوم القوات وكانت بعنوان: «فستذكرون ما أقول لكم»، وحضرت هذه المحاضرة فكان محورها التحذير من أن هذه القوات جاءت لتبقى.

ولم يعارض أحد من علماء المملكة ودعاتها هذه الفتوى -فيما أعلم- غيره.

أما في الخارج فلا تسل عن الاستنكار من الجماعات الدعوية، والحشود الجماهيرية في أقطار العالم العربي بعامة، وكان الشيخ ابن باز رحمه الله هو المتصدي لهذا الموقف والناس يدوكون حوله وهو راسخ في موقفه، ثابت في رأيه، وتسافه بعض الطائشين واستطالوا في عرض الشيخ ومقام هيئة كبار العلماء، ولم يكن النقاش علميا ولكنه هيجان عاطفي يرفض ولا يناقش فضلا عن أن يقدم حلا آخر.

وكنت ممن وقف مع رأي الشيخ ابن باز وهيئة كبار العلماء في خُطب الجمعة التي ألقيتها والمحاضرات التي تحدثت فيها، ودخلت في نقاش مع كثيرين كانوا متأثرين بالخطاب الانفعالي الرافض، فكنت أقول: إن القول بجواز الاستعانة بغير المسلمين هو رأي جمهور أهل العلم، وإن النبي ﷺ استعان بعمه أبي طالب وهو مشرك، ودخل في جوار المطعم بن عدي وهو مشرك، وأرسل أصحابه إلى النجاشي وما كان مسلما، وهاجر بصُحبَةِ عبد الله بن أريقيط وهو مشرك، وأرسل أصحابه القراء بجوار ملاعب الأسنة وهو مشرك، وعاهد أهل مكة في صلح الحديبية فدخلت معه قبيلة خزاعة وأكثرهم مشركون، وكان عيونه واستخباراته من حلفائه المشركين، واستعان بأدراع صفوان بن أمية في غزوة حنين وهو مشرك، وقال ﷺ: «**ستصالحون الروم صلحاً آمناً فتغزون أنتم وهم عدواً من ورائهم فتسلمون وتغنمون**». فأخبر ﷺ أن هناك قتالا سيكون بين المسلمين وحلفائهم من الروم ضد عدو مشترك ثم وصف نتيجة هذا القتال فقال: «**فتسلمون وتغنمون**». فهل يصف النبي ﷺ بذلك فعلا محرماً، وأن حديث: «**إني لا أستعين بمشرك**» لا يفهم بمعزل عن هذه الأدلة كلها، وأن من العلماء من ذهب إلى أنه منسوخ، وبعضهم إلى أنه حالة لها خصوصيتها، فيجيئني جواب فيه كثير من الانفعال وقليل من العلم.

وألقيت محاضرة في المنطقة الشرقية وذكرت كل هذه الأدلة، فناقشني شاب من طلبة العلم بعدها على طريقة أما قولكم كذا فالجواب عنه كذا، وعجبت له لأننا إذا

استخدمنا هذه الطريقة في تقليم دلالات النصوص وتجريدها من معناها فماذا يبقى معنا من الشريعة.

وسافرت في هذه الفترة إلى أمريكا لحضور مؤتمر الطلبة المسلمين، فوجدت الجو محموما يغلي بالتوتر والانفعال، وقام أحد المتحدثين منفعلا يتكلم بما يشبه الصراخ وهو يقول: الخلاف في الاستعانة بالكفار على الكفار وليس على المسلمين.

ولا أدري هل إذا أغار عليه قطاع طريق ووجد من ينجده هل سيسأل حينها عنه هل هو مسلم أم كافر؟ وما هي عقيدته؟ وما هو مذهبه؟ أم سيفكر بالتخلص من عدوان المعتدي ودفع شره؟ ولكن لم يكن من الرشد استعمال الحوار العقلي حين يكون العقل غائباً.

وتُرِكَ الاستدلال العلمي، والنقاش العقلي إلى توتر انفعالي؛ أحدث حزازات في النفوس، ونفرة بين الشعوب، وصُدمنا بأن يصدر الخطاب الارتجالي المتوتر من أناس كانوا مظنة الرشد والبصيرة.

ثم يشاء الله أن تدرك أعمارنا أحداث ثورة (١٧) فبراير في ليبيا وكيف استعان الثوار بالناتو، والذي قام بقصف أرتال كتائب القذافي المتوجهة إلى بنغازي، فأنقذت المدينة وأهلها من إبادة متوقعة، ورأينا تجاوب الجماهير مع مظاهرات بنغازي، وترحيبها بمشاركة الناتو لهم.

ثم قامت الثورة في سوريا وصارت طائرات الأسد تقصف بالبراميل المتفجرة، وبالكيماوي، وتعالت الصيحات تطلب من أمريكا التدخل لحماية المجال الجوي، ومنع الغارات حتى بحت الأصوات وجفت الحلوق.

ولكنا لم نسمع صوتا ولو خافتاً أو هامسا يقول: إن هذه استعانة بقوات أجنبية غير مسلمة على جيش مسلم، وتساءلنا أين تلك الفتاوى التي صدرت؟ وتلك المظاهرات

التي احتشدت؟ استنكاراً لفتوى هيئة كبار العلماء بالاستعانة بالقوات الأجنبية أيام غزو الكويت، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا؟!

وهذا يبين لنا كيف تتحرك الجماهير بالعاطفة والانفعال، وليس بالمنطق والاستدلال.

وإنما أفضت في تفصيل ذلك لأن هذه الفتوى ومعارضتها كانت نارا لاهبة في ذلك الوقت فلا تعجب إذا كنت الآن لا تجد أثراً لهذه النار ولا لرمادها.

عاصفة الصحراء:

وازداد تأزم الوضع بإصرار نظام العراق على موقفه وإفشاله كل المساعي لاحتواء الحدث، وذلك أنه لم يقدم على ما أقدم عليه، وفي مخططه التراجع.

وأصبحت نذر الحرب تقترب، وإذا التهديدات بأن مدن السعودية وأحياء الرياض ستكون هدفا للصواريخ العراقية، وتخيل الناس أنها ستكون صواريخ تحمل غازات كيماوية كتلك التي استعملها صدام ضد الأكراد في حلبجة، فكنت ترى نوافذ البيوت مغلقة بأغطية بلاستيكية، وغادر الرياضَ كثيرٌ من سكانها إلى قراهم وبلداتهم.

وحصل لدى الناس توتر وخوف، وتزاحمت في أذهانهم أسوأ الاحتمالات، فهذه أول مرة يلفحهم لهب حرب حولهم، وذهبت مع بعض الإخوة حينها إلى أحد مشايخي، فإذا في مجلسه جموع من الشباب أتوا مثلنا لزيارته فلما جلسنا إليه وتحدث لنا وإذا به في غاية السكينة والسكون، وواجه كل التخوفات بعبارة كأنما سمرت في عقلي حين قالها بكل وثوق: إذا وقع ما لا يستطاع دفعه فإننا متعبدون لله بعبادة اسمها الصبر.

وتذكرت كلمة ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية حين قال: كان إذا اشتد بنا الخوف وضاقت بنا الظنون أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب عنا ذلك كله وينقلب انشراحا وقوة ويقينا وطمأنينة.

وكذلك كان شيخنا الشيخ ابن باز مقبلا على شأنه لم تنقطع دروسه ولم تتغير مواعيده، أو يختل برنامجه، وكان هو شأن الشيخ ابن عثيمين وابن جبرين ونحوهم.

وكذلك رأيت هذه الحال في بعض طلبة العلم الجادين الذين لم تستهلك أوقاتهم متابعة الأخبار وتحليلها، وإنما استمروا على سنَنَهم في القراءة والدعوة والتعليم، فلما هدأت الثائرة عرفنا أن ما كانوا فيه خيرٌ مما كنا فيه.

ومر الوقت ساخنا متسارعاً حتى خرجت يوماً لصلاة الفجر فلقيني أحد جيراننا ليخبرني بأن القصف بدأ البارحة على العراق وهو ما كان متوقعاً، وانطلقت المعركة التي سميت بـ«عاصفة الصحراء»، ووصلت بعض الصواريخ العراقية إلى الرياض والمنطقة الشرقية، ولا أزال أتذكر الرعب الذي حصل مع أول صاروخ وصل الرياض، وسمعنا لأول مرة في حياتنا صوتاً بغيضاً يسمى: صافرات الإنذار، ثم ألف الناس هذا الصوت وهذه الصواريخ، وصاروا إذا سمعوا الإنذار يخرجون لينظروا إلى تفجير الصاروخ في الفضاء، ولم تكن صواريخ متقدمة ولا كيمياوية، ولم يقع منها أضرار تذكر، واتضح أن أسلحة الجيش العراقي أمام أسلحة التحالف أشبه بلعب الأطفال، والضحية هو ذاك الشعب المقهور الذي قُدِّم لقمة سائغة لآلة الدمار الهائلة ليرى العالم كيف أبيدت القوات العراقية المنسحبة من الكويت في طريق المطلاع، وتحولت إلى جثث متفحمة وأرتال محترقة.

وكم تخيلت حال ذاك الجندي العراقي الذي انتزع من أسرته وبلدته وجيء به إلى الكويت لا يدري لماذا جاء؟! ولا يدري لماذا انسحب؟! هو مجرد طلقة يستخدمها قائد مغامر، ثم لا يعنيه شأنها بعد أن يستخدمها.

ولما اضطر صدام للانسحاب من الكويت لم يجد وسيلة للانتقام إلا أن يفجر آبار النفط، وكأن الخراب والدمار من المنجزات التي يحققها إذا لم يحقق انتصارا.

وانتهت المعركة بعد أن وقَّعَ نظام العراق على كل ما طلب منه في اتفاقية سفوان، وعاد الكويتيون إلى وطنهم ليرمموا دمار الوطن، ويعالجوا أوجاع النفوس، ومرارات العدوان والبغي.

وهم الذين كانوا بالأمس مع العراق في حربه على إيران، وكانت الشاعرة سعاد الصباح تنشد في مهرجان المربد:

أعطني خوذة جندي عراقي وخذ ألف أديب

فجاءتها خوذات الجنود العراقيين إلى الكويت.

وكانت تنادي في المربد:

لماذا تقاتل بغداد عن أرضنا بالوكالة

وتحرس أبوابنا بالوكالة

وتحرس أعراضنا بالوكالة

لماذا يموت العراقي حتى يؤدي الرسالة

وإذا بالذي كانت تظن أنه يقاتل عن أرضها يُرسل إليها حتى يقاتلها في أرضها، ويموت ذلك الجندي العراقي وهو لا يدري ما هي الرسالة التي يموت لأدائها.

ثم مرت سنوات إثر سنوات، وصار حدث غزو الكويت تاريخا، وكشفت الوقائع سذاجة كثير من التوقعات السياسية التي كانت تقال حينها.

ويا لله لحال أهلنا في العراق، هذا الشعب الصابر المبتلى، والذي يملك أضخم الثروات، وتجري في أرضه أنهار الخيرات، ومع ذلك كلما خرج من محنة أُدخل في أخرى أشدَّ منها، فمن الحرب العراقية الإيرانية إلى الحرب الكويتية، ومن الاحتلال

الأمريكي إلى الاحتلال الطائفي الصفوي، ولا يدري هذا الشعب الصابر المصابر متى يأتي الفرج، وترتفع الغمة، فيعود إلى العراق أهلُه، ويعود العراقُ إلى أمتِه.

مطالب الإصلاح:

وكان من آثار هذه الأزمة وضوح الحديث عن مطالب الإصلاح، والدعوة إلى تقوية مفاصل الدولة، ومعالجة مسارب الفساد، وكان الطرح الإصلاحي واضحاً صريحا في الصحافة، والمحاضرات، وخطب الجمعة، وكان الملك فهد رحمه الله يتعامل مع ذلك بأناة وحلم، وكان من تجلياته خطاب المطالب الذي رفع إلى خادم الحرمين بتوقيع كل من الشيخ عبد العزيز بن باز والشيخ ابن عثيمين ومئات من العلماء وأساتذة الجامعات وكان مناصحة صادقة، وكانت القيادة معتادة على تلقي النصح، ولذا فلم يكن فيما كتب فيه ما يثير أو يستثير، لولا أن قام بعض من كانوا يشاركون فيه بنشره بطريقة انفجارية خرجت به من كونه مناصحة إلى ظهوره وكأنه تحد للدولة وإحراج لها، وشعر كثير من الموقعين وأنا منهم بامتعاض شديد فليس هذا ما أردناه ووقعنا عليه، وشعر بعض الموقعين بأنهم خُدعوا واستخدموا، ثم تبع ذلك مذكرة النصيحة التي وقعت كمذكرة نصيحة تسلم للشيخ ابن باز ليسلمها لولاة الأمر، فإذا بها تنشر في صحيفة يسارية قبل أن يسلمها الشيخ.

وكانت هذه بداية تأزم بين الدولة وبعض الدعاة، وإساءة الظن من بعض المشايخ في بعضهم، مع أن الذي فعل ذلك غيرهم.

وكان هذا في نظري تصرفاً غير رشيد ولا موفق، وأضر أكثر مما نفع، فإن الذي يريد أن يُعلِنَ النصيحة ويحمل قناعةً بجدوى ذلك فإن عليه أن يتولاه بنفسه، ويتحمل هو مسؤولية تصرفه، لا أن يقحم غيره في أمرٍ لو علم نهايته ما رضيه ولا شارك فيه.

وأحدث ذلك عندي تباعداً عمن يسعى هذا المسعى، فهو تصرف يسمم الأجواء ويوترها، ويعوق الإصلاح ولا يحققه، وصرت إذا أردت أن أكتب مناصحة كتبتها باسمي، وسلمتها بنفسي، فإن نفعت وإلا لم تضر.

لقاء الأعلام

لقيت في مسيرة العمر عظماء كثر جمعني بهم طريق الحياة، واتفاقات حصلت، وفرص سنحت، وهؤلاء لقيتهم ولا أقول: صحبتهم أو خالطتهم، وإنما كان لهم في حياتي عبور ولا أقول: حضور، فأما من صحبتهم وعرفتهم عن قرب فقد خصصت لهم الجزء الثاني من «**سماء الذاكرة**».

وكنت قرأت مقالة للأديب إبراهيم أصلان عن لقائه بالعقاد، وكانت مقالة طويلة لذيذة خلاصتها أنه رأى العقاد في زحام شارع سليمان باشا، ورآه من الخلف، وأحسب أنه لولا طول قامة العقاد ما رآه، فهو لم ير وجهه ولم يسمع كلامه، فماذا سأكتب لو فعلت مثله عن لقائي بهؤلاء الأعلام:

محمد بن إبراهيم، الملك فيصل، أبو الحسن الندوي، فؤاد سيزكين، محمد عمارة، الشعراوي، محمد قطب، سيد سابق، عبد الخالق عضيمة، الحبيب الخوجة، إحسان عبد القدوس، يوسف إدريس، أحمد عادل كمال، فريد عبد الخالق، الألباني، عبد الله خياط، الشيخ جعفر إدريس، محمد العمراني، إسماعيل الأكوع، زهير الشاويش، أنيس منصور، نعمات أحمد فؤاد، عبد العزيز التويجري، محمود أمين العالم، مصطفى الشكعة، جلال أحمد أمين، وديع فلسطين، عبد المحسن التويجري، عبد الله بن

خميس، حمد الجاسر، يوسف القرضاوي، عبد الرحمن سوار الذهب، محمد الراوي، نور الدين عتر، وهبة الزحيلي، عبد الوهاب المسيري، علي الطنطاوي وغيرهم.

وأدركت رجالات كان يمكن أن أسعد بلقائهم لو توجهت لذلك، منهم مسند العصر الفاداني، والشيخ محمد حسنين مخلوف، والشيخ محمد الغزالي، والبياتي، والجواهري، ومحمود شاكر، وغيرهم.

ولكن سأذكر بعضاً، ولعل للبقية مقاما آخر، فممن لقيتهم وبقي هذا اللقاء في الذاكرة والذكرى:



مع الأستاذ محمود أمين العالم، برفقة الابن ناصر

الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ

مفتي المملكة، ورئيس الهيئات الدينية، وكان رحمه الله شخصية استثنائية هو زعيم في ثياب عالم، وذو شخصية مهيبة وعقل راجح يزن الجبال، ورسوخ علمي تتطامن له القامات المديدة، وهو فيما أحسب من أذكياء العالم، حضرت شيخنا الشيخ عبد العزيز بن باز وقد طلبنا إليه أن يحدثنا عن نشأته، فذكر شيوخه الذين أخذ العلم عنهم وعدد منهم جمعا ثم قال: أما شيخي الذي تخرجت به واستفدت منه ولازمته عشر سنين، والله ما رأيت قبل أن أفقد البصر ولا سمعت بعد أن فقدت البصر أحسن تعليماً منه، فهو شيخنا محمد بن إبراهيم، ثم امتقع وجهه وتهدج صوته وبكى وهو يقول: ما أنا إلا حسنة من حسناته.

وكان حضوره التاريخي في مرحلة التكوين والبناء للدولة، فكان شريكاً في التأسيس بتولي الجانب العلمي والقضائي والدعوي والإفتائي.

بل كان شريكا في القرارات الصعبة التي اتخذتها القيادة، ومن أبرزها تنحية الملك سعود وتولية الملك فيصل، وكان له دوره في عبور البلاد هذه الأزمة بسلام، وحدثني من سمعه وهو يلقي البيان الذي أُعلن في قصر الحكم بخلع الملك سعود فلما بلغ من البيان قوله: خلع الملك سعود، تهدج صوته وهو يقول: فهو مخلوع، وأخذته رجفة البكاء فغالبها برفع صوته وكرر: فهو مخلوع، فهو مخلوع، وكان الشخصية التي تذكر مع الملك أو بعده.

وقراءة مجموع فتاواه ومراسلاته تبين كيف كان نفوذه واسعا، ورأيه مؤثرا، وفي صياغته للرسائل التي يوجهها للمسؤولين براعة تجمع بين التقدير والإلزام.

وحدثني أحد مشايخي أنه كان حاضرا في مجلسه بعد المغرب فدخل عليه مجموعة من المحتسبين يطالبونه بتغيير بعض ما يرونه منكرات، واشتدوا في الكلام معه، فاحتمل كلامهم بحلم وصبر، ومع ذلك خرجوا وهم يتسخطون، فلما خرجوا قال لمن عنده: هداهم الله يريدون أن أقول لهم: قلت كذا، وفعلت كذا، سيعرفون ذلك بعد أن يفقدوني.

وقد عرفوا وعرف غيرهم بأنه كان الباب المغلق عن كثير من الفتن، فلما مات كسر الباب وخلع مصراعاه.

ولصغر سني لم أدرك لقيا الشيخ وإن كنت أصلي في الجامع الكبير الذي يخطب فيه، ولكن أكون بعيدا فلا أراه، ثم توفي أحد أقاربي في صبيحة يوم جمعة فذهبت مع والدي لصلاة الجمعة باكرا وجلسنا قبالة المحراب والمنبر في الصف الثاني، فلما حان وقت الصلاة دخل الشيخ وصعد المنبر وألقى الخطبة واحتواه بصري بقامته المربوعة، ولحيته البيضاء الناصعة التي تحف محياه من غير أن تغمر وجهه، وبشته الأصفر ومشهده وهو يعتمد بكلتا يديه على ساريتي المنبر، وخطبته الوجيزة التي ألقاها بترسل وتنغيم.

ثم صلاته ونغمته في قراءته، وبعد سنة تقريبا توفي الشيخ عام (١٣٨٩هـ)، وأتذكر يوم عدت من المدرسة الابتدائية عند صلاة الظهر فلقيت طفلاً أصغر مني فقال لي: مات الشيخ محمد، وبعد صلاة الظهر رأيت أبي وقد رجع من المقبرة ماشياً وعليه أثر الإعياء عائداً من تشييع جنازة الشيخ، وبعد العصر اجتمع الأطفال، فقال صديقي عبد العزيز القصير: طويت اليوم صفحة من صحائف العلم، فأتعجب الآن كيف كنا أطفالاً نتفاعل مع هذا الحدث بمثل هذا التأثر.

ولما عدت إلى البيت قبل المغرب وجدت عجائز يخرجن من البيت فسألت أمي: من هذه؟ قالت: أم محمد الشقري، جاءت تعزي جدتك في الشيخ محمد.

رحمه الله فقد كان فقده فجيعة دخلت كل البيوت، وهو ممن لا تكرر مناقبه جملة، ولكن توجد بعده تفاريق.



الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ
ويظهر خلفه: الشيخ ابن باز، والشيخ إبراهيم بن محمد
رحمهم الله

الملك فيصل

كان الملك فيصل زعيما تغطي شخصيته على من حوله، مع شموخ الزعامة وأبهة الملك، وكنا ننظر إلى زعامته بكثير من المهابة والتعظيم، وكانت المملكة في عهده برغم تواضع دخلها وإمكاناتها لها زعامة عالمية خصوصا مع تبنيه مشروع التضامن الإسلامي، وكان للشاعر عمر أبو ريشة قصائد فيه يلقيها في موسم الحج، وعندما تسمعها بأداء الشاعر الجرسي الرنان، تشعر أنه ثناء المعجَب وليس مديح المستوهِب.

ومنها:

يا ابن عبد العزيز وانتفض العز ... وأصغى ... وقال: من ناداني

قلت ذاك الجريح في القدس في ... سيناء في الضفتين في الجولاني

وفي قصيدة أخرى:

يا ابن عبد العزيز يا لنداء ... في مداه ناديت كل الرجال

شئت أم لم تشأ فأنت مع التاريخ ... في موعد يتيم المثال

أنت رنَّحتَ بالعباءة عطفيه ... ورصعت رأسه بعقال

وتركت الأقوام ما بين شاك ... من صدود أو طامع في وصال[1]

وكانت أول مرة أقابله فيها مباشرة يوم العيد ومضى خبرها[2]، ثم إني ذهبت بعد ذلك إلى صلاة الاستسقاء وأنا في الحادية عشرة من عمري، ولم يكن الجمع فيها كثيراً بحيث إني صليت قريبا من الإمام في الصف الثالث، فلما حضر الملك تبعه فريق من

(١) من ديوان: «أمرك يا رب» لعمر أبو ريشة.

(٢) في مقالة: «عيدنا».

مصوري الصحف لالتقاط صور مشاركة الملك صلاة الاستسقاء، فقطع علينا سكون الصباح صياح خلف الصفوف ينادي: هذا حرام، لا يجوز، التصوير حرام، التصوير حرام، والتفت فإذا أحد المحتسبين واقف يرفع صوته، ويلوح بيده، ويتجاهر بإنكاره، فقام إليه مجموعة من الحرس وأجلسوه، وأَحسِب أن الأمر لم يتجاوز ذلك، وأنه بعد الصلاة مضى لحال سبيله، فقد كانت مثل هذه المواقف معروفة ومألوفة.

ثم أقيمت الصلاة وخطب الشيخ عبد العزيز آل الشيخ خطبة الاستسقاء فلما انتهى وقام الملك، وقفت في الصف الذي سيمر منه إلى الباب، ولم تكن الإجراءات الأمنية حينها مشددة، فلما حاذاني تقدمت إليه ومددت يدي مصافحا فمد يده الطويلة النحيلة بأصابعه المعروقة من غير أن يتحرك منه شيء إلا نظرة عينيه التي أتذكرها جيدا، وأتذكر ملامح وجهه الصلبة التي لا تتغير تضاريسها، وقامته المديدة الفارعة الطول، وهامته التي يطوقها عقاله المقَصَّب والذي يوحي بتاج الملك، ولذا يقال عنه: هو آخر من لبس التاج.

لا أحسب أن ذلك المشهد استغرق ثواني معدودة لكني أتذكره الآن وكأنه ملحمة طويلة، وعدت بعد ذلك وأنا متطامن الشعور بعد الدرس السابق الذي تلقيته من أمي، وتوجهت إلى مدرستي ولا أذكر أني قصصت خبر هذا اللقاء على أحد، وكانت المرة الأخيرة التي رأيته فيها مباشرة.



الملك فيصل والشيخ ابن باز
رحمهم الله

أبو الحسن الندوي

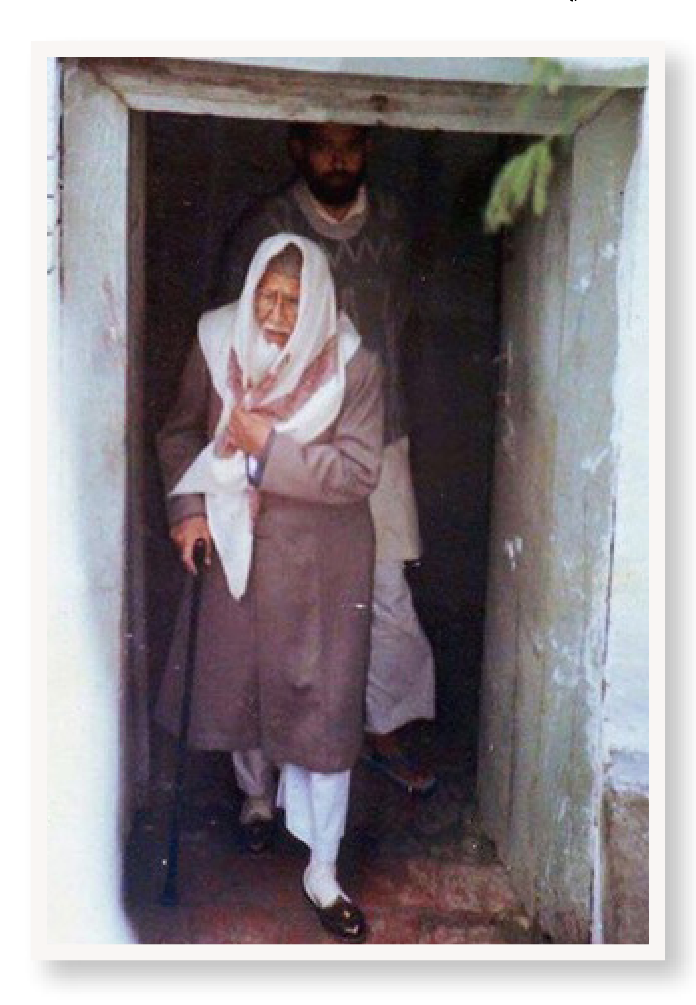
تفتح وعينا واسم الشيخ أبو الحسن يدوي في مسامعنا برغم بعد البلد، وكان كتابه: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» وجبة معرفية يغترفها الطلاب في مراحل وعيهم الأولى، وهو كتاب ألفه في طليعة شبابه وبقي في المقدمة لا يتزحزح ولا يتراجع، وغطى على كتب مهمة صدرت للشيخ مثل كتابه: «السيرة النبوية»، وكتابه: «العقيدة والسلوك».

وسمعت من شيخي بكر أبو زيد إعجاباً شديداً بالشيخ وهو يحكي جواره لهم في المدينة، ويروي من نسكه وعبادته وتألهه العجب، وحدثني أستاذنا أحمد البراء الأميري عن زيارته له في الهند واستضافته إياهم في بيته، فحكى من زهده وتقشفه وهوان الدنيا عليه المدهشات.

فلما زرنا الهند قصدنا بلدته لكنو، وزرنا ندوة العلماء والتي دَوَّى ذكرها واشتهر خبرها، وكنت أقرأ مجلتها: «البعث الإسلامي»، فلما دخلناها فوجئت بتواضع مبناها كجامعة، فلا تعدو أن تكون بحجم مدرسة متوسطة عندنا، وعجبت كيف صدر كل هذا الإشعاع من هذا المكان المتواضع، وأين أثرها من كثير من جامعاتنا التي هي بمساحة مدن.

وكان أكثر ما تشوفنا له مقابلة الشيخ أبي الحسن رئيس الجامعة فذهبوا بنا إلى جناح الإدارة وغرفة الرئيس التي كنا نتوقع أن بداخلها مكتبا ضخما ومقاعد وثيرة، فلما دخلنا مكتب الشيخ إذا نحن بغرفة صغيرة شبه فارغة، قد فرش على أرضها بساط ساذج، ونثرت فيها مساند تحولت إلى وسائد من طول عمرها وكثرة استخدامها، وجاء الشيخ في وقته تماما ليجلس على مكتبه الذي هو إحدى هذه الوسائد، جلس عليها مستوفزا، وجلسنا حوله أنظر إلى بهاء وجهه السمح، وأرتوى من سكينة روحه،

كانت كلماته قليلة وحديثه معدوداً، وظهر من حاله أنه أخذ نفسه بالصرامة والحزم، وأن الدقيقة من ساعته لها وظيفتها وإنجازها، وشعرنا أنه أتى من عمل وسيذهب بعدنا إلى عمل، كان المشهد غنيا بالتأثير الوجداني وإن لم يكن فيه كثير قول، ثم ودعنا الشيخ بعد أن ترك فينا بقية من نفسه ما زالت تعيش فينا إلى اليوم، مضى على ذلك اللقاء ثلاثون سنة وكأني خرجت من عنده للتو.



الشيخ أبو الحسن الندوي

رحمه الله

أبو العينين شعيشع

الصوت القرآني الذي كان امتدادا لصوت مزمار القرآن الفريد الشيخ: محمد رفعت، وكان يحاكي أداءه فكأنه هو، زرته وقد شارف التسعين أو نيفها، وأتيته على موعد اللقاء فوجدته متهيئا لذلك، قد لبس جبته وعمامته، وتلقاني وأبنائي بحفاوة وإكرام فيها روح أهل البلد وطيبتهم وودهم.

وتحدثنا معه فاستراح للحديث، وذكر لنا بدايات حفظه للقرآن واستماعه لقراءة القراء، وأنه كان يحضر مجالس القُرَّاء وهي غالبا مجالس العزاء، ولم تكن مكبرات الصوت موجودة حينها فكان وهو صغير يحرص على القرب من القارئ فربما احتال لذلك بأن يدخل تحت التخشيبة التي يجلس عليها القارئ، وحكى لنا كيف نام ليلة داخلها وفزع أهله يبحثون عنه أما هو فلم يستيقظ إلا صباح الغد بعد أن صار الصبي حديث القرية.

وحدثنا عن لقائه بالشيخ محمد رفعت، وأن الناس أخبروا الشيخ أن هناك فتى يقلد قراءتك قال: فطلبني، فلما أتيته احتضنني واستمع قراءتي وصار لي به ود وخصوصية.

وقال عن الشيخ رفعت: كان له عينين بسم الله ما شاء الله، ما بتشوفهم على أحلى ست، لكن يا عيني ما كانش بيشوف بيهم.

وتذكرت الحكاية التي كنت قرأتها عن الشيخ رفعت أنَّ امرأة رأته وهو صبي، وفتنت بعينيه الكحيلتين فقالت: يا لهوي، دا رمشه على كرسي خده، فذهب نورهما، وبقيت أهدابه وعيناه منظرا لا بصرا.

وحدثنا عن الشيخ عبد الباسط عبد الصمد فقال: هو كان أصغر مني عمراً، وسألته عن أدائه الرائع هل هو حصيلة دربة ودراسة، ففاجأني أن الشيخ لم يكن يعرف المقامات، وكان يقول: بلا زيكا بلا ميكا.

فإذا أدى القراءة المطربة فإنه يؤديها بموهبته، وليس بمعلوماته، وقال: إنه سجل المصحف المرتل على غير رغبة ولكن مسايرة لصنيع الشيخ المنشاوي والحصري ولذا لم يحضر فيه إبداعه.

وتحدث عن علاقته بالملحن رياض السنباطي والسيدة أم كلثوم وقال: بتاع الصوت المقرئ وبتاع المغني لازم يروء[١] صوته، وما يأكل أي حاجة قبل الأداء، إلا أم كلثوم كانت تتعشى فسيخ وبعدين تروح الحفلة ولا أحلى.

وحدثته عن التسجيل القرآني الوحيد لأم كلثوم فقال: دي كانت قراءة برهبة، وتمنى لو كان عندها حين التسجيل لاستخرج منها قراءة أرق وأروع.

وعندما ودعناه وقبلنا جبينه ويمينه صحبنا إلى الباب بنشوة أشعرتني أن هؤلاء الكبار يستحقون عرفانا يليق بتاريخهم، وأن التعامل معهم لم يكن على قدر أقدارهم.



الشيخ أبو العينين شعيشع
رحمه الله

(١) أي: يعتني بصوته حتى يكون رائقاً.

نعمات أحمد فؤاد

كنت في المرحلة الثانوية استمع إلى إذاعة القاهرة فسمعت مقابلة مع الدكتورة نعمات أحمد فؤاد وسألتها المذيعة عن كتابها عن أم كلثوم ودافعها إلى تأليفه فقالت: كنت أستمع إلى أم كلثوم فأُحس أني أسمع هدير صوتها في صدرها قبل أن تصدح به حنجرتها، فأعجبت بأسلوبها وتابعت المقابلة كاملة، وتعرفت عليها من خلال هذا اللقاء ثم قرأت مقالاتها في مجلة الهلال وبعض الصحف المصرية، وقرأت سيرتها الذاتية، التي كتبتها في مجلة الهلال، ثم زرتها في بيتها في «الزمالك» أنا وأولادي فاستقبلتنا هي وزوجها، ويالله للفرحة الغامرة التي تلقتنا بها، وذكرتها ببعض سيرتها وبخاصة علاقتها بالأستاذ الزيات، فاستثارتها الذكريات، وحدثتنا عن زيارته لها في بيتها، وحفاوته بها وبزوجها، وعن حضورها زواج ابنه، وانتعشت وطافت بنا في بيتها وأدخلتنا مكتبتها، وطلبت منا زيارة أخرى نذهب فيها إلى مكتبتها الكبيرة في الهرم.

وحدثتها عن المقابلة التي سمعتها لها منذ سنين وسألتها عن كتابها عن أم كلثوم فأخرجت لي نسختها الخاصة، وكانت كما ذكر زوجها في غرفة نومها عند سريرها، وعليها تعليقات بقلمها الرصاص وأهدتها لنا.

وكانت حيويتها وحفاوتها بالغة وهي تأخذ الصور مع أولادي، وخرجنا منها ونحن على موعد بزيارة أخرى نذهب فيها إلى مكتبتها في الجيزة، وهي مكتبة أقامتها مقابل حديقة الحيوان مكونة من عدة طوابق وبها آلاف الكتب تبرعت بها لتكون مكتبة عامة.

وعدت إلى القاهرة بعد ذلك وحاولت زيارتها فإذا حالة الزهايمر قد تطورت معها، وإذا زوجها قد توفي، ثم أتاني بعد خبر وفاتها -رحمها الله- وأكرمها بجنته.



مع د. نعمات أحمد فؤاد وزوجها
رحمهم الله

جلال أحمد أمين

تعرفت على جلال أحمد أمين من خلال كتابه: «علمتني الحياة» وكانت سيرة ذاتية رائعة، ولفت نظري فيها ما لفتني في سيرة أبيه وهي الترفعُ عن الفحش باسم الاعتراف، والعفةُ عن الوقيعة في الأقران، ولذا حرصت على زيارته فذهبت إليه على موعد في منزله بالمعادي، وتلقانا بحفاوة وترحاب، وأخبرته أني قرأت سيرة أبيه وسيرته، وأن هذا شوقني لزيارته، وتحدثت معه عن أبيه وتميزه، وقد سره أنا أتينا لزيارته حفاوة بأبيه وتقديرا له، ولذا تحدث معنا مستروحا، وكان مما تحدثنا عنه سؤاله عن وصف حالة جيلهم عند السفر إلى الغرب طلابا وهل كانت النقلة صادمة؟ فقال: جيلنا مثَّله الطيب صالح في روايته «موسم الهجرة إلى الشمال».

وحدثنا عن والده وأنه كان يحب الوحدة والتأمل، ولذا فإنا إذا سافرنا إلى الإسكندرية ركب وحده في الدرجة الأولى وركبنا جميعاً مع أمنا في الدرجة الثانية.

وسألناه عن غياب جيل العمالقة في العلوم والفنون، فقال إنها ظاهرة عالمية، لا تخص العرب، فليس لدى الإنجليز مثل ديكنز، وبرنارد شو، ولا عند الأمريكان مثل همنغواي، وألبرت أينشتاين، وعزى ذلك لانتشار الثقافة الاستهلاكية.

وذكر لنا أن العقاد أهدى إلى أبيه أحد كتبه وكتب في إهدائه: «إلى الأستاذ المؤرخ أحمد أمين»، وأن أباه امتعض لهذا الإهداء وقال: هو يقول المؤرخ لأنه لا يريد أن يقول الأديب.

ثم وجدت في كلام حسين أحمد أمين تكملة لهذا الخبر، وهو أن العقاد قد قالها بعد ذلك حين أصدر أحمد أمين كتابه «حياتي»، فقال متحدثا عن أبيه: «ولا زلت أذكر بشيء من العجب والإشفاق كيف أبهجه أشد البهجة أن يتحول العقاد إلى الاعتراف

به أديباً بعد صدور كتابه «حياتي»، بعد أن ظل دوما قبلها يصر على وصفه بالبحاثة المؤرخ العالم»[١].

ومما حدثناه جلال عن دراسته في لندن أنه حضر احتفالاً لبرتراند رسل بمناسبة بلوغه التسعين من عمره، وكان أطرف ما تضمنه الحفل هو صعود رجل إلى خشبة المسرح وقال: إنه يسرني أن أعلن لكم عن صدور أحدث كتاب لبرتراند رسل، وسوف أقرأ عليكم الكتاب بأكمله، ثم أخرج من جيبه كتيباً صغيراً جداً، وقال: إن اسم الكتاب هو: «أقصر كتاب في تاريخ العالم»، وأن محتوى الكتاب كله هو الجملة الآتية: «منذ بدء الخليقة لم يمتنع الإنسان عن ارتكاب أي حماقة كان قادراً على ارتكابها»، ثم قرأ الرجل: «النهاية» ونزل[٢].

وأهديته أول كتبي صدورا وهو «قصص نبوية» فلما عدنا إلى الرياض وصلتني منه رسالة بخطه فيها تجديد الشكر على الزيارة والإطراء للكتاب، وكنت مقدرا هذا الاحتفاء منه ومحتفظا برسالته ولكن كثرة التنقل أضاعتها.

---

(١) «شخصيات عرفتها» لحسين أحمد أمين (٧٩).
(٢) ثم قرأت القصة بعد ذلك مفصلة في كتابه «رحيق العمر» (١٧٣).



مع د. جلال أحمد أمين، برفقة الابن مالك

وديع فلسطين

للأستاذ وديع من اسمه نصيب فهو وديع ودود، تألفُه وتأنسُ بِه، ويشعرك في أول لقاء بأنك صديق قديم.

زرته أكثر من مرة في منزله بمصر الجديدة، وهي شقة عالية نصعد إليها بدرج طويل، ثم نجد فيها ركاما من الكتب مركومة على أرض الصالون وعلى الكراسي والطاولات وعلمت فيما بعد أن هذه مكتبته التي باعها لكتبي لبناني، وأحسب أنه مهما دُفع فيها فهو قليل فقد رأيت على كثير منها إهداءات مؤلفيها بخطوطهم، فهي تحف كما أنها كتب.

وقد تخرج الحاجات يا أم مالك كرائم من رب بهن ضنين

ويبدو أن حِرفة الأدب أدركته، فقد زرته وقد نيف على التسعين ولا يزال يقتات من عمله بالترجمة، والأستاذ وديع بقية من جيل العمالقة الرواد، الزيات وزكي مبارك والعقاد وكتَّاب مجلة (الرسالة).

ومع ذلك لم ينل نصيبه من التكريم والتقدير، وكان يقول: كان الزيات قبل ستين سنة يقول عني: الأديب، ثم يشكو هذا الجحود لمكانته الآن بمضاضة وألم.

وأكثر ما لفت ذهني حين زيارته يقظة ذهنه فطوال الحديث وهو يتكلم عن شخصيات وأحداث، من غير أن يقول: اسمه إيه؟ مش عارف إمتى؟ وإنما كانت معلوماته حاضرة قريبة إلى ذهنه.

وحدثنا عما لقيه من شؤم الثورات، ثورة يوليو في مصر، وثورة سبتمبر في ليبيا.

وعن لقائه بهيلين كيلر الأمريكية العمياء الصماء وترجمته الحوار بينها وبين طه حسين، والذي كان لا يتكلم الإنجليزية وهي لا تتكلم الفرنسية، فكان الأستاذ وديع هو الترجمان بينهما.

وعن مقالته في نقد كتاب «وفيات الأعيان» والذي فهم من عنوانه طبقية المؤرخين واهتمامهم بالأعيان دون غيرهم، وكأن الأعيان هم أصحاب الأموال والمناصب، وكيف رد عليه الشيخ الطنطاوي رداً ساخطاً.

وكانت الجلسة معه جلسة مأنوسة، وذكرياته حافلة ثرية، وهو حقيق بتقدير يليق بمكانته وتاريخه.



مع الأستاذ وديع فلسطين

عبد الوهاب المسيري

زرته في بيته في القاهرة وأتيناه بعد العصر وقد بدأه إجهاد المرض، فكان يسأل زوجته الدكتورة هدى: هو أنا صليت العصر، فقالت: أيوه، صليت.

وتحدثت إليه عن رحلته الفكرية وكنت أعجبت بوصفته للذئاب الثلاثة التي استطاع قتلها، وهي ذئب المعلومات، وذئب الشهرة، وذئب المال، فقال أما ذئب المعلومات فلم أقتله ولكني روضته.

ولاحظت أنه برغم حداثته ودراسته في أمريكا فإنه كان حذراً في التعامل مع الثقافة الغربية، ولم يكن مستلباً بالانبهار بها، ولذا تحدث معنا عن نمط الحياة الغربية القائمة على الفردية والاستهلاك والسرعة، وكان يرى أن ثقافة الهمبرجر تمثلها لأنها تقوم على الوجبة الفردية السريعة التي تمثل حياتهم، وكان يذكر أنه اقترح أن تمنع في السعودية ويقول: هي ثقافة لا تمثلكم.

وكنا عنده وكان يتواصل حينها مع د. سعد البازعي لاستضافته في محاضرة في الرياض، ولاحظت من حديثه تواداً وحفاوة متبادلة بينهما.

وحدثني حينها عن الكتاب الأخير الذي كان يعمل عليه عن وحدة الوجود، فقلت: لعلك نظرت في كلام ابن تيمية في هذا الموضوع فهو مهم، فلم يظهر لي أنه اطلع عليه بعد، وقد توفي وقد شارف الكتاب على الاكتمال فطبع بعد وفاته.

رحمه الله رحمة واسعة.



مع الدكتور عبد الوهاب المسيري
رحمه الله

الشيخ القاضي محمد بن إسماعيل العَمْراني

كان الشيخ العَمْراني البقية الباقية من النمط التاريخي لعلماء اليمن، والذي تلقى العلم عن الأشياخ، على ذات النظام العتيق في التلقي في الحِلَق، والجثو عند الأشياخ، وأخذ العلم مثافنة بالرُّكَب، ومشافهة من أفواه العلماء.

والشيخ بشخصيته وهيئته وعلميته، امتداد لمدرسة الإمام الشوكاني، وله بتراثه عناية واختصاص، وكان الشيخ مقصوداً من طلبة العلم من نواحي اليمن وجنوب المملكة.

وممن لقيته من علماء جيزان الشيخ يحيى أحمد عاكش[١]، وكان قد طلب العلم في شبابه في صنعاء، وأخذ عن الشيخ العَمْراني، وله به صلة وتواصل.

والشيخ العَمْراني عالي الإسناد في الرواية، ولذا كان مطلبي عند زيارة صنعاء اللقاء به والأخذ عنه، فلما لقيته أول مرة أردت أن ألاطفه وأستطيب نفسه، فبادرته بالسؤال عن الشيخ العَمْراني الذي تعقب الشوكاني في «الدراري المضية»، وقال: قد اضطربت دلاء شيخنا، وما صفا مورده من كدر، وهل هو جده؟ فطفح البشر على وجه الشيخ، وجعل يتمم لي العبارة، وقال: هو عمي عم أبي، واستروح للحديث، فحدثته عن الشيخ يحيى عاكش، وأنه يذكر لنا دراسته عليه، فزاد استرواحه وإقباله عليَّ، فلما طلبت منه الإجازة قال: الإجازة في البيت، ولكن خذها مني الآن مشافهة فقد أجزتك، وعندما أرجع أكتبها لك، وهو ما فعله رحمه الله.

وحضرت بعض دروسه وهو يلقيها بلهجته الصنعانية المقعرة، ولها في فمه لذاذة وجمال.

(١) الشيخ يحيى أحمد عاكش الضمدي من علماء ضمد، توفي سنة (١٤٣٧هـ).

وكان الشيخ طيب النفس، حلو المحادثة، حاضر الطرفة، حتى جمع بعض مجالسيه طرائفه في كتاب[١].

وله بذلٌ لنفسه في التعليم عجيب؛ فيجلس للطلاب في دروس طوال متتابعة، على كبر سنه الذي تجاوز الثمانين حينها مع تدريسه في جامعة الإيمان.

وحدثني طلبته في الجامعة أن محاضرته تستمر ثلاث ساعات وتنتهي كما بدأت بذات الحيوية والتشويق، والطلاب بذات الانصات والتشوق، وكان المنظور إليه والمقصود بالإفتاء من أنحاء اليمن، فهو مفتي البلاد اليمنية؛ واقعاً عمليّاً لا منصباً رسميّاً[٢].

وكان الطلاب حوله من بلاد متعددة، من المهاجرين العرب إلى اليمن، وهو المقصود بالرحلة والاستجازة؛ والمنظور إليه في العلم والفتيا، لعلو إسناده وسعة علمه وطبيب نفسه، وحسن تعليمة.

وكان رحمه الله سجلاً حافلاً لتاريخ اليمن ومعالمه، وسألته عن انتهاب صنعاء وهل كان حاضراً تلك الوقعة؟ قال: نعم، ونُهبت فيمن نُهب[٣].

وكنت أزوره في كل زيارة تسنح لي إلى صنعاء؛ فهو من علمائها ومعالمها، رحمه الله[٤].

(١) هو كتاب: «سفينة العمراني – معارف ولطائف» عبد الرزاق محمد إسماعيل العمراني، و«قصص وحكايات من اليمن يحكيها القاضي العمراني» د. محمد عبد الرحيم غنيم.

(٢) ينظر: «الروض الندي بأجوبة القاضي العمراني عن سؤالات الأسدي» لأخي أحمد بن غانم الأسدي.

(٣) انتهاب صنعاء عام (١٩٤٨م) على يد أتباع أحمد حميد الدين الذين هاجم بهم صنعاء وأباح لهم انتهابها.

(٤) توفي الشيخ العمراني في عام (١٤٤٢هـ)



مع الشيخ القاضي محمد بن إسماعيل العمراني،
وأخي الشيخ محمد العامري

بِمَنْ تأثَّرت؟

كثيراً ما سُئلت: بمَن تأثرت في حياتك؟

وأحسب أنه لا يتفرَّد أحدٌ بالتأثير في أحد، ولكن الإنسان بناء متعدد الطبقات ولكل لبِنَة فيه قصة، ومؤثر أو مؤثرات ساهمت في تشكُّله، ومن لقيهم بمجموعهم هم أحد هذه المؤثرات.

وهناك شخصيات لها حضور في سيرتي، وتأثير في مسيرتي، في كل مرحلة من مراحل حياتي، من الشيوخ والمدرسين والأصدقاء، وعابرين كان مرورهم سريعاً وبقي تأثيرهم طويلاً، ولكلٍ مساحته في التأثير وعمقه في الأثر.

١- فأكثر شخصية اقتربت منها وشعرت بإبهار وجلالة وعظمة وقوة تأثير كانت شخصية الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله، وهو من أكثر الشخصيات تأثيراً فيمَن يلقاه، وما رأيت أحداً ائتلفت القلوب عليه، واجتمعت الناس حوله على تنوع مشاربهم كما رأيته فيه. ولم يكن للشيخ خصوم ولا حساد من أقرانه؛ وذلك أن المسافة بينه وبينهم كانت بعيدة، فلا تحدث أحداً نفسُه أن يلحق به أو يبلغ شأوه، فمن ثم كان المنظور إليه، والمتفق عليه.

وفي الشيخ كمالات الإمامة، فله جلالةٌ ومهابة، وفقه وكرم، وعلم وحلم، وزهد ونسك.

وتأثرت به وأنا في بدوات العمر وأول مدارج الوعي أول ما عرفته، فرأيت فيه من جلالة العلم وأثره وتأثيره، ما كان محفزاً للتوجه في الطريق الذي سرت فيه.

ثم ازددت اقتراباً منه ومعرفة بحاله، فكان الحب له والإعجاب به يزداد كلما ازددت قربا منه ومعرفة به، بعكس كثيرين ينطفئ وهجهم عند الاقتراب منهم.

وهو ممن كنت أتأثر بمجرد رؤيته، وقد تذكرت به ما كان يقال عن الحسن البصري: إن كان الرجل ليلقي الحسن، لا يسمع منه قولاً ولا يرى له عملاً فينتفع بذلك.

ولقد ذقت هذا المعنى، وشعرت به وجدانيّاً، فكنت إذا لقيت الشيخ بعد غيبة شعرت بمثل القشعريرة على قلبي لمجرد رؤيته؛ فقد كان ممن تُذكِّر رؤيته بالله.

ومما يلحظه كل أحد اقترب منه تألهه ولهجه بالذكر؛ فلا يفتر لسانه عن ذكر الله، ولا تكاد تفلت منه ساعة في غير طاعة، فكانت حالُه أبلغَ مواعظِه.

وبعد مضي ربع قرن على وفاته، إلا أني لا زلت أتراءاه في يقظتي، وأراه في منامي؛ وكأنما هو حي حاضر في وجداني، غاب عني شخصه، وبقي تأثيره وأثره[(١)].

٢- وممن تأثرت به سماحة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين، والذي بدأت صحبته والقراءة عليه وأنا في المرحلة الثانوية، ودرَّسني في كلية الشريعة، وقرأت عليه وأنا في مرحلة الدكتوراه، وفي كل هذه المراحل كان بحراً لا يستنزف، وكان نمطاً فريداً في الحفاوة بالطلبة والصبر عليهم، وتحفيزهم والتواضع لهم، وكان التدريس في حياته كالنَّفَس يتنفسه ويعيش به، ولم أر في الصبر على الطلبة مثله ومثل الشيخ ابن باز رحمهم الله، وكان من نوعية الشيوخ المربِّين الذين يستفيد الطالب عندهم علماً وتحفيزاً وسمتاً وحسن خلق.

---

(١) والحديث المفصَّل عنه وعمَّن لقيتهم من أعلام العصر في الجزء الثاني من «**سماء الذاكرة**».

وتأثرت به في طيبته، وحسن ظنه بالناس، وكان مشهداً من سلامة القلب حتى تكاد تجزم أنه لا يستبطن ضغينة على أحد، فهو مخموم الفؤاد، منشغل بالعلم، منقطع له وإليه.

وتأثرت بسماحته في التعامل، فهو يسير قريب، مجيب لكل طالب بما يستطيعه، يشعر كل أحد بالقرب منه وكأنه من خاصته.

وهو ممن بقي عمره كله على سنن واحد عناية بالعلم، واجتهاداً في التعليم، وانتشرت دروسه في نواحي الرياض، ودوراته العلمية في نواحي المملكة، وعبرت من تحت يده أجيال إثر أجيال، تربَّوْا على يده وورثوا علمه، ولا يزال طيفه يتراءى لي، ونبرة صوته ترن في أذني، فهو الحاضر في غيبته، الحي بعد مماته.

٣- وممن تأثرت به أخي الشيخ سلمان العودة: وأتذكَّر الآن عام اللقاء الأول (١٤٠٤هـ)، يا لله! هل مضت أربعون سنة على تلك الصحبة؟! كأنما كان ذاك في الأمس القريب، أتذكر ذاك اللقاء بهجَتَه ونشوتَه، وتسارع العلاقة ووثوقها، وقربها وعمقها. وقد كان تأثري بهذه الصحبة واسعاً، فمنه ما لاحظته وأحسست به، وأحسب أن أكثره تشربته من غير أن أشعر به.

وكان من أكثر ما أثر فِيَّ حالُه، وطريقتُه في سياسة نفسه؛ إذ نادراً ما كان يوجه نصيحة مباشرة.

ومما أثر عليَّ فيه المبادرةُ إلى المشاركة في العطاء، واقتحام الفضاء العام بالدروس والمحاضرات والخطب، والتي كنت أتقهقر عن المشاركة فيها بأنواع من الحيل النفسية، كالتواضع، وانتظار النضج، واكتمال العلم، ونحو ذلك، بينما كان الشيخ مبادراً إلى العطاء في بكور عمره، فكان عطاؤه متوازياً مع نموه، فَحَفَّزني، وقال لي: هل تنتظر أن تكبر أكثر من ما كبرت؟ فكان ذلك دافعاً لي في توسيع مساحة العمل، والمشاركة في المناسبات المتنوعة.

وتأثرت به في سعة العلاقات وتنوعها، واستيعاب الناس كما هم لا كما نريدهم، والعمل معهم في مساحة المشترك وتوسيعها.

وتأثرت بما لاحظته فيه من تسارع النمو والنضج المبكر؛ فكان بحق مثالاً للشخصية النامية، لا يمكن أن تتعرف عليه ثم تجده بعدُ كما عهدته، وإنما تجده قد سبق أمامك، أو حلَّق فوقك. وكان إذا تقدم حَفَّز من معه وسار بهم؛ ولذا يشاركه في النمو كل من صحبه وشاركه العمل.

وتأثرت به في مواقف المروءة ومكارم الأخلاق التي تميز بالتناهي فيها؛ فكانت صحبته مدرسة أخلاقية.

وتأثرت به في طريقة التفكير التي يتبعها في تقييم الأمور والنظر إليها، وطريقة بناء الموقف واتخاذ القرار.

وتأثرت به، واستفدت منه، وتغيرت معه، وكانت صحبته نقلة ضخمة في حياتي، ولن أبالغ إذا قلتُ: إنني صرتُ بعد صحبته شخصاً آخر غير الذي كنتُ قبلها، كأنما وُلدت من جديد.

وأن صحبته كانت من أسباب اليقظة والنماء والرشد.

وأن حضوره في حياتي كان مدداً وتوفيقاً ومعونة وبركة، ونعمة من نعم الله العظيمة عليَّ.

وكم ساءلني بعض المحبين: لماذا لا يكون لك مشروعك الموازي لمشروع الشيخ، ولك عطاؤك الخاص بك؟

فكان جوابي اليقيني: أن أثمن ما أنفق فيه جهدي هو العمل المشترك معه؛ بأن أهيئ ما سيعمله أو أتمم ما عمله، وأن حاصل عملي معه أكثر وأكبر من عملي لوحدي، فحاصل جمع واحد وواحد هو أكثر من اثنين.

٤- وممن تأثَّرت به شيخنا عبد العزيز الداود رحمه الله؛ والذي دَرَّسنا في كلية الشريعة، وكان في سمته وتألهه عظة وعبرة، وفي صفاء روحه وشفافيتها جاذبية وأنس، لا يملك القلب إذا عرفه إلا أن يتعلَّق به ويتشوَّق إليه، وهو من أكثر من رأيت لهجا بالذكر واستغراقاً فيه، وهو الواعظ بحاله قبل مقاله، رحمه الله.

٥- وممن تأثرت به شيخي وشيخ والدي الشيخ صالح الحصين رحمه الله، كان رجلاً عاش كما يريد أن يكون، وليس كما يريد الناس أن يكون، عاش وفيّاً لقناعاته ومبادئه، وكأنما كل ما حوله من مؤثرات غير مؤثِّر، وكل ما حوله من إغراءات غير مُغْرٍ، وكأنما كان يعيش في الجنة ثم خرج منها لزيارة الدنيا وسيعود إليها، فإذا عرفته شعرت أنك تتعرَّف على مسافرٍ نزل محطة في الطريق وسيتجاوزها، فليس حاله في الدنيا حال المستقر المتأثِّل، ولكن حال العابر المتعجل، ولم أر أحداً مثله عرف ما عرف، ونال ما نال، وتدلَّت له ثمرات الدنيا بين يديه فزهد فيها وأعرض عنها، ووضع الدنيا وكل ما فيها ومن عليها في حجمها الطبيعي.

فيه تواضع ناصع حقيقي غير مزيف ولا متكلف، وحسن خلق فطري يغلبه ولا يتصنعه.

يُغَلِّفُ حياة التأمل العميق بغلاف البساطة والعفوية، ولا أحسبه ينفر من شيء كما ينفر من التكلف، والزيف المظهري.

تأثرت بهذه البساطة التي يعيشها، وحسن الخُلق الفطري الذي يتعامل به، وتأثرت بمعنى الزهد الحقيقي الذي يحياه، الزهدُ بزيف الدنيا وفتونها، وهو من القلائل الذين إذا لقيتُهم عدتُ بقلبٍ غير القلبِ الذي جئتُ به، فكانت معرفته مغنما، وصحبته حياة.

وجهٌ عليه من الحياء سكينة ... ومحبة تجري مع الأنفاس

٦- وتأثَّرت بأخي الشيخ عبد العزيز الماجد رحمه الله، وكان صديقاً قريباً، وهو أصغر مني سنّاً ولكنه أكثر يقظة وحذقاً وعلماً، وله تأثير عليَّ في صياغة تفكيري، وقلَّما تنضج الفكرة في عقلي إلا بعد الحوار معه.

٧- وممن تأثرت به وبقي طيفه يتراءى أمامي، وكلماته تُدوِّي في مسامعي الشيخ سعد الشقيران رحمه الله، وكان يصلي معنا في مسجد حيِّنا في دُخْنة إذا جاء من القويعية لزيارة أخيه الذي يسكن قريباً منا، وكنت أقرأ في المسجد على الجماعة قبل العشاء في مختصر زاد المعاد فيصحح لي قراءتي بلطف، ثم لقيته مرة في ميدان دخنة بعد المغرب وأنا متوجه إلى الدرس اليومي لدى الشيخ عبد العزيز آل الشيخ، فلما سلمت عليه ورأى الكتب معي سألني: أين تذهب؟ فأخبرته، فأمسك بيدي وجعل يحتفي بي ثم قال: أبشر أنك ستحصِّلُ ما تطلبه، وجعل يحفِّزني بالبشائر، ويحضني على الاستمرار في طلب العلم وتحصيله بطريقة فيها وُدٌّ وأبوة، وشعرت بعدها بنشوة غامرة، وحيوية واندفاع، وسرت كلماته في نفسي تمدها بطاقة عارمة، وقوة هائلة.

وكانت وقفة عجلى لم تتجاوز -فيما أحسب- دقائق خمساً، لكنها بقيت في قاع الأعماق من شغاف القلب، أتذكرها الآن، وأتذكر المشهد بكل تفاصيله، نصاعة ثيابه البيضاء، ووضاءة وجهه، ولحيته المخضوبة بالحناء، وإشراق محيَّاه الباسم، ونغمة صوته، وكلماته المعدودة والتي كان يقولها بانفعال وتأثر.

يا ألله! هل كان يدري أن أثر هذا اللقاء العابر سيصحبني بقية عمري، وأن هذا المشهد سيبقى خالداً في لوحة ذاكرتي، وأن تلك الكلمات سيتردد صداها في مسامعي، وأنها كانت وقوداً لعزيمتي، فكم تسامت بهمتي إذا هَبطْتُ، وأقامتني إذا قَعدْتُ، ودفعتني إلى الأمام إذا توقفتُ، وكأنه حمَّلني مسؤولية نفسي، ومدَّ عيني إلى غاية بعيدة أمامي لا زلت أسير إليها ولم أبلغها.

ولا أحسب أن هذه الكلمة بقيت شعلة متَّقدة في وجداني لا تنطفئ إلا لحرارة الصدق في كلماتها، وإخلاص النصح في أدائها.

وهذا كله يحملنا على ألا نستهين بكلمة نصحٍ نلقيها بصدقٍ في أي فرصة تسنح لنا، فقد تكون أعمار هذه الكلمات أطول من أعمارنا، وأثرها أبلغ من أعمالنا.

وكم كانت بركة كلمات الشيخ وأنفاسه سابغة عليَّ، فعشت مع ذكراه بعد أن غادَرْنا حارةَ دُخنة أتسقط أخبار الشيخ في بلدته القويعية، وبعد خمس وثلاثين سنة من ذاك اللقاء ذهبت لزيارته في القويعية في (٢٨/ ١١/ ١٤٣٢هـ)، وكان لقاء أنعش روحي، وأعاد إليَّ حيويتي وطاقة شبابي، وكتبت أصف ذاك اللقاء بهذه الكلمة، ونشرتها في موقع الإسلام اليوم.

في وجهه حيوية وحياة، وفي إشعاع عينه بريق حب، وفي محيَّاه سماحة وإلف، وفي ابتسامته نهر ترحيب يتدفَّق، لا أذكره إلا اشتقت إليه ودعوت له، فقد طبع في قلبي حبه وصورة وجهه الوضيء.

لقيني وأنا فتى في يفاعة العمر، فأوصل إليّ رسائل حب وتحفيز، أذكرها الآن فإذا هي كلمات قليلة، ولكن لا يزال وهجها متقداً في نفسي، وقد زرته هذه الليالي في القويعية لأجدد له الشكر والدعاء، فلما زرته استعدت قطعة من شبابي، وزُوِيَ لي العمرُ حتى كأني أعيش في ذلك العمر، ففي حضرته يتوقف العمر شاباً.

كان هذا هو الشيخ الرضي المبارك سعد بن محمد الشقيران؛ إمام جامع القويعية لنحوٍ من أربعين سنة.

أزوره هذه الأيام وهو يتطاول للمائة من عمره المبارك؛ فهنيئاً لك شيخنا قرناً في طاعة الله عشته، وهنيئاً لك نثار الحب الذي ألقيته في حياة كل من عبرتَ حياتهم، وهنيئاً لنا أنَّا لقيناك في بدوات العمر فأسرجت لنا مصابيح لا تزال تضيء حياتنا[١].

٨- وممن تأثرت به تأثراً وجدانياً بالغاً أحد الغرباء البسطاء من عوام المسلمين الذين يأتون لزيارة المدينة النبوية، وكم عشتُ بهجةَ هؤلاء القاصدين من فجاج

(١) توفي الشيخ رحمه الله في (١١ ربيع الثاني ١٤٣٥هـ).

الأرض، وتلذذت بمرآهم وأنا أرى نشوة اللقاء، وهيبة الموقف، وانفجار الحب الزاخر في القلوب لاستشعار القرب منه ﷺ.

ولا أزال أذكر ذاك الشيخ المهيب المحب من بلاد المغرب، الذي دخل المسجد النبوي من جهة التوسعة دهشاً حائراً، فلقيني وكان ذلك من توفيق الله لي أن كنت وجاهه، فاتجه إليَّ وهو يسأل: كيف أصل إلى قبر النبي ﷺ؟ وكان دخوله المسجد من جهة التوسعة الواسعة، قد جعله لا يدري في أيّ ناحية هو، ولا كيف يصل إليه، فأتذكر لهفته وهيبته ومحبته، وهو يعبِّر عن أشواقه بقرب الوصول إلى أمنية طالما تمناها، وبقعة طالما اشتاق إليها، فقال بلغة لا صنعة ولا تَصنُّع فيها: أموت أنا وأوقف بهاديك البلاصة[(١)]!!

وكان مشهد الحب والدهشة والهيبة، مشهداً مؤثِّراً في وجداني، ووجدت أن أفضل ما أفعله أن أكون خادماً لضيف رسول الله ﷺ، فتركت شأني وذهبت معه، وأنا أرتوي من مشهد أشواقه ولهفته لزيارة رسول الله ﷺ، وسرتُ به حتى وقفت وإياه عند القبر المقدَّس، وكأنما استوت سفينة حُبِّه على جُودِيها، وبلغت أشواقه مَحِلّها، وتخيلتُ النبي الرؤوف الرحيم بأمته ﷺ وكيف ستكون حفاوته بمن هذا حبه، وكيف سيكون تلقيه لمن هذا إقباله!

وبقي مشهده خالداً في ذاكرتي، حياً في وجداني، يستثير في نفسي أزكى عواطف الحب لسيد الخلق وحبيب الحق، وقلما وقفتُ في رحاب القبر المقدس إلا تخليت أني وذاك المحب الذي لا أعرف اسمه ولكن أذكر رسمه وملامحه، وأشواقه ولهفته، وأحتسب له قول النبي ﷺ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**».

فيا لسعادة قلوبٍ يعمرها حبُّ الله ورسوله ﷺ، حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إليها مما سواهما.

---

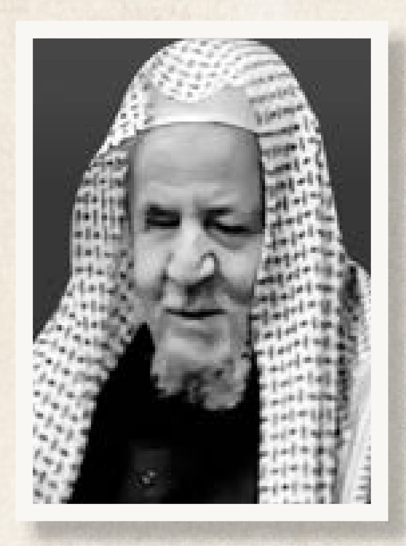
(١) بلهجته المغربية: أريد أن أقف في تلك البقعة ولو مِتُّ بعد ذلك!

لقد كانت هذه الشخصيات المشعَّة ذات تأثير وأثر في وجداني وحياتي، «كانوا يسمتون سمت الأنبياء، فيجعلون دينهم ودنياهم وحدة لا تتجزَّأ، فإذا قالوا وعظوا، وإذا فعلوا أرشدوا، وإذا صمتوا كانوا كأعلام البَر تدل بالإشارة، أو كمنائر البحر تهدي بالشعاع»[١].



الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين
رحمه الله

(١) الزيات، مجلة «الرسالة» (العدد:٣٥٧)، إشعاع الإيمان.



الشيخ عبد العزيز الداود
رحمه الله



أخي الشيخ عبد العزيز الماجد
رحمه الله



مع الشيخ سعد الشقيران
رحمه الله



مع الشيخ صالح الحصين
رحمه الله



معاً عبرنا نهر الحياة

حياتي مع السيرة

تكونت علاقتي بالسيرة النبوية وأنا في المرحلة الابتدائية، فقد أعطاني أبي كتابا في السيرة أتذكر صور صفحاته الآن، ولا أذكر عنوانه ولا مؤلفه، فما كان هذا يهم من هو في سني حينها.

استوقفني في هذا الكتاب السرد الوصفي للسيرة، وعلق بذهني وصف غزوة بدر، وجعلت أتخيل المشهد وأتفاعل معه، وشعرت بنقلة في قراءة السيرة تختلف عن طريقة المنهج المدرسي الذي كان يقدم السيرة لنا معلومات جامدة هي أسماءٌ وأرقام، مثل: ما اسم أم الرسول؟ ما اسم مرضعة الرسول؟ كم عدد جيش المسلمين في بدر؟ كم عدد شهداء المسلمين في أحد؟ متى وقعت معركة الخندق؟ ... وهكذا وكأنها استبانة وليست سيرة.

ثم قرأنا كتاب «بطل الأبطال» لعبد الوهاب عزام في المرحلة المتوسطة، وكان المدرس الأستاذ حمد الشبانة ينفخ فيه من روحه وذوقه، فصارت مادة السيرة مشوقة أخذت نفوسُنا نصيبَها من الارتواء الوجداني بها.

ثم كنت أسمع السيرة النبوية من الإذاعة وكانت قراءةً في كتاب السيرة النبوية للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، يترنم بها الشيخ عبد الملك بن إبراهيم آل الشيخ بنبرة مميزة وأداء مشوق.

ثم قرأت كتاب «فقه السيرة» لمحمد الغزالي، وجذبني أسلوبه الأدبي الرائع، والذوق الوجداني الذي كتبه به، وسمعت أن دموعه كانت تختلط بمداده حينما كان يكتبه.

وهو كتاب مغموط القدر، لم ينل من الشهرة ما نالته كتب ألفت بعده ولم تبلغ شأوه ولا قاربت، ولكن كما قيل:

فكم في العرس أبهى من عروس ولكن للعروس الدهر ساعد

ثم قرأت فيما بعد قراءة متوالية في كتاب «زاد المعاد» لابن القيم رحمه الله، فكان نمطا آخر وطرازا فريداً في عرض السيرة النبوية، واستخلاص الهدي النبوي منها، وهي قراءة ما زلت أجد ذخيرتها في نفسي إلى يومي هذا.

وتأثرت بتلك القراءة المتفاعلة لأحاديث السيرة النبوية حينما تقرأ على شيخنا عبد العزيز بن باز رحمه الله، فترى من انفعاله وتفاعله عجبا، وكأنه يرى ما يُروي، ويعيش حَدَث الحديث بمشاعره ووجدانه، رأيته وحديث الإفك يقرأ عليه وقد احمر وجهه وارتعدت شفتاه، وغلبه الانفعال، فلم يستطع أن يعلق على الحديث بأكثر من عبارات متقطعة وجمل حبسها التأثر الشديد.

ورأيته يوم عرفة يحكي استشهاد النبي على الناس ثم قوله: اللهم اشهد، اللهم اشهد، وهو يحكي الحركة بأصبعه ويشير بها ويقول: ونحن نشهد، ونحن نشهد، ثم تلجلجت العبارات واختلطت بنشيج البكاء، ومشاهد أخرى غيرها جعلت الحياة مع السيرة ذوقا ووجدانا.

وممن تأثرت به في أداء السيرة الشيخ محمد الراوي رحمه الله، وكان يروي وقائعها في خطبه بنبرته المؤثرة، وعبارته البليغة، وأدائه الرائع، وقد استوقفته يوماً وهو يهم بالخروج من قسم القرآن وسألته عن طريقة قراءة السيرة وأدائها؟ فوقف لي وانطلق في

كلام مسهب ختمه بهذه الجملة الجامعة الرائعة: «السيرة النبوية ليست قصة ماضية، ولكنها سنة باقية».

ثم تكونت لدي حصيلة أوسع بعد أن صرت أقدم دروسا لجمع من الزملاء أُحضِّر لها من «سيرة ابن هشام» مع تعليق السهيلي في «الروض الأنف»، لكنَّ أتم تصور للسيرة حصلته كان من قراءة كتب السنة: الصحيحين، والسنن، والمسند، ومن خلال الكتب الجوامع كـ«الجمع بين الصحيحين» و«جامع الأصول» وغيرها، فإن هذه الكتب تروي وقائع حياة النبي ﷺ، وتفاصيل سيرته وشمائله، وما يجري في يومه، ويتكون بمجموعها تصور متكامل للحياة النبوية، وينقلك من سيرة المغازي إلى سيرة الحياة.

ولا يزال القارئ لكتب السنة يتروى منها أحاديثَ السيرة وأحداثها، ويمعن النظر فيها، ويربط بين وقائعها حتى تتكثف لديه الصورة، ويتضح له المشهد، وترتفع عنه حجب الزمان والمكان، فكأنما هو يعيش الواقعة والواقع، فيدخل المسجد النبوي كما وُصِف، ويرى النبي ﷺ خارجاً من بيته متوجهاً إلى محرابه، يرمق خَطوه، ويعرف ملامحه، ويرى إشراق محياه، ووضاءة وجهه، ويسمع قراءته، ويعرف مشيه إذا مشى، ولحظه إذا نظر، وصوته إذا تكلم، ومجلسه إذا جلس.

وكأنما يجلس إليه مع أصحابه يعرف كل واحد منهم بملامحه وسُحنته، يسمع حوارهم وينصت إلى كلامهم، يعرف أنَّ هذا الشيخ الأسيف أبو بكر، وهذا الصارم الشامخ عمر، وذاك الحيي الوسيم عثمان، وهذا الشاب الفَتيِّ القوي علي، وهذا الضئيل القليل وعاءُ العلم ابن مسعود، وذياك الفتى الودود خويدمه أنس.

وتتكون له دربة وذوق فيعرف تكملة الحديث قبل أن يكتمل، ونهاية القصة قبل أن تنتهي، ويتوقع ما يمكن أن يقع، ويعايش القصة كأنه عاشها، ويرويها وكأنه كان فيها.

مر ابن عمر بالشعبي، وهو يحدث بالمغازي، فقال: «كأنه كان شاهداً معنا، ولهو أحفظ لها مني، وإن كنت شهدتها مع النبي ﷺ»[(١)].

وهذا الذواق والخبرة هو الذي كان يوجد مكتملاً عند أئمة الحديث مالك وأحمد والبخاري وعلي بن المديني والترمذي وأضرابهم.

ولم تكن معرفتهم برواية السنة وتصحيحها مجرد صنعة، ولكن معها فراسة كونتها الممارسة وطول العشرة.

وكل من سلك طريقهم نال نصيباً من نصيبهم، وكلٌّ يغترف من بحرها حسب سعة إنائه، وفتوح الله عليه.

وكلما ازدادت معرفتك بالنبي ﷺ ازددت له محبة وتعظيما، وأيقنت بحكمة الله في اصطفائه ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِى مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾، وتعرفت على مواضع القدوة في الحياة النبوية، فهي الثمرة العظمى من معرفة السيرة.

وقد ساعدتني النشأة الأولى في الزلفي وإدراكي بقايا من الحياة النجدية الأولى لقرب العهد بها على تصور البيئة النبوية في المدينة، ومعرفة نمط الحياة، لتشابه الواقع والبيئة والحال مع ما كان مُعاشاً حينها في نجد، فالأدوات هي هي بأسمائها وحقائقها: القصعة، والصحفة، والغَرْب، والرَّحل، والمحجن، والقربة، والشن، والثريد، والقديد، والأقط، والحيس، والتي قد تغير بعض أسمائها ولكن لم تتغير حقائقها.

ومثله نمط الحياة كالبكور فجرا، والقيلولة قبل الظهر، والغداء صباحاً، والعشاء عصرا أو مغربا.

---

(١) ينظر: «معجم الطبراني الكبير» (١٣/ ١٨١)، و«تاريخ ابن أبي خيثمة» (١٧٩٨)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٣/ ٧٠).

وكل هذه المشاهد كانت وسيلة إيضاح قربت إلي تصور الأحداث والأحوال، فما احتجت أن أسأل ما هو الأقط ولا الغَرْب ولا الضَّب ولا السَّعدان، ونحو ذلك؛ لأنها كلها من مألوف البيئة.

بل إنني عرفت بلدة في نجد ينطبق عليها وصف قريش في مكة، فإن أهلها قبيلة واحدة متفرعة إلى عشائر كبطون قريش ومهنتهم الغالبة التجارة.

وبلدة أخرى هي أشبه بالمدينة، فأهلها قبيلة واحدة، ولكنها منقسمة إلى فئتين كالأوس والخزرج، وبينهما من المنافسة وسابق العداوة كما كان بينهما، وأهلها أهل نخيل متفرقة النواحي كعوالي المدينة وسافلتها.

وكل هذا يسر لي تصور الحياة النبوية كما كانت، فقد أدركت بقاياه ورأيت شواهده مما جعل الصورة تكتمل في مخيلتي، وقلما تحدثت عن مشهد إلا بعد أن تمثلته أمامي وجعلت أتكلم وأنا أصف ما أراه وليس ما قرأته، وعندما كتبت كُتَيباً عن صفة حجة النبي ﷺ قال لي كثير ممن قرأه: كأنما كنا نشاهد فيلماً أو نرى مشهداً.

وسبب ذلك كثافة الصور المنقولة عن حياة النبي ﷺ حتى صرنا نعيش تفاصيلها، وكأنا أدركناها وعشناها.

وعندما أقرأ بعض الكتابات المعاصرة عن السيرة أجد تباعداً في وصف بعض الأحداث عما تصورته من البيئة والحال النبوية، أما المسلسلات التاريخية التي تحكي السيرة فمما لا أطيق رؤيتها للبعد فيها عن واقع السيرة في طريقة الكلام واللباس ونمط الحياة.

فهل تتوقع عربيا من أهل الجزيرة يتكلم مع صاحبه وقد أدار له ظهره، أو يتكلم مع أهله وكأنه مذيع يقرأ نشرة الأخبار.

أما عالم الملابس والمساكن فصورة في خيال المخرج لا واقع لها في البيئة العربية ذاك الزمن.

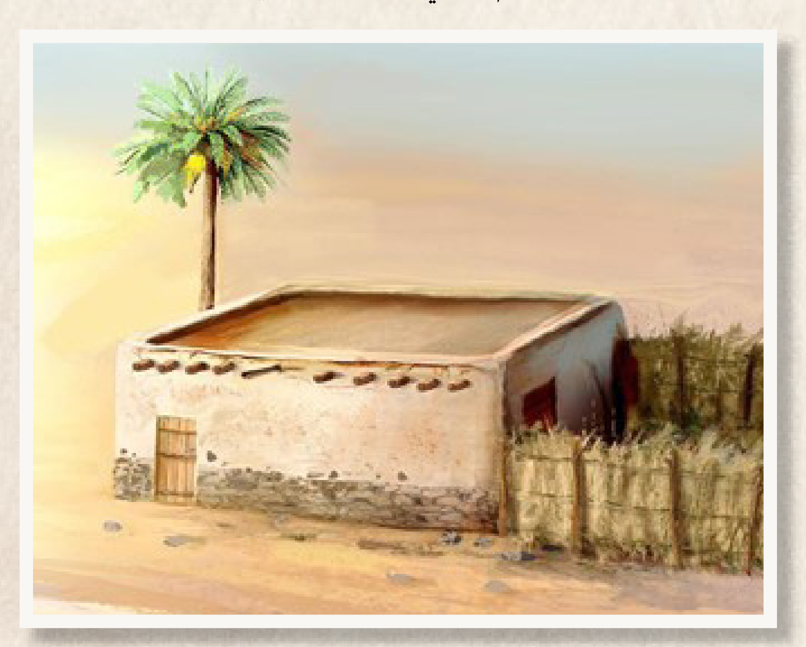
وكل هذا حفزني إلى محاولة تقديم تصور أقرب للسيرة النبوية يتجاوز سيرة الغزوات إلى أحداث الحياة، ويجمع شتات المشهد في لوحة قريبة من التكامل.

وهو ما سرت عليه في رواية أحداث السيرة وكتابتها، فأتتبع روايات الحادثة المتفرقة كشظايا وأحاول جمعها كقطع الفسيفساء؛ ليتكامل من مجموعها لوحة متكاملة الصورة، ويحصل للنفس رواؤها وارتواؤها من مشاهد السيرة، وتتضحُ لها مواقع الاقتداء والأسوة.

وقدمت ذلك في كتاب: «اليوم النبوي»، و«قصص نبوية»، و«كأنك معه»، و«حديث الغدير»، و«القبر المقدس»، و«الآثار النبوية»، وبين يدي كتب ثلاثة عن: «الحياة النبوية»، و«الأماكن النبوية»، و«الأحداث الكبرى في السيرة»، يسر الله إتمامها.



رسم تخيلي للمسجد النبوي



رسم تخيلي للبيت النبوي

أمنيات علمية

كانت لي في بدوات العمر، وأوائل طريق الطلب أمنيات وطموحات علمية، أتخيلها وأتهيأ لها.

وكان يؤثر في نوع تلك الأمنيات طبيعة التحصيل في تلك المرحلة، ومن ذلك طموحي لتأليف شرح لـ«سنن النسائي» حيث لم يكن خدم بالشروح الموسعة بعد.

وجمع رقائق ابن القيم من كلماته التي تصلح أن يقرأها كل أحد.

وجمع فرائد التراجم والنظائر فيها.

وجمع التفسير من غير كتب التفسير، حيث يوجد في «المثل السائر»، وفي «الفتوحات» لابن عربي، وبعض كتب البلاغة وغيرها تفسير لآيات لو جمعت متفرقاتها لكانت مفيدة.

وكلها مما صرفت النظر عنها، وكُفيت المؤونة في أكثرها.

ومن الأمنيات العلمية التي طمحت إليها ولكن تقاصرت عنها الهمة وقصر العمر، أربعة كتب أذكرها ولعل عزيمة موفقة تدركها.

الأول: شرح لزوائد صحيح مسلم على البخاري، وذلك لأن «صحيح البخاري» قد أوعب شرحا، أما بقية كتب السنة فلم تنل هذه الخدمة، ولإن كان الحافظ ابن حجر

قد قضى دَيْن الأمة بشرح «صحيح البخاري»، فإن الدين على الأمة بخدمة «صحيح مسلم» باق لم يقض.

وهو مشروع يمكن أن يتسلسل بخدمة زوائد أبي داود على الصحيحين، وزوائد «سنن الترمذي» على الثلاثة وهكذا، وتكون العناية بكشف العلل الخفية لأحاديث ظاهرها الصحة، وبسط الحديث عنها، وحل الإشكالات الواردة على بعض الأحاديث.

وهذا مشروع قد صنع نحواً منه الشيخ ابن الملقن، قال ابن حجر: شرح البخاري في عشرين مجلداً، وشرح زوائد مسلم على البخاري في أربعة أجزاء، وزوائد أبي داود على الصحيحين، زوائد الترمذي على الثلاثة، وزوائد النسائي على الأربعة، وزوائد ابن ماجة على الخمسة[١].

وقد رأيت صورة لمخطوطة من شرحه لزوائد مسلم في العراق ولا أدري عن بقائها ولا بقيتها.

وبهذه الطريقة يوفر جهد التكرار والاجترار، ويتوجه الجهد إلى ما يُشبَعُ بحثاً فيستكمل ويستوفي ما أمكن.

الثاني: كتاب في آيات أشكل تفسيرها، وهو موضوع أُلِّف فيه قديما كـ«مشكل القرآن» لابن قتيبة، ولابن فورك، و«تفسير آيات أشكلت» لابن تيمية، و«دفع إيهام الاضطراب» للشنقيطي وغيرها، ولكن لكل عصر اشكالاته وأجوبته، وقد كانت الكتب التي أُلفت في ذلك تعالج إشكالات عقدية أو فقهية كانت في وقتها، وما عادت الآن مشكلة، وجَدَّت إشكالات حادثة يكثر السؤال عنها وتحتاج إلى إجابات سديدة مقنعة.

(١) «البدر الطالع» (١/ ٥٠٩).

ومثال ذلك:

نزول هاروت وماروت يعلمان الناس السحر، وانشقاق القمر والجمع بينها وبين الآيات التي تنفى الاستجابة لطلب المشركين ونحو ذلك، ومعنى ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا﴾.

ومما يفيد فيها كتاب «التحرير والتنوير»، ودروس بسام جرار.

الثالث: كتاب في مشكل الحديث، يعالج الإشكالات الحديثية التي جدت للباحثين في أحاديث ظاهر إسنادها الصحة ولم تكن مشكلة من قبل، وذكر التوجيهات الشافية لها، فحديث غمس الذبابة، وعُمر عائشة عند زواجها، وحديث: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله**»، لم تكن مشكلة إلى القرن الرابع عشر، ثم صارت مشكلة لدى الأجيال الجديدة تُتَطلب لها الإجابات الشافية والتوجيهات السديدة.

والرابع: كتاب يجمع نقد الأئمة المتقدمين للأحاديث من حيث المتن، بدءاً بالصحابة ومن بعدهم من أئمة هذا الشأن، كالإمام أحمد، والبخاري، والدارقطني، وابن تيمية، والذهبي وغيرهم، لأن نقد المتن قد ضعف عند المتأخرين بعد ذلك وصار جهدهم تكلف الجمع ولو بوجوه متعسفة.

وتكلف الجمع يضعف دلالة الحديث الأصح، ويدخل عليها من التخصيص والتقييد ما يضعف عمومها، وقد يكون الحديث الذي أدى لذلك معلولاً من جهة متنه.

ومن هذا الجمع المستقصي يمكن استقراء قواعد وضوابط مطردة في نقد متون الأحاديث، فإن نقد المتن كان سابقاً لنقد السند ومع ذلك لم يقعد تقعيداً استقرائياً.

وبقي من لذائذ الحياة التي صارت أمنيات كتبٌ أتمنى قراءتها ولكن ضاق الوقت عنها فما عاد في العمر متسع، فأنا كالذي تذكر حاجته وهو في المطار وطائرته توشك على الإقلاع.

وبقي من أماني الدنيا ولذاذاتها مذاكرة رجالات علم وفضل وأدب، لقاؤهم ومذاكرتهم لذة نفسية، ومتعة عقلية، وأنس وفائدة، لا يشوبها لغو سياسي يُكرِبُك، ولا غيبة تؤثِّمك، ولكن يتفارط الوقت معهم بنشوة دونها نشوة من يترشف كأس خمر معتق، ينتقون لك أطايب الحديث كما ينتقي أطايب الثمر، أُحب لقياهم، ولا يلقونني إلا بما أُحب، ولكن نأت الدار وشط المزار، فحبذا الأشياخ في أقدارهم، الشباب في أعمارهم: عبد الله الهدلق، وعبد الرحمن قايد، وعلي العمران، وحسين بافقيه، ومحمد النعيمي، وياسر الحزيمي، وغيرهم من النجوم الوضيئة المضية في سماء هذي الحياة.

التأليف والمؤلفات

كنقطة ضوء تومض من بعيد، ثم لا تزال تحدق فيها حتى تتسع لك، ثم تقترب منك حتى تتضح لك رؤيتها وتتحدد معالمها، تلك هي فكرة الكتاب حين يسطع في خاطرك ومضة، ثم ينشر شعاعا، ثم يتسع فيملأ عليك فجاج تفكيرك، ثم يتخلق في عقلك كما يتخلق الجنين في أطوار النشأة الأولى حتى يولد كتاباً فيه روح من روحك، وملامح من ملامحك، وتشعر تجاهه شعورك تجاه ولدك.

لقد عشت هذا الإحساس مع كتبي حين كتبتها تأليفا، أما الكتب التي أعددتها أكاديميا فتلك كانت صناعة كصناعة النجار والحداد.

وقد يكون ما يقدح شرارة الفكرة الأولى كلمةٌ تسمعها، أو عبارة تقرؤها، ومن ذلك قصة الإمام البخاري في تأليفه كتاب الصحيح فقد كان الذي أشعل سراج الفكرة في عقله شيخُه إسحاق بن راهويه الذي قال لطلابه: لو أن أحدا جمع هذه الأحاديث الصحيحة، فكان البخاري على أهبة الاستعداد لتلقي هذه الإشارة فأضاءت هذه الكلمة تفكيره، ونمت وربت حتى قدم للأمة كتابه «الجامع الصحيح».

وعشت ذلك مع كتاب «اليوم النبوي» فقد كان فكرة أضاءها لي أخي عبد العزيز الماجد رحمه الله لتكون خطبة أو مقالة، وابتدأها بوصف حال النبي بعد صلاة الفجر ومجيئ صبيان المدينة وخدمُها بآنيتهم فيها الماء ليضع يده فيها، وجعل يشير بيده

وكأنه حاضر المشهد، فعلقت الفكرة في ذهني ثم أضاءت وانتشر شعاعها، فإذا مساحتها لا تتسع لها خطبة أو مقالة، فخرجت رسالة «اليوم النبوي»، برنامج اليوم الكامل في حياة النبي ﷺ.

ومثل ذلك كتاب «حديث الغدير» والذي أشعل فكرته أخي حمد الغماس عندما أجرى مقارنة بين وصية أبي بكر لعمر فلم يختلف عليه أحد، والزعم بأن النبي أوصى لعلي فلم يستجب له أحد، فكيف تستجيب الأمة لوصية صاحب رسول الله ولا تستجيب لوصية رسول الله، فتكونت الفكرة لجمع روايات القصة ثم مناقشتها عقليا، والقيام بفريضة التفكير والتفكر في سياقاتها وأحداثها، عسى أن نلتقي مع الإخوة الشيعة من خلال ذلك على كلمة سواء، وكانت كتابتها بعد عشرين سنة عندما تكاملت أبعادها في ذهني.

وكان من نتيجة قراءة «فتح الباري في شرح صحيح البخاري» لابن حجر والذي إذا شرح الحديث جمع رواياته المتعددة وزياداته من جميع طرقه، ثم يتبع ذلك بما يدل عليه الحديث من فوائد، فخطر لي أن أجمع بعض القصص النبوية بجمع رواياتها ثم أؤلف بينها في سياق واحد وكأنها رواية واحدة، وهذه المهمة تحتاج إلى تتبع لروايات الحديث وجمع زوائد كل رواية ثم التأليف بينها ليكتمل من مجموعها لوحة ناطقة، ثم أتبعها ببعض الدروس التربوية المستفادة منها في وقفات عقبها، وبدأت أنشرها مقالات في مجلة الإسلام اليوم، ثم جمعتها وزدت عليها في كتاب «قصص نبوية» بطريقة أرجو أن يكون فيها جدة وإفادة.

وهذا النوع من التأليف ينمو بالتفكر، ويتسع ويتشعب، وإذا استغرق الكاتب فيه سيطر على ذهنه، وصارت الأفكار تتقاطر عليه وهو يسير في الطريق، أو وهو قائم في الصلاة، ولذا كثيراً ما خاصمني مديري زبير جامي من كثرة ما أقول له: فرغنا، انتهينا، هذه آخر إضافة.

ثم أرجع وأقول: تذكرت في صلاة الفجر خاطرة كذا، وجاء على ذهني في صلاة العصر كذا.

فلما قلت له مرة: هذه آخر إضافة، قال: لن أصدقكم في هذه، فما دمتم تصلون فالمزاد قائم.

ثم تناسلت الأفكار وتكاثرت، وقد قيل: الأفكار كالأرانب أحضر الزوج الأول فقط.

وهكذا كان، فكتبت «أماكن نبوية» فصدر منه كتاب «القبر المقدس» وكان جزءا منه، و«الآثار النبوية» وكان طليعةً له.

وكتاب «الحياة النبوية» وهو وصف لحياة النبي ﷺ في نواحيها المتعددة من مثل الرسول مع الفرح، ومع الحزن، ومع السفر، ومع المرض، ومع الجمال، ومع القراءة، ومع الحب، والرسول زوجا وأبا وصديقا، والرسول في بيته، وفي الطريق، وفي السوق... وهكذا.

وهناك كتاب «البيئة النبوية» يتحدث عن نمط الحياة والأدوات والمسميات المذكورة في السنة والسيرة والتي اندثرت، ولم تعد موجودة ولا معهودة ليكتمل التصور عن طبيعة الحياة النبوية.

وكتاب «سنام الإسلام» عن الجهاد النبوي، وبعض التطبيقات المعاصرة والتي يرى الكاتب أنها مخالفة لهدي النبي وهداه.

وكتاب «أنوار الصحيح» شرح لأحاديث من مختصر البخاري بطريقة تناسب عامة طلبة العلم وغير المتخصصين، وتركز على ذكر ما يدل عليه الحديث وبخاصة الفوائد التربوية.

وكتاب «ورثة الأنبياء» وهي تراجم لثلاثين عالما على مدى أربعة عشر قرنا، تقدم وقفات مع سيرهم وليس عرضا لتراجمهم، وتذكر القواسم المشتركة بينهم، والخصائص لكل منهم.

وكتب أخرى تكاملت وأخرى لم تكتمل وكتب ما زالت مسودة، وكتب ما زالت فِكرة.

ولها ترتيب في ذهني، ولا أدري عن قدر الله فيّ وفيها، وربك يخلق ما يشاء ويختار.

ولست بالمكثر في التأليف فما زالت الكتب التي أخرجتها قليلة والتي أُعدَّها ليست كثيرة.

وأذكر أحياناً في بعض كتبي ما ذكرته في غيرها إذا كانت مناسبته حاضرة وسياق الحديث يفضي إليه، ولا أتحاشى ذلك؛ لأني لا أفترض أن من قرأ كتاباً سيقرأُه كاملاً، ولا أن من قرأ كتابا سيقرأ بقية الكتب.

ولأني أنفر من أسلوب تسويق المؤلف لمؤلفاته بعضها في بعضها الآخر، وخاصة إذا جاء بتلك العبارات الغثة التي انتشرت أخيراً حتى كَثرت وثَقلت، ومُلت ومُجت من مثل: وانظر لزاما بحثنا لذلك في كتابنا ذاك، ففيه بسط وتحرير لا تجده في غيره!!!

كما أني قصير النَّفَس في الكتابة فلا أكتب تلك الكتب الطوال ذات المجلدات وإنما هي كتيبات أشبه بالرسائل، فإذا كتبت ما يوضِّح الفكرة ويوصلها اكتفيت به وتوقفت عن الاستطراد والإطالة.

وقد كان أحد أصدقائي يكتب في الصحافة كتابات جميلة لكنها قصيرة، فقلت له: لو فَصَّلت وبسطت، فقال: الفكرة تكتمل عندي في نصف الصفحة الأول وما زاد بعد ذلك فهو كذب.

أما الكتاب الذي لم يخطر ببالي أني سأكتبه، وأني إن كتبتُه استطردت فيه هذا الاستطراد، فهو هذا الكتاب الذي بين يديك إن كنتَ لا تزال تقرأ فيه، فليس بين فكرة كتابته وإنجازها إلا نحو شهر، ولما بدأتُ الكتابة فيه تملَّكني فلم يمكني الانفصال عنه حتى أكملته، فأسأل اللهَ أن يجعل عقبى ذلك فضلاً منه وخيراً كثيراً، وأن يحفظنا من خطل القول، وغلبة الهوى، ونزغات الشيطان.

سرير الحياة

لم يكن ذواق نعمة العافية التي صحبتني عمري كله ليكتمل لولا أن مررت بمعاناة فَقدِها حينا من الدهر.

حين كنت في نحو الثلاثين من عمري وفي كامل قوتي وعنفوان شبابي، لم يكن يخطر ببالي وأنا متوجه إلى مستشفى الملك عبد العزيز في يوم من أيام عام (١٤١٢هـ) إلا أن غيابي سيكون يوماً واحداً فهي عملية تقويم لكسر داخل الأنف، أغادر بعدها في اليوم نفسه، أو بعده من الغد، وتمت العملية يومها ولكن حصل بعدها تسمم في الدم وانتكاسة أصابتني بعدها نوبات إغماء وتشنج، وتضاعفت الحالة وتسارع تدهور الوضع بما فاجأ الأطباء في المستشفى فقرروا نقلي إلى قسم العناية المركزة في مستشفى الملك خالد الجامعي، وكانت أول مرة أحمل في سيارة الإسعاف، وأسمع صوتها الصارخ يفرق السيارات، وأعلم أني أنا المقصود بكل هذه الضوضاء.

يا ألله كم مَرَّت سيارة الإسعاف حولنا فما كان يعنينا منها إلا الابتعاد عن طريقها، أما اليوم فهي تشق طريقها وأنا في أحشائها، الحالة حالتي، والرحلة رحلتي، هذه السيارة التي إذا دوى صوتها فهو إعلان أنها تسير بين تخوم الحياة والموت، ولا ندري أين ينتهي طريقها؟

وكان عالم المشاعر حينها مضطرباً، يمور بتصورات مستقبلية، وذكريات ماضية، وتساؤلات ملحة.

أهكذا يأتي المرض فجأة؟ أهكذا يمكن أن تنتهي الحياة دون إنذار ولا سابق استعداد؟

وكانت المشاعر تموج موج البحار لا أدري هل كنت غائبا عن الوعي حينها أم في برزخ بين الإفاقة والغيبوبة؟

ولم أستجمع شعوري إلا وأنا في غرفة العناية المشددة، كانت الأضواء خافتة، والسكون مطبق لا يقطعه إلا رنين بعض الأجهزة، وأنين بعض المرضى.

وقضيت الليل وحشرجات حولي كأنها حشرجات محتضر لا أدري متى أسلم وديعته، وآخر قضى الليل وهو يجاهد بسعال مبحوح لإخراج فضلات رئته، حتى تكاد روحه أن تخرج قبلها.

وكانت ليلة ليلاء من ليالي البلاء، ولا أحسبني إلا أخف الموجودين ألماً، ولكني شعرت أن آلامهم جميعاً تسكن جسدي، وأني أعاني ما يعانونه كلُّهم، وشعرت أن هذه ليست غرفة العناية المشددة؛ وإنما هي غرفة الاحتضار، وهذا سرير الموت.

وتوقفت حركة الزمان، وايقاع الحياة، فلا حركة ولا صوت إلا أنين الألم، وحشرجات الموت.

وفي الصباح نُقِلت إلى غرفة عناية خاصة، فكانت فرجاً بعد ليلة العناء، حيث سأعيش مع آلامي وحدي ولا أجمع معها آلام الآخرين.

وكانت الآلام تشتد فيفرجها الله بحالة إغماء تريحني غيبوبتها عن مجاهدة عناء الألم، ولا أنسى لحظات الإفاقة الأولى فهي مشاهد العودة إلى الحياة، أفقت بعد أول إغماءة فإذا بي أحس قبل أن أفتح عيني بِنَفَس رقيق مُنعش كأن فيه نفحات من روائح الجنة ونعيمها.

فلما فتحت عينيَّ إذا بأخي الشيخ محمد الفراج قائم على رأسي يرقيني وأنا في غفوتي.

فيا لذة تلك الأنفاس التي لا أتذكرها إلى يومي هذا إلا شعرت أن معها رَوْحُ النعيم، ولا أحسب ذلك إلا أنه أثر صادق الحب، وخالص الدعاء.

وكذا أنفاس شيخي عبد الله بن جبرين المعطرة وهو يرقيني كأنما أجد نفحاتها الساعة على وجهي، ولوعة شيخي محمد بن أحمد الصالح الذي ما انقطعت عني زياراته وما أتاني إلا شعرت أنه المريض وأنا المعافى، وما خرج عني إلا وأبقى عندي قطعة من روحه وبقية من قلبه.

وكم فتحت عيني من إغفاء أو إغماء فيكون أول ما أراه نظرات إخوتي الزائرين، تشع باللهف والشفقة، فكأنها ترياق العافية.

وأكثر ما يؤثِّر في نفسي إذا تذكرت عبرات المحبين عندما يزورونني فأفاجأ بالتياعهم ودموعهم، أتذكر العم إبراهيم الشتوي رحمه الله، زارني فوجدني في حال إغماء فأفقت وأنا أسمعه ينادي: أنا إبراهيم، أنا إبراهيم، ففتحت عيني فإذا عيناه تذرفان.

وزيارة الأخ علاء شلبي رحمه الله وكان خادم المسجد فلما رآني جعل يداري تأثره، فلما خرج انفجر باكياً كالثكلى حتى سمعت انتحابه.

وكم الذين أذكر الآن عيادتهم ودعواتهم وقلقهم وإشفاقهم ثم تُخرِّموا تباعاً، وغادروا الحياة، وفسح الله لي في العمر ونسأ في الأجل، والطبيب المعالج توفي، والمريض المدنف عوفي:

كم من عليل قد تخطاه الردى فنجا ومات طبيبه والعود

ويا لله كم كان وقع زيارات الإخوة مدداً وإنعاشاً وإيناساً، وإني لأظن أني لو أردت أن أعدهم جميعاً لأحصيتهم عداً على كثرتهم؛ لأنها لحظات تَأَثُّر وانفعال، وحالٌ لا

تَنْسَى فيها العين من رأت، وعرفت سر التأكيد على هذه الشعيرة حتى إنها مما يعاتب عليه الربُّ عبدَه يوم القيامة فيقول: «**مرضت فلم تعدني**»، فيقول العبد: «**كيف أعودك وأنت رب العالمين؟**». فيقول الله عز وجل: «**أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما إنك لو عدته لوجدتني عنده**».

ثم انهزمت العافية في جسدي، وضعفت القوة، فما كنت أقدر على النزول من السرير إلا بعناء ومعونة، وشعرت بقيمة العافية التي تمتعت بها طويلاً، ورأيت تاج الصحة على رؤوس الأصحاء، وتذوقت طعم ما فقدت.

فكان عندي يوماً ممرضٌ شاب فبينا هو أمامي إذ أتاه استدعاء فوثب بسرعة وخِفَّة، فكنت أنظر إلى خُطواتِه السريعة وكأني أنظر إلى إحدى العجائب، وقلت ساعتها في نفسي: ترى هل يشعر بنعمة العافية هذه؟ وكأني لم أكن مثله في حياتي كلها.

وكان مرافقي أخي الحبيب النبيل أبو ريان الذي أخذ إجازة فورية اضطرارية من عمله وبقي معي يساهر ليلي ويصاحب نهاري، فأولج شغاف قلبي حباً يكبر ولا يضمر ويتعمق ولا ينتزع.

ووهنت قواي، وتراءى لي هاجس الموت فأمليت وصيتي على أبي ريان، وكان أكثر ما أكدت فيها أداء حقوق الآخرين، وأكثر ما أقلقني أن يكون لمخلوق عليَّ حق يُشَاحني به عند الله، أما حقوق الله عليَّ فقد كان طمعي في عفوه عظيماً.

وكنت إذا التفت وأنا على سريري أرى من النافذة مد البصر مباني مدينة الرياض وعماراتها وشوارعها، فكنت أرى هذا كله وكأنه رماد، وأخذت الدنيا وما فيها حجمها الطبيعي، وانطفأت من الدنيا زينتُها وتفاخُرها وتكاثُرها، وجعلت أنظر إليها كما أنظر إلى هشيم وحطام.

وشعرت لحظتها أن الموت لا يحتاج إلى أسباب كثيرة، وأنه إذا لم يأت الموت فجأة جاء المرض فجأة، وأن هؤلاء الذين معي في المستشفى يملؤون غرفه، ويرقدون على أسرته كانوا قبلاً بكامل عافيتهم، وطول أملهم، ثم تلقفهم المرض على غير انتظار منهم ولا استعداد.

تذكرت ساعاتها طموحاتي وآمالي ومشاريعي، فتعرت أمامي كلُّها، وعرفت ما في بعضها من زيف، وما في بعضها من سخف.

وأكثر ما تبين لي هوانه وزيفه تلك المشاحنات والأحقاد والخصومات على التوافه، وكل أطماع الدنيا وحظوظها توافه، وأن العمر أقصر من أن يقصر بها، وأنه لم يكن يضخمها في أعيننا إلا التفاتنا إليها، ولو أعرضنا عنها لضَمُرت وصَغُرت، وفاتت وماتت.

وأعدت ترتيب الأهميات والأولويات، وخارطة الطريق لو فُسِح لي العمر ومُدَّ في الأجل.

وتصورت أني سآخذ نفسي بعدها بالعزائم، والحزم والجد في شأني كله، وأني إن عبرت هذه الحافة فسأعيش حياة أخرى غير تلك التي عشتها.

وهكذا كان فقد لطف الله بي فيما قدر، ودبت العافية في جسدي، وتكاملت الصحة، وغادرت المستشفى، ودخلت دوامة الحياة، وبدأت تتلاشى آثار التأثر، وتراخى الحزم والعزم، واستيقظت الآمال، وزحفت الأعمال، وحاجة من عاش لا تنقضي.

ولكن بقي معي عِبرٌ متجددة من عبور شفير الحياة، ومن أعظمها الامتنان الدائم لله على نعمة العافية، ومعرفةُ قدرِها، وصرت أجد إشراقاً لمعنى حديث النبي ﷺ الذي يقوله كلما استيقظ من نومه: «**الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور**»، لقد أحيانا بعافيتنا، وجوارحنا وعقولنا، وكل ذلك كان يمكن أن نفقده أو بعضه في إغفاءة.

أصبحت أتفقد إحساسي بالعافية كثيراً وأجدد الامتنان لله وأحيانا في اليوم أكثر من مرة، يا ألله ها أنا بصحتي كلها؛ لا أشكو ألماً، ولا أعاني مرضاً، متى نشكر هذه النعمة.

وتذكرت بعمقٍ كلمة شيخنا علي الطنطاوي رحمه الله يوم قال: كل نعم الدنيا ونعيمها أصفار، والصحة واحد صحيح أمامها، فإن بقي صارت رقما ضخما، وإن ذهب عادت أصفاراً.

وعلمت أننا حين نغادر سرير المرض بعافية فإنا سنجد للحياة طعماً آخر، ونستأنف حياة أخرى جديدة، ونشعر أن سرير المرض قد أعاد ترتيب حياتنا ومشاعرنا، وأولوياتنا واهتماماتنا فحق له أن يسمى بعد ذلك: سرير الحياة.

ظننتها شدائد

عبرت حياتي بعض الأحوال التي حسبتها شدائد فإذا التفت إليها اليوم سخرت من نفسي غاية السخرية أن أكربتني هذه الأمور، وحمدت الله حمداً طيباً كثيراً أن هذا هو أشد ما عبر حياتي الرضية الهانئة.

ومما أذكره تمثيلا وتحدثا بنعمة الله وفضله مما كنت أحسبه في حينها شدة ومعاناة وموقفا يحتاج صبرا ومصابرة حين صدر قرار فصلي من الجامع ثم من الجامعة، والتي كانت ميدان عملي ومضمار رسالتي.

وما الظن برجل لديه حشد من الذرية وتعود على نمط من العيش الرخي من غير ترف ولا مخيلة، ثم يفاجأ بانقطاع مصدر رزقه الذي اعتاده، ومجال عمله الذي ألفه، ووجد فيه نفسه ومتعته، وأداء رسالته.

فكان من نعم الله عليَّ أني لم أشعر حينها بانسداد الطرق، ولا انغلاق السبل، وبدأت الحركة وكانت البركة والتوفيق من الله تتعاهدني من حيث لا أحتسب، فلم أكن بالحاذق في التجارة، ولا الجريء على المغامرة، ولكن لطف الله وحسن تدبيره احتفني فلم أصل يوماً إلى حافة الاضطرار، وبقيت حياتي الظاهرية يكسوها ستر الله الجميل.

وكانت الحال إذا اشتدت عليَّ شيئا عالجت الكرب النفسي بالوصفة النبوية: «**انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم**».

ولذا فكم ذهبت في قيلولة يوم حار إلى سكن عمال المسجد، وهم عمالة فقيرة وافدة فآخذ طعامي إليهم وآكل معهم، وأتحدث إليهم وأسألهم عن أحوالهم، فيأنسون بي ويباسطونني فإذا قليلي أكثرُ من كثيرهم، وإذا ما أحسبه معاناة عندي هو النعيم المأمول عندهم، فأخرج منهم وقد تعافت نفسيتي، واستشعرت عظيم نعم الله التي تغمرني، واكتفي بما عندي فيكفيني، وما كان قليلا لكني تقاللته.

وكلما تذكرت هذه الشدة العابرة تذكرت موقف زوجتي أم ناصر معي فيها، فقد كانت عوناً ومَدَداً، وما أشعرتني يوماً أننا نعيش جَهْداً أو نعاني كرباً، بل كانت الزوجة المواسية المآسية، وهي مِنْ صنف في النساء قليل.

كما أذكر هنا مواقف أهل الفضل والنبل وهم بحمد الله كثير حيث أتاني منهم أفاضل لم تكن تربطني بهم وثيق علاقة ولا صلة قرابة ولكن توقعوا أني أعيش احتياجا، فجاء منهم من جاء وأرسل منهم من أرسل بالمساعدة يبذلها ولا يعرضها، فيعينني الله على التجمُّل فأشكر وأبالغ في الشكر، وأعتذر وأتلطف في الاعتذار.

وممن أستجيز ذكره العم الشيخ محمد بن صالح بن سلطان رحمه الله، والذي أرسل إلي مع صديق لي من أقاربه مبلغا نقديا سخيا هدية منه، فكتبت له رسالة شكر بالغ ودعاء بليغ، وبُشرى بأني بخير، مع تلطف في الاعتذار.

وكذا أخي أبو أسامة عبد العزيز الماجد رحمه الله والذي رمى إلي بالبطاقة البنكية لأحد حساباته لآخذها، وألح في البذل وألححت في الاعتذار مع الوعد بأن أطلبها منه إذا احتجت إليها.

والعم الشيخ عبد الله بن إبراهيم الراشد رحمه الله، فقد بادر بإقراضي مبلغاً سخياً، وعندما أعدته إليه شاكراً لم يقبله مني إلا بتمنع شديد، وهو يقول: الله يحلِّلْك من الفَرش إلى العَرش.

والعم أبو عثمان محمد العثمان الرشيد رحمه الله، والعم سعد بن عبد الله الموسى رحمه الله، فلهم أفضال وفضائل، ولكلٍّ منهم مشاهد فضل ومعروف وكرم، تُذكِّر بمروءات العرب ومكرماتهم السالفة، وغيرهم ممن رغبوا ألا أذكرهم.

وما تخفى المـــكارم حيث كانت ... ولا أهـــل المكارم حيـــث كانوا

فالله يتولى عني جزاءهم، فقد كُتب لهم ما نووه، وبلغ معروفهم من نفسي محله.

ولكل من عرض مساعدة أو حاول بذل معروف شكري ودعائي في كل ساعة أجد فيها لذة الدعاء أو أتحرى ساعة الإجابة.

وأقول:

لأشـــكرنك معروفـــاً هممت به ... إن اهتمامك بالمعروف معروف

بقي أن أقول: إن شعور الرضا الذي كان يتلبسني بعد كل موقف استغناء لا يعدله اليوم إذا تذكرته كنوز الأرض لو كانت بين يدي.

وعلمت أن القناعة صبرُ ساعة، ولحظة ثبات، فإن تجاوزتَ هاويتها فلن ترجع إليها، وإن وقعت فيها فلن تخرج منها. ولو امتدت اليد مرة لما ارتدت، ولبقيت ممدودة تتسقط ما يلقى فيها.

فأحمدُ ربي وهو للحمد أهل أني عشت أيامها حقيقة قول النبي ﷺ: «**ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله**».

وكنـــت إذا تمطـــى بـــي ظلام ... أقـــول لـــكل غاربة شـــروق

وما أسرع ما جاء الفرج وتغير الحال، فأغنى الله وأقنى، وأكرم وأفضل، وما أقرب غِيَر الله بعد قنوط عباده.

لابد للضيق بعـــد اليأس من فرج وكل داجيـــة يومـــاً لإشـــراق

وتعلمت الامتنان لله بتذكر النعم الكثيرة الباقية عند فقد بعض نعمه علينا، وما بكم من نعمة فمن الله.

واليوم ألتفت إلى ما كنت أظنها شدائد فلا أرى إلا خيرة الله لي، ولطفه بي، وحسن العاقبة فيما قدره عليَّ.

وأتخيل حالي لو بقيت في سلم الجامعة الذي لم يجعله الله قدري، فلربما امتص طاقتي، وقضم عمري في تحضير المحاضرات، وتصحيح الاختبارات، ورصد الدرجات.

وعشت حياتي وطموحي فيها الترقي إلى أستاذ مشارك، ثم أستاذ كرسي، ثم يسلمني التقاعد إلى ركام من طاقة مستهلكة استنفدتها دوامة الدوام الوظيفي، وبعض بحوث أكاديمية قدمت للترقية ثم تخشبت.

ووجدت في مقالة الأستاذ الزيات عن داء الوظيفة عزاءً وسلوى، حين قال: «يدخل الموظف الديوان وهو ابن عشرين، فيودع عاماً ويستقبل عاماً حتى يأخذ بمُخَنَّقِ الستين وكأنْ لم يَحدُث في العالم شيء! يختلف الليل والنهار، وتتبدل الأحوال والأطوار، وهو على مكتبه الضيق في غرفته المظلمة، يعمل ساعة ويجتر أخرى، دون أن يشعر بدوران الفلك، أو يفطن إلى حركات العالم.

يدخل الديوان وهو طرير الشارب، أثيث الجمة، ريان من الشباب والقوة والأمل؛ ثم يودعه وهو مخدد الوجه، أشيب الشعر، متداعي الجسم، فقير من المنى والذكر والمال، لا يصلح إلا عموداً في مسجد، أو منضدة في قهوة. وربما أقصدته المنون

لانقطاعه بغتة عما ألف من عادة شديدة، وحياة رتيبة، وأعمال واحدة، في ساعات لا تختلف ولا تتبدل»[١].

أما الأساتذة الجامعيون النوابغ الذين يتخرج طلابهم وهم يتلمظون من ذواق معارفهم، ويستصحبون زادهم المعرفي بقية أعمارهم، وينفذ شعاعهم العلمي خارج الجامعة دروساً علمية، أو مؤلفات ثرية، فلا أملك مؤهلاتهم، ولا مواهبهم، وليس لدي اللياقة لمثل اقتدارهم، فقدَّر الله لي أن أكون حيث يَحسُن أن أكون، وأن أقع حيث أنتفع وأنفع.

وقد جعل الله لكل شيء قدراً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

---

(١) «مجلة الرسالة» (رقم: ٧١).



العم الشيخ عبدالله بن إبراهيم الراشد
رحمه الله



العم الشيخ محمد بن صالح بن سلطان
رحمه الله



العم الشيخ سعد بن عبدالله الموسى
رحمه الله



العم الشيخ محمد بن عثمان الرشيد
رحمه الله

أحداث ١١ سبتمبر

رأينا قبل أحداث سبتمبر بأشهر شريطاً مرئياً يتداول لأسامة بن لادن تكلم فيه عن عدة قضايا، ثم قال: وإخوان لكم حملوا رؤوسهم على أكفهم متوجهين إلى عدوهم.

وكان يبشر بعملية معينة، ولم يكن أكثر المتابعين جنوحا أو جنونا يتوقع أن يكون ما يلوح به هو ذاك الذي وقع في (١١/ ٠٩/ ٢٠٠١م).

وقعت الحادثة ورآها العالم على الهواء، وكانت الحادثة صادمة ومذهلة، طاشت فيها الآراء استيعابا لها، وتحليلا لأسبابها، وتوجيها للاتهام فيها.

ودارت اليد بالاتهام في فضاء واسع لسعة مساحة العداوة لأمريكا في العالم.

وكان الرأي الأهم بالنسبة لنا في مؤسسة «الإسلام اليوم» بيان الرأي الشرعي في الحادث، فشاركت في كتابة مقالة مطولة في حرمة هذا العمل، وأنه لا يمكن أن يصدر مثله باسم الشرع، وبيان هدي النبي ﷺ في القتال وتشريعه لأحكامه وضوابطه، قبل أن توجد منظمات دولية، ولا رأي عام عالمي.

وصدر المقال باسم المشرف العام، ونشر قبل أن توجه التهمة للقاعدة، وقبل أن يتبين الفاعل الحقيقي.

ولما توجهت التهمة إلى القاعدة نفتها عنها حكومة طالبان، بحجة أنها تهمة بلا دليل.

وانتشرت التحليلات الساذجة في أوروبا قبل المنطقة العربية ومن أشهرها كتاب «الخديعة» لتيري ميسان الذي سوق لفكرة أن وزارة الدفاع الأمريكية هي التي قصفت مبنى وزارة الدفاع الأمريكية، وأن وزارة دفاع أمريكا هي التي هاجمت أمريكا وفجرت برجي التجارة، ومع أن وصف الخديعة لا ينطبق على شيء كما ينطبق على كتابه ذاك، فقد وجد من يصدق كلامه، ويشتري كتابه، ويترجمه إلى العربية أيضاً ويحتج به وكأنه وثيقة موثقة، وليس تحليلا مخادعاً، وقد قام الصحفيان الفرنسيان جيوم داسكي وجين كيزنل بإصدار كتاب باسم «الكذبة الرهيبة» ينتقدان فيه كتاب ميسان، ويصفانه بالكذب والرعونة، وأنه لم يكلف نفسه السفر إلى الولايات المتحدة للتحقق والتوثيق واكتفى بتصفح الانترنت.

وردا على ما احتج به وبينا زيفه وتزييفه.

ومع ذلك لا يزال في أوساط العامة من يرى أن العملية منفذةٌ أمريكيا لتسويغ الهجوم على أفغانستان، وكأن أمريكا كانت بحاجة إلى هذه العملية الكارثية حتى تقنع من لا ندري من هو بمبرر غزوها لأفغانستان.

ثم فوجئت أن سمعت مثل هذا الرأي بعد ذلك من شخصيات علمية محترمة.

وتجلى الأمر وتعاطف كثيرون مع أسامة ليس ديناً وتدينا ولكن كرها لأمريكا وشماتة بها، وبخاصة أصحاب الميول اليسارية، ومما اذكره مقالة انتشرت لأحد الكتاب يقول فيها: لن أسفح الدموع على أمريكا، ولن أبكي على ضحاياها فهي التي فعلت، وفعلت، وجعل يعدد جناياتها، ولن أسفح الدموع على ضحايا أمريكا لأن عندنا مصائب تحتاج بكاءنا ودموعنا في فلسطين وهناك وهناك.

ومثل هذا الكلام كان ينبغي أن يوجه لمن أقام سرادقا يتلقى فيه التعازي بضحايا أمريكا، ولكن السؤال الحقيقي هو: هل هذا الفعل تصرف شرعي فنؤيده؟ أم مخالف للشرع فندينه ونَحذر ونُحذر منه؟

وكانت العواطف تقود العقول، ورأيت عياناً ما كنت قرأته لجوستاف لوبون في سيكولوجية الجماهير.

ورفضت طالبان تسليم أسامة بن لادن واختارت تعريض الشعب للإبادة، وتعريض البلد للدمار من أجل مغامرٍ خَدَعَها، وافتات عليها بعملية كارثية جرجرت على الأمة الخسائر والأزمات التي ما زالت تتناسل إلى يومنا هذا، وأطاحت بجهود دعوية دؤوبة كانت تَعمل بصمت، وتَتمدد بهدوء، ومهدت الطريق للعنصريين والمحافظين الإنجيليين، وجمعت الذرائع في أيديهم، وحشدت التعاطف معهم، حتى أعلن بوش عودة الحروب الصليبية.

واكتُسِحَت أفغانستان، وشردت القاعدة إلى كهوف تورا بورا.

ورأينا مشهد الدمار جراء القصف الأمريكي الطائش الباطش، وأفرغت الطائرات شحنات قذائفها وحنقها على البلد الفقير المجهود، ورأينا مشاهد مروعة للنازحين الهاربين من المحرقة الأمريكية، ومن المشاهد المؤلمة التي رسخت في عقلي كالكابوس كلما تذكرتها مشهد امرأة معها قطع متفحمة من جثة زوجها تحملها في لفافة إلى معسكر للنازحين، وكانت قد فقدت زوجها وعقلها ولذا فهي تحمل هذه القطع المتفحمة معها وتنشرها أمام من حولها وكأنها تنتظر أن ينشز الله عظامها ولحمها بشرا سويا.

وكان استهتار آلة الدمار الأمريكي بأرواح الأبرياء والمدنيين غاية في البشاعة والإجرام، فهذا زواج يقصف ليتحول الفرح إلى مأتم والمحتفلون إلى ركام من الجثث، وهذا حفل مدرسة أطفال تقصف فتتحول براءة الأطفال إلى نثار من الأشلاء والدماء.

وتساءلنا كيف هانت الشعوب ليس على أعدائها بل على حكامها، وكيف يُعرَّض مدنيون مسالمون غافلون لهذه الحروب المدمرة؛ لأن مغامراً اختار أن يغامر بمصائرهم وأمنهم وبلادهم.

وما الفرق بين صدام حسين وأسامة بن لادن وقيادة طالبان في ذلك الوقت حين تُدخِلُ الشعب الذي كان أحوج ما يكون إلى السكينة والأمان إلى حرب لم يبدأها، ولم يخترها، ولم يتخذ قرارها.

«ولا تحدثني عن إخلاص أغلب قيادة طالبان ذلك الوقت وحسن نيتهم وغيرتهم على الإسلام، فذلك كله يشفع لهم يوم القيامة بإذن الله، وحسابه يوم الحساب، أما في ميزان الدنيا فلا يشفع لهم ذلك بحال، وقد دفعت أمتنا ثمناً باهظا، وأريقت دماء كثيرة، كما أهدرت قيم جليلة على أيدي أولئك النفر من الطيبين المخلصين الذين لا (يفقهون) ممن لم يدركوا مقاصد الدين، وعجزوا عن فهم حقائق الدنيا»[(١)].

ثم انتشر بعد ذلك التسجيل المرئي لأسامة بن لادن وهو يتحدث عن العملية وتنفيذها، ومع أن الاعتراف سيد الأدلة، وأن هذا هو القول الذي يقطع قول كل خطيب إلا أن هناك من لا يزال ينكر ذلك ويدفن رأسه في خرافات غياب اليهود عن مركز التجارة العالمي يوم التفجير، ونقل أطنان الذهب منه قبل يوم الحادث، من غير أن يكلف نفسه عناء التوثق من هذه المعلومة، وكان شيخنا جعفر إدريس يقول: إن نجاح تنفيذ العملية يعود إلى غرابتها، فمن الذي يخطر بباله أن طائرة مدنية مليئة بالركاب تُحوَّل إلى صاروخ، وأن يكون منفذ العملية هو أول ضحاياها.

والعجيب أن بعض الذين بُهتوا باعتراف أسامة ووضوح الشواهد عليه تحولوا إلى توجيه الفعل توجيهات شرعية، وكم سمعت من يتكلم بقناعة وحماس ويقول: إن أسامة بن لادن نَبَذَ إليهم على سواء وبالتالي فله أن يهاجمهم، وكأن قرار النبذ على سواء قرار يتخذه أي طائش مغامر أو زعيم عصابة وليس قرارا سياديا جماعيا تتخذه قيادة الدولة المسلمة.

(١) «طالبان في المعركة الخطأ» لفهمي هويدي (١٧٦).

ومن ذلك ما سمعته عن بعض طلبة العلم أنه خَطَّأ فعل أسامة بن لادن، وقال في تبرير التخطئة: إنه كان عليه قبل العملية أن يعرض عليهم إحدى ثلاث خصال: إما الإسلام أو الجزية أو الحرب.

وتساءلنا وحق لنا: في أي كهف من كهوف الزمن يعيش هؤلاء حين يفكرون بهذه الطريقة؟ وهل في هذا الكلام أثارة من علم أو فقه؟!

وهناك من سمعته يقول: دعونا من تخطئة أسامة بن لادن، ولكن هل أنت مع أمريكا أو مع من يحارب أمريكا؟

وهو كلام جورج بوش نفسه: إما أن تكونوا معنا أو مع الإرهاب، أو قول أسامة: انقسم الناس إلى فسطاطين فسطاط إيمان لا نفاق فيه وهو الرقعة التي تتسع له وللظواهري، وأبي حفص المصري، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه، وفيه كل الذين يخالفونه آراءه ولم يؤيدوه أو يصطفوا معه.

ومن ذلك ما سمعناه يتداول بعد الكارثة أن هناك آلافا من الأمريكان أسلموا بسبب حادث سبتمبر، والذين يطلقون هذه الدعوى لا يكلفون أنفسهم عناء إثباتها.

ومع أن هذه دعوى غير صادقة فإن الذي نحن على يقين منه أن هناك الملايين غيرُهم قد أخذوا صورة مشوهة عن الإسلام من خلال هذا العمل، وأن هذا من الصدود عن دين الله وليس من الدعوة إليه، وقد كان النبي ﷺ يكف عن قتل مستحق القتل من المنافقين ويقول: «**لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه**». والمقصود بالناس هنا هم سكان الجزيرة من غير المسلمين، حتى لا يكون ذلك سبباً لصدودهم عن الإسلام.

وربما سمعت بعض المتحمسين وهو يدافع عن العملية، ويتفنن في هجاء أمريكا وكأن استنكار هذا العمل عمالة لأمريكا وتبرير لأعمالها.

وأتساءل لو كان هذا المتحمس موجوداً في الطائرة وجاءه محمد عطا وقال: إننا وجهنا الطائرة لتصطدم ببرج التجارة فهل سيكون بذات الحماسة للعملية؟

بل لو كان في الطائرة ابنه أو أبوه هل سيكون تقييمه للعملية هو ذاته ما يقوله حينها.

وأُدخلت أفغانستان هذا البلد المنكوب إلى كارثة أخرى بعد كارثة الاحتلال الروسي، والاحتراب الداخلي، ليأتي البلاء بالاحتلال الأمريكي، واستمرت الحرب بين طالبان وقوات الحكومة الموالية لأمريكا واستمر الحريق عشرين سنة، وانتهت في أيامنا هذه باستيلاء حركة طالبان وتمكنها من الحكم.

والشيء العجيب أن قيادة الحركة أصبحت تؤكد في كل مناسبة أنها لن تسمح بجعل أفغانستان منطلقا لأي عدوان يمتد خارج الحدود، وطمأنت جيرانها في الصين وروسيا فضلا عن الأمريكان أنها لن تكون مأوى لأي جماعة إرهابية، ولا يمكن أن ينطلق منها أي عمل إرهابي، والأعجب أنه ما إن استولت على الحكم حتى بدأت حرباً أخرى.

يا ألله حرباً على من؟؟؟

حربا على القاعدة المطورة المسماة تنظيم الدولة، فبعد عشرين سنة من الحرب بسبب تنظيم القاعدة رجعت الحرب مع القاعدة نفسها، والسؤال الذي يفرض نفسه: ماذا لو أن حكومة طالبان بدأت من هذا الذي انتهت إليه؟!

لقد تعلمت طالبان الدرس جيداً، ولكن كان الثمن الذي دفعته أفغانستان حتى تصل إلى حكمة التجربة هذه ثمناً باهظاً.

والسؤال الأخير: لقد خرجت أمريكا من أفغانستان، وأعلنت الهزيمة وقالت: إن هذا البلد مقبرة الإمبراطوريات، مع أن قتلاها هناك (٢٤٠٠) جندي، بينما قتل من جنود طالبان أكثر من خمسين ألفا، وقتل من أهل البلد بسبب الهجوم الأمريكي أكثر

من مئة ألف، وقتل من جنود الحكومة الأفغانية قرابة (٧٠) ألف ومع ذلك ليسوا في حسابنا في تقييم الأرباح والخسائر، ولا في تقييم النصر والهزيمة.

وهذه الحادثة بتداعياتها تشبه من بعض الوجوه حادثة علاء الدين محمد ابن خوارزم شاه، والذي حدث في عهده قتلُ بعض التجار من المغول وأخذُ تجارتهم، فأرسل جنكيز خان إليه رسلا يستنكرون العمل ويطلبون ما أُخذ والانتقام ممن فَعل، فما كان منه إلا أن قتل هؤلاء الرسل، فثارت ثائرة المغول وتوجه جنكيز خان بجيش عرمرم قرابة (٦٠٠) ألف مقاتل من المغول ليبدأ الإعصار المغولي الحارق الماحق الذي اجتاح العالم الإسلامي حتى وصل إلى الشام وطوى حواضر إسلامية ودمرها كنيسابور والري وسمرقند وبخارى إلى أن وصل إلى بغداد، وقتل في اجتياحه ملايين المسلمين، ودُمِّرت أعظم المدن، وأُحرقت أضخم المكتبات، وبقيت الأمة تصطلي بهذا الحريق عشرات السنين.

أما علاء الدين محمد بن خوارزم شاه الذي أشعل هذا الحريق بنزوة غرور وحماقة استهتار فقد هرب ناجيا بنفسه حتى لجأ إلى جزيرة صغيرة في بحر قزوين، ومات في خيمة بها طريداً غريبا كميدا بعد أن علم أن أمه وقعت في أسر المغول، وكان يقول: لم يبق لنا مما ملكناه من الأرض قدر ذراعين نحفر ونقبر، وكأنما يعيد التاريخ نفسه.

وبقي للأجيال درس بليغ أنك تملك السيطرة على أفعالك لكن لا تملك التحكم في ردات فعل خصمك، وأن التحكم في الطلقة الأولى لا يعني التحكم في تداعياتها وتطوراتها.

رائحة الدم

رحم الله أستاذنا زين العابدين الركابي فإني مدين له بكثير من البصيرة وقت الحيرة، ووضوح الرؤية في قَتَامةِ الفتنة.

وكان لي به خصوصية وموادة وثقة، فزرته في وقت التوتر قبل اشتعال حرائق القاعدة، فكان يقول لي: إني أشم رائحة الدم، ولابد من دفع ذلك ما أمكن، فإن تم فالحمد لله، وإلا كنا تعجلنا البراءة منه ومفاصلته.

وكان يقول: لماذا لا نقدم الحجج والأدلة إلا بعد انتهاء صلاحيتها؟

وكأنه كان ينظر إلى الغيب من ستر رقيق، فإن القاعدة بدأت مشروع التوحش ونثر الدماء واشعال الحرائق على أنه هو مشروعها، وكان من ذلك استغلال ما في الشباب من تعجل وقلة فقه وتهور وانفعال ثم جرجرتهم إلى جرف الهلكة والدمار.

وبدأت الترويج لتفسير مغلوط لحديث: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب**»، وبالتالي فكل شخص غير مسلم في الجزيرة العربية فهو هدف للقاعدة، وإن ترتب على ذلك قتل بعض المسلمين معه فسيبعثون على نياتهم، وجعل قيادات القاعدة يؤكدون هذا المعنى، وكأن هذا الحديث الصحيح بقي لغزاً لم يفهمه أحد من العلماء إلا مهندس وطبيب في تورا بورا.

واستخف هذا الرأي من استخف من صغار الشباب واستهواهم ما فيه من مغامرة وبطولة موهومة، وإذا الأرض ترجف بنا في حي العليا حيث أَسكُن، وكأنها رجفة زلزال، ودَوَّى معه صوت انفجار مريع، ثم انجلى غباره عما عرف بتفجير العليا، في (١٣ نوفمبر ١٩٩٥م)، وكان هذا الحادث الشنيع المريع بداية مسلسل من عبث القاعدة بأرواح المسلمين وأمنهم واستقرارهم باسم الجهاد في سبيل الله.

وقد كان يمكن أن يكون هو الحادث اليتيم، وأن يكون البداية والنهاية، ولكن سخونة الأحداث بعد أحداث سبتمبر كونت مناخاً أعاد التهاب العواطف وتوتر الأجواء.

بيان التعايش:

ولذا سارع جمع من العلماء والمثقفين إلى كتابة بيان سمي «بيان التعايش» كان يوضح موقعنا في هذا العالم وطبيعته وعلاقتنا مع غير المسلمين، ويبين أن هذا الدين دين تعايش عالمي، وأن مناخه هو مناخ السلم والتعارف والتعاون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾، ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾.

وقد أعد البيان جمع من أهل العلم والفكر منهم الشيخ سلمان، والمحامي عبد العزيز القاسم، وكنت ممن شارك معهم في الإعداد وعرضه على من وقعوا عليه، وصدر البيان بتوقيع (١٥٠) من العلماء والمثقفين والمثقفات، ونشر في (صفر ١٤٢٤هـ/ إبريل ٢٠٠٢م) ولقي البيان تفاعلاً واسعاً في الصحافة ووسائل الإعلام، وكتب عنه مشيداً أو مناقشاً صحفيون وكتاب كثر، منهم: فهمي هويدي، وعبد الله بشارة، وخالد الدخيل وغيرهم.

ثم التهب الجو حولنا، فقد استغرب البيان وعارض لغته بعض الأطياف العلمية والدعوية، وصدرت البيانات من القتاليين ترد علينا، وصارت زحوفهم تحاصر بعض المشايخ الموقعين وتجلب عليهم حتى يتراجعوا، ورضخ بعضهم لذلك، وجاءني في

مكتب «الإسلام اليوم» حشد من الشباب حديثو الأسنان يحتجون على البيان، فكنت أتكلم معهم وكأن بيني وبينهم مسافات زمنية شاسعة، فهم يتكلمون وكأن الدنيا ما زالت على زمن الإسكندر المقدوني أو هارون الرشيد، يوم كانت حدود كل دولة تقف حيث يقف جيشها، ولم تكن هناك معاهدات دولية، ولا حدود سياسية، ولا تواصل عالمي، ولا تفوق تقني.

وصدرت عدة كتب وكتابات في الرد على البيان، منها كتاب: «انبطحوا سراً» ليوسف العييري، و«التنكيل بما في بيان المثقفين من الأباطيل»، و«طليعة التنكيل» كلاهما لناصر الفهد، وكانت تمثل التأصيل للفكر القتالي.

وما زال هؤلاء بأحد كبار علمائنا وفضلائهم حتى أقنعوه بتصور معين واستصدروا منه بياناً يتأول ذلك البيان الأول بما يشبه التراجع، ويفرغه من أهم أفكاره، ووقع عليه بعض الموقعين على البيان، وقد حدثني أحدهم أنه ما ندم على شيء كتبه كما ندم على كتابته هذا التأويل الذي حاول حين وقعه أن يحافظ على وحدة الموقف وقد كانت المفاصلة أولى من الموافقة.

وأعادت أجواءُ التوتر قتامةَ الرؤية لدى بعض الشباب، وخاصة مع وجود دعاة للفكر القتالي يتكلمون عن الجهاد على أنه مشروع مفتوح يستطيع كل أحد أن يشارك فيه، وأن يبدأه إذا رأى ذلك، لتتحول هذه الشعيرة من كونها من وظائف الأمة الجماعية إلى كونها مغامرة يقوم بها الأفراد والعصابات كيفما اتفق، وبأي طريقة، وبأي نتيجة.

بيان الجبهة الداخلية:

استبق جمع من الناصحين هذه النذر ببيان صدر عن مؤسسة «الإسلام اليوم» بعنوان بيان الجبهة الداخلية في (مارس ٢٠٠٣م) وكنت أحد الموقعين عليه، وكان من مضامينه التأكيد على أنه ليس لأحد الافتيات على الأمة خاصتها وعامتها، بقول أو فعل يحرك عدوها إلى ميادينها العامة، وينتظر من بعض أبنائها صناعة المسوغ لذلك.

وأن أي قتال للكفار إنما جاز لإعزاز الدين وحماية المسلمين فإذا لم يتحقق ذلك وجب تركه، وكذا عدم الافتيات بالتكفير وإطلاق أوصاف الكفر والردة على المسلمين ومن ثم الاستهانة بدمائهم.

ومع ذلك أنكر علينا هذا البيان من أنكر، ورد عليه من رد، ورأوا أن فيه تعطيلا لشعيرة الجهاد، فاتصل بي أحد الأفاضل من دكاترة الشريعة يعاتبني على عبارة الافتيات على الأمة، وأن هذا فيه غمز لأعمال المجاهدين، واستنكر البيان وإصداره.

ودارت الأيام وإذا بهذا الفاضل يتحاشى الاتصالات والزيارات خوفاً من احتمالات أمنية، ولا ملامة عليه والله في ذلك، ولكن تمنيت أنه حرص أيضاً على أمن الأمة ودمائها، وتوقى لها كما يتوقى لنفسه، فلا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

ولم أكن خطيباً حينها ولكن حاولت الالتقاء ببعض الخطباء وحثهم على إلقاء خطب تحذر من أعمال العنف، ففوجئت ببعضهم يواجهني بانفعال ساخر وهو يقول: تريدون الوصاية علينا، دعهم حتى تختلط على أمريكا الأوراق، وحدث ما حدث بعد واختلطت الأوراق علينا نحن، وبؤنا جميعاً بشر أعمالهم.

وعندما تغيرت الأوضاع الأمنية وشعر هؤلاء المؤيدون والمتعاطفون بأن الخطر قد اقترب منهم وجدوا لأنفسهم أوسع العذر، وتأولوا لسكوتهم وتواريهم بأوسع التأولات.

ألا قدروا الخطر على أمتهم مثل ما قدروا الخطر على أنفسهم؟

وانتشر الفكر القتالي على يد أناس ما كانوا يظنون أن ينتهي إلى هذه النهايات، وأن يؤول إلى تلك المآلات، ولم يعلموا أن الكلام العاطفي المجمل عن الجهاد هو المقدمة التي ينطلق منها القتاليون إلى تكييفه وفق مشروعهم التدميري.

ولذا سهل إغواء الشباب برغائب الجهاد وأشواق الاستشهاد، ثم تجنيدهم كمفخخات للتفجيرات.

تفجيرات الرياض:

وإذا بنا نفاجأ بعد ثلاثة أشهر من هذا البيان في (١٢ مايو ٢٠٠٣م) بتفجير غرناطة والذي هاجم فيه (٩) انتحاريين مجمعاً يسكنه سعوديون وأجانب بأربع سيارات مفخخة، ويختلف عن تفجير العليا أنه عمل انتحاري.

وكان هذا جرسَ إنذارٍ أنه بدأ تفخيخ عقول الشباب وتجنيدهم على إخوانهم وبلادهم، وقُذفَ في يقينهم أنه بمجرد أن تمزق المتفجرات أجسادهم فسيتقلبون في جنات ونهر، وستتسابق إليهم الحور العين، وسيغادرون شقاء الدنيا إلى نعيم الآخرة، وهو فكر خلاصي يلاقي تعجل الشاب، وقلة تبصره، وعدم تفكره في العواقب.

وبدأنا نفقد أبناءً لنا في نُضرة الشباب وتألقه، لا ندري من الذي أغواهم ولا أين أخفاهم.

ولا أنسى لوعة وحيرة أخي وصديقي د. محمد، وهو داعية وأستاذ في العقيدة كان ابنه طالب علم متألق قد دخل الجامعة وتفوق في الدورات العلمية وإذا به يختفي فجأة، ثم يذهب في حادث من حوادث المواجهات الأمنية، فكان يتكلم لي وأنا أعزيه وأواسيه ويقول بحسرة: نحن عشنا أعمارنا في الدعوة، نجتهد مع الشاب دهراً ونتألفه ونطاوله حتى يحافظ على الصلاة أو يترك التدخين، وهؤلاء يأتون في الظلام فيستلون أبناءنا من بين أيدينا، ثم يقذفون بهم في هذه المحرقة، كيف وصلوا إليهم؟ كيف أقنعوهم بهذه السرعة، ورموا بهم إلى هذا المصير؟

وتتابعت الحوادث المفجعة، فحدث تفجير مجمع المحيا السكني بسيارة مفخخة في (٨ نوفمبر ٢٠٠٣م)، ثم تفجير الإدارة العامة للمرور بالرياض في (١١ إبريل ٢٠٠٤م) وغيرها.

بل أدخلت القاعدة المواجهات داخل الأحياء، وفوضت جيشها الذي في يده السلاح أن يقتل ويقاتل فيها.

وكدت أن أذهب في إحدى هذه المواجهات التي وقعت في حي الجزيرة قريبا من بيتنا، فقد كنت ذاهبا إلى مكتبي في مؤسسة «الإسلام اليوم» بعد العصر وإذا بي أرى سيارات الأمن المصفحة على الجهة الأخرى من الطريق، وأسمع صوت إطلاق نار عنيف، فتصورت أنه في الناحية الأخرى من الحي، وواصلت السير، وإذا بالرصاص ينهمر أمامي في طريقي الذي أسلكه، ويخيل إلي أني كنت أرى الرصاص يطير أمامي أحمر مثل الشرار، لأن فريقاً مسانداً منهم جاء من الجهة الثانية من الحي وجعل يطلق النار على رجال الأمن، وصرنا في الطريق بينهما.

وما كان يسعني في تلك اللحظة المفاجئة والمذهلة إلا أن استمر في طريقي فلا إمكانية للرجوع ولا للوقوف، وكانت مغامرة بل مخاطرة لا أدري الآن كيف نجوت منها، فقد كان يمكن أن تعبر إحدى الرصاصات أحشائي، أو أن تُفَجِّر رأسي، ولكن بقي لي عمر حتى أستتمه، ولا حارس كالأجل.

وانتشرت صور بشعة لبعض الجرائم التي ينفذها هؤلاء، ومنها مقطع فيديو لذبح مقيم أجنبي بتوحش يشبه مقاطع داعش التي انتشرت فيما بعد، وهذا يبين أن البنية الفكرية للعنف واحدة.

ومع هذا كله فقد وُجِدَ من لم يجرؤ على إدانة ذلك إدانة صريحة واضحة، وإنما يدين بكلمة واهنة، فيقول: نحن ضد هذه الأعمال ولكن ثم يستمر فيما بعد لكن حتى يتأكد أنها قد محت ما قبلها.

المواجهة الفكرية:

وقد استنفرنا أنفسنا في مؤسسة «الإسلام اليوم» للمواجهة الفكرية مع هذا التوجه التدميري، ففتحنا حواراً في الموقع الإلكتروني جمعنا فيه أهم ما يروجونه من شبه

وتساؤلات، ثم أعددنا أجوبة علمية محررة شارك في تحريرها جمع من كبار العلماء كالشيخ عبد الله بن منيع، والشيخ عبد العزيز الراجحي وغيرهم، وأخرجت في كتاب بعنوان: «أسئلة جريئة وأجوبة صريحة».

وكتبت مقالاً مفصلاً في (٣١ مايو ٢٠٠٥م) ناقشت فيه الاستدلال بحديث: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب**» وبينت فيه فهم الخلفاء الراشدين، والعلماء المحققين لهذا الحديث، وبينت بطلان الفهم الذي ينشره القتاليون ويطبقونه.

وشاركت في برامج تلفزيونية من أشهرها البرنامج الذي خرجت فيه مع اللواء الخليوي وانتشر التفاعل حوله والحديث عنه.

وكانت تجربة قاسية عبرتها البلاد، وكان أقسى ما فيها أن الجناية كانت علينا، والجاني هم أبناؤنا.

هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

ويا لله من كان يظن أن القاعدة التي أشعلت هذه المعارك، وأعملت في المسلمين في السعودية والعراق وغيرها التكفير والتفجير، سوف يكون ملاذها هو نظام حكومة الملالي الطائفية في إيران، وأن تكون أداةً من أدواتها، وأن يكون هذا النظام الطائفي الوالغ في دماء المسلمين أقرب إليهم من إخوانهم المسلمين الذين تُستَحل دمائهم بأدنى الشبه.

هجمات باريس

لم تكتف القاعدة ومشتقاتها بركام الدمار في أفغانستان والعراق، ولم ترتو من أنهار الدماء في أفغانستان ونيروبي ودار السلام والرياض، فجعلت تشعل الحرائق في كل مكان قابل للاحتراق، وكان من ذلك حادث هجمات باريس والتي حدثت في (١٣) نوفمبر (٢٠١٥م) ونتج عنها مقتل (١٢٩) وإصابة (٣٥٢) شخصا، وهي هجمات متزامنة في أماكن متفرقة في باريس، وكان أكبر عدد من الضحايا هم الذين سقطوا في هجوم مسرح «باتا كلان» وأعلن تنظيم داعش مسؤوليته عن الهجمات.

وكان جريمة شنيعة استنكرتها دول العالم ومنظماته الدولية، وحق لها أن تستنكر وتدان.

وأحسنت فرنسا عرض مصيبتها فتعاطف معها العالم في مسيرة.

أما المتعاطفون مع القاعدة وشقائقها، والناقمون على فرنسا فقد اتفقوا على الشماتة بها وتبرير هذا الفعل، ومن لم يصرح بذلك بدأ يُذَكِّر بجرائم فرنسا السابقة واللاحقة، ويعدِّدها ويفصلها، وكأنما يقول: هذا بعض ما تستحق.

واستغربتُ أن يقترب من هذا الطرح بعض العقلاء من أهل العلم والفضل فتخطئ أبصارهم المعيار الشرعي في تقييم ما حدث، وأننا أمة الحق القائمة به والشاهدة عليه، لا يمنعنا عن الصدع به أن كان لصديق أو عدو، وندين الظلم سواء وقع على صديق أو

عدو، ونرقب في الأمم كلها قول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾، فهذه الآية نزلت بعد الحديبية حين صدت قريش النبي ﷺ ومن معه عن العمرة، فأنزل الله هذه وما قبلها يأمر بوفاء العقود ويحذر من الاعتداء عليهم، أو الانسياق وراء الانفعال العاطفي الذي يدفع إليه سابق العداوة والعدوان منهم، والذي كان آخره صدُّهم النبي ﷺ وأصحابه عن المسجد الحرام، ومع هذا كله يقول الله: لا يحملنكم هذا الشنآن على العدوان.

وهذه الآية ينبغي أن تُذكر من دلائل نبوة النبي ﷺ لأنه لا يمكن لبشر أن يتجرد عن مشاعره ويقول عمن ناصبه العداوة هذا القول إلا أن يكون نبياً يوحي إليه من السماء.

فكتبت مقالاً عنها بعد هدوء ثورة الانفعال، وهو خطاب إسلامي موجه للمسلمين باسم الإسلام، وليس موجها إلى فرنسا ولا الفرنسيين، بعنوان «**حين هدأت باريس**» نشرته في موقع «الإسلام اليوم» وعلى حسابي في تويتر وقلت فيه:

أرجو بعد هدوء الانفعال والتفاعل مع أحداث فرنسا أن يكون الحديث الآن عنها أكثر تبصراً وتأملاً، وأن نتحدث عنها ببصيرة العقل، وليس بانفعال العاطفة: وأن نقتفي في ذلك هدي نبينا ﷺ وهداه.

١- إن الإجرام إجرام سواء وقع على مسلم أو كافر، وإذا أجرمت دول الغرب فلا نجرم نحن، وإذا ظلمت دول الشرق فلا نظلم نحن، فقيمنا ليست مستمدة من الغرب أو الشرق، ولكنها مستمدةٌ من ديننا، نتعبد لله بها، ولا نتخلى عنها لأن غيرنا تخلى عن قيمه، أو لأن عدونا لا قيم له.

٢- رأى النبي ﷺ وهو متوجه لفتح مكة امرأة مقتولة فأنكر ذلك وقال: «**ما كانت هذه لتقاتل**»، ثم أرسل إلى مقدمة الجيش فنهى عن قتل النساء والصبيان وقال:

«**لا تقتلوا ذرية ولا عسيفا**». أي أجيراً. ولم يقل أحد: يا رسول الله: إن قريش فعلوا بالمهاجرين كذا، وفعلوا في أُحدٍ كذا، وجعل يعدد جرائمهم السابقة.

٣- عندما أتى النبي ﷺ بشرائع القتال وضوابطه، والتي جمعها أبو بكر فيما رُوي عنه من طرق متعددة: لا تقتلوا صبياً ولا امرأةً ولا شيخاً كبيراً، ولا مريضاً، ولا راهباً، ولا تقطعوا مثمراً، ولا تخربوا عامراً، ولا تذبحوا بعيراً ولا بقرةً إلا لمأكل، ولا تغرقوا نخلاً ولا تحرقوه، وبما رُوي عنه ﷺ من حديث أنس أنه قال: «**انطلقوا بسم الله وفي سبيل الله تقاتلون أعداء الله في سبيل الله، لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة ولا تمثلوا**»، وعَملُ المسلمين في فتوحاتهم جار على ذلك.

لقد أتى النبي ﷺ بهذه التعاليم والعالم كله لا يعترف بها ولا يطبقها، وإنما كانت الحروب في ذلك الوقت تقوم على التشفي والانتقام والنكاية بالعدو بكل سبيل، ومع ذلك الزم النبي ﷺ المسلمين بها وإن تنكر العالم كله لها.

٤- عندما شَرَّع النبي ﷺ هذه الشرائع في الجهاد لم يكن يراعي رأيا عاماً عالميا، ولا هيئة أممية، ولا مواثيق دولية، ولكنه كان يعلن شرعا إلهيا يعيد البشرية إلى رشدها.

٥- إن قيم المسلمين الفاتحين في القتال كانت من أعظم أسباب رغبة تلك الأمم في الإسلام ودخولهم فيه، بل لما حصل الاقتتال بين الصحابة في خلافة علي رضي الله عنه كان ذلك فرصة لهذه الشعوب أن تتمرد وتطرد المسلمين وتردهم إلى جزيرة العرب، ولكنهم بقوا أوفياء للدين الذي تفيؤوا في ظلاله الرحمة والعدل.

٦- عندما نستنكر جرائم داعش في أي مكان فليس هذا مجرد تعاطف مع شعب هذه الدولة أو تلك، ولكن غيرةً على ديننا أن ينسب إليه ويفعل باسمه ما جاء بإنكاره.

وفرق بين أن يفعل هذه الأعمال مسلمون باسم الإسلام فننكرها تدينا، أو تعملها عصابات على غير ديننا كالألوية الحمراء أو بادر ماينهوف ويتحملوا هم مسؤوليتها.

٧- الكلام عن الأضرار المترتبة على هذه الأعمال على الجاليات المسلمة في أوروبا ينبغي أن يكون متفرعاً عن القول بجوازه، أما وهو محرم فسواء وقعت هذه الأضرار أم لم تقع فهو جريمة نبرأ إلى الله منها.

٨- عندما نسكت عن إدانة هذه الأعمال وبيان حكم الشرع فيها، فإنا بذلك نفسح المجال ليكون الخوارج الغلاة هم الذين يُعَرِّفون بديننا ويتحدثون باسمه، وهي جناية على الدين عظيمة.

٩- ذِكرُ التاريخ الإجرامي للمستعمرين فرنسيين أو بريطانيين أو غيرهم ينبغي أن يظهر ويشهر ومن المهم وضوحه في ذاكرة الأجيال؛ لكن تعداد تلك الجرائم عقب حادثة داعشية يعطي رسالة واضحة للمتلقي من أبنائنا: أن هذه بتلك، وأن داعش قد أخذت بثأر أجدادنا من أحفادهم، والنتيجة تزكية للعمل وميل مشاعري إلى من قام به، ولا يمكننا أن نستدرك ذلك بمثل عبارة: وإن كنا لا نتفق.

١٠- عندما نعلن استنكارنا فإنا نتكلم بلغتنا العربية لأنه خطاب لأبنائنا، فليس القصد استعطاف الفرنسيين ولا استجداء البراءة منهم، ولكن المقصود بذلك أن نعلن ما ندين الله به لأبنائنا حتى لا ينظروا إلى داعش على أنها قد شفت الصدور بمثل هذه الأعمال.

نستنكر لنقول لأبنائنا: إن هذه الأعمال محرمة بمقياس الشرع لا بمقياس فرنسا، والجهاد في سبيل الله لا يكون إلا وفق شرع الله، والجهاد إنما تقوم به جماعةُ المسلمين وليس جماعة خارجة على المسلمين، وداعش إن كانت تجاوزت الشرع في فرنسا فقد تجاوزته بأكبر وأكثر في بلاد المسلمين، وإن قتلت في فرنسا مئة فقد قتلت في المسلمين ألوفا، فلا تغرنكم داعش، ولا يغرنكم بالله الغرور.

اللهم ألهمنا رشدنا وقنا شر أنفسنا واهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم. ا.هـ.

وقد كان وقع هذه المقالة -بحمد الله- حسناً، والتفاعل معها مؤيداً في مجمله، ولم يستطع الجيش الداعشي الإلكتروني تجريفها أو الشغب عليها، وشعرت أن المساحة الواسعة من الناس مصيخة لصوت النقل والعقل، ولكن الانفعال العاطفي يعمى ويصم.

سنام الإسلام

قبل أن تطوى صفحة الجهاد الأفغاني بدأ يريبني من أمر هذا القتال ما يريبني، فذهبت إلى الشيخ عبد الله الزايد رحمه الله وكان أحد المساندين له، وله زيارات إلى قياداتهم في أفغانستان، وسألته عن دور أمريكا في هذا القتال وهل لها مساندة للمقاتلين؟ فقال: نعم، فقلت: ولكنهم ينكرون ذلك! فضحك وقال: ربما كان بعضهم لا يعلم، وبعضهم لا يريد أن يعترف، وهل تظن أن باكستان يمكن أن تؤويهم وتفتح حدودها لهم لولا الغطاء الأمريكي؟!

ولا مشكلة في أن تكون حليفاً، ولكن المشكلة أن تكون أداة.

وبدأنا نشعر أن الثمن كان باهظا جداً، وأن خسائر الأرواح المليونية وخسائر الأموال المليارية كانت أضخم من هذا النصر المنقوص، وأن السبب هو الدخول في معركة غير متوازنة، وأن القتال الأفغاني ليس سبب انهيار الاتحاد السوفيتي ولكن العكس صحيح، فتداعي البناء السوفيتي هو ما عَجَّل بانسحاب الروس.

وحدثني أستاذي زين العابدين الركابي رحمه الله أنه بعد انسحاب أمريكا من فيتنام بخسائرها الفادحة وهزيمتها المذلة، سئل أحد كبار القادة الأمريكان: هل معنى ذلك أن أمريكا لن تتدخل في حروب خارجية بعد ذلك؟ فقال: هذا لا يمكن ولكنها ستكون حروباً بلا جثث أمريكية.

وتساءلت: هل كانت أمريكا تقاتل الاتحاد السوفيتي بجثث المجاهدين الأفغان؟ وهل كان ثَمَّ من يقاتل أمريكا بجثث طالبان؟ إنه مجرد تساؤل أطرحه لا أفترضه ولا أدعيه، ولكنا نعلم أن للاستخبارات العالمية لعبتها القذرة الغادرة، فكثيراً ما يشتعل القتال ثم يقطف ثمرة النصر طرف آخر متربص، كما قاتلت الجيوش العربية مع الحلفاء في الحرب العالمية الأولى لتُكَوِّن دولة عربية موحدة، فإذا بها تخرج من المعركة مستعمراتٍ ممزقة تقتسمها الدول الكبرى كغنائم.

ومثل ذلك حال المقاومة في العراق والتي كانت مواجهة لتحرير البلد من الاحتلال، ثم صبت نتائج حربها وانتصاراتها في كيس نظام الملالي الطائفي في إيران، وأذرعها الطائفية في العراق وسوريا، وكان رجل الاستخبارات السوري أبو القعقاع يخب ويضع في السعودية يجند الشباب للجهاد والاستشهاد في العراق حتى قبضت عليه الأجهزة الأمنية وأبعدته إلى بلده، ثم تمت تصفيته من قبل النظام هناك لانتهاء صلاحيته، ولأن الموتى لا يتكلمون.

إن أهل أي بلد إذا تعرضوا لعدوان اكتسح أرضهم فإن دفاعهم عن بلادهم ومدافعتهم لعدوهم هو قانون كل القوانين، وشريعة كل الشرائع، ونعلم أنه لا يوجد نصر ناعم بلا تضحيات وشهداء، وحتى معركة بدر -وهي يوم الفرقان- كان لها شهداؤها وجراحاتها.

﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَ﴾ ، ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥ﴾ .

ولكن شتَّان بين تضحية هي ثمن النصر المدروس، وبين خسائر هي ثمن المغامرة الفاشلة غير المحسوبة، ولذا فلا بد من رعاية مقصد كل مدافعة بأن تكون مما يحقق المقصود في دحر العدوان وتحرير البلد، لا أن تحقق هدف المعتدي وتُدَمَّرَ البلد وتُفْني أهله، وأن نعلم أننا لا نعيش في كوكب وحدنا ولكنا في عالم صاخب بالعداوات

والمكائد، وأن أعداءنا يخططون قبل أن نفكر، فأين موقع ما نعمله مما يكاد لنا؟ وهل ما نحاوله يحقق ما نطلبه أم يسوقنا إلى فخٍّ أُعد لنا؟

وإذا كان لأهل البلد حقهم في المدافعة عن عدوان فُرِضَ عليهم فما العذر لمن يستنفرون الشباب من بلادهم ويزجون بهم في هذه المحارق، فلأهل البلد معرفتُهم بها ولياقتُهم لها، أما هؤلاء فقد كان ذهابهم جناية عليهم وعلى البلاد التي ذهبوا إليها، فأربكوا أهل البلد، وخلطوا الأوراق، وكَوَّنوا جماعات داخل الجماعات، ونبتت أفكار الغلو والتطرف في هذه البيئات القتالية المنفلتة.

وأذكر أنه بعد نهاية القتال في أفغانستان وعودة الشباب المقاتلين هناك إلى بلادهم، تذاكرت مع أخي الشيخ سعد البريك عن أهمية احتوائهم، واتفقنا على الخطبة عن الموضوع، فألقيت خطبة في أهمية عودة هؤلاء الشباب إلى مسار الحياة الطبيعي، وتأهليهم عِلمياً، واحتواءهم في مسارات العمل الجاد، بدلا من تكتلهم في مجموعات داخل البلاد يمكن أن تُستغل في عمل مدمر، وانتشرت هذه الخطبة حينها وسميت: «إما الكلاش وإلا فلا».

كما أنه صار لي بعد تلك التجربة المريرة في أفغانستان موقف من كل حرب تواجه دولاً من خلال جماعات وعصابات، وصار موقفي واضحاً إلى درجة التألق أني أَحْذر وأُحذِّر من كل مواجهة غير متوازنة مع الأعداء، فنحن نعيش في عالم الأسباب وليس في عالم المعجزات، وأن الجهاد ليس مبادرات فردية ولكن قرار دولة، وأن الجهاد لا يكون إلا بإعداد قوةٍ مُرهبة، وليس بالتسول وجمع التبرعات، وأن قرار القتال لا تفتات به مجموعة أو جماعة تورط البلد ثم تطالب الأمة بنصرتها، وأن دماء المسلمين غالية وثمينة ولا يجوز المغامرة بها بلا بصيرة.

ولذا كنت مستعلن الرأي ضد استنفار الشباب إلى الشيشان منذ بدايته وإلى نهايته، وأن الزج بدولة صغيرة لتواجه آلة الدمار الروسي تهور وقلة بصيرة، ومع ذلك

كان التجييش لهذه الحرب يتم في مدننا وقرانا، ويطار بالشباب إلى هناك ليتورطوا ويورطوا أهل البلد معهم.

والتقيت بشيخنا جعفر شيخ إدريس حفظه الله وذاكرته في هذا الأمر فوجدته على هذا الرأي وقال لي: أنا سافرت إلى الشيشان بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، فوجدت البلد بعيداً عن الدين، قد حجبه عنه سبعون سنة من التغييب أيام الشيوعية، ولا أظن الذين يؤدون الصلاة هناك يبلغون (٢٪) من الشعب، فكيف نترك عمود الإسلام ونذهب بهم إلى ذروة سنامه؟ فزادني نوراً على نور.

وبينا أنا في بيتنا في حي الروابي إذا بمجموعة شباب من القصيم يأتون إلي فجلسوا عندي وجعلوا يبشرونني أنهم سيذهبون إلى الشيشان لنصرة المجاهدين هناك، وأن بشائر النصر قريبة، فبدأت أناقشهم وأجادلهم، فإذا بهم يفتحون خريطة تمثل الشيشان وداغستان وأفغانستان، وجعل أحدهم يشرح لي عليها أننا إذا حررنا داغستان والشيشان اتصلنا بأفغانستان، وانطلق يشرح بسذاجة غريبة وكأنه مقاول بِناءٍ يقول: نفتح هذه الغرفة على الصالة، ونجعل النافذة هنا، والباب هناك.

فصدمت بهذه السطحية، ثم احتد النقاش فقاموا غضاباً ورجعت غضبان أسفا.

وأحسب أنهم ذهبوا ولم يعودوا فالله يغفر لهم.

حوارات ساخنة:

ودعاني مجموعة من الشباب إلى استراحة كعادة اجتماعات الشباب التي ندعى إليها، ويطلب منا الحديث فيها، ففوجئت بجمع من القتاليين قد سيطروا على الاجتماع وصاروا يتكلمون بنشوة عن القتال في الشيشان بطريقة فيها اندفاع وسطحية كعادتهم، وإذا بأحدهم يقول بنشوة: يا إخوان من كان يصدق أننا بالأمس نقاتل روسيا في أفغانستان، والآن نقاتلها في الشيشان، وسنطرق أبواب موسكو قريباً، فلم أشأ أن أبدأ الحديث، وآثرت الصمت حتى يُطلب مني، فلما رأوا وجومي دعوني للحديث

فتكلمت بشيء من الهدوء عن توازن القوة، وأنه لا جهاد إلا بإعداد، وقوة متوازنة قوة مع العدو، وأن دماء المسلمين غالية لا تهدر في مغامرات، فقاطعني أحدهم وهو يقول: كم عدد المسلمين يوم بدر؟ وكم عدد المشركين؟ ففرحت بهذا الاعتراض وقلت: أحسنت، هنا ينبغي أن نقف، وأن يكون قدوتنا فيما نأتي ونذر هو نبينا ﷺ، وأن نعلم أننا على الهدى ما دمنا نسير على هداه، فأنسوا جميعاً بهذا الكلام، فقلت: كم عدد المسلمين في بدر؟ قالوا: (٣٠٠)، وكم عدد المشركين؟ قالوا: (١٠٠٠)، فقلت: لنذهب إلى معركة أخرى بعد بدر هي بهذه النسبة تماماً، وهي معركة الخندق كان عدد المسلمين: (٣٠٠٠)، وعدد المشركين: (١٠,٠٠٠)، ومع ذلك أبقى النبي ﷺ المسلمين في المدينة ولم يخرج بهم للقتال، وتحصن بالخندق، فلماذا لم يقاتل كما قاتل في بدر؟ هل هو لغز محير، أم أن السبب واضح وهو قلة عدد المسلمين بالنسبة لعدوهم؟

أما معركة بدر فإن النبي ﷺ خرج بأمر من الله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾، ودخل المعركة بوعد من الله: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ﴾.

فهل مع أحد من المغامرين اليوم هذا الأمر وهذا الوعد؟

وقيل لي: أين أنت من قوله تعالى عن جند طالوت: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾؟ فقلت: وأين أنتم من قوله تعالى عن أهل الكهف، وهم الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدى، ومع ذلك كان قرارهم الهرب من قومهم والاختفاء في الكهف، وعدم مواجهة قومهم بعددهم القليل؛ لأن المواجهة ستكون محسومة للطرف الأقوى، ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾، فلماذا نؤمن ببعض الكتاب ونعرض عن بعض؟!

وبسطت لهم الأدلة التي أذكرها وأكررها في مثل هذا الموقف وهي كثيرة واضحة الدلالة، فشعروا أنهم أمام دلائل ظاهرة قاهرة، فقالوا: نحن لم نقتنع بكلامك، ولكن

نقول لك كما قال ﷺ: «**إن من البيان لسحراً**»، وكان واضحاً أنهم لم يجدوا في ساحة الحوار العلمي مساغاً لرأيهم فاختاروا استخدام الغازات المسيلة للدموع.

وانتهت بعد ذلك المواجهة في الشيشان إلى تحويل البلد إلى مستنقع دماء، وركام دمار، فهل من مُدَّكر؟

وفي عام (١٤٠٦هـ) تلقيت دعوة من أخي د. مسفر القحطاني لإلقاء محاضرة في مدينة الدمام، فاخترت أن يكون عنوانها: «الجهاد النبوي»، وتطرقت لإعداد العُدَّة وتوازنها وعدم جواز اقحام المدنيين في الهلكة وجرجرة الشعوب إلى مواجهات لا يطيقونها، وأهمية المحافظة على دماء المسلمين وعدم تعريضهم للإبادة والدمار.

ففوجئت بالاستنكار من كثير ممن حضر، فقلت لهم: لقد كان النبي ﷺ في عمرة الحديبية مستعداً للقتال ومعه ألف وأربعمائة مقاتل هم أكثر من جيشه في بدر وفي أحد، وكانوا مسلحين بكامل عتادهم، ومتشوقون للمواجهة والجهاد، فأنزل الله أمره لنبيه بالكف عن القتال، وجاء الصحابة إلى رسول الله ﷺ يقولون: ألسنا على الحق؟ أليسوا على الباطل؟ فَلِمَ نُعطِ الدنية في ديننا؟ فقال لهم: «**إني عبد الله ورسوله، ولا أفعل إلا ما يأمرني به**»، فرجعوا وفي نفوسهم أسى وحسرة أن صُدُّوا عن البيت ولم يُؤذن لهم بالقتال، ولم يدع الله حكمة أمره لهم بعدم القتال سراً لا يعلمه أحد، ولكن نزل الوحي يبينه بجلاء: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡىَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٌ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤۡمِنَٰتٌ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۖ﴾.

فكانت الحكمة الإلهية من كف يد الرسول والمؤمنين معه هي حماية المؤمنين المستضعفين في مكة أن يُقْتلوا في هذه المواجهة، لأن المؤمنين لا يعرفونهم، فكف الله أيديهم عن القتال محافظة على هذه الفئة القليلة المؤمنة المستخفية.

فأين هذا من تعريض شعب فقير أعزل إلى آلة الدمار والابادة على يد عدو لا يرقب في مؤمن إلاًّ ولا ذمة، ومع وضوح دلالة النصوص الظاهرة إلا أن فئة منهم لجأت إلى أسلوب حرب العصابات بإثارة دعاوى خارج الاستدلال، من مثل: هذا تعطيل لشعيرة الجهاد، وهل ننتظر خروج المهدي أو نزول عيسى بن مريم؟! وكأن القسمة ثنائية إما أن ننتظر أو ننتحر.

وهكذا كان موقفي متحفظاً من هذه المواجهات، ومحذراً من النفير إليها، وكتبت مقالاً عند بداية المواجهة مع الجيش الأمريكي في العراق بعنوان: «هل أذهب إلى الفلوجة؟»، حذرت فيها من الذهاب إلى هناك.

ومثل ذلك حدث في الثورة السورية، فعندما حملت السلاح، شعرت أن النظام ألجأها إلى مربع القوة بالنسبة له ليضمن التفوق والحسم، وكان شيخنا عبد الكريم بكار حفظه الله يحذر ويقول: تحرير سوريا شبراً شبراً يعني تدمير سوريا شبراً شبراً، وهكذا وقع كما حذَّر، فقد حرِّرت بعض المناطق ثم كانت النتيجة الانسحاب منها بعد أن صارت دماراً وركاماً، وأشلاء تحت أنقاض.

وكنت أُحذِّر من يستشيرني للذهاب إلى هناك، وتهيأ أحد الشباب من أقاربي للذهاب لسوريا فدعوته إلى الغداء في أحد المطاعم وجلسنا من بعد صلاة الظهر إلى ما بعد صلاة العصر في حوار هادئ، ذكرت له فيه خبرتي، ورصدي لهذه المواجهات منذ بداياتها، وذكرت له الأدلة بكثير من الهدوء والبسط والمحاورة، فتزلزلت قناعته وأجَّلَ الموضوع ثم صرف عنه النظر، واليوم أكمل حفظ القرآن، ويُحضر للدكتوراه في الفقه، ويحمد الله أنه لم يكن وقوداً في حريقِ فِتنة، يَقتلُ فيها مسلماً أو يَقتلُهُ مسلم.

وبقي هذا الموضوع مما يوترني ويثيرني، وأشعر عند طرحه بكمد وحسرة على خسائرنا الفادحة المتوالية، وكيف لم تُحنكنا التجارب، وصرنا نعاود تجربة الفشل مراراً وتكراراً، ونلدغ من الجحر الواحد مراراً لا مرتين، وصرت إذا تكلمت في هذه

القضية رُفع عني القلم لشدة التأثر ومضاضة الألم والقهر على خسائرنا من أبنائنا وإخواننا، واستمرارنا في الانتحار باسم الجهاد.

وقد وجدت أن القتاليين لا يعوزهم التبرير عند التغيير، وأن الحدية التي يتحدثون بها عند الهجوم تتحول إلى تأويلات سيالة إذا احتاجوا إلى تغييرها، وهكذا يكون عندما تختلط الآراء بالأهواء.

والدافع لكثيرين منهم هو الاحتساب وحُبُّ الجهاد والاستشهاد المشوب بالجهل وقلة الفقه، وهؤلاء الصادقون هم وقود الحرائق، لما فيهم من بساطة وطيبة.

ولكن فريقاً منهم دافعه حبُّ المغامرة، لا يختلفون في ذلك عن زعماء العصابات الإجرامية والذين يوغلون ويخاطرون، ولا يجدون أنفسهم إلا بالعيش على حافة الخطر.

ومنهم من يدخل هذا الطريق لأنه يجد في القتال نوعاً من الشغف والمتعة كما يجدها أصحاب مغامرات الخطر مثل تسلق الجبال، ومتعة صيد الحيوانات المفترسة، فهو لديهم مجرد هواية خطرة.

وهذه دوافع مستكنة في النفوس نُشخصها ونَصفها ولا نُعَينُها في أحد بعينه، ولا تظهر هذه الدوافع ولا تستعلن؛ ولكنها من الشهوات الخفية غيرِ المستعلِنة، وتستتر خلف ستار الجهاد والاستشهاد، وربما التبست على المصاب بها نَفسِه، فلا يكتشفها إلا بتجرد ومحاسبة، وصِدقٍ مع الله في سؤال الهداية والسداد، ولذا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لعَلِي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**قُلِ: اللهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي، وَاذْكُرْ، بِالْهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ، سَدَادَ السَّهْمِ**».

وأظهر دليل على غلبة الهوى على الرأي إعراض كثير منهم عن استبراء الرأي الصحيح، والتحقُّقِ منه، وبذل ما ينبغي من الجهد في التأكد من جواز ذلك بما يتناسب

مع خطورة الأمر، ولو سألت أكثرهم: ما الجهد الذي بذله في تبرئة ذمته، وتحقيق الراجح مما اختاره؟ لوجدت أنه لم يبذل جهداً يذكر، فلم يقرأ كتابا لعالم راسخ، ولم يسأل علماء تبرأ الذمة بالرجوع إليهم، وإنما تبع أشواقه وما تهوى نفسه.

وفي نفسي حسيكة كنت أضمرها، وأحسب أنه آن الأوان أن أتجاهر بها، وذلك أني تأملت في حال بعض زعمائهم فوجدت فيهم خصلة من خُلقِ إبليس لعنه الله، فإنه عندما وقعت عليه اللعنة وأيقن بالهلكة جعل مشروعه إغواء من استطاع من بني آدم ليشاركوه مصيره الذي هوى إليه، وهكذا ترى الآن أشياخاً لهم مردوا على الضلال ما زالوا يزايدون على مشروعهم القديم ويوغلون فيه، وكأن رسالة أعمارهم نشر الدمار والتوحش، واستغواء من يمكن استغواؤه، وإحراق ما يمكن إحراقه، وإلا فهل يُعقل أنه بعد كل هذه التجارب المريرة، وركام الدمار الهائل لم يتضح لهم إلى الآن خطأ التجربة، وفداحة الخسارة.

إن الخطأ يتضح بأقل من ذلك، ولكنهم دخلوا نفقاً لا يريدون أن يرجعوا فيه، أو يظهروا أنهم تراجعوا عنه.

وعندما تحدثت بهذا الخاطر مع أحد إخوتي الذين لهم تماس بهم ومعرفة لحالهم قال: وهل تظن أن من أغوى شباباً أغراراً كانوا في حلقة تحفيظ وقادهم جميعاً إلى المحرقة، وظهر وتظاهر على أنه شيخ من شيوخ الجهاد، هل تظن أنه بعد كل هذا سيعترف بخطيئته تلك؟ إنه سيظل إلى النهاية يبررها ويستثمرها فهي تاريخه.

والعجب أن هؤلاء الذين يشعلون الحرائق هم من يتحاشون الحريق، ويرمون الناس في الهلكة ويفلتون من الهلاك.

وقد أخبرني أحد إخوتي وقد ابتلي بالسجن معهم في سجن الحاير بالرياض، وحاورهم وطاولهم فيه، فرأى حالهم وعرف منها ما لا يعرفه غيره لطول الخلطة والمحاورة، فقال لي: إن الخوارج كانوا خيراً منهم حالاً، وليس فيهم من صفات الخوارج إلا الولوغ في الدماء وتكفير المسلمين، وأما صفات الخوارج التي يتميزون بها كصدق الحديث، والاجتهاد في التعبد فما رأيت معهم منه شيئا، فهم يتأولون في

الكذب، وأما العبادات والاجتهاد فيها فما رأيت فيمن رأيت من شموا لها رائحة أو ذاقوا لها طعما.

وقال لي: كثيراً ما كنت أسألهم عن معرفتهم بالمناطق التي يذهبون إليها من حيث الواقع السياسي والاجتماعي والديني وغيره، وما هي الأولويات في هذا البلد؟ فأفاجأ بأن المعلومات لديهم معدومة، وأنهم كمن يقفز في الظلام، وأن أهم الأولويات لديه أن يذهب إلى قتال فيُقتل هناك، وبذا يختصر طريق الحياة وطول المجاهدة فيها، وسيرتقي بذلك إلى منازل الشهداء.

وسواء انتهى البلد بعده إلى عمار أو دمار، وحفظت دماء الناس بذلك أم سفكت، فهذا ليس من مقاصدهم وليس في مناطق تفكيرهم.

وفي إسطنبول التقاني بعض الطيبين وأخبرني أنه يعرف أحد شيوخ القتال المستخفين العابرين، وأنه سيمكنني أن أحظى بفرصة زيارته، وكان يتكلم وكأنه حاجب الخليفة، فقلت له بلطف: أرى قبل ذلك قراءة ما كتبتُه عن الجهاد في كتابي «سنام الإسلام»[1]، وأعطيته نسخة إلكترونية منه، فكان هذا آخر العهد به، ثم لقيته اتفاقا بعد ذلك، فضحك وقال: أين أنت وأين نحن؟ وأين طريقك وأين طريقنا؟ عَمْرَكَ الله كيف يلتقيان؟

وكتاب «سنام الإسلام» هذا هو ما كتبته عن حصيلة حواراتي معهم، ونظراتي في التباسات هذا الموضوع ومزالق الفهم فيه لديهم، حسب جهدي واجتهادي، يسر الله إخراجه والنفع به، وإذا لم نؤتَ الحكمة في البدايات فلا أقل من أن نكون حكماء ما بعد التجربة.

---

(١) صدر كتاب «سنام الإسلام، نظرات ومراجعات في التجارب القتالية» بمراجعة جمع من المشايخ والدعاة عام (٢٠٢٢م).

علمتني الحياة

١- أن فعل الخير ومواضع الإحسان فرص إذا لم تسارع إليها سُبقت لها، وأنها طرائد سريعة إذا لم تقتنصها أفلتت منك.

ولذا فإن سعادتي تتجدد بكل فرصةِ خيرٍ أدركتها في وقتها وظفرت بها قبل أن تجاوزني أو تفلت مني.

كما تتجدد حسرتي على فرص خيرٍ كانت متاحة لي فلم أسبق إليها ففاتتني وأدركها من هو أحق بها مني.

فإذا وافتك فرصة فعل معروف وإحسان تقدر عليها فإياك أن تتراخى فتفلت منك، وثق يقينا أنك لن تندم إلا على خسارتك حين تفوتك.

وتذكرت قصة حكاها لي جدي عن الشيخ محسن الفرم شيخ قبيلة حرب أنه قال له: «يا ولدي المعروف مثل الذاهبة -الشيء الثمين المفقود- اللي يدورونها واجد، واللي يلقاها واحد».

والعامة في الحجاز يقولون: المعروف صيدة، أي تحتاج إلى يقظة وسرعة في اصطيادها.

ومن الأمثلة المشرقة على ذلك حديث كعب بن مالك حين نزلت توبة الله عليه

فجاء إلى النبي ﷺ وحوله أصحابه، قال: «فدخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام لي أحد من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة».

فانظر إلى يسر هذا العمل وهو سبق طلحة إلى التهنئة، ومبادرته إلى تلقيه كيف بقي خالداً في ذاكرة كعب بن مالك يذكره بعد أربعين سنة، فيقول: «ولا أنساها لطلحة».

إنها براعة اختطاف فرص المعروف.

٢- علمتني الحياة أن العداوات والأحقاد إنما تكبر وتتضخم في قلوب الفارغين لها، وأما المشغولون بأهداف كبيرة وإنجازات ضخمة فإنها تضمر في حياتهم، وإن عرضت لهم فإنهم يتجاوزونها سريعاً ولا يستصحبونها، فلديهم من المهمات ما يشغلهم عن التفكير فيها، أو اجترار ذكراها.

وهذا ما يشع لك بإبهار من حياة النبي ﷺ حيث تجاوز كثيراً من العداوات ومرارات الأذى، فلم يستصحبها ولم يشتغل بها، ومما أعانه على هذا الخلقِ العظيم انشغالُه بالأمور الكبار وهي استنقاذ البشرية، وبلاغ رسالات الله، ولذا انكمشت عداوة أبي سفيان أو عبد الله بن أبي في مساحة اهتماماته الواسعة العظيمة.

إن أعظم جسر تعبر عليه فوق الشحناء والبغضاء والعداوات والأحقاد هو انشغالك بما هو أهم وأجدى من أعمالك وإنجازاتك.

وكم أرثي لأولئك الذين إذا تقاعدوا وفرغوا لم يجدوا ما يقضون به بقية العمر إلا فتح الملفات القديمة، واستدعاء أرشيف الخصومات التافهة، والتي فاتت وماتت وصارت رفاتا، فيجترون خلافات، وذكرى خصومات قد مات أصحابها وشبعوا موتا، ولم تطفح تلك الذكريات إلى سطح اهتماماتهم إلا بسبب فراغ حياتهم مما هو أهم وأجدى.

٣- تعلمت أن أنظر إلى الناس من أفق الاتفاق الواسع وليس من ثقب الخلاف الضيق، وأن أتعامل معهم وفق نظرية الجمع وليس نظرية الطرح، وهي نظرية لعل من عبر عنها هو الدكتور عبد الوهاب المسيري، وفصلها في مقال رائع أخي الأستاذ المحامي عبد العزيز بن محمد القاسم، وخلاصتها أن من تعامل مع الناس من خلال مساحة المتفق عليه بينه وبينهم وهي علاقة الجمع، اتسعت مساحة علاقاته وإنجازاته، ومن تعامل معهم من خلال ما يختلف وإياهم عليه فاستخدم قانون الطرح وهو استبعاد كل من لا يتفق معه تقلصت مساحة علاقاته حتى لا تتسع إلا لموضع قدميه.

ولذا نجد أصحاب المساحة الواسعة في الإنجاز إنما ينظرون لغيرهم من مساحة المتفق عليه الواسعة، ويجعلون المختلف عليه في حجمه الطبيعي.

وأما أصحاب قانون الطرح فلا يذكرون أحدا إلا بما يختلفون هم وإياه عليه، ولذا تضيق علاقاتهم وحياتهم، وتضمر إنجازاتهم إن كان لهم إنجازات.

٤- علمتني الحياة أن أنظر إلى المساحات المشرقة، فعلمت أنها مساحة واسعة في نفوس الناس، وأن النظر إلى الناس من زاوية الخير فيهم يرفع الفأل، ويحفز على العمل والإنجاز، ولذلك أحرص على الاستماع إلى المتفائلين، ولقاء أصحاب المشاريع الخيرية، والأعمال والإنجازات التي تتفاعل مع مساحة الخير في النفوس، فأري الخير وأعرف الناس من خلال الخيرين منهم.

وعلمت أن الذي ينظر إلى النقاط المعتمة تمتلئ نفسه بالظلمة وسيئ الظنون، ويكون كشرطي الأمن الذي لا يعرف الناس إلا من خلال الجريمة والمجرمين، مع أن في الحياة من الخير والأخيار مساحة واسعة، فإذا وجهنا النظر إليها صار تفاعلنا معها وحياتنا متصلة بها.

٥- تعلمت أن المسامح هو الغانم الأول والرابح الأكبر، فإن هذا العمر القصير أقصر من أن نقصره بذكر العداوات السابقة، والانشغال بالخصومات الحاضرة، وأنَّ

تجاوز أي خصومةٍ وخلاف وإنهائه سريعاً، واحتوائه قبل أن يكبر غنيمة ينبغي أن تقدم لها ما يسميه غيرك تنازلات، لكن أرباحها من راحة البال والفراغ للأهم أجدى وأولى.

أما إن انشغلت بالتفكير فيمن تراه أساء إليك أو قصر في حقك، فاعلم أنك تتآكل من داخلك في حين يعيشون حياتهم ويلهون في الخارج من غير أن تكرثهم، واحذر من مثل كلمات المتنبي المضللة.

كل عفـــو أتـــى بغيـــر اقتدار   حجـــه صائـــر إليهـــا اللئـــام

بل اللؤم هو خزن الأحقاد في الصدور، واستصحاب العداوات القديمة وتجديدها.

واحذر أن تعيش الخصومة مرتين، مرة حين وقوعها وهذا لا يكاد يسلم منه أحد، ومرة أخرى حين تتذكرها وتعيد مواجهتها فتوقظ آلامها وتهيج أوجاعها، مع أنها مضت وانتهت، وجد بعدها في حياتك ما هو خير لك وأبقى.

والعفو كله كسب لك، فهو عمر تربحه، وطاقة تستثمرها، وسيلح عليك الشيطان أن تهدرها لتحقق نصرا صغيرا، وسوف تعلم حين تتجاوزه أنه كشجار الأطفال.

وانظر إن شئت إلى حيوات المشغولين بتصفية الحسابات مع الغير، وأخذ الثارات منهم وسوف تجدها حياة مجدبة من الإنجازات، موحشة بالعداوات، ليست هانئة ولا مثمرة، ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، و﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

قال ابن تيمية رحمه الله: العبد إذا اشتغلت نفسه بالانتقام ضاع عليه زمانه، وتفرق عليه قلبه، وفاته من مصالحه ما لا يمكن استدراكه، ولعل هذا أعظم عليه من المصيبة التي نالته من جهتهم، فإذا عفا وصفح فرغَ قلبُه وجسمُه لمصالحه التي هي أهم عنده من الانتقام[١].

(١) «جامع المسائل» (١/ ١٧٠).

٦- علمتني الحياة أن الوقت أغلى ما فيها فصرت أجتهد في استثماره، وأشح بإهداره، ونفعتني كلمة سمعتها من أخي محمد بن الدحيم: اشتر وقتك بدرهمك.

ولما انكسر قلم محمد بن سلام البيكندي في مجلس شيخ يكتب عنه الحديث نادى: قلم بدينار، فطارت إليه الأقلام[1]، فاشترى وقته ذهابا وإيابا وما يفوته من العلم في ذلك بهذا الدينار.

أعدت تقييم كثير من الجهد الذي يبذل لتوفير مبلغ من المال فإذا ما يهدر من العمر أثمن منه، وما يفوت من الإنجاز أغلى منه، ووجدت أربح تجارة هي شراء عمري بمالي، وأن أعمل ما أحسنه وأعشقه، وأعهد إلى غيري بما يحسنه، ومهما أعطيتُ مقابل ذلك فليس أغلى مما ربحتُ، وكم أُشفق على ذلك الذي يتجول في السوق من أقصاه إلى أقصاه يبحث عن أرخص سعر يشتري به حاجته، هل يدري أنه أنفق من عمره ما هو أغلى مما وفر من ماله.

قال الحسن: أدركت أقواماً كان أحدهم أشح على عمره منه على ديناره ودرهمه.

٧- ومن الفوائد الثمينة التي أفدتها من مذكرات إحسان عباس ما ذكره أنه كان يحس أنه سيموت قريباً، وأن هذا حفزه للإنجاز العلمي، ولذا خلف رحمه الله تراثاً علمياً ضخماً ومتنوعاً ونوعياً، تتقاصر عنه الهمم، وتقصر الأعمار.

وقد أفادني هذا كثيراً في تقصير الأمل، وإنجاز العمل، وعلاج التسويف، ووجدت أن أفضل وصفة للإنجاز التعبدي أن تفترض أن هذا هو آخر يوم في حياتك، وأفضل وصفة للإنجاز العِلْمي أن تفترض أن هذه هي آخر سنة في عمرك، فتنجز الأهم من المهمات، وأن هذه أفضل طريقة تحفز على استغلال أيامِ العمر ونعمةِ الصحة والفراغ.

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٦٢٩).

٨- نفعتني كلمة قرأتها لستيفن كوفي كنت أطبقها قبلا بمعناها وهي: التركيز على دائرة التأثير وليس على دائرة الاهتمام، وذلك أني رأيت استهلاك أوقات كثيرين في الحديث عن اهتماماتهم الرياضية أو السياسية، وإضاعة الأوقات الطوال في الجدل، وادعاء المعرفة، واكتشاف المؤامرات المتوهمة، وصناعة السيناريوهات المستقبلية، وهي مساحة كلام لا أفعال، ولو سألت ثم ماذا يترتب على ذلك في حياتنا ونشاطنا نحن، وما دورنا العملي في ذلك لم تجد جوابا، وللشيخ عبد العزيز الطريفي مقولة جميلة: «الأخبار محرقة الأعمار»، ولذا تجافيت عن الخوض في هذه الأمور إلا بقَدَر، وجعلت التركيز على منطقة التأثير، والمذاكرة فيما قرأت وتعلمت، أو فيما أكتب وألقي، أو فيما ينبغي عمله ويمكن أن أشارك فيه، وحرصت على تنقية مجلسي من الغيبة، أو الجدل السياسي، فالكلام في السياسة يحرق الأوقات، والغيبة تحرق الحسنات، ونحن أحوج ما نكون إلى أوقاتنا وحسناتنا.

٩- تعلمت أن أعطي أي قضية حجمها الطبيعي ولا أجعلها تطغى على ما هو أكبر منها وأهم، وذاك أني رأيت بعض من أعرف تضخمت بعض القضايا عنده حتى ابتلعته، فتاه في أنبوب، وغرق في فنجان، ولو رفع رأسه قليلا لوجد ما يحيط به من القضايا والمهمات أكثر وأكبر.

أعرف صديقاً باحثاً ذكياً ذهب شبابه وكهولته وقضية القضايا عنده إثبات ظلم معاوية والوقيعة فيه، فتلطفت معه وسألته: لو أن مسلماً لقي الله وهو لا يعرف معاوية ولا يعرف علياً هل يضره ذلك عند الله؟

وهل انشغالنا بإثبات هذه المظلمة سيرد فائتا، أو يعيد حقاً؟

وإلى متى نظل ننبش القبور، ونرجع إلى الوراء، ونعيش في الماضي؟

وهل هذا هو أعظم ما ينقص المسلمين اليوم، وأكثر ما يحتاجونه في حياتهم؟

ولماذا لا نُشغِلُ أنفسنا بالقرآن العظيم؟ فهو وصفة الحياة والإحياء، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

ومع ذلك بقي أخي هذا متشبثاً برأيه ذلك موغلا فيه، كأن الناس إذا اقتنعوا بهذا الرأي سيتغير دوران الفلك، واحترق عمره ومواهبه في رماد هذه المعركة التي عليه غُرمها وليس له غُنمها، لو كان لها غُنم.

١٠- هناك مسائل فقهية كان الرأي فيها محسوماً لدي في مرحلة واسعة من عمري، ثم تغير النظر إليها فيما بعد، ومنها: زكاة الديون، وزكاة الحلي، وشد الرحل إلى القبر النبوي، والتبرك بالآثار النبوية، ووجوب تغطية وجه المرأة ونحو ذلك... وليس المقصود بيان أن ما كنت عليه كان خطأ ثم تبين لي صوابه، ولكن بيان أن هذه المسائل مما تحتمل الخلاف وتغير وجهات النظر، فإذا كان الشخص الواحد يتغير فيها رأيه، فتعدد آراء المجتهدين من باب أولى، فيسع فيها التعاذر وتعدد الاجتهاد، ومثلها كثير.

وذلك أن أدلتها محتملة، أما محكمات الدين وقواطع الملة فجاءت أدلتها متكاثرة قاطعة لا تحتمل خلافا ولا اختلافا.

وهكذا التجربة الفكرية تمر بتغيرات وإنضاج بمرور مراحل العمر، وأفادني ذلك توسيع النظر لمسائل الاختلاف وعدم أخذها بحسم وحدية مادام للخلاف فيها سلف، وللنظر فيها محمل، وعدم التثريب على من كان على رأي فتحول عنه إلى غيره.

١١- علمتني الحياة أن أسرع طريق للنمو هو العطاء، وأن العطاء يسير متوازيا مع التحصيل والنمو، والشخصيات النامية كان عطاؤها مبكراً ولذا كان علمها فاعلا ومتفاعلا، وحصيلتهم نامية ومتطورة.

وليس للعطاء سن يبلغه، ولا شهادة يحصلها، وإنما يعطي المتعلم مما حصله لمن هو دونه.

ورأيت ذلك في حال الشيخ ابن باز فكان وهو طالب عند شيخه محمد بن إبراهيم له دروس يعيد فيها على الطلاب المبتدئين، فكان يحصل وينفق، فزكى علمُه وبورك فيه.

ورأيته في حال الشيخ عبد الكريم الخضير والذي كان مسيرة واسعة في بذل العلم، وكثرة الدروس للمتقدمين من طلبة العلم، فدروسه هي مرحلة الدراسات العليا للطلبة.

وانطلق ابن تيمية مفتيا وهو في العشرين من عمره.

والعطاء والبذل العلمي هو أعظم محفز للبحث والتوسع وتعميق النظر والتأمل.

ومثل ذلك بذل المال والجاه لو تأملت لرأيته موجوداً في حياة من اشتهروا به في طلائع حياتهم، وبكور أعمارهم.

١٢- وتعلمت أن حياة الإنسان عندما تكون فارغة من مشروع حقيقي فإنه يضفي الأهمية على الأعمال التافهة التي يتلهى بها.

وعندما تخلو حياته من المعارك الحقيقية الكبرى فإنه يفتعل معارك وهمية مع إخوانه ومن حوله، يبحث له فيها عن دور وقضية.

وأحيانـــا علـــى بكـــر أخينـــا ... إذا مـــا لـــم نجـــد إلا أخانـــا

ولذا فنحن بحاجة إلى مراقبة اهتماماتنا ومشاريعنا؛ لتحديد ما هو المهم من الوهمي، ثم ترتيب المهمات بحسب أهميتها وأولويتها.

١٣- ذقت الغربة وجربت الاغتراب سنين عدداً، فعلمت وتعلمت أن الغربة إنما تستحكم على من يستمد مشروعه من خارجه، أما الذي ينطلق مشروعه من داخله فإنه يستصحب مشروعه ويُفعِّله حيث كان، وأصدق وصف له ما قاله شيخ الإسلام

ابن تيمية يصف حاله في غربته في الإسكندرية قال: «أنا كالشاة كيفما تقلبت تقلبت على صوف»[١]، فالذي يحمل مشروعه معه حيثما تقلب فعَّل مشروعه، وأنجز أهدافه؛ لأنها منطلقة من داخله وليست مرتبطة بمن حوله.

ومن الأمثلة القريبة شخصيات اغتربت وكان إنجازها في اغترابها، مثل: محمد رشيد رضا، وخير الدين الزركلي، ومحمد الأمين الشنقيطي، ومصطفى صبري، وجورجي زيدان، وغيرهم.

ولذا فإني أحمد الله أني لم أذق لوعة الاغتراب، ولا وحشة الغربة، بل وجدت فيها فسحة لإنجاز ما أجلته، والفراغ لما شُغِلتُ عنه، وكأنما وجدت نفسي التي ضاعت مني في زحام قضايا انكمشت أهميتها بالبعد عنها، وأخذت حجمها الحقيقي عندما نظرت إليها عن بعد.

١٤- ومما تعلمته القدرة على استئناف الحياة، وعدم السقوط في بئر المشكلة، والانغماس فيها، وإنما مغادرتها واستئناف الحياة بعدها، والانطلاق إلى المستقبل وتجاوز العثرات والإعاقات، وفي السيرة النبوية وحياة أصحاب القضايا الكبرى والإنجازات الحقيقية، نماذج رائعة من ذلك.

ومن أمثلة ذلك حال النبي ﷺ وأصحابه بعد الهجرة، فإنك لا تجد في اهتماماتهم ولا أحاديثهم ذاك الحنين إلى الماضي وذكرياته، وإنما النظر إلى المستقبل ومنجزاته، وليس فيها تحسر على فائت ولكن إنجاز للحاضر وتطلع إلى القادم، ولما رجع ﷺ إلى مكة فاتحاً قيل له: أَيْنَ تَنْزِلُ في دَارِكَ بمَكَّةَ؟ فَقالَ: «**وهلْ تَرَكَ لَنا عَقِيلٌ مِن رِبَاعٍ أَوْ دُورٍ؟**».. ونزل في الأبطح كما ينزل المسافر العابر، إن هذا يبين أن فترة مكة صفحة طويت وليس من شأنه البحث عن داره ولا مكانه ولكن إتمام مشروعه ورسالته.

---

(١) «شرح العقيدة الأصفهانية» لابن تيمية (ص١٢).

وحرَّم على المهاجرين من مكة المكث فيها أكثر من ثلاثة أيام، وكأن في ذلك إغلاقاً لطريق العودة إلى الوراء، ولذا ساروا قُدُماً، وتفرقت قبورهم في الآفاق يحملون مشروعهم ورسالتهم.

إن طريق الحياة مهما توفرت فيه الإمكانات لا يخلو من عثرات وعوائق واخفاقات، فما لم يكن لدى الإنسان اللياقة لتجاوزها واستئناف الحياة بعدها، وإلا بقي عالقاً في شبكة المشكلة لا يخرج منها، ويبيع ما بقي من عمره على ما مضى منه، يجتر آلامه ويكرر شكاته، ويتحسر على ما فاته.

أما صاحب العزيمة على استئناف الحياة فلديه القدرة على تجاوز المرحلة، وتصحيح الوضع، وتجديد الأمل، وإغلاق مرحلة واستئناف أخرى، وهؤلاء هم أصحاب الأعمار المتجددة، والمشاريع المنتجة.

ولذا فإن استئناف الحياة ساعدني على تجاوز الإخفاقات السابقة، والذكريات القاسية، فلا تسكن ذاكرتي، ولا تشوش تفكيري، ففيما أقبلت عليه ما يشغلني عما تجاوزته، ووجدت شفائي وعافية نفسي من كل ذكرى مؤلمة في الفرح بالإنجاز، والانغماس في مشروع عمل أتصدى له أو أشارك فيه.

١٥- تعلمت أن المجالس النافعة والماتعة هي تلك التي سَلِمَت من أحاديث السياسة وأحاديث الغيبة، فصار فيها فسحة وسعة للإفادة النافعة أو المؤانسة الماتعة.

أما أحاديث السياسة فهي محرقة للأوقات والمودات، لكثرة الاختلاف والشحناء فيها، مع أن الحديث فيها وإن طال وكثر ليس مُغَيراً ولا مُؤثراً.

وأما الغيبة فهي شهوة نفسية، لكنها نَهْشٌ في لحم ميتٍ لا يدفع عن نفسه، والغائب كالميت لا يستطيع الرد على ما يقال عنه: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، فهي محرقة للحسنات.

ولذا وضعت لافتة في مجلس منزلي مكتوب فيها:

نتجنب أحاديث السياسة لأنها تحرق الأوقات.

ونتجنب أحاديث الغيبة لأنها تحرق الحسنات.

ونحن أحوج ما نكون إلى أوقاتنا وحسناتنا[(١)].

١٦- وتعلمت أن الإنسان إذا تفارط عمره على يقظة ضمير فإن ما يؤلمه ليس إساءات من أساؤوا إليه، ولكن أشد منها إيلاماً ما صدر منه من إساءات فَرَطَت منه لم يبالها، كلجاجةٍ غالب عليها، أو موقف أَحرجَ فيه، أو كلمة جارحةٍ رمى بها، فبقيت هذه كلها ندوب في قلوب من تلقوها، هي ذكراهم التي يذكرونها عنه ويذكرونه بها.

وإن أشد وخزات الضمير التي أُحِسُّها اليوم تذكُّر موقفٍ لم أبادر فيه إلى الأفضل، أو كلمة خشنة قلتها لم أوفق فيها للتي هي أحسن.

يا لله كيف سأسترجع ذاك الزمان لأصحح الخطأ، وكيف سألتقي من قَصَّرت معه أو أخطأت عليه فأعتذر منه، وماذا ضر لو كظمتُ غيظاً، وقلت التي هي أحسن، كيف سأجد بردها على قلبي، ولذاذتها في نفسي حين أتذكرها؟

فإن استطعتَ أن يترحل بك العمر وأنت خال الوفاض من الإساءات الجارحة لمن جمعك بهم طريق الحياة فافعل، واحذر أن تغريك المغالبة على التشفي بانفعال متوتر، أو كلام جارح، فرب كلمه قالت لصاحبها: دعني، قبل أن يقولها، ثم لم تدعه حين قالها.

١٧- حيوية الحياة أن تستفيد أو تفيد، وشهادة الوفاة أن يتوقف نموك أو عطاؤك.

---

(١) ينظر: «الماجريات» للشيخ إبراهيم السكران.

إن التفاعل الحقيقي مع الحياة هو بالاستفادة أو الإفادة، فإذا رأيت الذين يعيشون وكأنَّما بقايا أعمارهم عبءٌ عليهم، فيحرقون أوقاتهم على مِنضَدة مقهى، أو تَصنُّمٍ أمام شاشة، أو تخوض في مجلس لغو، فاعلم أنهم أموات لم يُقبروا بعد.

١٨- علمتني الحياة أهمية الأقران في المسيرة العلمية، وأنها مرحلة مهمة في التكوين العلمي، وكما يحتاج المتعلم إلى الشيوخ في مرحلة الطلب، فكذا يحتاج إلى الأقران في مسيرة التحصيل والتكوين، ويحتاج إلى التلاميذ في مرحلة النضج والعطاء.

وكان من نعمة الله عليَّ أن جمعني بأقران أهل علم وفضل، وهمة وعزيمة، وهم وإن كانوا أقراني سناً إلا أنهم يفوقون علماً وفضلاً وقدراً، وحسبي أن أطير في سربهم وإن كنت في ساقتهم.

والأقران يفيدون كما يفيد الأشياخ، ولذا استفدت منهم كما استفدت من أشياخي وأكثر.

وأهمية الأقران لطالب العلم أنهم هم الذين يذاكرونه، ويحفزونه، ويوردون عليه ما يستثير ذهنه، وإذا ندت منه آبدة شاذة فإنه بالمذاكرة معهم يكتشف عوارها فيستعيد توازنه العلمي، لأن الأقران يجرؤ بعضهم على بعض من غير تحفظ ولا احتشام.

وكم يضر طالب العلم أن يكون ذا همة وعزيمة ومضاء، ولكنه من دون رفقة يتذاكر معهم، ويصقل حصيلته العلمية بالنقاش الجريء مع من يجرؤ عليهم ويجرؤون عليه، ولذا فإني أحسب أن ذلك من أسباب الشذوذات التي وجدت عند بعض الفضلاء الذين كان لهم همة وعزيمة فائقة ولكنهم حلقوا وحدهم فلم يكن معهم من يذاكرهم ويناقشهم، فندت منهم آراء شاذة لم تمحص بالحوار الجريء، وكثيراً ما يبدو لي مثالاً لذلك العلامة المحقق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله، فإنه على تضلعه

في العلم وتحقيقه، ودأبه في مؤلفاته الحافلة، إلا أن له فيها من الغرائب والشذوذات ما جعل الشداة من طلبة العلم اليوم يستدركونها عليه.

وأحسب أن من أسباب ذلك نشأته العملية وليس حوله أقران يذاكرهم، ولذا برز مكتملاً، وصار من حوله تلاميذ وطلاب يتلقون عنه ويسلمون له.

وقارنت ذلك بما رأيت من حال شيخنا الشيخ عبد العزيز بن باز والذي كان في مسيرته العلمية محفوفاً بأقران ذوي رسوخ علمي كالشيخ عبد الله بن حميد، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ عبد الرزاق عفيفي، وبطلاب نوابغ كالأقران، منهم: الشيخ محمد بن عثيمين، والشيخ عبد الله بن قعود، والشيخ عبدالرحمن البراك، وغيرهم.

وقد أفدت ممن صحبتهم أعظم الفائدة وأجلها، ولهم عليَّ فضل لا أنساه لهم، والله يتولى عني جزاءهم، ويجعل محبتنا خالصة له، ويجعلها خلة باقية في الدنيا والآخرة ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وممن شرفت برفقهم والإفادة منهم المشايخ الأفاضل: الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم القاسم، والشيخ عيسى السعدي، والشيخ صالح آل الشيخ، والشيخ عائض القرني، والشيخ عبد الرحمن المجيدل، والشيخ عبد الله الهدلق، والشيخ عبد الرحمن قائد، والشيخ محمد بن إبراهيم الحمد، والشيخ محمد بن ناصر العجمي، والدكتور عبد الله الصبيح، والشيخ سعد الحميد، والشيخ عبد العزيز الماجد، والشيخ سلمان العودة، وغيرهم.

وأشهد أن عبور هؤلاء الأفاضل في طريق الحياة الباكر جعله مأنوساً زاخراً، جميل الذكرى.

١٩- علمتني الحياة أن الرضا من أعظم نعم الله على عباده، ومتى ما رُزِقَ العبد الرضا عظم امتنانه لله وإحساسه بنعمه، وصارت النعمة عنده نعماً ونعيماً، يتلذذ بها ويُجدد ذكرها والاحساس بها، وشُكرَ الله عليها فيباركها الله له ويزيدها: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

وقد رأيت وعرفت مَن رزقوا هذه الهبة فرأيتهم أطيب الناس عيشاً، وأهنأهم نفساً؛ لأنهم ينظرون إلى نعم الله عليهم باغتباط وشكر، ويعيشون حياتهم بحبور ورضاً، ولا ينظرون إلى ما عند غيرهم نظر غَيرةٍ أو حسد، وأفادتني معرفة هؤلاء وصحبتهم سكينة ورضاً، وطمأنينة نفس هي من أعظم نعم الله علي.

علمتني الحياة أن أتلقى ... كل ألوانها رضاً وقبولاً
ورأيت الرضا يخفف أثقالي ... ويلقي على المآسي سدولاً
والذي ألهم الرضا لا تراه ... أبد الدهر حاسداً أو عذولاً
أنا راض بكل ما قسم الله ... ومزج إليه حمداً جزيلاً[١]

وتعلمت ... وتعلمت ... ونجحت أحيانا في الاستفادة مما تعلمته وأخفقت في أحايين كثيرة فكررت الخطأ وأعدت التجربة ولم تحنكني التجارب، فحياتي مزيج من النجاحات والإخفاقات، ولن نعرف طعم هذه إلا بذواق تلك، فنرشف صفو الحياة كما نتجرع كدرها ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾.

(١) للشاعر محمد مصطفى حمام.



مع الشيخ سلمان العودة والشيخ عائض القرني

كلمات ملهمة

هذه الكلمات ليست أحكم الحكم ولا أبلغها ولا أهمها، ولكنها كلمات سمعتها من مجربين بليغين بطريقة بليغة مؤثرة، فوقعت من نفسي موقعها، وأصبحت درسا راسخا، ولذا كثر استحضاري لها، واستشهادي بها، فأتذكرها، ومتى سمعتها، وممن سمعتها، ومنها عبارات رائعة علقت بذهني من مقابلة قرأتها أو سمعتها فتأثرت بها؛ ولذا بقيت في ذِكراي وذاكرتي، ومنها:

١- الشكور ذكور.

سمعتها أول مرة من شيخنا عبد الله بن عقيل رحمه الله.

فكما أن من اللؤم أن يذكر الإنسان إحسانه إلى غيره، فإن من الجحود أن ينسى إحسان غيره إليه، وإن من المكافأة على الإحسان أن يبْلُغَ من أحسن إليك عرفانك له وشكرك لإحسانه، وذكر إحسان المحسن من أبلغ الشكر له.

٢- نزلنا وارتحلنا، وهكذا الدنيا نزول وارتحال.

سمعتها من شيخي ابن عقيل في الطائف وهو متهيئ للرجوع إلى الرياض يتمثل بها، وتتجدد مناسبتها في كل سفرة أسافرها نازلا أو مرتحلا، وهي مُذكِّرة بحال الدنيا في النزول الأول والارتحال الأخير إلى دار البقاء.

وكما ودعنا شيخنا مرتحلا إلى الرياض، ودعناه بعد مرتحلا إلى الآخرة، وهكذا الدنيا نزول وارتحال.

٣- وقدِّم الأهم إن العِلم جَمّ والعمرُ ضيف زار أو طيف أَلَم

سمعتها من شيخي عبد العزيز بن زاحم رحمه الله يروي عن شيخه الأمين الشنقيطي كثرة تمثله بها، وهي قاعدة ذهبية في ترتيب الأولويات: إبدأ بالأهم أولاً، وألَّف فيها ستيفن كوفي كتابه «إبدأ بالأهم أولا»، وبريان تريسي «افعل الأهم وإن كان صعباً» وغيرها.

٤- الشخصية النامية.

أول ما سمعتها من أخي الأستاذ عبد الله الهدلق، وهي جملة وجيزة مكتنزة محفزة، وهي الكلمة المختصرة لحال الشخصيات العظيمة المؤثرة، متسارعة النمو، متتابعة التطور.

ويشرح ذلك وصف إبراهيم الحربي للإمام أحمد حيث قال: صحبت أحمد عشرين سنة صيفاً وشتاءً، وحراً وبرداً، وليلاً ونهاراً فما لقيته لِقَاةً في يوم إلا وهو زائد عليه بالأمس[1].

وهذا يلح على الإنسان بطرح الأسئلة على نفسه: ماذا أضفت إلى علمي؟ وإلى عبادتي؟ وإلى إنجازي؟ ماذا مضى؟ وماذا بقي؟ فلا تغرب شمس يوم إلا وقد أغلق خزانته على إنجاز، واستودعها صالح عمل.

٥- القراءة للمتعة تركتها منذ زمن بعيد.

د. محمد عمارة

(١) «طبقات الحنابلة» (١/ ٩٢).

٦- السيرة سنة باقية وليست قصة ماضية.

الشيخ محمد الراوي

٧- من بلغ الأربعين ولم ينجز شيئا قبلها فلن ينجز شيئا بعدها.

قرأتها في مقابلة مع أحد الأدباء، وهي عبارة تحفيزية أكثر منها واقعية.

٨- وعلى المقيمين خارجها مراعاة فارق التوقيت.

كلمة تتردد في الإذاعة السعودية بعد رفع الأذان حسب التوقيت المحلي لمدينة الرياض ثم يعقب المذيع قائلا: «وعلى المقيمين خارجها مراعاة فارق التوقيت»، ثم صارت مثلا لدى جيلنا يُتمثَّل بها لكل أمر يفعل في غير وقته.

٩- العلماء ثلاثة: عالم دولة، وعالم أمة، وعالم ملة.

ابن عثيمين.

١٠- العلمانيون يجعلون الدين تاريخا، والسلفيون يجعلون التاريخ دينا.

محمد مختار الشنقيطي. ومع تحفظي الشديد على وصف السلفيين بعامة بذلك، إلا أنه ينطبق على كثير من الظاهريين والقتاليين حين يجردون الوقائع من ملابساتها المؤثرة والمتغيرة، فينقل الحكم من غير موضعه وحاله.

١١- الشعراوي جعل البلاغة ثقافة شعبية.

د. محمود الطناحي.

١٢- العالم يُذاكر بأحسن ما عنده.

سمعتها من الشيخ بكر أبو زيد. أي أنك إذا جلست مع عالم تذاكره فإنه يتحفك بأحسن ما عنده من الفوائد واللطائف والملح.

١٣- العالم يقرأ ما كتبه غيره، والنبي ﷺ أمي علم الناس ما يكتبون.

ابن تيمية[١].

١٤- الأفكار كالأرانب أحضر الزوج الأول فقط.

قرأتها في كتيب عن التفكير.

١٥- الشباب خطوة إلى الموت وقد تزيد، والمشيب خطوة إلى الموت وقد تنقص.

قرأتها في بيت أحمد شوقي كتبها على ورقة أظنها علبة سجاير.

١٦- العادة ملَّاكة.

سمعتها من شيخنا محمد بن سنان، يشير إلى تحكم العادة في الإنسان وتملكها لإرادته، وهو المعنى الذي بسطه ستيفن كوفي في مقدمة «العادات السبع».

١٧- لا أحب الدخول في المعارك الصغيرة وأفضل الاستسلام فيها حتى لا استنفد طاقتي فيما لا يفيد.

د. عبد الوهاب المسيري.

١٨- مَن أَعطى العلم كلَّه أعطاه العلم بعضه، ومَن أعطى العلم بعضه لم يعطه العلم شيئه.

سمعتها أول مرة من شيخي ابن زاحم ينسبها للشافعي.

١٩- لا أعرف بعد النبوة أفضل من طلب العلم.

ابن المبارك، وسمعتها أول مرة من شيخنا محمد عوامة عند إجازته لي.

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٢٦٦).

٢٠- من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة.

كثيراً ما كان شيخنا عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله يكررها.

٢١- وكم في العرس أبهى من عروس ولكن للعروس الدهر ساعد

وهي مما سمعته منه يتمثل به كثيراً إذا أثنى على كتاب غير مشهور وقد اشتهر ما هو دونه.

٢٢- الأنوار لا تتزاحم.

وهي مما اشتهر عنه أيضا، إشارة إلى أن اجتماع العلماء والفضلاء مهما كثروا فإنه لا يطغى حضور بعضهم على بعض.

٢٣- الفرصة سريعة المجيء بطيئة العود.

سمعتها أول مرة في المرحلة المتوسطة من أستاذي حمد شبانة، وكأنما كتبها على القرص الصلب في عقلي.

٢٤- اشتهي أن اشتهي.

قرأتها عن رجل هرم سألوه: ما تشتهي؟ فقال: أشتهي أن أشتهي، فصرت أشعر بالامتنان لله عندما آكل طعاما بعد جوعة، أو أشرب ماءً بعد ظمأ، وجعلت هذه الكلمة إحساسي بالنعم أكثر رهافة وتذوقا، وإذا اشتهيت شيئاً من الطيبات أصبت منه رغبتي، فقد يأتي وقت أشتهي أن أشتهي.

٢٥- من زار أخاه فلم يطعم عنده فكأنما زار ميتا في قبره.

وهي عبارة سمعتها من أبي يستشهد بها فعلقت في ذهني، وهي تبين تأثير المشاركة في الطعام على المودة والأُلفة، وكان جدي يكرر عبارة: المؤاكلة تؤلف القلوب، وللكاتب كيث فيرازي كتاب في العلاقات، عنوانه: «لا تأكل وحدك».

٢٦- كل أرض تنبت العز وطن.

قرأتها في ختام قصة وعلقت بذهني، ثم صرت أرى شواهدها في كل من هاجروا في أرض الله الواسعة فوجدوا فيها مراغما كثيراً وسعة.

٢٧- مهما كنت لاعباً بشيءٍ، فإياك أن تلعب بدينك.

ذكرها أبو العباس القرطبي في كتابه «المفهم» فعلقت في ذهني وصرت أتذكرها كلما سمعت بعض المستهترين يتظارفون بالكلام الذي لا توقير فيه للدين، أو من جاء به، أو من أنزله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾.

٢٨- اشتر وقتك بدرهمك.

سمعتها من أخي محمد الدحيم.

٢٩- لا ينبغي لأحد عنده شيء من العلم أن يُضَيِّعَ نفسه[1].

كلمة لربيعة بن عبد الرحمن قرأتها في «صحيح البخاري» فعلقت في ذهني، ورأيتها من بليغ الحكم وجوامع الكلم.

٣٠- ليس في عمرك متسع لتتعلم من تجاربك فتعلم من تجارب غيرك.

سمعتها وأنا في المرحلة المتوسطة فحفزتني لقراءة سير الآخرين وتجاربهم، وهي تشبه الحكمة المأثورة: السعيد من وُعظ بغيره، والشقي من كان عِظَةً لغيره.

ولذا حرصت في هذا الكتاب على أن أنثر بين فصوله شيئاً مما علمتني إياه تجاريب الحياة، لعل غيري يستفيد مما أفدته منها.

٣١- ما قيمة أن نكون في مكان جميل، وليس معنا من نقول له: هذا مكان جميل.

عبارة رائعة سمعتها من الأستاذ المؤرخ عبد الهادي التازي رحمه الله.

(١) «صحيح البخاري»، بَابُ رَفْعِ العِلْمِ وَظُهُورِ الجَهْلِ (١/ ٢٧).

إن إحساس الإنسان بالفرح والجمال لا يكتمل إلا بمشاركة من يتعاطى معه نشوة الفرح وبهجة الجمال، أتذوقها كل ما كنت في مكان رائع مع من أحب، فيكتمل الجمال بالأنس، وتلك بهجة الحياة وجنة الدنيا.

٣٢- «اللهم امنحني السكينة لأتقبل الأشياء التي لا أستطيع تغييرها، والشجاعة لتغيير الأشياء التي أستطيع تغييرها، والحكمة لمعرفة الفرق بينهما».

هذا الدعاء يُعرف بصلاة السكينة، ويُنسب إلى «رينولد نيبور» وهو قس وكاتب وسياسي أمريكي توفي عام (١٩٧١م)، وقد أعجبني وعلق في ذهني وأثر في وجداني منذ قرأته أول مرة، وهو حكمة بليغة صيغت على شكل دعاء، ووجدت أثرها في حياتي، ففيه سكينة وسلوى أمام ما لا أستطيع تغييره، وفي الدعاء النبوي: «**اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء**»، وفيه تحفيز واستنفار لبذل الجهد في التغير والتطوير في مساحته الممكنة.

وثَمَّ جرس التنبيه للتفريق بين هذا وذاك.

٣٣- لا يكن التقدم الوحيد في حياتك هو التقدم في العمر.

عبارة بليغة مؤثرة، لا تحتاج إلى شرح ولكن إلى تأمل ومحاسبة، قرأتها في كتاب «عَقْدٌ فريد» لحسان حتحوت، فكانت غنيمتي الوافرة منه، وكم تذكرتها في كل حالة أحسست فيها بتقدمٍ في العمر فأقول: ها قد تَقدمت فماذا قدَّمت؟

٣٤- لا تحمل نواياك إلى قبرك.

وهي عبارة استلهمتها من كتاب «مت فارغا» للكاتب تود هنري، وأعجبت بفكرة الكتاب وبقوله: لا تذهب إلى قبرك وأنت تحمل في داخلك أفضل ما لديك، اختر دائماً أن تموت فارغاً.

وخلاصة الفكرة في تصوري، أن تبادر إلى فعل المشاريع والأعمال الخَيِّرة التي عزمت عليها، فإن لم تتمكن من فعلها فابدأ بها فلعلك تكملها أو يكملها غيرك، فإن لم تستطع فأعلنها وادع إلى عملها لعل أحداً يقوم بها فيكون لك مثل أجره.

وكثيراً ما أُمَثِّل لذلك بأناس طرحوا أفكاراً ونفذها غيرهم، ومن أشهر ذلك قصة إسحاق بن راهويه الذي اقترح فكرة جمع الأحاديث الصحيحة، فسمعها منه تلميذه الإمام البخاري فنفذها على أتم وجه في كتابه الجامع الصحيح «صحيح البخاري»، ولا أحسب إلا أنهما في الأجر سواء.

وكانت هذه الكلمة من أكثر ما حفزني إلى كتابة هذه المذكرات التي شرحت فيها مشاريعي التي بدأتها ولم أكملها، ومشاريعي التي نويتها ولم أبدأها، حتى لا يكون قبري هو صندوق أسراري.

الليلة الأولى في السجن

قضيت تلك الليلة في السجن ولن أزعم أنها كانت ليلة ليلاء، كليل امرئ القيس.

وليـل كمـوج البحـر أرخـى سـدوله علــيَّ بأنــواع الهمــوم ليبتلــي

ليست كذلك، فقد كان سجنا جماعيا في زنزانة هي قاعة تتسع لعشرين شخصا ولكن جمع فيها أكثر من سبعة وأربعين، فصارت مكان الجلوس، ومكان الطعام نهاراً، ومكان النوم ليلا.

والحمد لله أني لم أرها تستعمل لأشياء أخرى، وتتصل بها ثلاث دورات مياه وعلى السجناء أن يتدبروا أمرهم مع هذه المراحيض الثلاثة، فليجعلوا الدخول بالقرعة، أو الطابور، أو يانصيب، فلهم في ذلك الحرية كاملة، ويبدو أن هذه مساحة الحرية التي كان يتمتع بها السجناء.

تبدأ الليلة الأولى باحتفالية التعارف مع القادم الجديد وسؤاله عن سبب استضافته معهم، وما إن ينتهي من عرض قصته التي تشبه قصصهم فكلهم في السجن شرق، حتى يبدأ الحديث ينساب إلى تفصيلات أخرى يكون الضيف الجديد هو السائل، من مثل: من أنت؟ منذ كم هنا؟ أين كنت تعمل؟ من أي بلد أنت؟ وهكذا ثم يتكاسل الوقت في حركته، ويتباطأ في سيره، وتنتهي حزمة الأسئلة المعتادة والإجابات المتشابهة.

ولما حانت صلاة المغرب والعشاء صليت بهم، وفي صلاة العشاء أطلت القراءة وترسلت فيها فلم يكن فيهم ضعيف ولا مريض ولا صاحب حاجة، فتغير بعدها نوع الأسئلة الموجهة إلي، وصار الذين حولي مجموعة معينة من السجناء والذين كانوا مزيجا من أعمار متفاوتة، وبلدان متعددة، وثقافات مختلفة فألف الله بالسجن بين قلوبهم فما عادوا يشعرون باختلاف ولا تفاوت.

وجئنا لننام فإذا النوم أخو الجلوس، فراش الجلوس هو فراش النوم، وكان لكل واحد وسادتان ينام على أيهما شاء، وهما ساعداه، فلم يكن ثم وسائد إلا أيدينا، ولكثرة النزلاء كان نومنا قريبا من جلوسنا من غير اضطجاع تام ولا استغراق كامل بل هو كنوم الذئب الذي:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي ... بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

وأصبحنا غرثى جياع فلم يكن ثمَّ طعام إلا ما يشتريه النزلاء بأموالهم، أو بما يتصدق عليهم به زملاؤهم، فأرسلت مع بعض من حولي بطلب إفطار، وأوصى أحدهم بصحيفة الجزيرة أن تحضر مع طعامنا فلما حضر الطعام وأفطرنا جعلنا ننظر إلى الصحيفة الوحيدة في الزنزانة، فرجونا صاحبها أن يفرق صفحاتها علينا، ثم كثرت الطلبات فصرنا نشق الصفحتين من الوسط ويأخذ كل واحد ورقة من الصحيفة، ومن وقعت في يده الورقة فلا يمكن أن يتركها حتى يقرأ كل ما فيها: الإعلانات، والمقالات، والمفقودات، وبراءة الذمم، وحجج الاستحكام، ودعايات الشامبو، وكل مكتوب فيها فهو مقروء لنا، وتمنينا أن الصحيفة مئتان وست وسبعون صفحة، إذن لقرأناها كلها واختبرنا فيها أيضا.

وسرعان ما تكونت الألفة بعد التعارف، وصرنا نتحدث وكأننا أقارب وأصدقاء طفولة وصبا، كل هذا تكون في ليلة واحدة.

وقبيل الظهر رأيت والدي وأخي عند باب السجن.

أوووه... نسيت أن أخبركم أن هذا هو سجن المرور في الناصرية، وأني دخلته فداء لأخي الصغير حينها سليمان الذي ارتكب بسيارتي حادثا جرح فيه أحد أبناء جيراننا، وكان لابد أن يدخل السجن حتى يتنازل والد الطفل، وكان تأثر جارنا بحال أخي وحرصه على إخراجه من السجن أكثر من تأثره بمصاب ابنه، وكان يسعى مع والدي وهو مُحرَج جدا كأنه هو الجاني وليس المجني عليه، ويجادل الضابط الذي كان نظاميا يابس الفهم، فكان والد الطفل يقول له: هذا ابني وهذا والدنا، وولده ولدي، وأنا مسامح لماذا تسجنونه؟! فكان الضابط يقول: لا بد أن تسجل تنازلك في المحكمة أولاً، النظام كذا.

فكان من جراء التطبيق الحرفي للنظام أن يُسجن أخي تلك الليلة حتى يُثبت والد الطفل المصاب تنازله في المحكمة، وما كان والدي ولا والدتي ولا أنا نقبل أن يدخل أخي ذو الثلاثة عشر عاماً السجن، فتقمصت شخصيته، وأديت دوره، وقضيت تلك الليلة في السجن لأذوق شعور السجن ولو ليلة واحدة.

ودعاني الشرطي لأخرج، فقام النزلاء يودعونني وكأني كنت معهم منذ ثلاث سنين وخمسة أشهر، ذكرهم الله بالخير أحياء وأمواتا.

الليلة الأخيرة في السجن

كان لي مع السجن ليلة أخرى بعدها بسنوات هي أشد عليَّ هولاً، وأبقى أثراً، وذلك عندما دخلت السجن في الطائف وكان وقت الدخول هو ذاته وقت الدخول الأول بعد العصر في يوم صيف حار طويل، فلما أدخلوني السجن أخبروني فوراً أني سأساق إلى سجن الموقوفين للإعدام، وهم الذين ينتظرون الحكم عليهم بالقصاص أو ينتظرون تنفيذه، وكان السير إلى هذا القسم يشبه السير إلى ساحة الإعدام، وكانت طريقة فتح الأبواب الموصدة بعضها خلف بعض مرعبة، ما إن أتجاوز الباب داخلا حتى يغلق بأغلاق تظن حين تسمع إغلاقها أنها لن تفتح إلى يوم القيامة، وكل باب تتجاوزه يشعرك أنك ابتعدت عن الحياة وانفصلت عن الأحياء، حتى دخلت إلى الفناء الذي يجتمعون فيه لصلاة المغرب وأقيمت الصلاة، وكان فيهم شيخ أبيض الرأس واللحية يتوكأ على عصا فظننت أنه إمام السجن، فلما طلبوا إلي أن أتقدم للصلاة بهم قلت: ليتقدم الشيخ، فعجبوا مني ودفعوني وقالوا: بل تقدم أنت، فعلمت بعد الصلاة أن هذا الشيخ الهرم هو أحدهم ينتظر ما ينتظرون، وجلست معهم جلسة مطولة، وكنت أشعر أني مع مضي الوقت أتلبس حالتهم، وأعيش شعورهم ومشاعرهم، شعرت أن الوقت لا يمر بطيئا، ولكنه يجثم أسود قاتما كأنه لا يتحرك.

الباب أمامهم موصد بأغاليق ثقال، وأبواب إثر أبواب، فكأنه قاع البحر يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، وهنا أبواب بعضها خلف بعض.

فإذا فتح الباب فإن الخارج منه لا يدري هل سيخرج إلى الدنيا أم إلى الآخرة.

وشعرت بشعورهم، حيث النظر إلى الأمام هو النظر في الظلام، المستقبل مجهولٌ قاتم شديد القتامة.

يا ألله كيف جثمت مشاعرهم على قلبي، وخالطت أحاسيسهم أحاسيسي حتى كأني أحدهم أنتظر ما ينتظرون.

وتساءلت وأنا بينهم أنظر إلى عالمهم الذي يعيشونه فإذا هو محدود بحدود غرف زنازينهم، وآمالهم محبوسة معهم، ليس لهم حديث إلا عن ماضيهم وذكرياتهم، أما مستقبلهم فقاتم لا يدرون ما الله صانع فيه وفيهم.

وما زلت أتلبس هذا الشعور وأعيش هذه المشاعر حتى أتاني النداء للإفراج عني والخروج من قبو الحياة هذا، وودعتهم وودعوني في لوعة، وتشبثوا بي يستبقونني وكأنما يقولون: جاء هذا من الدنيا.

وخرجت ولم أدر بعدُ من الذي خرج منهم إلى الدنيا ومن الذي خرج إلى الآخرة.

وجعلت الأبواب تفتح واحدا إثر الآخر، وكلما خرجت من باب شعرت أني أعود إلى الدنيا وأرجع إلى الحياة والأحياء.

وعندما خرجت من السجن وركبت سيارتي وجدت للهواء عطرا كأني أشمه أول مرة، وكان هواء الحرية المعطر، وسرت بسيارتي لأقف عند أول إشارة فشعرت حينها بنعمة الاختيار: يا ألله أستطيع أن أذهب إلى الأمام إن أردت، وأن آخذ يمينا أو يسارا إن أردت، الخيار خياري والقرار قراري، منذ متى وأنا أستمتع بهذا النعيم ولم أشعر به.

يا ألله كم لك عليَّ من نعمة، يا ألله أي نعمك أعدد، وأي نعمك أحصي، وفي كل مرة يتجدد عندي هذا الشعور، ويتجدد في قلبي الامتنان لله بكل نعمة أنعم بها عليَّ في قديم أو حديث، لقد كان يمكن أن يستفزني الشيطان يوماً فأبوء بجناية مثل جناياتهم، ومصيرا مثل مصيرهم.

لقد دخلت هذا السجن ضمن نشاط التوعية في السجن، فهذا شعور من دخل السجن زائرا، فكيف بمن أقام فيه سجينا!!

وأذكر أنَّ أحد أصدقائي بقي في السجن الانفرادي أشهرا ثم خرج، فكان يقول لي: كنت أستيقظ في الصباح فأغتسل وأصلي ركعتين، وأنظف زنزانتي، وأرتب أشيائي، ثم أنظر إلى الساعة فإذا لم يمض من الوقت إلا خمس دقائق، فأقول: إذن متى سينتهي اليوم، وكيف سينقضي الليل؟

أما السجن الذي دخله كثير ممن أعرفهم من أصدقائي ومشايخي فقد عافاني الله وأنجاني منه، وكثيراً ما سئلت: كيف سجن كثير من أصدقائك ولم تسجن أنت؟ فأقول: يُبتلى المرء على قدر إيمانه، فلعل الله علم ضعفي فرحمني، والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين.

في قصور الملوك

دخلت قصور الملوك وشخصت ببصري أقلبه في نواحيها، وأتأمل ما شادوا فيها، ونمط الحياة المترفة التي عاشوها، والتفنن في الرفاهية ومظاهر التنعم بالحياة.

دخلت قصر الحمراء بغرناطة فرأيت المباني الشامخة، والردهات الواسعة، والغرفات العالية، والجدران المزوقة، وقصة النعيم الذي كان، وبقيت أطلاله تحكي سالف مجده ووارف نعمه، وكان بناء هذا القصر حين انكمش حكم المسلمين في نواحي الأندلس وتقلصت مساحته، وخسر المسلمون من ممالكهم فيها ما خسروا، ولم يبق إلا هذه الرقعة الصغيرة.

ودخلت قصر دلما بهجة في إسطنبول والذي بني في عهد السلطان عبد المجيد في آخر عُمْر السلطنة العثمانية، ودخلت القصر وكأنما خرج السلطان منه البارحة، فرأيت فيه البذخ العمراني، السقوف المطهمة بالذهب، والجدر المكسوة بالحرير، والدرج المحفوف بالكريستال، وأكبر قاعة، وأضخم ثريا، وذاك البذخ في التشييد والتزويق، ولا تزال أبهة السلطنة تتحدث في كُلِّ أنحائه، من الأبواب الواسعة، والفرش الوثيرة، والسقوف المرتفعة، والغرفات العالية، وكم ستندهش أن هذا القصر تم تشييده في فترة ضعف الدولة وانحسارها فلم يسكنه إلا ستة سلاطين ثم انتهت السلطنة وسكنه مصطفى كمال ومات فيه.

ودخلت قصر الرئيس الروماني نيكولاي تشاوسسكو، والذي شيده في آخر عمره، وقتل قبل أن ينتهي بناؤه، ورأيت بذخ البناء، وضخامة التشييد، والمساحة الشاسعة، حتى إني لم أكمل التطواف فيه، واكتفيت بما رأيت عن استكمال ما لم أره، وبعد الثورة على تشاوسسكو وإعدامه بقي القصر على حاله لم يكتمل، وعجزت الدولة الفقيرة عن إكماله، وبقي شاهدا على عبث القيادات الدكتاتورية بمقدرات الشعوب المستضعفة، والعجب أن هذا كان في بلد شيوعي يقوم على فلسفة المساواة بين طبقات المجتمع، وإعطاء الطبقات الكادحة حقوقها، فإذا اللقمة تنتزع من الأفواه الجائعة لتكون شيئا من رفاهية الطاغية.

ثم دخلت البيت الأبيض في واشنطن، قبل أحداث سبتمبر، وكانت القاعات السفلى مفتوحة للسياح في أيام معينة، وفوجئت بتواضع البناء كقصر رئاسي لأعظم الدول في العالم نفوذا وقوة وثروة.

ومع سعة ساحة حديقته إلا أن مبناه ليس بتلك الأبهة والضخامة، ومع ذلك يقاسم سكن الرئيس فيه هذا المتحف في أسفله.

وكذا لما زرت مبنى البرلمان البريطاني ودخلنا مبنى مجلس العموم الذي تتم فيه المداولات العاصفة بين رؤساء الوزارات وأعضاء البرلمان، ونظرت إلى مقاعد أعضاء البرلمان فإذا هي تشبه المصاطب التي كنا نجلس عليها طلابا في القاعات الجامعية التي كنا ندرس فيها قديما، وتذكرت ما كنت أراه في نشرات الأخبار حيث كلمات رؤساء الوزراء ومداولاتهم العنيفة مع أعضاء البرلمان من إدوارد هيث، ومارغريت تاتشر، وتوني بلير، وإلى الأشعث بن جونسون، تلك المداولات الصاخبة التي يجف فيها الريق ويقف الشعر من غير أن تستعمل القبضات أو يتم القصف بالأحذية.

وقارنته بمجالس البرلمانات العربية ذات المباني الشامخة والمقاعد الوثيرة، والقباب العالية والجداريات التي لا تنسى أن تكتب على لوحة كبيرة يقرؤها من كان

بصره واحد على ستة أو أقل من ذلك: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

واستنتجت أن هناك تناسبا طرديا بين قوة الدولة وعظمتها وبساطة بيوت زعمائها، ألا تلاحظ أن البيت الأبيض يسمى البيت وليس القصر الأبيض، وأن باب رقم (١٠) في داوننغ ستريت مقر رئاسة الوزراء البريطانية يشبه باباً لبيت في حي منفوحة بالرياض، أو بولاق الدكرور في القاهرة.

وكذا يوجد تناسب بين ضعف الدولة وطغيان حكامها وضخامة قصورهم وتشييد بنيانهم، وكأن اهتمام الحاكم بفخامة قصره وتشييد مبانيه هو على حساب بناء دولته، وانشغالُه برفاهيته الشخصية على حساب قُوَّة وقُوتِ شعبه، ولذا رأينا المتاهة التي دخلتها القوات الأمريكية حين دخلت قصور صدام في بغداد، وتساءل كل من رآها كيف بنيت هذه القصور في بلد منهك بالحروب مخنوق بالحصار، وما أسرع ما حالت حالُها فصارت خرائب مهجورة كحال ذلك البلد المدمر المنتهب.

وتذكرت حال الإمام المنذر بن سعيد البلوطي مع الخليفة الناصر الذي ابتنى مدينة الزهراء واستفرغ جهده في إتقان قصورها وزخرفة دورها، فابتدأ خطبته في الجمعة بقوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾. ثم وصله بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، ومضى في ذم تشييد البناء وزخرفته، والإسراف في الانفاق عليه، بكلّ كلام جزل، ثم أتى بما يناسب المقام من التخويف بالموت، والدعاء إلى الزهد في الدنيا، والإقصار عن اللذات والشهوات واتباع الهوى، حتى خشع الناس وبكوا وأعلنوا التوبة والاستغفار، وأخذ الناصر من ذلك بأوفر حظ، وقد علم أنه المقصود بالموعظة فبكى وندم على ما أفرط وفرّط[1].

(١) «معجم الأدباء» (٦/ ٢٧٢٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١٦/ ١٧٧).

أزمة خريف العمر

وصف أحمد أمين هذه المرحلة فكان من معالمها فيما ذكره من: أن التليفون يقل رنينه، وتتباعد الاتصالات التي تطلبه، ويقل زائروه وقاصدوه، ويفرغ صندوق البريد، ويطول وقت الفراغ، وتقل المشاغل، ويكثر التفكُّر والتفكير.

وهو وصف ينطبق على مرحلة التقاعد لأصحاب الحياة الصاخبة والنشاط الواسع، فإذا انتهى عملهم توقف نشاطهم، وفقدوا ما كانوا يألفونه من حيوية وتفاعل مع من حولهم.

ولذا يحاول بعض المتقاعدين عبور هذا الفراغ بالانشغال بما يتلهون به، بغض النظر عن أهميته وجدواه، وقد سمعت عن أحد الموظفين أنه بعد تقاعده شعر بالملل والضجر فاشترى مزرعة وكان يتحدث عن ذلك فيقول: صرت إذا أصبحت وجدت لدي قائمة من الأعمال لا يكفي يومي لإنجازها، وكأن يومه عبءٌ ثقيل عليه يريد أن يتخلص منه بأي طريقة، ولو بمثل هذا العناء.

ومن الطرائف في ذلك قصة الضابط الذي أصابته كآبة التقاعد فبنى له أبناؤه سبيل ماء ووضعوا أمامه جرادل ملونة، واقترحوا عليه أن يجلس للناس فينظم طريقة سقايتهم، فكان يجلس أمام جرادل الماء فإذا أخذ أحدٌ جردلاً أخضر ليستقي صاح به:

أترك هذا وخذ الأحمر، وهكذا مع كل آخد، فصار يفرغ شهوة الأوامر العسكرية على سقاة الماء، ووجد في جرادل ماء السبيل ملهاة لوقته ودواء لكآبته.

وهكذا يموت الإنسان وهو ما زال على قيد الحياة، فليس الموت خروج الروح، ولكن الموت المفزع أن تموت روحُك وأنت حي[١]، فعندما يشعر الإنسان بالفراغ الواسع، وأنه ليس لديه عمل يعمله، ولا إنجاز ينجزه، يحتويه هذا الشعور بالموت البطيء، ويقول كما قال أحد أعمامي وقد رأيته في المجلس ملتحفاً بشته الشتائي، فسألته: من تنتظر؟ قال: أنتظر يومي.

رحمه الله، فقد جاءه يومه قبل أربعين سنة فلم يحوجه إلى طويل انتظار.

وربما اقترن ذلك الشعور بخيبة الآمال التي كان يرجو في الشباب تحقيقها ولكنها كانت فوق مستوى قدرته أو تقديره.

والحق أني لم ألمس هذه الحالة في كثير ممن أعرفهم حولي، فأبي عندما تقاعد استأنف حياته على نمط جديد هو التعبد والتعليم الاحتسابي، وكنت أرى في تهيئه للصلاة مشهدا من قول النبي ﷺ: «**وانتظار الصلاة بعد الصلاة**»، وأتساءل وأنا أرى كيف تقسم الصلوات نهاره، وتجدد يومه، فأقول: أي خمول وكآبة تصاحب من لم يصاحبه أنس الصلاة؟!

ورأيت من بركة العلم أنه يجعل العمر أعمارا، ويعيش صاحبه إلى آخر لحظة من عمره وهو يسارع الزمن، ويشتكي ضيق الوقت، ولا تزال عنده مشاريع وأعمال يتمنى لو مد في عمره وزيد في قوته ليتمها، وقد شرح بدر الدين العيني «الهداية» وهو في التسعين من عمره، وأنجز ابن حجر كتابه «فتح الباري» وهو في السبعين من عمره،

(١) د. خالد منصور الدريس.

وعاش شيخنا ابن باز آخر ليلة من عمره التسعيني في إفتاء الناس وقضاء حوائجهم واستقبال وفودهم.

وابتدأ شيخنا محمد عوامة تحقيقه لكتاب «نصب الراية» في الثمانين من عمره ولا يزال يسابق الزمن ويستجمع بقايا القوة ويقول: هذا مشروع كان عليَّ أن أبدأه في الخمسين وليس في الثمانين.

ودخلت على الشيخ حمد الجاسر رحمه الله وقد نيف التسعين وثقل سمعه، وهو مستلق على أريكةٍ ممسكٌ بصورة مخطوطة في يده، وسكرتيره يصرخ في أذنه يقرأ النسخة المطبوعة وهو يقابلها.

إن السعداء هم الذين يعيشون كل مرحلة من مراحل العمر بما يناسبها فلا يسبقونها ولا يتأخرون عنها، ولكل مرحلة عمرية مباهجها ومشاريعها وإنجازاتها، وليس من ضرورة الإنجاز أن يكون هو الحصول على جائزة نوبل، ولا تحطيم الرقم القياسي في رفع الأثقال، فلكُلٍ إنجازُه في حياته الذي يحقق به طموحاً، ويصل به إلى غايةٍ، ويحقق بالظفر به السعادة والرضى.

توفي أحد المسنين فوجد أبناؤه في مصحفه ورقة كتب فيها جدولاً لختماته القرآنية، متى بدأ كل ختمة ومتى أتمها، وهذا الجدول للسنة التي مات فيها رحمه الله.

كأني أتخيل هذا الشيخ وهو يشعر بلذة الإنجاز وتمام النعمة وهو ينتهي من ختمة ثم يبدأ أخرى، وأن حياته تتجدد كلما بدأ مشوار التلاوة.

ويعجبني ذلك الذي عندما تقاعد قيل له: ارتحت وتفرغت، فقال: نعم فرغنا وقد قال الله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾، وكم أشعر بالإشفاق على أولئك المتقاعدين الذين يقضون بقايا أعمارهم على طاولات المقاهي لتمر الساعات تلو الساعات والوقت يقتل قتلاً.

وأتذكر كلمة الشيخ جمال الدين القاسمي الذي كان يمر بالمقاهي ويرى اللاهين فيها فيقول: ليت هؤلاء يبيعوننا أوقاتهم.

وعندما زرت مدينة سراييفو مر بي مرافقي على ساحة فيها شطرنج مرسوم على بلاطات الساحة، وحوله كبار السن المتقاعدون بوجوههم المتغضنة، ورؤوسهم المتصحرة إلا من شعرات بيضاء على حوافها.

فقال لنا مرافقنا: هذه الساحة عامرة طوال أيام الأسبوع، وكلَّ ساعات اليوم، وهؤلاء المتقاعدون فيها لا ينقطع صخبهم، فتسمع منهم الشتائم القديمة التي نسيت، وكلمات السباب الأثرية التي انقرضت، وكلما انتهت جولة بدأت أخرى في دوامة من لغو القول وسحق الفراغ، ثم عبرنا الساحة إلى مسجد خسرو باشا الأثري فلما دخلناه ضحى رأيت شيخا كبيراً قد بكر إلى الصف الأول وأمامه مصحفه الذي احتضنه بحب، وهو يقرأ بتلذذ وأنس، فقلت في نفسي: شتان بين من بقايا أعمارهم عبء عليهم، ومن بقية عمره غنيمةٌ له، ولكنَّ ذكرَ الله وحُسنَ عبادته لا تنال إلا بتوفيقه ومعونته، ولذا جاء الدعاء النبوي: «**اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادك**».

وأكثر بؤسا من هؤلاء من يعيشون هذه الفترة من أعمارهم وهم في لهاث دائم لجمع المال وتكثيره، عُمرهم يوم واحد مكرر لا يتغير فيه إلا أرقام الرصيد البنكي، يقضون بقية العمر في تكثير أموال لا يستطيعون إنفاقها في دنياهم، ولا يقدمونها لأخراهم ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

ولذا فإني أشعر أن من نعم الله عليَّ -وما أكثر نعمه وأعظم إنعامه- أني عبرت هذه المرحلة ولم أشعر بأزمة خريف العمر هذه، ولم أعش جفافها، وإنما أعيش المرحلة بمباهجها وما يناسبني فيها ويناسبها، ولا أشتكي إلا من فائض السعادة، مع ضيق الوقت، وازدحام المهام التي لا أدري هل يتسع لها ما بقي من عمري أم يتقاصر عنها.

فهناك أعمال ما زالت نوايا وعزائم، فإن فسح في الأجل والقوة فذاك، وإلا فإني أسأل الله أن يتقبل ما قدمت، ويكتب لي أجر ما نويت ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

مراحل العمر

وصلنا القاهرة مع شيخنا أبي معاذ وأخي خالد فما إن وصلنا شقتنا وألقينا أمتعتنا حتى تشوقنا للخروج إلى الدنيا، فنحن في أم الدنيا، فلمَّا تهيئنا للخروج التحف شيخنا غطاء رأسه الثقيل (شماغه) وهو يهم بالخروج كما يفعل في السعودية، فقلت: وما حاجتك بغطاء الرأس هنا، هذه فرصتنا أن نخرج برؤوسنا طليقة بعد أن طمرناها تحت هذه الأغطية عمراً طويلاً، فتردد في ذلك ولم يساعده ما أَلِفَهُ، حتى إذا وصل الباب ألقاه عن رأسه وهو يقول: على الإنسان أن يراقب نفسه، يظهر أننا وصلنا مرحلة مقاومة التغيير العُمْرِيَّة.

وعجبت من ملاحظته تلك، وصرت أتفقد من نفسي ما تفقده، وأتفكر فيما قطعت من مراحل العمر وأطوار الحياة، ولا يكتشف الإنسان هذه المراحل حتى يعبرها ويقارن بين أطوارها، فكأنه كان أكثر من شخص، كلُّ شخص عاش مرحلة منها ثم ودعه، وبعد أن قطعت هذه المساحة الواسعة من العمر ألتفت إليها فأراها وقد تحددت معالمها واتضحت مراحلها.

عبرنا الطفولة ككُل الأطفال ننظر إلى الأب فنرى أنه يعلم كل شيء، ويقدر على كل شيء، ولذا نسأل أهلنا ما نريد ولا نفكر كيف يتحقق، وعرفت معنى كلمة العرب:

احتكم حكم الصبي على أهله، والمقولة المشهورة: الطفل يظن أن أباه يعلم كل شيء، والشاب يعتقد أن أباه لا يعلم أي شيء.

وهي مرحلة يقطعها الطفل وقد حمل عنه أبواه كل هموم الحياة ومسؤولياتها وأبقوا له أنسها ولهوها، وكان حالنا كما صوره شوقي في قصيدته:

ألا حَبَّذا صُحبَةَ المَكتَبِ	وَأَحبِب بِأَيّامِهِ أَحبِبِ
وَيا حَبَّذا صِبيَةٌ يَمرَحو	نَ عِنانُ الحَياةِ عَلَيهِم صَبي
كَأَنَّهُمو بَسَماتُ الحَيا	ةِ وَأَنفاسُ رَيحانَها الطَيِّبِ
يُراحُ وَيُغدى بِهِم كَالقَطي	عِ عَلى مَشرِقِ الشَمسِ وَالمَغرِبِ
فِراخٌ بِأَيكٍ فَمِن ناهِضٍ	يَروضُ الجَناحَ وَمِن أَزغَبِ
مَقاعِدُهُم مِن جَناحِ الزَما	نِ وَما عَلِموا خَطَرَ المَركَبِ

وما أسرع ما غادرتنا طفولتنا بسذاجتها وبراءتها، وكأنما وثبنا إلى شبابنا وثباً، وقد اكتملت قوتنا واتسعت رغائبنا، وصار لدينا التطلع للتغيير، والتشوف إلى الاستقلال، وأقبلنا على الحياة وأقبلت علينا، وفي هذه المرحلة كان حديثنا عن آمالنا العريضة، ورغائبنا الواسعة، وعزائمنا القوية، وكان حديثنا فيها مستقبلياً سَوْفِيا: سوف نفعل، وسوف نصير، وسوف نكون، وجعلنا المستقبل خزانة مشاريعنا وطموحاتنا وآمالنا، فعنه نتحدث، وله نخطط، وإليه نسعى ونعدو.

وهذه فترة لذائذ ورغائب، القوة فيها عارمة، والمسؤوليات قليلة، والهموم غائبة، لا نشكو ولا نتألم، ولا نضجر ولا نسأم، نغدو من بيوتنا كما تغدو الطير من وكناتها، محلقة في السماء، سابحة في الفضاء، كأن العالم كله مملكتنا ومُلكنا، ننظر إلى السماء فنرى في نجومها آمالنا كأنما تومض لنا وتتدلى إلينا لنتناولها.

أيا عهـــد الشـــباب وكنت تندى على أفياء ســـرحتك الســـلام

وما أسرع أن عبرناها بأنسها ورغائبها لتسلمنا إلى مرحلة الرجولة حيث المسؤوليات والمشاغل، والأعمال والأحمال، وهي مرحلة تجتمع فيها قوة الشباب ومسؤوليات الحياة، وصحبة الوالدين ورعاية الأولاد، فتسارعَ إيقاعُ الحياة، وتزاحمت المسؤوليات، وكثُر الاعتذار بكثرة الأشغال، وازدحام الأعمال، وصارت الواجبات أكثر من الأوقات، وكلُّ يوم يأتي ومعه حاجاته وأعماله، فلا نقضي حاجة إلا تأتي حاجات، ولا نُكملُ عملا إلا وتتبعه أعمال، وصار الحديث عن الحاجات والمسؤوليات أكثر منه عن الرغبات والشهوات.

وكان لي صديق في المرحلة الثانوية بيني وبينه إلف ومؤانسة، وكنا نخرج في بعض الليالي الصيفية بعد العشاء خارج الرياض في طريق الحجاز ويسمى طريق «ديراب»، فنجلس على تَبَّة صخرية، ونأكل عشاءنا الذي أخذناه من بعض المطاعم الشعبية الرخيصة، ونستمتع بالمكان الفسيح، والهواء العليل، ونتحدث لمدة ثلاث دقائق عن السياسة، ودقيقتين ونصف عن الدراسة، وعشر ساعات ونصف عن النساء، ويا ما ألذها يومها ذاك من أحدوثة، فيمضي الوقت بسرعة الصاروخ، ليس في حديثنا ذاك هموم نبثها ولا كروب نتشاكاها، نأتي خفافاً ونعود خفافاً.

ولو سألتنا: من أطيب عيشاً أنتم أم ملوك بني مروان؟ لقلنا بدون تردد: نحن أطيب عيشاً من بني مروان، وبني ركفلر.

وبقيت لذاذات هذه الجلسات وذكرياتها الجميلة أحن إليها وأتذكرها بنشوة.

ثم تفرقت بنا السبل أنا وصديقي محمد، وكلٌ شُغِلَ بشأنه وحاله، ثم أكرمني بعد سنين طوال بزيارة مفاجئة يجدد فيها الذكرى، ويتعاهد الود، فأهاج الذكريات وتلك

اللذاذات، فلم أدعه يذهب حتى أخذت منه موعداً قريباً أن نذهب بعد العشاء إلى ذات المكان لعلنا نجد بقية من نشوة السعادة التي كنا نسْكَرُ بها هناك.

وهكذا كان ففي أقل من أسبوع كنا في المكان نفسه ومعنا من المطعوم والمشروب ما لذ وطاب، ومعنا الأخ السائق الذي كفانا عناء العمل، وجلست وإياه وأنا أتلمظ لتلك الأحاديث بلذتها ونشوتها، وانتظرت أن تأتي بطريقة عفوية، وإذا بصديقي يحدثني عن الصفقة التجارية التي دخل فيها وخسر، وعن مشاكله في العمل، وعن معاناته مع ابنه الكبير المتعثر في دراسته، وابنه الصغير مع مرض السكري، وحاولت أن أحرك الحديث شيئاً إلى بعض المؤنسات ولكن دفنته كارثة الأسهم وخسارته فيها، ومر الوقت بطيئاً كوقت الانتظار في الطابور، وقبل أن نكمل الساعة كانت فرشنا وحاجاتنا في سيارتنا، ونحن عائدون إلى بيوتنا فقد تأخرنا عن كذا وكذا مما ينتظرنا.

وجعلت أخاطب الهضبة الصخرية وأنا أودعها: أين تلك المتعة التي كنا نجدها عندك، والسعادة التي كنا نعيشها معك؟ أين ذهب أُنس الحياة وبهجتها؟ وما بالنا صرنا نتعثر في مشاكلها حتى افترست مُتعنا وأحاديثنا؟ ألا أرجعتِ إلينا شيئا مما كنا نجده عندك هنا؟

فضحكت مني حجارة المكان حتى سمعت قهقهتها وهي تقول:

عايزنـــا نرجـــع زي زمـــان قـــل للزمـــان ارجع يـــا زمان

فرجعت بعظة بالغة أن العمر سار بنا ولم نشعر، فتنقلنا في مراحله من حال إلى حال، وأن لكل منزلة من منازل العمر أحداثها وأحاديثها.

وهذه هي مرحلة الأَشُد المذكورة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، وهي مفرق تاج

العمر، فهي على تخوم الشباب الذاهب والشيخوخة الآتية، ليس فيها عرامة الشباب ونزقُه، ولا وهن الشيخوخة وضعفها، ما قبلها أقوى وأعنف، وما بعدها أهدأ وأضعف، وهذه هي رحلة الهبوط من القمة إلى سفح الغروب.

وَدارَ الزَمانُ فَدالَ الصِبا ... وَشَبَّ الصِغارُ عَنِ المَكتَبِ
وَجَدَّ الطِلابُ وَكَدَّ الشَبا ... بُ وَأَوغَلَ في الصَعبِ فَالأَصعَبِ
وَعادَت نَواعِمُ أَيّامِهِ ... سِنينَ مِنَ الدَأَبِ المُنصِبِ
قَدِ انصَرَفوا بَعدَ عِلمِ الكِتا ... بِ لِبابٍ مِنَ العِلمِ لَم يُكتَبِ
حَياةٌ يُغامِرُ فيها امرُؤٌ ... تَسَلَّحَ بِالنابِ وَالمِخلَبِ

ثم عبرنا هذه المرحلة بصخبها، وتوترها، وتشتتها، وبدأ إيقاع الحياة بالهدوء، وأعمالها بالانتظام، فالأبناء كبروا، والآمال القريبة تحقَّقت، والآمال البعيدة استبعِدَت، وهدأت النفس بعد ثورتها وجماحها، وما عاد كثير مما كان يثيرنا يثيرنا اليوم، وصرنا أكثر ميلا للسماحة والتغاضي وتقبل كل شيء كما هو لا كما نريد، وصار أكثر حديثنا عن الماضي، وكان وكنا، وفي تلك السنة كان كذا، وعجبت من نفسي وأنا أكتب هذه الذكريات كم تكرر كُنت وكان وكنا، وعلمت لم سمى العرب الرجل إذا تقدمت به السن: كُنتياً، أي يكثر من كان، وصار الحديث عن الذكريات بعد أن كان عن الآمال والأمنيات.

وإذا الذي كان مستقبلاً نتطلع إليه، صار ماضياً نتلفت إليه.

وصرنا نتلقى نعي الأصحاب والرفاق الذين ساروا معنا في طريق الحياة، فشعرنا أن أنفسنا تُنْعى إلينا، ونلتقى أصدقاءَنا وأصحابَنا الذين بَعُد العهد بهم فيفاجئنا تغضن وجوههم، وابيضاض شعورهم فنعلم أنهم يرون فينا ما نراه فيهم.

ومن حكمة الله أن الأمل يصحب الإنسان إلى آخر عمره، ولولاه ما وضع إنسان حجراً على حجر، ولا عَمرَ منها ما عمر، وأكثر من هجم الموت عليهم كان لديهم مشاريع مؤجلة لم يفرغوا بعد لها.

وقد رأيت مقابلة مع العقاد في «مجلة الهلال» في آخر عمره، وكان في الصورة ذابلاً هرماً، وكان مما قال فيها: وعندما أبلغ مئة سنة سأؤلف كتابا بعنوان: «قرن يتكلم»، ثم توفي رحمه الله في الخامسة والسبعين.

وكتب سلامة موسى في مذكراته وقد بلغ سبعين سنة: «وبداية سن السبعين تومئ من قريب إلى نهاية الحياة، ولكني أعتقد أني ما زلت بعيداً عن هذه النهاية بنحو عشرين أو ثلاثين سنة»[١]، ثم توفي بعد ذلك بسنة واحدة.

وما أروع التصوير النبوي للأمل الإنساني في الحياة حيث خط النبي ﷺ خطا مربعاً ووضع نقطة داخل المربع ونقطة خارجه ومد خطا بينهما ثم قال: «**هذا الإنسان**» للنقطة داخل المربع، «**وهذا أجله محيط به**» للخط المربع، «**وهذا أمله**» للنقطة خارج المربع، ثم قال: «**فبينا هو ينظر إلى أمله أحاط به أجله**».

ومن عجيب مراحل العمر أنها تتفلت عند ذهابها شيئا فشيئا من غير أن نشعر بمغادرتها، وتتسلل إليك شيئا فشيئا من غير أن تشعر بتسللها[٢].

وكأن أخي عبد العزيز الماجد رحمه الله يقول: لا تظن أن الشيخوخة ستطرق عليك الباب ذات صباح وتستأذنك في الدخول، ولكن إذا رأيت أنك تُقَدم إلى صدر المجلس، وتأمر من هم أصغر منك فقد شبت وربما خَرِفت، وإن لم تحمل عكازا أو تضع نظارة مقعرة كأنها عدسة تلسكوب، رحمه الله فقد غادرنا من غير أن يحمل عكازاً أو يضع نظارة مقعرة.

(١) «تربية سلامة موسى» (٢٧٧).

(٢) في المقال عبارات مستلة من مقال «أربعون» للمنفلوطي، ولمعرفتها عليك أن تقارن بين المقالين، ثم ضع خطا تحتها، ثم أعرب ما تحته خط.

وَخَـدَّشَ ظُفـرُ الزَمـانِ الوُجـو ... هَ وَغَيَّـضَ مِـن بِشـرِها المُعجِـبِ

سَـرى الشَـيبُ مُتَّئِـداً فـي الـرُؤو ... سِ سُرى النارِ في المَوضِعِ المُعشِبِ

وَغـابَ الرِفـاقُ كَأَن لَـم يَكُـن ... بِهِـم لَـكَ عَهـدٌ وَلَـم تَصحَـبِ

إِلـى أَن فَنـوا ثَلَّـةً ثَلَّـةً ... فَنـاءَ السَـرابِ عَلـى السَبسَـبِ

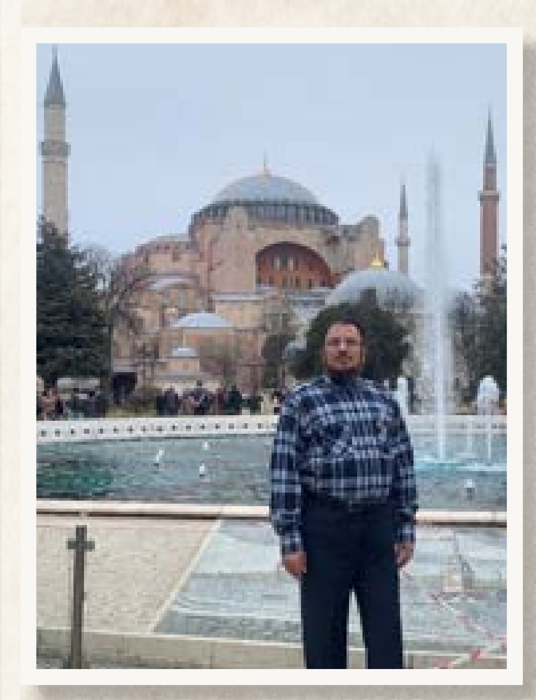
وهكذا تنقلنا في أطوار العمر ومراحل الحياة، وتغيرت (سَوفَ) إلى (كان)، ورأينا مشهد قول الله عز وجل:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾.



أمام مسجد أيا صوفيا عام (١٤٠٨هـ)

الحمد لله على طول الأعمار
والتردد في الآثار



أمام مسجد أيا صوفيا عام (١٤٤٣هـ)

ستون

قطعت طريق الحياة وطويت مراحل العمر في يقظة كالنوم ونوم كاليقظة[١]، كنت أسير كالمطأطئ رأسه لا يشعر بما حوله حتى اصطدمت رأسي بصخرةٍ أمامي، وكانت صحوة أفقت بها من غفوة نفسي، وكأنما تقول لي: استيقظ فالجُرفُ أمامك.

اهتز وجداني، ووجف قلبي، وتحركت مشاعري.

أذكر تلك اللحظة جيدا مكانَها وزمانَها، جلست بعد صلاة الفجر لآخذ نصيبي من أحاديث «صحيح البخاري»، وكأنما كان البخاري كامنا لي ذلك اليوم بهذا الحديث فهذا وقته وهذا أوانه.

قرأت الأحاديث منتظرا خاطرةً أقيدها، أو استشكالاً أتأمله، حتى استوقفني أبو هريرة كأنما يصرخ بي، وينادي بأعلى صوته من بعيد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ، حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً**».

وتوقفت واستوقفتُ نفسي، وكأن هذه هي المرة الأولى التي أقرأ فيها هذا الحديث، فقد كنت أقرؤه من قبل فأشعر بآماد بعيدة بيني وبين هذه السنة، وما دريت كيف طويت سنوات العمر في مثل سِنةِ النوم لأستيقظ اليوم وكأن صارخا يصرخ بي:

---

(١) عبارة للشيخ ظافر القرني رحمه الله.

يا هذا لقد استوفيت نصيبك من الإعْذار، وكثرت حجج الله عليك، وما أمامك ليس كالذي خلفك.

أتذكر تلك الدهشة بل الرهبة التي ملأت فجاج نفسي: يا ألله، قد أَمهَلت وحَلمت، وها أنت قد أعذرت.

يا ألله ما بقي لي من عذر وما ثم حجة، ولن نقدم أنفسنا إليك إلا كما يُقدَّم العبد الآبق عاد إلى سيده معترفا بذنبه، لا أمل له إلا في الصفح والعفو والغفران.

وكانت دهشةً لا أدري متى أفقت منها ولا كيف أفقت؟ فلمَّا ترادت إليَّ نفسي قمت وأنا أقول: هذا الحديث يكفيني اليوم، لن أزيد عليه، ولكن سأعيش معه.

وجعلت أعيد تقييم هذه المرحلة التي بدأت تدوي فيها صافرات الإنذار، ويوشك أن يتحرك القطار.

وكنت قبلها بقليل قد عشت دهشة أخرى كأنما كانت تُعدُّني لهذا الشعور، فقد كنت أقرأ سورة المؤمنون، فلما بلغت قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، كل هذا التفصيل في أطوار التخلق داخل الرحم جاء بعدها فورا: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ وأصابتني الآية بصدمة هزت كياني، وكأني لأول مرة أسمع بالموت وأدري عنه.

يا ألله أيعقب الموت الميلاد وكأنه اللحظة التي تلي الميلاد مباشرة؟

يا ألله فأين الطفولة وأين الشباب؟ وأين الأَشُد؟ وأين الشيخوخة وأرذل العمر؟

أهكذا يأتي الموت بعد الميلاد مباشرة؟ وكأن العمر مهما طال ومضةٌ أو لحظةٌ أو

طرفةُ عين، هكذا هي الحياة بالنسبة للموت الطويل قبلها، والموت الطويل بعدها، ثم الخلود الأبدي في الآخرة، يا ألله: ما أسرع هذه الحياة، وما أقصر هذا العمر.

فما أفقت من هذه الدهشة حتى أيقظتني تلك الصدمة، وبدأت أعيد حسابات هذه المرحلة العمرية وأكرر التفكير فيما بقي كما يفكر الشحيح في المال القليل الذي بقي في يده، فهو يفكر كيف سينفقه، وما هو أولى ما سيصرفه فيه، شعرت بمضي العمر، وتذكرت أستاذنا البراء الأميري يقول: كنت أنظر إلى الخمسين كشيء بعيد أمامي، والآن ألتفت إليها كشيء بعيد خلفي.

وبعد أن أطلت التذوق لهذه المرحلة العمرية التي وصلت إليها والتفكر فيها وأعدت حساباتها وتقييمها شعرت أنها المرحلة الذهبية لمن بلَّغهُ ربه إياها على عافيةٍ وسلامةٍ وغنى عن الناس، وأنها أسعد محطات العمر؛ لأن الإنسان فيها يستصحب عافيته، ويعيش نُضجه وخِبرته، ويستعيد هدوءه وتوازنه النفسي، فلا طيش ولا انفعال، ولا رعونة ولا توتر، وإنما يسير حياته رُخاء قد تخفف في حياته من كثير من أعبائه، وحقق كثيراً من آماله.

وهي مرحلة حصاد جِدِّ الشباب، وقطاف ثمراتِ التحصيل، والإنفاق من ذخائر العمر، ولذا فالموفق من أحسن استثمارها وتَذَوُّقها، ووجد طعم السعادة فيها.

وكم شعرت بالامتنان العظيم لله على الشعور بسرعة مضي الأيام، والفجاءة بانقضاء مراحل العمر، فهذه نعمة عظيمة ينبغي أن نتفكر فيها ونقف معها، فالأيام هي هي، والسنين هي هي، ليس فيها طويل وقصير، ولكن طولها وقصرها بالإحساس بها، فتكون سريعة خاطفة مع السلامة والسرور، وتكون بطيئة ثقيلة مع الشدائد والعسر.

فيوم المريض ليس كيوم الصحيح، ويوم الخائف ليس كيوم الآمن، ويوم المسرور ليس كيوم المكروب.

فإذا شعرت بسرعة العمر فاحمد الله أنه لم يطله عليك بشدة، ولم يصحبك فيه بكرب، وإلا لطال عليك أمده، وتباطأ سيره، ولذا نقول بفضل الله: ما أسرع أوقاتنا.

إن الليالـــي من الزمـــان مهولة تطوى وتنشـــر بينهـــا الأعمار

فقصارهـــن مع الهمـــوم طويلة وطوالهـــن مع الســـرور قصار

وقد وجدت أن أعظم استثمار لهذه المرحلة العمرية قطاف ثمرات العمر، وكتابة ما أحسب أن فيه فائدة، أرجو أن تكون من العلم الذي يُنتفع به من بعدي، وأرجو أن يتقبله ربي بقبول حسن فيتتابع أجره وذخره، ولذا تغيرت طقوس القراءة وخياراتها، فصار الاختيار للأهم وليس للمهم، فالوقت لا يتسع لكل الرغبات، وتذكرت كلمة د. محمد عمارة: القراءة للمتعة تركتها منذ زمن بعيد.

وعدت إلى حمل حقيبتي التي كنت أحملها إلى المدرسة، لكني كنت أحمل فيها ما أقرأ والآن أحمل فيها ما أكتب، وعُدتُ من حيث بدأت ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾.

مدرسة الأخلاق

كم أغبط أولئك الذين وهبوا حسن الخلق فطرة جبلوا عليها لا يتكلفونها ولا يعانونها، ولكن تجري عذوبة الأخلاق مع أنفاسهم، فهي فيهم دينٌ وافق طبعا، وقد عرفت من هؤلاء فئاما لم يأخذوا دورة في الذكاء العاطفي، ولا العلاقات العامة، ولكنهم بفطرتهم يسبقون إلى قلوب الناس ويستبقون فيها وُدَّهم وجميل ذكراهم.

وقد خبرت نفسي وعرفتها وعرفت عنها أنها لم ترزق هذا الرزق، ولذا فإن حسن الخلق لدي مجاهدةٌ أنجح فيها أحيانا وأخفق أحيانا، وأسأل الله أن يرزقني على هذه المجاهدة ثواب قارئ القرآن الذي يتعتع فيه وهو عليه شاق فله أجران، ومن يتصبر يصبره الله، ومن يستغن يغنه الله، وإنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم.

وأكثر ما يخذلني في مخالقة الناس شرودُ ذهني عن الحفاوة والإلطاف بهم، فتفلت مني مواقف ربما فسرها كثيرون بأنها عدم اكتراث، وربما فُسرت بأنها شيء من كِبْر يكفي بعضه أن يهوي بالمرء في دركات الجحيم، وليس في النفس من ذلك شيء بحمد الله، فأنا أعرف بنفسي من الشيطان الذي يريد أن يوسوس لها بذلك، ولكن مشكلتي أني أُحادي الاتجاه، فإذا انشغلت مع أحد ذهلت عن غيره، وإذا شغلت بأمر توقف تفكيري عما سواه.

كما يخذلني أيضا شيء من تَوَتُّرٍ يلم بي فتفلت مني البادرة في غير محلها، وربما آذيت بها عن غير قصدٍ من حقُّه عليَّ الود والإكرام.

ولكني مع ذلك أجاهد نفسي ما استطعت، وأسأل الله أن يعينني فيما قصدت، وقد طلب مني أخي عبد القدوس أن أشير إلى مهارات اكتسبتها وممن اكتسبتها.

إن المدد العظيم لحسن الخلق هو استشعار المسلم أن التعامل مع عباد الله هو تعامل مع الله، وأن حسن الخلق ليس مهارة علاقات، ولكنه قبلاً عبادةٌ وقربى إلى الله، بل هو من أفضل ما يتقرب إليه به، فليس شيء أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من حسن الخلق، وأعد الله بيتاً في أعلى الجنة لمن حسن خلقه، وأقرب الناس إلى رسول الله ﷺ في الجنة وأدناهم منه منزلة أحاسنهم أخلاقا، ولذا قيل: كاد حسن الخلق أن يذهب بالدين كله.

وعندما يمارس الإنسان حسن الخلق بكل شعائره من طلاقة الوجه، وطيب الكلام، والمشاركة في المسرات والأحزان، والبر والصلة والإحسان والسماحة على أنها عبادات يرجو من الله ذخرها وبرها سوف يمده ذلك بطاقة عالية وحيوية وإبهاج، ولن يتعقب الناس أو يتلفت إليهم منتظرا مكافأة أو ثناء، فمكافأته وجزاؤه ينتظرهما من ربه الذي تعبد له بحسن الخلق مع عباده.

أما أعظم من تكتسب منه مهارات حسن الخلق فهو أعظم الناس خُلقاً، من قال عنه ربه الذي خلقه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

ثم الاكتساب من معاشرة من رُزقوا حسن الخلق طبعاً لا تخلقاً، وممن عرفت فيهم هذه الخصلة التي جبلوا عليها شيخنا ابن باز، والشيخ صالح الحصين، والشيخ الدكتور إبراهيم الفايز، رحمهم الله، فهؤلاء يلقون مرساتهم في كل القلوب التي يلقونها، لا يختلف الناس على محبتهم، ولا يكيفون ذلك ولا يعللونه.

والتأمل في سيرة النبي ﷺ يلفت نظرك إلى مهارات مهمة لها أبلغ الأثر في ذلك ومنها:

إشعار كل أحد بأهميته، ومشاركته في اهتمامه، وهذا ظاهر في الأساليب النبوية، أنظر إلى قول النبي ﷺ لما عرَّف له عمه العباس وفد الأنصار وفيهم كعب بن مالك، وكان شاباً شاعراً فلما ذَكَر له اسمه قال ﷺ: «**الشاعر؟**». قال كعب بن مالك: فلا أنسى قوله: الشاعر؟ فانظر وقع هذه الكلمة التي أشعرت كعباً أنه شخصيةٌ معروفة للنبي ﷺ بما يميزه وهو الشعر.

وعندما جاءه أشج عبد القيس قال له ﷺ: «**إن فيك لخصلتين يحبهما الله الحِلْمُ والأَناة**».

ولذلك صرت أركز أن أتحدث مع كل من أعرف لهم اهتمامات معينة باهتماماتهم، أو لهم تاريخ معين عن تاريخهم، وخاصة كبار السن.

ومن الفنون النبوية في تأليف القلوب الثناء الصادق على الإيجابيات الشخصية، وجوانب التميز، وهذا النوع من الثناء له وقعه في النفس إبهاجاً وإنعاشاً، ومهما كانت مثالية الإنسان وتجرده فإن لحسن الأُحدوثة عنده أثرها، ولذا سماها النبي ﷺ: «**عاجل بشرى المؤمن**».

ولنبيك ﷺ روائع من ذلك، قال ﷺ: «**إنِّي أُعْطِي الرَّجُلَ وأَدَعُ الرَّجُلَ، والذي أَدَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الذي أُعْطِي، أُعْطِي أَقْوَاماً لِما في قُلُوبِهِمْ مِنَ الجَزَعِ والهَلَعِ، وأَكِلُ أَقْوَاماً إلى ما جَعَلَ اللَّهُ في قُلُوبِهِمْ مِنَ الغِنَى والخَيْرِ منهمْ عَمْرُو بنُ تَغْلِبَ**»، فَقالَ عَمْرٌو: «ما أُحِبُّ أنَّ لي بكَلِمَةِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ حُمْرَ النَّعَمِ».

وكان ﷺ يخطب على المنبر فرأى جرير بن عبد الله مقبلاً إلى المسجد فقال: «**يَدْخُلُ عَلَيْكُمْ مِنْ هَذَا الْبَابِ مِنْ خَيْرِ ذِي يَمَنٍ، عَلَى وَجْهِهِ مَسْحَةُ مَلَكٍ**»، فلما دخل

جرير التفت الناس إليه فقال لمن بجانبه: ما لهم؟ هل ذكرني رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قال لنا: «**يَدْخُلُ عَلَيْكُمْ مِنْ هَذَا الْبَابِ مِنْ خَيْرِ ذِي يَمَنٍ، عَلَى وَجْهِهِ مَسْحَةُ مَلَكٍ**»، وكان جرير من أجمل الناس.

تخيل طفرة الفرح لحظتها في قلب جرير، تخيل نشوة السرور تملأ نفسه؟

بل كيف استطاع أن يثبت في الأرض ولم يحلق في السماء؟

ما هذه الفجاءة الرائعة التي تلقاه بها رسول الله ﷺ؟

ولهذا نظائر كثيرة في السنة النبوية يطول تعدادها.

ومما جرى معي أني خطبت في أحد جوامع قطر قبل نحو عشر سنين، وكانت الخطبة مختصرة وجيزة، وخلاصتها أن لكلٍّ منا دوره الذي عليه أن يقوم به ويؤديه، وأن مشروع الأمة الكبير هو مجموع مشاريعنا الصغيرة إذا أديناها بإخلاص وإتقان، وأن علينا ألا ننتظر الزعيم الأوحد، ولا القائد المنقذ، فلكلٍّ منا دوره، ونحو هذا.

فلما قضيت الصلاة وخرجت من المسجد وجدت رجلاً حسن الهيئة واقفاً ينتظرني، فبادرني مسلِّماً ومتعرِّفاً، فعرفته بنفسي، وعرَّفني بنفسه، ثم أثنى ثناء طيباً على موضوع الخطبة وعلى اختصارها.

وأقسم بالله أنني سأكون كذَّاباً أَشِراً لو لم أقل: إن ثناءه وتشجيعه قد سرني غاية السرور، وشجعني وحفزني وأطربني، وشعرت أني وفقت في إيصال الرسالة، وأحسنت عرضها، ولا زلت أجد نشوة تحفيزه وحسن ثنائه شكر الله له.

فما حاجته إلى أن ينتظر شخصاً ليس له به معرفة سابقة، ولا حاجة لاحقة ليعبرَّ له عن استحسانه وثنائه؟ أليس هذا معروفاً ونُبلاً ينبغي أن يتلقى بحفاوة وإكرام وشكر بالغ؟ أليس هذا مما ينبت الود ويفتح أغاليق القلوب؟

كيف أصبحت كيف أمسيت مما ينبت الود في فؤاد الكريم

ومن المهارات النبوية الاهتمام بالأطفال فهم مفاتيح قلوب آبائهم، قال أنس: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقاً وكان يلاعب أخاً لي فطيم فيقول: «**يا أبا عمير ما فعل النغير**»، ولك أن تتخيل أبا طلحة وأم سليم وهما يريان النبي ﷺ يلاعب طفلهما ويسأله عن طائره الذي كان يلعب به.

وقال ذو الإصبع العدواني يوصي أبناءه: أكرموا صغار قومكم يكرمكم كبارُهم وينشأ على محبتكم صغارُهم.

ولذا صرت أسأل من لقيته عن أبنائه، وأركز على الأصغر منهم فهو أحبهم، وأطلب صورهم، وإذا أهديت إلى أحد كتابا من كتبي فإني أجعله باسم أصغر أبنائه، ورأيت أثر ذلك وجميل وقعه على كل من حولي، حتى قال لي صديقي أبو رناد: هذا من الخبث في تأليف القلوب.

ومن إكرام الإنسان وأقرب الطرق لاختراق قلبه إكرام والديه والثناء عليهما وتوقيرهما.

وعندما جاء أبو بكر بأبيه أبي قحافة ليبايع النبي ﷺ، قال ﷺ: «**هَلَّا تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيهِ فِيهِ**»، وقد وجدت ذلك في نفسي عندما رأيت أحد المسؤولين يقبل رأس والدي ولم أستطع أن أكافئه إلا بأن أقبل جبينه ويمينه، وشعرت بأنه احتواني بموقفه ذلك.

ولذا صرت أتحرى أن أحدث كل أحد بأحب ما يحب أن يسمعه عن والديه.

لقيت الأستاذ تركي السديري رحمه الله في زحام عزاء العم محمد الرشيد ولم يكن يعرفني فلما ودعته عند خروجه ذكرت له والدته لولوة العبد الكريم رحمها الله،

وكانت من عقائل النساء وكرامهن، وجعلت أحدثه بما أعرفه عنها وكانت صديقة لجدتي، فوقف معي وأطال الوقوف بنشوة بالغة، وكأنما أثرت شجونه ولوعته، ولما خرج فوجئت بأبناء الشيخ الرشيد يقولون اتصل علينا الأستاذ تركي يسأل عنك ويقول: من هذا؟ أعطوني رقم هاتفه.

وكنت مرة في ضيافة الدكتور محمد الأحمد الرشيد رحمه الله، وكنت سمعت من أحد أصدقاء والده وصفا لقامة والده الفارعة وطوله المميز وشخصيته المهيبة، فاحتلت في سياق الحديث حتى قلت له: لكن والدك يا دكتور كان في هيئة مَلِك، وكان وكان، وجعلت أصفه وكأني قد رأيته، فلا أنسى إشعاع وجهه وابتهاجه وهو يقول بزهو: تعرف أبوي، كيف عرفته؟

ومن مؤانسة الإنسان وكسب قلبه أن تحدثه فيما يهمه ويهتم به، ولا تقحمه في أشياء ليست في ساحة اهتماماته، أنظر إلى نبيك ﷺ عائداً من غزوة خيبر يدخل على زوجته عائشة بعد غياب شهر فلم يحدث الفتاة حديثةَ السن عن المعارك والغنائم ووعثاء السفر وأحداث الرحلة والغزوة، ولكن حدثها عما يهمها وهو لُعبها، فقال: «**عائش ما هذه**؟ قالت: بناتي، قال: **وما هذا الذي بينها**؟ قالت: فرس، قال: **فرس له أجنحة**؟».

إن سؤال النبي ﷺ لها عن لعبها، وعن الحصان الطائر معها هو اهتمام بما يهمها، ويا لله إذا كان هذا اهتمام النبي بلُعَب زوجته فكيف اهتمامه بأبيها وأمها، وكيف اهتمامه بها وهمومها.

وأهم ما يهم المؤلِّف أن تتحدث معه عن مؤلفاته بما يشعره أنك قرأتها وأعجبت بما أعجبت به منها، فإن مؤلفات الكاتب مثل أولاده، فإذا زرت من قد كتب كتابا اسمه: «اليوم النبوي» فحدثه عنه، فسينسى نفسه وهو يتحدث معك عنه للمرة المليون، وإن سألته عن كتابه الآخر عن الجهاد باسم «سنام الإسلام» فسيقف خطيبا، ثم يُرفع عنه القلم فلا تدري ولا يدري ما يقول.

ولذا كنت أستعد للقاء أهل الكتابة والمؤلفات وهم أصحابي وأحبتي بقراءة بعض ما كتبوه أو التعرف عليه، ولو على طريقة صاحب كتاب «كيف تتحدث عن كتب لم تقرأها».

ويبدو أن هذا المدخل الماكر هو الذي تسلل إليَّ منه الأستاذ عبد القدوس فنسيت نفسي وأنا أكتب كُلَّ هذا الكلام، فشكر الله لكم صبركم، وأبشروا فإنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب.

الحاسد إذا حسد

من نعم الله العظيمة عليَّ أني لم أعش أزمة الحسد المذموم الذي يجعل حياة أصحابه نكدة، وقلوبهم مظلمة، وحسراتهم متتابعة، وكل نعمةٍ على من يحسدونه فكأنما اقتطعت من أرزاقهم، وأُخذت من نصيبهم، ولذا فهم أول من يصطلى بنارهم ويشقى بشرهم الذي نستعيذ بالله منه ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

وكما أني عوفيت من معاناة الحسد لأحد فكذلك لم أشق بحاسد اعترض طريق حياتي، ولم أعش هاجس التوجس من حسد الذين حولي، وكم عجبت من علماء كبار يفتتحون كتبهم بالشكاية من حسد أقرانهم ومَن حولهم، وأحسبه كان حسدا متوهما فلكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه.

وليست العافية التي أنعم الله بها عليَّ نتيجة نقاء ومثالية، ولكنها إدارة للمنافسة بحيث تكون دافعاً محفزاً، وليست داء مدمراً.

فالذي ينافسك يريد أن يرتفع مثلك، والذي يحسدك يريد أن تهبط مثله.

ومن إدارة الحسد تحويله إلى عبادة وذلك بتوجيهه إلى الآفاق العليا التي تدرك خير الدنيا والآخرة، وهو ما ورد الترغيب فيه في قوله عز وجل: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

ولذا تعلمت أن أحسد أصحاب التميز في التفوق والتألق، ومحاسَدة هؤلاء مشروعة مرغوبة، وهي المذكورة في قول النبي ﷺ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا**».

وإذا جعلت هذا الأفق السامق هو أفق محاسَدتِك ومنافَستِك، صغُرت في عينك كثيرٌ من مطامع الحياة التافهة التي يتحاسد الناس فيها، ويتشاجرون عليها، وصرت تنظر إلى منازعتهم فيها كما تنظر إلى شجار الأطفال على لعبهم.

ولقد حسدت من أهل القرآن:

١- **الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله**، فما رأيت أحداً مثله بورك له في علمه وعمله وعمره، وشأنه كله.

٢- **الشيخ د. عبد الله دراز رحمه الله**، بعد أن قرأت كتابه الفائق: «النبأ العظيم»، ثم علمت أنه رجل قرآنيٌّ لا يقل ورده القرآني عن ستة أجزاء يومية، وأن هذه الصلة بالقرآن أورثته متانةً في شخصيته، ولذا ذهب إلى باريس دارسا وعاد متخرجاً من غير أن يتخلخل شيء من بنيانه، فكأنه كان يحلق فوقها من غير أن يهبط قاعها.

٣- **الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله**، والذي أراه عالم القرن من دون منازع، وأتعجب كيف استطاع إنجاز هذه المشاريع العلمية والتي هي صناعة قرون التميز والإبداع، وهو ممن لا تضعه إلا في طبقة الأئمة الكبار ابن عبد البر، والقرطبي، والقاضي عياض، فهو عينة من ذاك الجيل حضر إلى عصرنا.

أسأل الله أن يغفر لهم ويرحمهم ويجعلهم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

وحسدت من رجال المال:

١- **العم سليمان بن عبد العزيز الراجحي متعه الله**، فهو ممن آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، تعجب من دقته الاقتصادية في جمع المال، ثم من هوان المال عليه إذا أنفقه في خير، أو بذله في بر، وهو مع نفقاته الواسعة صاحب مشاريع خيرية

نوعية، وكثير من أعماله الخيرية كانت سبقا تبعه فيه غيره، مع أن ما ينفقه في السر أكثر مما ينفقه في العلن، وأن المشاريع العلنية إنما يشهرها ليقتدي به الآخرون فيها.

٢- **وحسدت أخي حمد الدوسري** على هواه في البذل والإحسان، بحيث تشعر أن نفسه تسابقه إلى ذلك، ولولا ما أعلمه من فضل الله لحسبت أنه حرم أجر مجاهدة النفس على البذل، فهو يبذل وكأن فعل الخير هواية يتمتع بها، أو شهوة يتلذذ بها، وأسرع قرار يتخذه في حياته النفقة في الخير ولا يستغرق التفكير فيه جزءاً من الثانية، وليس كالزواج الذي يتردد فيه بحيث يستغرق التفكير فيه أحيانا دقيقة كاملة.

ولقد رأيت فيه مشهداً من قول النبي ﷺ: «**ومثل المنفق كمثل رجل عليه جنة من حديد فكلما مد يده توسعت حتى تعفي بنانه**».

أسأل الله أن يجعلهم من أهل قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾.

وكما أني لم أَعش شقاء الحسد لأحد، ولم أشعر أن أحداً يحسدني، فإني لم أَعِش رُهاب العين وتخوفها على نفسي أو من حولي.

وكم أشفقت على أولئك الذين يُحقِّرون نعمة الله عليهم خوفاً أن يُحسدوا عليها، وربما عاشوا فقر التظاهر بالحاجات لعلهم يطفؤون عيون الناس عنهم، وبدلا من أن تكون النعمة نعيماً تصبح أزمة وقلقا.

وما أحسن التوسط والاعتدال في الانبساط بالنعم بلا سرف ولا مخيلة، والقصد بين التفاخر بها للفت أنظار الناس وإعجابهم، وبين تحقير النعم وإخفائها خوفاً من عيون الناس عليها، وقد جعل الله لكل شيءٍ قدرا، وإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، وأما بنعمة ربك فحدث.

حديث النعم

كثيراً ما استوقفني الخطاب الإلهي في هذه الآية: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، وكنت أتأمل أن الله ذكر المُتحدِّث، وهو المخاطب ﷺ، والمتحدَّث عنه وهو نعم ربك، ولم يذكر المتحدَّث إليه، فلم يقل فحدث أزواجك، أو أبناءك، أو أصحابك، وإنما قال: فحدث؛ ليشمل كل من يحسن بالإنسان أن يحدثهم بنعمة الله عليه، وأولى من يتحدث الإنسان إليه بنعم الله هو نفسُه، فيَذكُر ويُذكِّر نفسه بامتنانٍ ما أولاه الله من نعم لا ينالها كثيرون غيره، وهو ما كان النبي ﷺ يفعله كل ليلة، فكان إذا أوى إلى فراشه قال: «**الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا؛ فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي**».

وإذا استيقظ من نومه قال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**».

فانظر إلى هذه النعم المعتادة والتي قد تقتلُ بلادةُ الاعتياد الإحساسَ بها كيف كانت حاضرةً في ذكر النبي ﷺ وحديثه وشكره.

ولذا عشت أتعاهد نفسي بتذكر نعم الله عليَّ والحديث بها إلى نفسي.

فأتذكر نعمة الله عليَّ حين اختار لي أبوين صالحين، فنشأت بينهما على الإسلام والسنة ومكارم الأخلاق، وما دلاني إلا على خير، وما أمراني إلا بخير.

ومن نعم الله عليَّ أني عشت عمري مستظلاً برعاية أبي وأمي، متنعماً بصحبتهما أمتع الله بهما، فلم ألتع بيتم، ولم أشق بحرمان، وما زلت أصحب نعيم طفولتي في ظل أمي التي لا زلت صغيراً في عينيها لم أكبر بعد.

ومن نعم الله عليَّ أني عشت فترة عاصفة بالأهواء والشهوات، فلم تجترف يقيني شبهة، ولم تجتذبني غواية هوى، وإنما صحبت سكينة يقيني، وطمأنينة قلبي، وبركة إيماني، طوال مسيرة حياتي، والله يحفظني ويثبتني بقية عمري.

ومن نعمه عليَّ أني عشت موفور الصحة في بدني، مستغن برزق الله عليَّ، فلم يقعدني مرض، ولم يشقني فقر، وإن ألم بي هذا أو ذاك وقتا عابرا، فبقدر ما أتذكر به نعمة الله التي صحبتني طويلاً، وفضله الذي غمرني كثيراً.

ومن نعمه عليَّ أن أكثر من لقيتُ في مسيرة العمر أفاضلَ الناس وخيارَهم، وتحققت لي دعوة أهلنا في المغرب «الله يلقينا باللي أحسن منا»، وسلمت من شكاية الزمان وأهله، وذم هذا الناس الذين أنا منهم ولست بخيرهم.

ومن نعمه أني لم أبتل بلئام الناس أو أشقى بشرارهم، ولم أؤمن بهذه الجملة الظالمة المُظلِمة: «اتق شر من أحسنت إليه»، والتي يسميها بعضهم: حكمة، وتلك خديعة الطبع اللئيم.

فأكثر من لقيتهم أفاضل أهل وفاء ونبل، إن احتجت إليهم أحسنوا، وإن أحسنت إليهم شكروا.

ولا أشتكي من عقوق من أحسنت إليه، ولكن أشتكي من تقصيري في حق من أحسن إلي وهم كثير.

وكم شعرت بالضيق والكآبة وأنا أقرأ مذكرات سكرتير أحد الأدباء الكبار والذي صحبه آخر عمره، وكان يكتب ما يقوله هذا الأديب من غير أن يُشعِرَه، ثم نشرها بعد وفاته، فكان أكثرها شكايات من جحود هذا أو تنكر ذاك، وإساءة من أساء، وتقصير

من قصر، وبرغم اشمئزازي من عمل هذا السكرتير، فإني شعرت ببؤس الحياة التي يقضيها صاحبها وهو يتذكر صنائعه للناس، وما يتوهم أنه تقصير منهم في حقه.

ويالسعادة من وفقه الله أن يتذكر في كل موقف إحسان يقفه عظيم نعمة الله عليه أن جعله في موضع من يُحسن ولم يجعله في موضع من يَحتاج، وأن جعل يده العليا ويد غيره السفلى، وإن أقبح من عدم فعل المعروف فعلُه ثم ذكرُه ﴿قَوْلٌ مَّعْـرُوفٌ وَمَغْفِـرَةٌ خَيْـرٌ مِّن صَدَقَـةٍ يَـتْبَعُهَآ أَذًى﴾.

ومن نعم الله عليَّ أن أكرمني في كل مراحل عمري بأصدقاء رائعين طويت معهم أطوار العمر وتذوقنا طعوم الحياة، فكانوا الأنس في طريق العمر، والعون في شدائد الحياة.

ومن نعمه عليَّ أن رزقني بزوجة مباركة صحبتها فأحسنت الصحبة، وتحملت عني من أعباء الحياة ما جعلني أفرغ لشأني، وأقبل بكلي على ما يهمني، فكانت من نعم الله العظيمة عليَّ، أذكرها وأسرتها الكريمة، وإخوانها الذين هم إخواني بكل فخر، فقد كانوا نعم الصهر لي، والخؤولة لأبنائي.

ومن نعمه عليَّ أن رزقني بأبناء وبنات صالحين بررة، احتفوا بي حتى رأيت فيهم مشهد قوله عز وجل: ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾.

ولم أشق بأحد منهم في صحته ولا خُلقه، وصلاح الأبناء ليس شيئا يؤخذ بالأيدي ولكنه قبل ذلك هبةٌ من الله ونعمة من نعمه ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾.

ومن نعم الله عليَّ أن نسأ في عمري مستجمعاً عافيتي حتى حققت كثيراً مما كنت أطمح إليه في رحلتي العمرية هذه.

ومن نعمه عليَّ ما وفقني إليه من كُتيبات ألفتها، وأخرى لا زلت أكتبها.

وأسأل الله أن يرزقني فيها الصدق في القول، والإخلاص في القصد، والسداد في الرأي، وأن يجعلها من العلم المبارك الذي ينتفع به، ويتتابع أجره وذخره، إن ربي لطيف لما يشاء، إنه هو العليم الحكيم.

ومن نعمه عليَّ... ومن نعمه ... ومن نعمه...، يا ألله، لقد جعلتني في زحام من النعم فمتى أشكر واحدة من هذه النعم؟ ومتى أشكر كل هذه النعم؟ ومتى أشكر نعمك الأخرى التي لا أحصيها عدّا؟ ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

وسلام ربي ورحماته وبركاته عليكم أجمعين.

وكتبه:

عبد الوهاب بن ناصر الطريري أبا الخيل

الأربعاء: ٢٣ محرم ١٤٤٣هـ - ١٠/ ٠٩/ ٢٠٢١م

يلوا، سمانلي

رسائل لها تاريخ

أدركنا تلك الفترة التي كانت الرسائل الخطية ترسل من بلد إلى بلد وفي مظروف عليه طابع البريد، وكثيراً ما ترسل مع المسافرين يتداولونها يدا بيد، وكانت الرسالة الخطية تسمى عند العامة: (خط)، ولذا يقولون: الخط نصف المشاهد، وللرسائل في كل عصر صياغتها وروحها.

أما رسائلنا فكانت تأتينا غالبا من الأقارب في الزلفي، وفيها صياغة واحدة يتغير تاريخ الرسالة ولا يتغير مضمونها، من مثل:

بسم الله الرحمن الرحيم

جناب الخال المكرم ناصر العبد الله الطريري سلمه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد..

أحوالنا تسركم من كافة الوجوه، ولا ينقصنا سوى مشاهدتكم أدام الباري علينا وعليكم نعمة الإسلام، من عندنا الوالد، والوالدة، وأبو دحيم، وخالتي عمشا، وهيا الصالح، والمطوع يسلمون عليكم، وبلغوا سلامنا لخاصة نفسك والوالدة، وخالتي وضحى، وأم عبد الوهاب، وقصيرتكم أم ناصر، وأبو دخيل، وحمد الراشد، وياصلكم معه شوي تمر خضري مفتل، ومكتومي مكنوز عسى معه العافية.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وهذه الرسائل هي نوع من التواصل، وطمأنة المتراسلين على أحوال بعضهم، وأهم فقرة في الرسالة هي ما بعد كلمة: «ياصلكم»، والتي تشير إلى الهدية المرفقة مع الرسالة والتي يحملها عادة حامل الرسالة.

ثم انقرض هذا النوع من الرسائل بعد توفر وسائل التواصل وسهولة التخاطب المرئي بين الدول مهما تباعدت.

أما الرسائل التي سأذكرها فهي رسائل اخترتها لما لها من خصوصية وذكرى، وهي أشبه بالرسائل الوثائقية مرتبطة بحالة معينة، أو مشاعر خاصة، أو حدث بقي أثره وذكراه.

ومنها رسائل إخوانية ورسائل من مشايخي ورسائلي إليهم وهي:

١- رسالة إلى الشيخ ابن باز لطلب إلقاء محاضرة في الثانوية.

٢- رسالة من الشيخ ابن باز للتكليف بالدعوة.

٣-ررسالة إلى الشيخ د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بعد انتقاله من وزارة الشؤون الإسلامية.

٤- رسالة إلى أخي الشيخ عائض بمناسبة إهداء كتابه: «حدائق ذات بهجة».

٥- رسالة إلى الأستاذ تركي السديري رئيس تحرير جريدة الرياض مناقشة لمقال نشره في جريدة الرياض.

٦- رسالة إلى مدير مدرستنا الثانوية.

٧- ججواب أسرة الشيخ علي الطنطاوي على رسالة التعزية بوفاته.

رسالة الشيخ ابن باز

هذه الرسالة مرفقة بخطي حيث كتبتها عام (١٣٩٦هـ) وأنا طالب في المرحلة الأولى الثانوية لأطلب من الشيخ عبد العزيز بن باز محاضرة في المدرسة، وبمجرد أن قُرِئَت عليه الرسالة استجاب مباشرة، وهكذا كان، وحضر الشيخ إلى مدرستنا ثانوية اليمامة، وألقى محاضرة احتشد لها إداريو المدرسة ومدرسوها وطلابها في يوم حافل مشهود.

وقد حرصت على تصويرها لترى خط طالب في الأولى الثانوية يذهب على دراجته إلى الشيخ ابن باز يطلب منه محاضرة في مدرسته، فأجابه الشيخ فوراً بتحديد الموعد، وكأن كل فرصة لبلاغ العلم والدعوة إلى الخير تسنح له تتحول فوراً في نظره إلى واجب عيني.

وكم بقي مشهد الشيخ راسخا في ذاكرتي وهو يلوح بيده بعد قراءة الرسالة عليه قائلاً: يوم الثلاثاء يا أخ، فتجعلني ذكراها اتحرج من الاعتذار عن إجابة دعوة لكلمة أو مشاركة أدعى إليها، فرحم الله ذاك العالم النوراني الواعظ بحاله ومقاله حياً وميتاً.

وقد ذكرت قصة هذه الدعوة وتداعياتها مفصلة في ترجمة الشيخ ابن باز في الجزء الثاني من «**سماء الذاكرة**».

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الوالد عبد العزيز بن باز

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

إنني بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن منسوبي جمعية التوعية الإسلامية بالمدرسة وعن جميع الطلاب أتقدم إليكم بعاطر التحية وزكي السلام.

والدنا العزيز

لقد اعتادت هذه الجمعية أن تنظم لقاءات مع علماء المسلمين والطلاب الهدف منها توعيتهم وتحصينهم ضد ما يحيط بهم من شرور وما يدبر لهم من مكائد من أعداء الإسلام من شيوعي ملحد وصليبي حاقد ويهودي ماكر متفقون على تحطيم شباب الأمة بالغزو الفكري الخبيث خاصة على طائفة الشباب اليافعة مازالوا كالعجينة يشكلونه حسب ما يحيط بهم من ظروف وما يدس في أفكارهم من معلومات. خاصة وأن الشباب المسلم يعيش في ازدواجية بين مقرراته المدرسية وسلوك مجتمعه من الشباب وما يشاهده في المجلات والكتب فكل ذلك يجد فيه ما يناقض الإسلام وما يشوش أفكاره ويشتتها. لذلك حرصنا على تنظيم هذه اللقاءات وقد استجاب عدد من العلماء والمفكرين أمثال محمد عمر الداعوق رئيس جماعة عباد الرحمن والشيخ عبد الرحمن العتري وغيرهم. لذلك نرجوا أن تحددوا لفضيلتكم موعداً تشرفونا فيه بزيارة ولو قصيرة لتلتقي مع أبنائك الشباب الذين هم الآن على عتبة الجامعات حيث يتسلمون بعدها [illegible] مناصب المسؤولية في هذه الدولة وغيرها من دول الإسلام ولا يخفى على الله كم من رجالهم [illegible] كثير من تحقيق هذا [illegible] جيل مسلم يصدع بالحق ويتمسك بعرى دينه القويم. وحفظكم الله وسدد خطاكم

عبد الوهاب بن ناصر الطريري

رسالة من الشيخ ابن باز للتكليف بالدعوة

هذه الرسالة تلقيتها من الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله أرسلها لجمع من الدعاة منهم الشيخ سلمان العودة، والشيخ عائض القرني وغيرهم أظنهم قرابة خمسة عشر داعية، يحث فيها على الاستمرار في العمل الدعوي من كلمات ومحاضرات ودروس ونحوها، وكان هذا التوجيه من سماحته تحفيزا للمرسَل إليه، ومظلة رسمية لنشاطه حيث كان الشيخ رئيس الإفتاء والدعوة والإرشاد.

وهذه الرسالة مشهد من مشاهد عظمة الشيخ رحمه الله، فقد كان طاقة هائلة تسري إلى غيره، فهو يعمل ويستنفر غيره للعمل، ويجعل نفسه وقاية لأهل العلم والدعوة أمام المسؤولين، وتأمل قوله فيها: «ونحن مستعدون للتعاون معكم في ذلك، والتفاهم مع ولات الأمر فيما قد يعرض لكم في هذا السبيل».

يا لله أين من يستنفر الدعاة في بداية طريقهم للدعوة، ويحفزهم ويجعل نفسه وقاية لهم أمام المسؤولين.

ومن يجعل منهم قرابين يتقرب بثلبهم وإدانتهم إلى المسؤولين، لتبقى الدعوة إحدى مقتنياته الشخصية، أو هكذا يظن.

وإني إذ أنشرها اليوم لا مفتخراً بها، ولكن مذكِّراً ببعض مناقب هذا الإمام، وشاهداً بما شهدت منها.

وإني لأستحي من الله ومن الشيخ أنني لم أكن ولا إخوتي على مستوى طموح الشيخ واستنفاره لنا، ولم نسد بمجموعنا المكان الذي سده وحده.

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد
مكتب الرئيس

الرقم: ٢١١٥٦/خ
التاريخ: ١٤١١/٩/١٠
المرفقات:

الموضوع

من عبدالعزيز بن عبدالله بن باز الى حضرة الأخ المكرم صاحب الفضيله الشيخ عبدالوهاب بن ناصر الطريري وفقه الله لمافيه رضاه وزاده من العلم والإيمان آمين

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته أمابعد : ـ

فنظرا لحاجة الناس اليوم الى الوعظ والتذكير والإرشاد ولمالفضيلتكم من الجهود المشكوره في هذا المجال والقبول والتأثير نسأل الله أن يثيبكم على ذلك . فإني أرجو من فضيلتكم مواصلة الجهود في ذلك والصبر على دعوة الناس الى الخير وتذكيرهم بماخلقوا له من توحيد الله وطاعته وتشجيع اخوانكم من اهل العلم على ذلك لمالايخفى على الجميع من فضل الدعوة الى الله سبحانه وشدة حاجة المسلمين وغيرهم اليها وذلك عن طريق المحاضرات والدروس والإجابه عمايشكل عليهم في امور دينهم والتعاون على البر والتقوى . ونحن مستعدون للتعاون معكم في ذلك والتفاهم مع ولات الأمر فيمافد يعرض لكم في هذا السبيل . فسيروا على بركة الله وابشروا بالأجر العظيم والذكر الجميل وحسن العاقبه التي وعد الله بها المخلصين الصادقين . نسأل الله أن يجعلنا واياكم منهم وأن يصلح قلوبنا واعمالنا ويجعلنا جميعامن انصار دينه والدعاة اليه على بصيرة وأن يوفق حكومتنا وعلى رأسها خادم الحرمين وجميع المسئولين لكل مافيه رضاه وصلاح أمر عباده إنه جوادكريم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الرئيس العام
لإدارات البحوث العلميه والإفتاء والدعوة والإرشاد

رسالة إلى د. عبد اللّٰه التركي

لمعالي الشيخ د. عبد الله بن عبد المحسن التركي مسيرة من الإنجاز الضخم، والعطاء الغامر، وكان مديرا لجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم وزيراً للشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، فلما انتقل عن الوزارة، كتبت إليه هذه الرسالة، وكنت أغنى من أن أتزلف بمدح، وكان أغنى من أن يتكثر بمديح، ولكنها كانت ذكراً وشكراً وعرفاناً بجهاده وعطائه، وعظيم إنجازه.



معالي الشيخ
د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الأخ الأكبر أبي فهد

معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي سلمه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. تحية من عند الله مباركة طيبة، وبعد..

فإني أحسب أنك لم تكن أزهد في الثناء منك اليوم، ولا أحسبني أغنى عن الإطراء مني اليوم، ولكني أحببت أن أفيض إليك دفقة من بحر كان يمور في صدري، ما كان يجمل بي أن أباديك به قبلا، فاقبل –قبلك الله– حديث من كان يرمقك بحب، ويتطلع إليك بإعجاب، ويخافت لك في ظهر الغيب بالدعاء.

- هنيئا لك اليوم حسن ثناء الناس عليك، ووفاءهم لك، فما نلقى إلا مثنيا، ولا نسمع إلا داعيا، إن الأوفياء لفضلك كثير، أحبوك ولم يلقوك، وأثنوا عليك وإن لم يسمعوك، وهذا أخلص الحب وأصدق الثناء، لم تربطهم مصالح الدنيا الزائلة، ولكن آصرة المحبة الباقية.

- وهنيئا لك أنك لم نجد عليك ومبغضا لك إلا أحد رجلين: إما مستبطن دغلا على الدين؛ فهو ينقم عليك ما يرى من حسن بلائك لدينك.

وإما مخذول أخلد إلى الأرض واتبع هواه، فهو يحسدك أن لم يبلغ شأوك، فليهنك أن هؤلاء وأولئك ليسوا لك بأولياء.

يا أبا فهد، لإن قالت خديجة لرسول الله ﷺ: «**والله لا يخزيك الله أبدا**»، فإنما كانت تشير إلى سنة باقية، لكل من أخذ بها نصيبه منها، وإنه لحق على كل من عرفك أن يقول: والله لا يخزيك الله ولا يحزنك أبدا، فقد كنت تصل الرحم، وتحمل الكل، وتعين على نوائب الحق، ولا يكون أعرابي جاف أفقه منا يوم حين قال:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

لقد أجريت للخير أنهاراً لا تزال ثرة دافقة، وأبقيت معالم خالدة، ففي كل أرض لك أثر، وعلى كل لسان عنك خبر، وكنت مسددا مهديا في جل ما تأتي وتذر.

- أقمت ذاك المشع العلمي الباذخ، فأسست أركانه، وأعليت بنيانه، وأبقيت به علما ينتفع به من بعدك، فتق بذكر الله الألسنة، وأضاء بنور الله القلوب، وسيبقى لك على كل متعلم فيه حق الأبوة، وحرمة العلم.

- وهبك الله طاقة لم يؤت مثلها أكثر البشر، وليست هي مزيتك، ولكن الميزة أنك سلطتها على هلكتها في الحق، وسخرتها في الخير، فكانت إنجازا متواليا، وعطاء متجددا، لم تغب شمس يوم إلا وقد أغلقت خزائنه على عمل مبرور، وخير مذخور، وأثر خالد.

- قصدت إلى عظائم الأمور، وجليل الأعمال يوم عجز غيرك عن صغارها، وتلهوا بسفاسفها، فمضيت وقعدوا، ووصلت وانقطعوا.

جرى معك الجارون حتى إذا انتهوا إلى الغاية القصوى جريت وقاموا

ونحن نعلم أنك دفعت ثمن ذلك غاليا من راحتك، وصحتك، وصفو خاطرك، وهنائك في بيتك ومع أسرتك.

ولكن أبشر فقد كنت تعمل وتحسن العمل، وربك لا يضيع أجر من أحسن عملا.

وكنت تعمل عملا خيِّرا طيبا مباركا فيه، وإن ربك لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما.

يا أبا فهد، ليست العبرة بالدوام في المناصب، فلو دامت لغيرك ما وصلت إليك، ولكن العبرة بما أنجز من العمل، وما بقي من الأثر، ولقد أنجزت جليل الأعمال، وأبقيت أثرا لا يغسله الماء، ولا يبليه كرُّ الإصباح والإمساء.

لقد كنت في الجامعة فكنت وإياها ملء السمع والبصر، فلما ذهبت عنها تنادى

الأخيار كلما حزبهم أمر «ليت للبرَّاق عينا فيرى»، فإذا ادلهمت عليهم الظلم صاحوا أجمعون: «وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر»، عندها آمن بك من كانوا كافرين، وعلموا أن الجامعة كانت ترتفع بك ولا ترفعك، وتعلوا بك ولا تعليك، وأن الرئاسات تضخم بك وإلا فأنت الضخم القوي الأمين.

- أما الوزارة فأنت أتيتها وهي هلام لم تتخلق، فدفقت في شرايينها من دمائك، وفي روحها من حياتك، ثم دفعتها بكلتا يديك فأخرجتها من نفق كظيظ الزحام حتى أوقفتها في المقدمة، فما أعجب أمرك، لقد كان أمرك كله عجبا.

- أي أبا فهد لقد جهد أناس أن يمحوا أثرك بآثارهم فما أكربوك بل ما أكرثوك.

فلقد علوت فما تبالي بعد ما عرفوا أيحمد أم يذم القائل

لقد جدوا وجهدوا فما بلغ سعيهم ريثك، ولا بلغوا بها معشارك، ووالله إن قليلك لأكثر من كثيرهم، وإن شمالك لأبر من أيمانهم، وإن قفاك لأصبح من وجوههم.

وما استطاع منتهى جَهْدهم إلا أن يكونوا دليلا آخر على نبوغك وعبقريتك وبركة عمرك وجهدك.

ما كل من طلب المعالي نافذا فيها ولا كل الرجال فحولا

وكأنما بعثهم الله آية ليدل بعجزهم على حزمك، وبوهنهم على جدك، وبكللهم على مضائك، وبتدنيهم على فضلك وعلوك، فنشر بهم ما طوي من فضائلك.

إن قدرك يا أبا فهد ليس باسم المنصب الذي يقرن باسمك، ولكن باسمك المقرون بجلائل الأعمال، وعظائم العزائم، وضخامة المنجزات، وقد كبرت مناصبك لأنها أسندت لكبير، وعظمت مآثرك لأنها من صنع عظيم.

فلله أنت يا أبا فهد حزما، وعزما، وقوة نفس، وسداد رأي، وحكمةً إذا اختلطت الآراء، وثباتا إذا اضطربت الأمور، فيا صاحب المعالي:

هكـذا هكـذا تكـون المعالـي طـرق الجـد غيـر طـرق المـزاح

- أي أبا فهد لإن تركت ذلك المنصب السابق فقد أبقى الله لك ما هو خير، أبقى لك فكرك، وعلمك، وطاقتك، وإبداعك، ولموعك، وإن هذه الطاقات ستجد مساغها أينما كان موقعك، كما يتدافع الماء بين جنادل الصخر.

وسيبقى لك مع ذلك ثناء يعطر المجالس كلما ذكرت، ومآثرٌ خالدةٌ تذكر بك، وتدل عليك، وتنطق باسمك.

وما نحتسبه عند الله عز وجل من مذخور الأجر توافيه أحوج ما تكون إليه خير وأبقى، فعند الله عز وجل تحتسب بذلك وعطاءك وجهادك، يوم كنت جادا والناس ركود، ومتيقظا والناس في غفلة، فأتيت الأمور في إبَّانها، وسبقت إليها قبل فواتها، ثم جاء على إثرك بشر كثير، ولكن قد قال الله: ومن أصدق من الله قيلا: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

أدام الله عزك، وأعلى قدرك، ورفع ذكرك، -وقد فعل- وآتاك ربك جوامع الخير وخواتمه، وأوائله وأواخره، وأسعد قلبك بصلاح ذريتك، وبارك لك في كل ما آتاك، وجعلك مباركا حيثما كنت، موفقا حيثما توجهت.

وسلام ربي ورحماته وبركاته عليك وعلى والديك.

من أخيك المحب

عبد الوهاب الطريري

٢٥/ ٠٣/ ١٤٢٠هـ

رسالة إلى الشيخ عائض القرني

أهدى إليَّ أخي الشيخ عائض القرني كتابه المبهج: «حدائق ذات بهجة»، وهو كتاب رائق له من اسمه نصيب، فأرسلت له هذه الرسالة شكرا على الإهداء، وإعجابا بالكتاب، ورجاء إليه أن يتبع الحسنة الحسنة، بكُتبٍ على نَسقِه الشائق الرائق.



أخي الشيخ
د.عائض بن عبدالله القرني

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أبي عبد الله عائض بن عبد الله

سلام الله عليك ورحمته وبركاته .. وبعد.

فلقد تلقيت هديتك الكريمة وأشهد أنك وفقت غاية التوفيق، وفقت في التسمية، ووفقت في الفكرة، ووفقت في الصنعة، فجاء كتابك «حدائق ذات بهجة».

إن هذا النوع من التأليف هو الأنسب اليوم، إذ تحسن منه ما لا يحسن غيرك، وهو الأرفق بالناس الذين ناؤوا بترهل الكتب، وتاهوا بين الأصل والهامش، فجاء كتابك كالشهد على الزبد، لا يقرأ القارئ منه قليلا أو أقل من القليل إلا وأحاط بفكرة، وأفاد فائدة.

ماذا لو ألفت كتابا ضخما في التفسير، إذن لتاه بين حشد من كتب ليس أولها «تفسير ابن جرير» ولا آخرها «فتح القدير»، ماذا لو ألفت كتابا مستوعبا في الحديث، إذن لدفن بين ركام كتب ليس أولها «الكفاية» ولا آخرها «النهاية»، أما ما كتبت فهو الإضافة وهو الجدة.

من الذي ممن لقيتهم قرأ «زاد المسير» لابن الجوزي، أو «المدهش»، أو «المرعش»، أو «المنعش»، أو «بستان الواعظين»؟! ولكن كم الذين قرؤوا «صيد الخاطر» وكرروه وأفادوا منه، وهذا باب واسع يحتمل المزيد وليس كل يحتمل أن يزيد.

أحسنت في هذا الكتاب –أحسن الله إليك– فجمعت جمال الفكرة وجمال الكلمة وبلاغة الأسلوب، فجاء ثمرة شهية في طبق جميل.

وأعجبني اقتصادك في التعبير، فلا إطناب ولا إملال، ولا غموض ولا إبهام، وقارنتُ كتابك بمقالات طوال تلهث وأنت تجري من مبتداها إلى منتهاها لتنتهي بعد ذلك إلى فكرة تحملها على رأس الدبوس لا ترى بالعين المجردة، فقلت: جعلوا فداك.

أخي أبا عبد الله عرفت فالزم، فأتبع الكلمة الكلمة، والفكرة الفكرة، والمجلد المجلد، فإن الكثير من القليل كثير، ولئن علم كل أناس مشربهم، فإنك استعذبت المشرب، ووردت الزلال، فاستقيت وسقيت، وارتويت وأرويت، فحيهلا بك.

وسلام من الله عليك ورحمة منه وبركات.

أخوك عبد الوهاب

١٦/ ٠٥/ ١٤١٩هـ

رسالة إلى الأستاذ تركي السديري رحمه الله

كتب الأستاذ تركي السديري رحمه الله، وكان رئيس تحرير جريدة الرياض مقالا في عموده اليومي (لقاء)، في عام (١٤١٧هـ) ردا على الدكتور عبد الله النفيسي، وانتقد فيه المشايخ الذين كانوا موقوفين حينها في سجن الحاير، ووصفهم بأنهم: (يقودون حربا إعلامية ظالمة، تشوه الحقائق، وتكذب على الرأي العام، وتدعو للعودة إلى عصور ظلامية، ويكذب من يدعي نفسه عالما فيزعم أن القوات الأجنبية متواجدة في مكة والمدينة)، فكتبت له هذه الرسالة أرد بها عنهم ما وصفهم به، وأناقشه فيما ذكره، مع حرصي أن أنفذ منها إلى موعظة عامة وذكرى لمن يخشى، مع حفظ مقامه ومقداره، وبمجرد وصولها له كتب في عموده رداً هادئاً عليها من غير أن ينشرها، ولذا وجدت من المناسب إعادة نشرها.



الأستاذ تركي بن عبدالله السديري
رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

أستاذي العزيز أبو عبد الله تركي السديري سلمه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تحية من عند الله مباركة طيبة، وبعد..

أستاذي العزيز: لقد تَفتَّح وعيي على القراءة واسمك في الصحافة وضيء، وعمودك شامخ، وكان «لقاء» لقائي مع الكلمة المؤثرة، والأسلوب الجميل، والوثبة الفكرية، بدأتُ معه صغيراً وأنت كبير، ثم كبرتُ أنا وكبرتَ في نفسي أكثر، وازدادت ثقافتي ومعارفي وازداد معها إعجابي بك وتقديري لك.

بدأت مع زاويتك وأنا طالب في أول المرحلة المتوسطة، واليوم وبعد الجامعة والماجستير والدكتوراه لا تجدني إلا كما كنتُ حرصاً ولهفة، بل أكثر من ذلك بكثير.

إنني أشعر بالزهو إذا ذكرت الأستاذ تركي السديري علامة ضخمة في تاريخنا الفكري، وقيادة عبقرية في مسارنا الصحفي، فبورك يومك وغدك كما بورك أمسك.

واليوم هل يأذن أستاذ كبير لتلميذه القديم بمناقلة فكرية تثبت له أن من يقرأون له أوفياء لعموده وقلمه، لقد قرأت تعليقك على مقابلة الدكتور النفيسي الذي قلت فيه: «في تلك الظروف العصيبة كان من يسميهم الدكتور النفيسي أبرياء يكتفون بالنصح يقودون حرب كاسيت إعلامية ظالمة تشوه الحقائق، وتكذب على الرأي العام، وتدعو للعودة إلى عصور ظلامية، ويكذب من يدعي نفسه عالما فيزعم أن القوات الأجنبية متواجدة في مكة والمدينة».

هل يأذن أستاذي العزيز بطرح نوع من الاستشكال حول هذه الجملة؟

١- هل يمكن طرح تعريف محدد لكلمة العصور الظلامية؟

ثم هل يمكن وضع مفردات لهذه الكلمة ثم تطبقها على هؤلاء الموصوفين بها حتى يتبين مدى صدق هذا الاتهام؟

٢- لا شك أن أستاذنا يعلم أن الظلامية وصف أوروبي لعصور الطغيان الكنسي، فعندما نترجم هذا التعبير إلى واقعنا فهل يمكن أن نحدد نحن عصورنا الظلامية ما هي؟

٣- ألا يشاركنا أستاذنا الرأي أن الاستعمال الصحفي اليوم لكلمة الظلامية هو كالاستعمال السابق لكلمة الرجعية التي اتهمت مملكتنا السعودية بها طويلاً وكثيراً، وهي كلمة مبهمة مدغمة تستعمل للسب والنبز والتنقص دون أن يمكن تحديدها في تعريف، أو توضحيها بمفردات وأمثلة.

٤- ألا ترى أستاذي الكريم أن الدولة وهي التي سجنتهم لم تتهمهم بما ذكرت، ولم تصفهم بما وصفت مع أنها أذاعت على الملأ حيثيات إيقافهم.

٥- ألا يرى أستاذي الكريم أن السجن لا يعني التجريم أو الاتهام بالظلم أو الكذب، بل للسجن أسباب أخرى كثيرة ومتنوعة، تبرره من وجه دون تجريم أو زراية.

٦- ولذا فإن في مؤسسة اليمامة كتابٌ هم الآن مِلء السمع والبصر ولم يضرهم أنهم كانوا يوماً سجناء للدولة لمواقف معينة، ولم تنظر الدولة لها اليوم على أنها سوابق إجرامية، ولا يراها المحترمون من الناس أيضا كذلك.

٧- ألا يرى أستاذنا أن ما حدث سابقا وما يحدث للإخوة الذين تحدثت عنهم هي من نوع الخلافات التي تحدث في البيت الواحد، وهي اجتهادات من مفكرين وأساتذة جامعيين يقابلها اجتهاد الدولة في حفظ استقرار الوطن من دون تجريم أو اتهام بالظلم والكذب.

٨- هل يأذن لنا أستاذنا الكريم أن نسأل من الذي قال من هؤلاء إن القوات الأجنبية متواجدة في مكة والمدينة؟ وأين قال ذلك؟

لأن الذي نعلمه من خلال سماع الكاسيت المشار إليه في مقالكم أن أحدا منهم لم يقل ذلك، فكثيرٌ من أستاذنا الكريم طرح هذه التهمة الكبيرة دون إثبات أو تثبت.

٩- إن كل ما يمكن إثباته هو أن واحدا من هؤلاء المسجونين دعى إلى عدم الاستعانة بالقوات الأمريكية لمحاذير معينة ذكرها في حينه، فهل يعتبر ذلك دعوة إلى عدم تحرير الكويت أو ادعاء بأن القوات الأجنبية وصلت الحرمين؟

١٠- لماذا يا أستاذنا الكريم لا نفهم هذا الموقف على أنه حرص على الوطن وإن اختلفنا معه في صوابه؟ وأثبتت الأحداث اللاحقة أن كثيراً مما كان يتوقعه ويخشاه لم يحصل منه شيء.

١١- ألم تقم في أمريكا نفسها مظاهرات ضد الاشتراك في عملية عاصفة الصحراء، ورفعت شعار: «الدم ليس ثمنا للنفط»، ومع ذلك لم يصنفوا بأنهم كاذبون، أو يقودون حربا ظالمة، وأنهم ليسوا بأبرياء.

١٢- ألا يرى أستاذنا الكريم أن مزايدة الدكتور النفيسي بوضع هؤلاء لا يعتبر مبررا كافيا للتطاول عليهم بمثل ما ذكر في المقال، وأنه كان يمكن الرد على النفيسي دون تعريض بغيره، فضلا عن هذا الطعن الجارح بحق هؤلاء.

١٣- إنني هنا لأذكر ذلك الموقف الرائع لمعالي سفير خادم الحرمين في لندن الدكتور غازي القصيبي والذي سُئل عما جرى بينه وبين بعض هؤلاء المسجونين من ردود ومنازعات؟

فأجاب بأن هؤلاء في وضع لا يُمكِّنهم من الرد على ما يقال عنهم، وليس من المروءة ذكرهم وهم لا يستطيعون مناقشة ولا حوارا.

لقد كانت عفةً من الدكتور أبي سهيل عن الاستطالة في عرض هؤلاء وهم على هذه الحال، وتلك المروءة فضيلة وشرف أعلم أنه لا ينقصك.

١٤- ثم ألا يرى أستاذي الكريم أنه يمكن الرد على طروحات النفيسي وهلهلتها من مقتدر مثلك دون الهجوم على غيره من دون بينة ولا تثبت.

١٥- وثمة نقطة أحسبها مهمة وهي أن السعودية قيادة وشعبا وقفت موقف المروءة والرجولة مع الإخوة الكويتيين، وهو جميل ستتوارثه الأجيال ويتعطر بذكره التاريخ، ولكن ينبغي ألا يفتت هذ الجميل بكثرة التذكير به، وألا يتبع بالمن والأذى من قبل الصحافة والصحافيين خصوصا أننا نرى القادة في هذه البلاد لا يذكرونه، وإن ذكروه فعلى أنه واجب أدوه، وهذا الموقف من المسؤولين جميلٌ آخر، ومكرمة إثر مكرمة.

١٦- إن أستاذنا الكريم قد كوَّن قاعدة عريضة من القراء، وهم على كثرتهم نوعية متميزة في ثقافتها ووعيها جمعها الأستاذ تركي من خلال تاريخ طويل، وهؤلاء يستحقون أن تقدم لهم الفكرة مدعمة بالأدلة موثقة بالبراهين، تراعي تميزهم العقلي والثقافي، إن من حقك أيها الأستاذ أن تفخر بنوعية قرائك، وإن تسبب ذلك بالجهد والتعب لإقناعهم.

١٧- أيها الأستاذ الكريم هذه كلمات كتبتها إليك على استحياء فإن رأيت فيها صوابا فأنت أولى الناس بقبول الحق والحفاوة به، ولو كان من قارئ كان يوماً تلميذا لك.

أما إن رأيت خطأ أو جنوحا فحسبك أن تعلم أن الدافع له الحب والتقدير، والغيرة على كاتب كبير، وأن كاتبه كان صادق الدعاء لك في مرضك وعافيتك سائلا المولى القدير أن يلبسك الصحة والعافية ويصرف عنك السوء، وأن يريك في أبنائك وبناتك ما تقر به عينك ويسعد به قلبك.

١٨- كما أرجو أن يتذكر أستاذنا أن أعظم ما دفعني إلى الكتابة هو الصدق مع من أحب وأقدر، فإن أخاك من صَدَقك لا من صَدَّقك، وأن أذكر أستاذي أن من أعظم ما يلقى الله به الصدق في القول والعمل، وقد قال نبينا ﷺ: «**ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا**». أسأل الله أن يرفع مقامك مع الصديقين.

١٩- إن هذا العمر مهما تطاول في نعمة وصحة وعافية فلابد من لحظة المغادرة من هذه الدنيا والمنقلب إلى من بدأ الخلق وهو يعيده، والوقوف بين يدي الخالق الذي أنشأنا أول مرة، وإنه مهما وقعنا فيه من خطأ أو إثم فإن لنا رجاء واسعا في رحمة الرب الرحيم وعفوه، ولكننا نحذر أن نلقاه بخطيئة بالفعل أو القول في حق أحد من عباده ربما كان أزكى وأبر منا عند الله عز وجل.

٢٠- على أن هذا لا يعني أني أرى أن هؤلاء والذين تحدثت عنهم بمعزل عن النقد والمناقشة والتخطئة، كلا ولا غيرهم.

ولكن بعد الاستماع لأشرطتهم، والقراءة في كتبهم، ثم عرض الخطأ بطريقة «قال كذا في كتاب كذا» و«قال كذا في شريط كذا»، وهنا يكون النقد بناءً والمعالجة هادفة، ويكون أول المستفيدين من هذا من يُعرض فكره للنقد، وتُطرح آراؤه للمناقشة.

وبعد هذا فإني أشعر أن صدرك قد اتسع بما فيه الكفاية، فشكر الله لك صبرك ورحابة صدرك، وأدام عليك توفيقه وتسديده وهداه.

والسلام عليك

وبمجرد وصولها كتب من الغد في عموده «لقاء» رداً جاء فيه:

أرجو أن تسمح لي في البداية أن أحيي فيك رحابة الصدر، وبَذلك أقصى المحاولات في أن تكون موضوعياً محايداً وأنت تعرض أفكارك، وفي نفس الوقت أتمنى أن يملك كل المختلفين حول مفهوم ما في بلادنا مثل ما أنت تملك من مستوى ناضج في الطرح أطربني وأنت تختلف معي، وهو أكثر مما كان سيحدث لو كنت متفقاً معي... إلخ[١].

(١) صحيفة الرياض، الإثنين (١٠/ ٠٩/ ١٤١٩هـ).

إلى مدير مدرستنا الثانوية

كان أستاذنا عبد الرحمن الثاقب العجاجي مدير ثانوية اليمامة حين كنا طلاباً بها، وكان يجمع مع الشخصية الحازمة الصارمة أبوة ورعاية للطلاب، ولذا بقي في ذاكرتنا وذكرانا.

فأقام له أهل بلدته ضرماء حفل تكريم حافل، فكتبت إليه هذه الرسالة لتكون ضمن فقرات الحفل؛ تحية عرفان وتذكرة وفاء:



الأستاذ عبد الرحمن الثاقب العجاجي
حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

عرفناه صغاراً وهو كبير، ثم كبرنا وبقي كبيراً في نفوسنا، كان مديرا في ثانوية اليمامة فصنع لهذه المدرسة مكانة كأنها جامعة أكسفورد، كان في المدرسة أكثر من ألف طالب، لكنهم كانوا في غاية الانضباط كأنهم فرقة عسكرية، لم يكن يديرنا بالشدة والعنف ولكن بالهيبة والاحترام، كان مربيا بالموهبة، قائدا بالفطرة، مستحوذا على احترام وإعجاب كل من حوله.

أتذكره فأتذكر المخلص في عمله، المؤمن برسالته، المشع بالتأثير فيمن حوله.

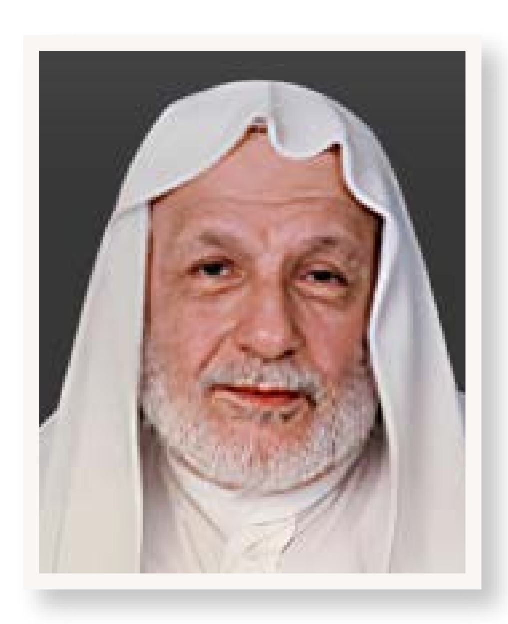
كنا طلابا ننظر إليه بهيبة واحترام، واليوم نتذكره بإعجاب وحب، فهنيئا لك أبا سعود عبد الرحمن بن سعود العجاجي هذه الذكرى الحسنة، والأثر الجميل في نفوس طلابك، وهنيئا لنا أَنا كنَّا طلابك يوماً ما، وأنا عبرنا في طريق حياتنا من تحت يدك، شكر الله لك وسلام ربي ورحماته وبركاته عليك وعلى والديك.

١٤٣٥هـ

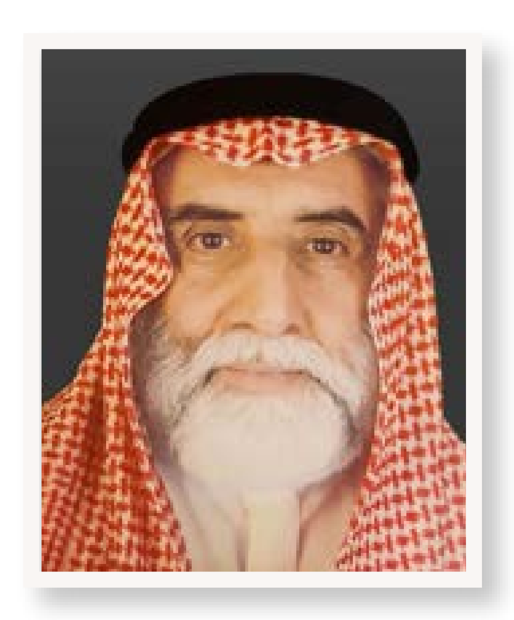
رسالة من أسرة الشيخ علي الطنطاوي

جواباً على رسالة التعزية بوفاته رحمه الله

لما توفي الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله أرسلت رسالة تعزية إلى أسرته الكريمة، زوجته وبناته، فأرسل إلي صهره الأستاذ محمد نادر حتاحت رحمه الله[١] هذه الرسالة الكريمة والتي هي أبلغ مما كتبته، وخير مما أرسلته:



الشيخ علي الطنطاوي
رحمه الله



الأستاذ محمد نادر حتاحت
رحمه الله

(١) الأستاذ محمد نادر بن تيسير حتاحت، هو صهر الشيخ علي الطنطاوي زوج ابنته الصغرى يمان؛ وهو صاحب دار المنارة في مدينة جدة، وناشر كتب الشيخ الطنطاوي والمعتني بها، وله بالشيخ خصوصية ورعاية وعناية، توفي رحمه الله عام (١٤٣٨) للهجرة.



الأخ الحبيب، والمحب الوفي الشيخ عبد الوهاب الطريري حفظه الله، وسدد على دروب الخير خطاه، وشكر له ما خطته يمينه بل مانطق به قلبه وفي رثائه الوالد الغالي الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله وأكرم مثواه.... وبعد، فقد شرفني آل الطنطاوي أن أرد بالشكر منهم لمن واساهم في فقيدهم، فقد كان يشرفني أن أكتب عنه في حياته، فكلفوني أن أكتب عنهم بعد مماته... فدفعوا إلي مجلداً يحتوي على أكثر من أربعمئة رسالة تعزية، فشرعت أرد بكلمات مألوفات مما يقال في مثل هذه المناسبات حتى وصلت إلى رسالتكم فتهيبت وتوقفت أتأملها... وقرأتها مرة بعد مرة... ولم أدر كيف أبدأ، فقد يعجز البنان عن البيان، لأنني لم أجد فيما قرأت أصدق ولا أخلص ولا أوفى منها، فقلت أكتب لأخي مايجول بخاطري وأستميحه العذر لتقصيري... فقد أحببتك في الله عندما سمعت عنك، وزاد حبي لك عندما التقيت بك مع إخوانك في ليلة من ليالي رمضان بمنزل العم رحمه الله في مكة المكرمة... واستمعتك تقول للشيخ أنك قرأت ذكرياته وعشت معها حتى أنك أحببت من أحب وكرهت من كره بسرت لمسرته وبكيت لبكائه... ثم سعدت بلقائك في زيارتك الأخيرة للشيخ بمنزله بحي العزيزية في جدة، فأحببتك لحبه ولما وجدت عندك من وفاء قل نظيره... فجزاك الله خير الجزاء على ماكتبته وعلى مادعوته.. فثواب الله خير لك وأبقى من كلمات الشكر التي عجزت عنها، والحمد لله على قضائه وقدره... والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

أخوك المحب: محمد نادر حتاحت

من آل الطنطاوي

٨/٥/١٤٢٠

جدة – هاتف ٦٦٠٣٦٥٢ – فاكس ٦٦٠٣٢٣٨ – ص.ب ١٢٥٠ جدة ٢١٤٣١
المملكة العربية السعودية

نص الرسالة

الأخ الحبيب والمحب الوفي الشيخ عبد الوهَّاب الطريري، حفظه اللهُ وسدَّد على دروب الخير خطاه، وشكر له ما خطَّته يمينه، بل ما نطق به قلبه في رثائه الوالد الغالي الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله وأكرم مثواه.

وبعدُ:

فقد شرَّفني آل الطنطاوي أن أرد بالشكر عنهم لمَن واساهم في فقيدهم؛ فقد كان يفوِّضني أن أكتب عنه في حياته، فكلَّفوني أن أكتب عنهم بعد مماته، فدفعوا إليَّ مجلداً يحتوي على أكثر من أربعمئة رسالة تعزية، فشرعتُ أرد بكلمات مألوفات مما يُقال في مثل هذه المناسبات، حتى وصلتُ إلى رسالتكم، فتهيَّبتُ وتوقَّفتُ أتأمَّلها، وقرأتُها مرة بعد مرة، ولم أدر كيف أبدأ، فقد عجز البنان عن البيان؛ لأنني لم أجد فيما قرأتُ أصدق ولا أخلص ولا أوفى منها، فقلتُ: أكتب لأخي ما يجول بخاطري، وأستميحه العذر لتقصيري، فقد أحببتك في الله عندما سمعت عنك.

وزاد حُبِّي لك عندما التقيتُ بك مع إخوانك في ليلة من ليالي رمضان بمنزل العم رحمه الله في مكة المكرمة، واستمعتك تقول للشيخ: إنك قرأت ذكرياته وعشت معها حتى أنك أحببتَ مَن أحب وكرهتَ مَن كره، وسُررتَ لمسرته وبكيتَ لبكائه.

ثم سعدتُ بلقائك في زيارتك الأخيرة للشيخ في منزله بحي الفيصلية في جدة، فأحببتُك لحبِّه، ولما وجدتُ عندك من وفاء قلَّ نظيره.

فجزاك اللهُ خير الجزاء على ما كتبتَ وعلى ما دعوتَ، فثواب الله خير لك وأبقى من كلمات الشكر التي عجزتُ عنها.

والحمدُ لله على قضائه وقدره.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

أخوك المحب: محمد نادر حتاحت

عن آل الطنطاوي

٨/ ٥/ ١٤٢٠

حلقات بودكاست (سماء الذاكرة) المصورة



الحلقة الأولى:

(من الطفولة إلى الجامعة).



الحلقة الثانية:

(سنوات الجامعة،

وحكاية الخطابة).



الحلقة الثالثة:

(عالم الكتابة،

والمسيرة مع السيرة).



الحلقة الرابعة:

(خلاصة تجارب الحياة).

فهرس الموضوعات

كتب للمؤلف

١- قصص نبوية.

٢- اليوم النبوي.

٣- الحياة النبوية.

٤- أماكن نبوية.

٥- كأنك معه.

٦- حديث الغدير.

٧- القبر المقدس.

٨- الآثار النبوية.

٩- سنام الإسلام.

Email: altriri@gmail.com

Twitter: /altriri

Facebook: @Abdulwahab.altriri

YouTube: /c/AbdulwahabAltorairy

Telegram: t.me/altriri

WhatsApp: +905444055516



إن الصدق الذي أتحراه في هذه المذكرات ألا أقول إلا حقاً، وألا أدعي كذباً، وليس أن أفشي سراً أو أهتك ستراً.

ولن أسلك لإثبات الصدق أن أعترف بما أعرفه عن نفسي من ذنوب وعيوب، فأكشفَ سترَ الله الجميل، ولن أجمع إلى فعل الخطأ خطيئة التجاهر به، وليس برهان الصِّدق عندي إبداءَ القبائح وإشهارَ الفضائح.

وذنوبي لن أعترف بها إلا لربي الذي سترها وأسأله أن يغفرها، فالله يعلم أني ما ألممت في حياتي بمعصية إلا ترددت قبل الإلمام بها، ثم ندمت عليها بعد وقوعها.

هذه المذكرات بين يديك مزيج من الرواية والسيرة، والخيال والواقع، بناؤها الحقيقة الصادقة، وتزاويقها من الإنتاج المحلي لضرورة التشويق والتسويق.

ولأن ثقوب الذاكرة بدأت تتسع فإن احتمال الخطأ في اسمٍ أو تاريخ أمرٌ متوقع، ومع ذلك لم أجتهد في التثبت والتحقيق، فهب أني أخطأت في تاريخ حادث فذكرته بعد حدوثه بسنتين وثلاثة أشهر، أو أخطأت في اسم شخص فوضعت بدلا منه اسم أخته لولوة فكان ماذا؟!

فأنا لا أكتب سيرة عمر بن عبد العزيز ولا تاريخ طارق بن زياد، وإنما هي سيرة عابرٍ في طريق الحياة، منغمس في غمار الأحياء، لم أصنع حدثاً، ولم أكتب تاريخاً.

عبدالوهاب الطريري أبا الخيل